

الصداقة والصديق

أبو حيان التوحيدي

♦ المؤلف: أبو حيان التوحيدي

♦ العنوان: الصداقة والصديق

♦ طبعة آفاق الأولى 2021

♦ تصميم الغلاف: عمر الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٠ / ٢٠٦٧٥

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 285 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أبو حيان التوحيدي الصداقة والصديق

شرح وتعليق
علي متولي صلاح

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

التوحيدي، أبو حيان

الصداقة والصدىق - أبو حيان التوحيدي

شرح وتعليق: علي متولي صلاح

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2021

384 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 20675 / 2020

الترقيم الدولي 8 - 285 - 765 - 977 - 978

1 - تراث

أ - التوحيدي، أبو حيان

ب - العنوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم خُذْ بأيدينا فقد عَثَرْنَا^(١)، واستر علينا فقد أَعْوَرْنَا^(٢)، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقى الجيوب^(٣)؛ حتى نتعيش^(٤) في هذه الدار مصطلحين^(٥) على خير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف^(٦) المروءة، آنفين^(٧) من ملابس^(٨) ما يقدح^(٩) في ذات البين^(١٠)، متزودين للعاقبة التي لا بد من الشخوص^(١١) إليها، ولا محيد^(١٢) عن الاطلاع عليها؛ إنك تؤتي من تشاء ما تشاء.

سَمِعْ مني في وقت بمدينة السلام^(١٣) كلامٌ في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة

(١) عثرنا: زللنا وكبونا.

(٢) أعورنا: نقول: (أعورَ الفارسُ) إذا بدا فيه موضع خلل للطعن، والمراد أنه قد ظهرت مواطن ضعفنا.

(٣) الجيوب: جمع جَيْب، وهو القلب والصدر.

(٤) نتعيش: نحيا.

(٥) مصطلحين: متفقين.

(٦) أطراف المروءة: نواحيها.

(٧) آنفين: أنف من الشيء: استنكف منه، وتَنَزَّ عنه.

(٨) ملابس: لابس الأمر: زاوَلَهُ.

(٩) ما يقدح: قدح في عرضه: طعن فيه وعابه وتنقصه.

(١٠) ذات البين: الوصل، والصداقة، والنسب، والقرابة.

(١١) الشخوص إليها: الذهاب إليها.

(١٢) لا محيد: لا مِيل ولا عدول.

(١٣) مدينة السلام: بغداد.

والجود والتكرم، مما قد ارتفع رَسْمُهُ^(١) بين الناس، وعفى^(٢) أثره عند العام والخاص، وسُئِلَتْ إثباته ففعلتُ، ووصلت ذلك بجملةٍ مما قال أهل الفضل والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة؛ ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها، ويُنتفع بها في المعاش^(٣) والمعاد^(٤).

وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول: «اللهم نَفِّقْ^(٥) سوق الوفاء فقد كَسَدَتْ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تُمَتِّنِي حتى يبور الجهلُ كما بار العقلُ، ويموت النقصُ كما مات العلمُ».

وأقول: اللهم اسمع واستجب فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء^(٦)، وطال الانتظار، ووقع البأس، ومرض الأمل، وأشفى^(٧) الرجاء، والفرج معدوم. وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج^(٨) منه معتاد.

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إنني أرى بينك وبين ابن سيّار القاضي مُمازحة نفسية، وصدّاقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومؤاتاة^(٩) خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني، اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا

(١) رَسْمُهُ: الرسم ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار، ويطلق على ما يقابل الحقيقة، قال الشاعر: «أرى ودكم رسماً ووَدِّي حقيقة».

(٢) عفى أثره: امحى، واضمحل.

(٣) المعاش: الحياة الدنيا.

(٤) المعاد: الحياة الآخرة.

(٥) نَفِّقْ سوق الوفاء: رَوَّجْها ورَغَّبْ فيها.

(٦) الجفاء: الهجر، والإعراض، وفعل ما يسوء.

(٧) أَشْفَى الرجاء: ذهب، وَغَرَبَ، وَبُعِدَ.

(٨) العجيج: الصَّيَّاح ورفع الصوت.

(٩) مؤاتاة: موافقة.

طمأنينة وسكونًا لا يَرْتَان^(١) على الدهر، ولا يُحَوِّلَان^(٢) بالقهر^(٣)، ومع ذلك فينينا بالطلع^(٤) ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة، ومظاهرة^(٥) غريبة، حتى إنا نلتقي كثيرًا في الإرادات والاختيارات والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم^(٦) بيني وبينه، أو كأنني هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل.

قال: ورأيتُه قد ملكه التعجب من هذا وشبهه، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفَلَكِ^(٧)، وأن سهامنا واحدة، وأنصابنا^(٨) منها متساوية أو قريبة من التساوي. فعجب، وازداد بصيرةً في إخلاص الصداقة وتوكيد العلاقة.

فقلت لأبي سليمان: كيف يصح هذا وأنت مطالبك في الفلسفة، وصورك مأخوذة من الحكمة، وقيمتك^(٩) مجموعة من الحقائق وخوضك في الغوامض والدقائق، وذاك رجل في عداد القضاة^(١٠) وجِلَّة الحكام وأصحاب القلائس^(١١)، ومخاضة^(١٢) الظاهر الذي عليه الجمهور^(١٣)، ومأخذه مما عليه السواد^(١٤) الأعظم؟

(١) لا يَرْتَان: لا يَبْلِيَان.

(٢) لا يحولان: لا يُزَالان.

(٣) القهر: الغلبة.

(٤) الطالع: هو -في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين- ما تنبأ به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين.

(٥) مُظَاهَرَة: مُطَابَقَة.

(٦) قسائم: أنصبة وأشطر مقسومة بينهما.

(٧) الفَلَك: مدار النجوم، وعِلْمُ الفلك عِلْمٌ يُبْحَثُ فيه عن الأجرام العلوية.

(٨) أنصابنا: حظوظنا وأنصبتنا.

(٩) قيتيتك: رَحْلُك، أي وعاءك، وفي القرآن: ﴿أَجْعَلُوا يَضَعَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢] أي في أوعيتهم.

(١٠) جِلَّة الحكام: جمع جليل وهو العظيم.

(١١) القلائس: جمع قَلَسُوَة، وهي لباس لل رأس مختلف الأنواع والأشكال.

(١٢) مَخَاضَة: موضع الخوض في الماء، وما جاز فيه الناس مشاة وركبانًا.

(١٣) الجمهور: جُلُّ الناس، وأشرفهم.

(١٤) السواد: العدد الكثير.

فقال: هذا هو الذي انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا^(١) عليه، والأصل أبداً مخالف للفرع لا خلاف الضد للضد، ولكن خلاف الشكل للشكل، وكان مُشْتَرِيه^(٢) خالِياً من قوة زُحَل^(٣)، فبرز في حلبة القضاة، وكان المشتري لي مقتبساً من زحل، فظهرت بما ترى، فجمعتنا المشاكلة على العلم، وفرقنا الاختلاف بالفن.

قلت: هذا والله طريف^(٤)، ومما يزيد في طرافته أنك من سجستان وهو من الصَّيْمَرَة.

فقال: الأمكنة في الفلك أشد تَضَاماً من الخاتم في إصبعك، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية من بلد إلى بلد بفراسخ^(٥) تُقَطَّع، وجبال تُعْلَى، وبحار تُخْرَق^(٦).

فقلت: هل تَجِدُ^(٧) عليه في شيء؟ أو يَجِدُ عليك في شيء؟

فقال: وَجَدِي^(٨) به في الأول قد حجبني عن مَوْجِدَتِي^(٩) عليه في الثاني، على أنه يكتفي مني فيما يخالف هواي باللمحة الضئيلة، وأكتفي أنا أيضاً منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية^(١٠) عن غيرنا كأننا

(١) اَزْدَوْجْنَا: اقترنا.

(٢) المُشْتَرِي: أكبر الكواكب السيارة، وهو في الأساطير كبير الآلهة.

(٣) زُحَل: أعظم الكواكب السيارة وأبعدها في النظام الشمسي، وفي الأساطير الإغريقية: كبير الآلهة، وهو مَثَلٌ في العلو والبعد، ويقال له: شيخ النجوم.

(٤) الطريف: الغريب النادر.

(٥) فراسخ: جمع فرسخ، وهو ثلاثة أميال هاشمية، وقيل اثنا عشر ألف ذراع.

(٦) تُخْرَق: خَرَقَ المَفَازَة: قطعها حتى بلغ أقصاها.

(٧) تَجِدُ عليه: تغضب عليه.

(٨) وَجَدِي به: وجد به: أحبه.

(٩) مَوْجِدَتِي عليه: غضبي عليه.

(١٠) الكناية: كَتَبَ به عن كذا يَكْنُو (واوي) أي ذكره ليدل به على غيره، وكنى به عن كذا يَكْنِي (يائي) أي تكلم بما يستدل به عليه، أو أن يتكلم بشيء وهو يريد غيره.

نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذاك مَفْنَع^(١)، وإليه مَفْزَع^(٢). وقل ما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرارٍ ما سافرتُ عن ضميري إلى شفتي، ولا نَدَّت^(٣) عن صدري إلى لفظي؛ وذلك للصفاء التي نتساهمه^(٤)، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه، والأصل الذي رسوخنا فيه، والفرع الذي تَشَبَّثْنَا^(٥) به. والله ما يسرني بصدافته حُمْرُ^(٦) النَّعَم، ولا أجد بها بحياتي لي، وإذا كنت أعشق الحياة لأنني بها أحياء، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة، وجنى لي ثمراتها، وجلب إلي روحها، وخلط بي طيبها وحلاوتها.

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سَيَّارٍ بعجائب، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلاً صاحب جد وتفخيم، وتوقير وتعظيم، وكان مع ذلك بسيط اللسان، شريف اللفظ، واسع التصرف، لطيف المعاني^(٧)، بعيد المرامي، يذهب مذهب أبي حنيفة. ثم قال أبو سليمان: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرغبة شديدة الاستحالة^(٨)، وصاحبها من صاحبه في غرور^(٩)، والزَّلَّةُ^(١٠) فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور^(١١).

(١) مَفْنَع: رضا نقنع به.

(٢) مَفْزَع: مَلْجَأ.

(٣) نَدَّت: شَرَدَتْ ونَفَرَتْ. ويريد بقوله: «ما سافرت عن ضميري إلى شفتي»، وبقوله كذلك: «ولا نددت عن صدري إلى لفظي» أن هذه الأسرار لم تجر على لسانه، ولم يذكرها لأحد من الناس، بل ظلت حبيسة في ضميره وصدوره.

(٤) نتساهمه: نتقاسمه.

(٥) تشبثنا به: تعلقنا به.

(٦) حُمْرُ النَّعَم: الجمال الحُمْر، وهي عندهم أشرف الأموال.

(٧) لطيف المعاني: غامضها وخفيها.

(٨) الاستحالة: استحالة الشيء: تحوّل من حال إلى أخرى.

(٩) غرور: أباطيل، وتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

(١٠) الزلة: السَّقْطَة.

(١١) مجبور: جَبَرَ العظم: أصلحه من كسر.

قال: فأما الملوك فقد جَلُّوا^(١) عن الصداقة؛ ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها. وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر^(٢) والهوى^(٣) والشائق^(٤) والاستحلاء^(٥) والاستخفاف^(٦). وأما خدمهم وأولياؤهم^(٧) فعلى غاية الشبه بهم ونهاية المشاكلة^(٨) لهم؛ لانتسابهم^(٩) بهم، وانتسابهم إليهم، وَلَوْع^(١٠) طورهم^(١١) بما يصدر عنهم ويرد عليهم. وأما الثنا^(١٢) وأصحاب الضياع^(١٣) فليسوا من هذا الحديث في غير^(١٤) ولا نَفِيرٍ^(١٥). وأما التجار فكسب الدوائق^(١٦) سدَّ بينهم وبين كل مروءة، وحاجزٌ لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة^(١٧). وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم ربما خلصت لهم الصداقة؛ لبنائهم إياها على التقوى وتأسيسها على أحكام الحرج^(١٨)

(١) جلُّوا عن الصداقة: عظمت أقدارهم عنها.

(٢) القهر: الغلبة.

(٣) الهوى: إرادة النفس، والمهوى -محمودًا كان أو مذمومًا- وغلب على غير المحمود، يقال: «فلان اتبع هواه» إذا أريد ذمُّه.

(٤) الشائق: المُحِبُّ إلى النفس.

(٥) الاستحلاء: أن تجد الشيء حُلًّا.

(٦) الاستخفاف: الاستهانة.

(٧) أولياؤهم: جمع وَلِيٍّ، وهو المُحب والصديق والنصير.

(٨) المشاكلة: المماثلة.

(٩) لانتسابهم: انتسب فيه: اعتلق به.

(١٠) وَلَوْعٌ: شدة التعلق.

(١١) طورهم: يقصد المعاصرين لهم في زمانهم.

(١٢) الثنا: ثنى فلان زيدًا، وأثنأه: كان ثانيه، ومنه (هذا واحد فائنه) أي كُنْ ثانيه.

(١٣) الضياع: جمع ضيعة، وهي الحِرْفَةُ والصناعة.

(١٤) العير: الإبل التي تحمل الطعام.

(١٥) النَّفِيرُ: الدَّهَابُ إلى القتال. والمقصود بقوله: «إنهم ليسوا من هذا الحديث في غير ولا نفير»، إنهم لا شأن لهم، ولا ذِكْرٌ لهم فيه.

(١٦) الدوائق: جمع دانق، وهو سدس الدرهم.

(١٧) الفتوة: السخاء والكرم والمروءة.

(١٨) الحَرَجُ: مجانية الآثام.

وطلب سلامة العقبي^(١). وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتماري^(٢) والتماحك^(٣) فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء. وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل. وأما أصحاب المذاب^(٤) والتطيف^(٥) فإنهم رجرة^(٦) بين الناس لا محاسن لهم فتذكر، ولا مساعي فتتشر^(٧)؛ ولذلك قيل لهم: هَمَجٌ^(٨) وَرَعَاعٌ^(٩) وَأُوبَاشٌ^(١٠) وَأُونَاشٌ^(١١) وَلَفِيفٌ^(١٢) وَرَعَائِفٌ^(١٣) وَدَاصَةٌ^(١٤) وَسُقَاطٌ^(١٥) وَأَنْذَالٌ^(١٦) وَغَوْغَاءٌ^(١٧)؛ لأنهم من دقة الهمم، وخساسة^(١٨) النفوس، ولؤم الطباع، على حال لا يجوز أن يكونوا في حومة^(١٩) المذكورين وعصابة المشهورين.

(١) العقبي: آخر كل شيء، والآخرة.

(٢) التماري: الشك.

(٣) التماحك: التلاحي والخصومة.

(٤) المذاب: جمع مَذْبَة (بالكسر): وهي ما يُدْبُّ به كالمروحة.

(٥) التطيف: نقص المكيال، وهو ألا تملأه إلى رأسه.

(٦) الرجرة: الاضطراب.

(٧) فتتشر: فتذاع.

(٨) الهمج: الرعاع من الناس، الحمقى.

(٩) الرعاع (بالفتح): سُقاط الناس وسفلتهم وغوغاؤهم.

(١٠) أوباش: جمع ويش (بالفتح والتحريك) والأوباش: الأخلاط والسفلة.

(١١) أوناش: ذوو بطش.

(١٢) لفيف: أخلاط.

(١٣) رعائف: صخور وأحجار.

(١٤) داصة: لصوص، جمع دائص.

(١٥) سقاط: بضَمّ السين وفتح القاف وتشديدها - جمع ساقط وهو لثيم الحسب والنفوس، المتأخر عن الناس الذي لا يُعَدُّ في خيار الفتيان.

(١٦) أنذال: جمع نَذْل، وهو الخسيس من الناس، والساقط في دين أو حسب، والمحتقر في جميع أحواله.

(١٧) الغوغاء: الكثير المختلط من الناس، والسفلة المتسرعون إلى الشر.

(١٨) خساسة النفوس: رذالتها.

(١٩) الحومة: موضع القتال، والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكونوا مع المذكورين في ميدان واحد وفي منزلة واحدة.

فلهذه الأمور الحائلة عن مقارها^(١)، الزائغة إلى غير جهاتها^(٢)، علل وأسباب لو نَفَسَ الزمان^(٣) قليلاً لكننا نشط لشرحها، وذكر ما قد أتى النسيان عليه، وعفى أثره الإهمال، وشغل عنه طلب القوت. ومن أين يظفر بالغداء من كان عاجزاً عن الحاجة؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية؟ وكيف يحتال في حصول طمرين^(٤) للستر لا للتجمل؟ وكيف يُهَرَّب من الشر المقبل؟ وكيف يُهَرَّوَل^(٥) وراء الخير المدبر؟ وكيف يستعان بمن لا يعين، ويُشْتَكى إلى غير رحيم؟

ولكن حال الجريض^(٦) دون القريض^(٧)، ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحُرق والأسف والحسرة والغيط والكَمَد^(٨) والوَمَد^(٩)، وكأني بغيرك إذا قرأها تقبَّضت^(١٠) نفسه عنها، وأمر^(١١) نقدُه عليها، وأنكر عليّ التطويل والتهويل بها. وإنما أشرت بهذا إلى غيرك؛ لأنك تبسط من العذر ما لا وجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، وأطلعك على دُخْلي^(١٢) واستمراري

(١) الحائلة عن مقارها: المتحولة عن مواضعها التي استقرت فيها.

(٢) الزائغة: المائلة.

(٣) لو نَفَسَ الزمان: لو أمهل.

(٤) طمرين: مثني طمر، وهو الثوب الخلق، وقيل الكساء البالي من غير الصوف.

(٥) يهَرَّوَل: يسرع في المشي.

(٦) الجريض: الغُصّة. والرَّيق يُغَصُّ به.

(٧) القريض: الشَّعر. و «حال الجريض دون القريض» مثل يضرب لأمر يُعَوَّقُ دونه عائق، وورد في معناه «حال الأجل دون الأمل».

(٨) الكَمَدُ: (بفتح الكاف وفتح الميم وتسكينها): الحزن الشديد المكتوم.

(٩) الوَمَدُ (محركة): شدة حرّ الليل.

(١٠) تقبَّضت نفسه عنها: اشمأزت.

(١١) أمر نقدُه: أمر الشيء: صار مُراً.

(١٢) دُخْلي: دخلة الرجل (بالتثنية) - داخلته.

على هذا الإنفاض^(١) والعَوَز اللذين قد نَقَضَا^(٢) قوتي، وَنَكَثَا^(٣) مِرَّتِي^(٤)، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى^(٥)، وحجباني عن الأسى^(٦)؛ لأنني فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق^(٧) فبقال أو عصار أو نَدَّاف^(٨) أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني^(٩) بَصْنَانِهِ^(١٠)؛ وأسكرني بِنَتْنِهِ، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ. غريب النَّحْلَةِ^(١١)، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى، متوقفاً لما لا بد من حلوله؛ فشمس العمر على شفا^(١٢)، وماء الحياة إلى نُضُوب^(١٣)، ونجم العيش إلى أَفُول^(١٤)، وظل التلبُّث^(١٥) إلى قُلُوص^(١٦).

وفي تمجيد الصمت مرَّ بي كلام لبعض الحكماء القدماء، أنا أرويه لك ها هنا

(١) الإنفاض: أنفض القوم - أزلوا، وقيل هلكت أموالهم وفني زادهم أو أفنوه.

(٢) نقضا قوتي: هزلاها.

(٣) نكثا: نقضا وهزلا.

(٤) مرّتي: قوتي وشدتي.

(٥) قرناني بالأسى: وصلاني بالأسى، والأسى: الحزن.

(٦) حجباني عن الأسى: الأسى: جمع أسوة بكسر الهمزة وبضمها، وهو ما يأتي به الحزين يتعزى به، وجمعها أسى بكسر الهمزة وبضمها، ثم سمي الصبر أسى.

(٧) اتفق: تصادف.

(٨) النَّدَّاف: الذي يضرب القطن بالمندف.

(٩) أسدرني: حبرني.

(١٠) بَصْنَانِهِ: الصنّان (بضم الصاد): رائحة الإبط الممتن.

(١١) النَّحْلَةُ: المذهب والديانة.

(١٢) على شفا: أي لم يبق منه إلا قليل، ويقال للرجل عند موته، وللقمر عند أمّحاقه، وللشمس عند غروبها: «ما بقي منه إلا شفا»، أي قليل.

(١٣) نضوب: يقال: «نضّب عنه البحر» أي نزع ماؤه ونشف.

(١٤) أفول: غياب.

(١٥) التلبُّث: التوقُّف.

(١٦) قُلُوص: ذهاب.

لا لأجْدَدَ عليك بما ليس عندك، ولكن لأذْكرك؛ فإن الإذكار^(١) بالخير بعث على الاهتمام به، والبعث عليه سلوكٌ لطريقه.

قال هذا الحكيم: لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم، فيُحكى عنه محرّفاً، فيضطر إلى أن يقول: ليس هكذا قلت، وإنما قلت كذا وكذا، فيكون إنكاره إقراراً، ويكون اعترافه بأصل ما حُكي عنه شاهداً لمن وشى به، وادّعاؤه التحريف غير مقبول منه بلا بَيِّنَةٍ يأتي بها، لكان ذلك من أكبر فضائل الصمت، وأدعُ هذا كله وأقول: كان سبب إنشاء هذه الرسالة في (الصدّاقة والصديق) أنني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنمّاه^(٢) إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أذلّالها^(٣) جارية.

فقال لي ابن سعدان: قد قال لي زيد عنك كذا وكذا.

قلت: قد كان ذاك.

قال: فدوّن هذا الكلام، وصلّه بِصِلَاتِهِ^(٤) مما يصح عندك لمن تقدم، فإن حديث الصدق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب. فجمعت ما في هذه الرسالة وشغل عن رد القول فيها، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان، فلما مر على ذلك بعض سنين، عثرت على المسوّدة، وبَيَّضْتُها على نحيلها^(٥)، فإن راقتك فذاك

(١) الإذكار: أذكرك الشيء: جعله يذكرك، والمصدر إذكار.

(٢) فنمّاه: قبّلغه.

(٣) أدلّالهما: الدّل: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة، والجمع أدلال، والمقصود أن الأمور تسير سيرها الطبيعي المألوف.

(٤) صلّه بصلاته: أي ألحقه بما ترى أنه يتصل به مما قال الأقدمون.

(٥) نحيلها: أصلها الهزيل السقيم الذي كاد يذهب.

الذي عزمت بنيّتي وَحَوْلِي^(١) واستخارتي^(٢)، وإن تزحلق^(٣) عن ذلك فللعذر الذي سحبت ذيله^(٤)، وأرسلت سيّله^(٥).

وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الذين عُرفوا بالإخلاص، والمروءة تنهادي^(٦) بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة.

وعُوتب في ذلك فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة، فما رأيتهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا بي عثرة، ولا رحموا لي عبثًا، ولا قبلوا مني معذرة، ولا فكّوني من أسرة، ولا جبروا لي من كسرة، ولا بذلوا لي نصرة.

ورأيت الشغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرعًا^(٧) للغيط مع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات^(٨) بعد الهنات.

ولذلك قال الثوري لرجل قال له أوصني: أنكر من تعرفه. قال: زدني. قال: لا مزيد.

وكان ابن كعب يقول: لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم والثقة بهم والاعتماد عليهم؛ ولذلك قال الأول:

(١) الحَوْل: الحيلة، وهو أيضًا القوة.

(٢) الاستخارة: طلب الخيرة، يقال: «استخِر الله يَخِرْ لك» أي اطلب من الله أن يختار لك ما يوافقك فيختار.

(٣) تزحلق: تدحرجت.

(٤) سحبت ذيله: الذيل: آخر كل شيء، وذيل الثوب والإزار: ما جُرَّ منه إذا أُسِيلَ، والمقصود: فللعذر الذي أبديته عن آخره ولم أكنتم منه شيئًا.

(٥) أرسلت سيّله: السيل: الماء الكثير، وقد شَبَّه به العذر الذي اعتذر به.

(٦) تنهادي: تمشي وحدها مشيًا غير قوي متميلاً.

(٧) تجرعًا للغيط: كظمًا للغيط، وحبسًا له، وإمساكًا على ما في نفسه منه.

(٨) الهنات: حصّلات الشر، ولا تقال في الخير.

إِخَاءُ النَّاسِ مُمْتَزَجٌ وَأَكْبَرُ فَعْلِهِمْ سَمِجٌ^(١)
فَإِنْ بَدَهَتْكَ مَقْطَعَةٌ فَمَا لَدَيْهِمْ فَرَجٌ^(٢)
فَقَوْمُهُمْ بِهِجْرَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُهْجَرُوا اغْتَوَجُوا^(٣)
صُرُوفُ الدَّهْرِ دَانِيَةٌ تَقْطَعُ بَيْنَهَا الْمُهْجُ^(٤)

وَأُنْشِدُنِي أَبُو إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هَلَالٍ الْكَاتِبَ الصَّابِيَّ فِي أَحْوَالِ الزَّمَانِ:

أَيَا رَبِّ: كُلُّ النَّاسِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ أَمَا نَعُثِرُ الدُّنْيَا لَنَا بِصَدِيقٍ^(٥)؟
وَجَوْهٌ بِهَا مِنْ مُضْمَرِ الْغِلِّ شَاهِدٌ ذَوَاتِ أَدِيمٍ فِي النِّفَاقِ صَفِيقٌ^(٦)
إِذَا اعْتَرَضُوا دُونَ اللَّقَاءِ فَإِنَّهُمْ قَدْ لَعِينُوا، أَوْ شَجَى لِحُلُوقٍ^(٧)

(١) ممتزج: مختلط غير صاف. سمج: قبيح. ومعنى البيت: أن صداقة الناس ليست صافية، وإنما يخالطها دائماً الهوى والحق، ولو تأملت أعظم أعمالهم لوجدته منكراً قبيحاً.

(٢) بدَهَتْكَ: بَعَثَتْكَ وَفَجَّتَكَ. مقطعة: قطعة، وهجر وعقوق. دنيهم: الدنيء: الخسيس والدون. فرج: فرج الله الغم: كشفه، وانفرج الغم والكرب: انكشف، وانفرج فلان من ضيقه: تخلص.

ومعنى البيت: أنهم إن قاطعوك وهجروك لغير سبب، فتلك طبيعتهم التي تلازمهم دائماً، ولا يستطيعون الفكاك منها، ولن تجد منهم يوماً غير ذلك.

(٣) قَوْمُهُمْ: عدْلُهُمْ وَأَصْلَحُهُمْ. اعتوجوا: ساء خلقهم. يقول الشاعر: أصلحهم بهجرهم وقطيعتهم، فذلك علاج لسوء فعالهم؛ فإنك إن لم تهجرهم، زاد اغوجاجهم وسوء خلقهم.

(٤) صُرُوفُ الدَّهْرِ: نَوَائِبُهُ وَحَوَادِثُهُ. دانية: قريبة. تَقْطَعُ: تَنْقَطِعُ. الْمُهْجُ: القلوب والأنفس، جمع مُهْجَةٍ.

أي إن حوادث الدهر ونوائبه قريبة الوقوع، وهي حوادث تنقطع منها القلوب.

(٥) عَلَّةٌ: بَنُو الْعَلَّاتِ «بفتح العين» بنو رجل واحد من أمهات شتى، والواحدة عَلَّةٌ، وهي الضرة.

والمعنى: أن كل الناس ليسوا أشقاء، أي ليسوا من أب واحد وأم واحدة، والمقصود أن أخوتهم ليست كاملة. ولن نعثر في هذه الدنيا بصدیق كامل الصداقة.

(٦) مُضْمَرٌ: خَفِيٌّ. الْغِلُّ: الغش والحق. شاهد: دليل. أديم: جلد. صفيق: ضد رفيق. والمعنى: أن قلوبهم ممتلئة بالحق والعداوة، وذلك يبدو على وجوههم، وإن حاولوا إخفاءه تحت جلودهم الصفيقة السمكية.

(٧) اعترضوا دون اللقاء: حاولوا دونه. قَدْ لَعِينُوا: القذى: ما يقع في العين من تَبَنٍّ أو غيرها، تقول: «صار الأمر قَدْ لَعِينٌ فِي عَيْنِهِ» أي أقلقته واجتهد في إزالته. شَجَى لِحُلُوقٍ: الشجى: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه، ثم استعير للهم والحزن؛ لأن الإنسان يَعْصُ بهما. ومعنى البيت: أنهم إن حاولوا دون اللقاء، فما هم عند اللقاء إلا قذى للعين؛ إذ تراهم، وما هم إلا شجى للحلق كالعظم الذي يتوقف فيه فيؤذيه ويُضْنِيهِ.

وإن أظهروا بَرَدَ الوداد وظلَّهُ أسرُّوا من الشَّحْناء حَرَّ حريق^(١)
 ألا: ليتني حيث انتوت أفرخُ القَطَا بأقصى محل في الفلاة سحيق^(٢)
 أخو وَحْدَةٍ قد آنستني، كأني بها نازل في معشري وفريقي^(٣)
 فذلك خير للفتى من ثَوَائِهِ بِمَسْبَعَةٍ، من صاحب ورفيق^(٤)
 وكان العسجدي يقول كثيراً: الصدقة مرفوضة^(٥)، والحفاظ معدوم، والوفاء اسم
 لا حقيقة له، والرعاية موقوفة على البذل، والكرم فقد مات، والله يحيي الموتى.
 استرسال الكلام في هذا النمط شفاءً للصدر، وتخفيفٌ من البُرْحاء^(٦)، وأنجياب^(٧)
 للحرقة، وإطراد للغيط، وبرْدٌ للغليل^(٨)، وتعليل للنفس^(٩).
 ولا بأس بإيراد كل ما لاءمه ودخل في حوزته^(١٠) وإن كان آخره لا يُدرَك، وغايته
 لا تُملَك.

- (١) أسرُّوا: أضمرُوا وأخفُوا. الشَّحْناء: العداوة التي تمتلئ منها النفوس. والمعنى: أن الناس قد يُظهرون لك المودة، وما هو إلا مظهر كاذب، فإنهم يضمرون لك العداوة الملتهية كنار الحريق.
- (٢) انتوت: أقامت، تقول: «انتوى القوم بموضع كذا» أي أقاموا. أفرخُ القَطَا: القطا نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويظهر مسافات شاسعة. الفلاة: الصحراء. سحيق: بعيد. أي ليتني أقيم بعيداً عن الناس حيث تُقيم أفرخُ القَطَا في الصحراء البعيدة، فلا أرى منهم أحداً، ولا أكابد من شروهم ما أكابد.
- (٣) أخو وَحْدَةٍ: صاحب وحدة. آنستني: أي الوحدة. معشري: أهلي. فريقي: طائفتي وجماعتي.
- يقول الشاعر: إنني آنسُ بالوحدة حتى لكأني - وأنا وحيد منفرد - أعيش بين أهلي وطائفتي، فالوحدة تُؤنسني ولا أستشعر فيها وحشة، ولا أحسن انفراداً.
- (٤) ثَوَائِهِ: إقامته، تقول: «توى بالمكان» أي أقام فيه. المسبعة: الأرض التي تكثر فيها السباع. الرفيق: المرافق.
- والمعنى: أن الوحدة خير للإنسان من أن يقيم بين الناس الذين هم - في حقيقتهم - كالسباع، وأرضهم - في حقيقتهم - كالمسبعة التي تكثر فيها السباع؛ فإن تلك السباع خير من الصاحب والرفيق.
- (٥) مرفوضة: متروكة، ورَفَضَ الشيء: تركه ورَمَاهُ وجَانَبَهُ.
- (٦) البُرْحاء: شدة الأذى والمشقة.
- (٧) أنجيابُ الحرارة: انكشافها وانقطاعها، والحرقة (بضم الحاء وفتحها وتسكين الراء): الاحتراق، والحرارة.
- (٨) الغليل: حرارة العطش.
- (٩) تعليلٌ للنفس: تلهيةٌ لها، كما يُعلِّلُ الصبيُّ بشيء من الطعام يتجرَّأ به عن اللبن.
- (١٠) حوزته: ناحيته.

قال صالح بن عبد القدوس:

بُنِيَّ، عليك بتقوى إلا لـ هـ؛ فإن العواقب للمتقي^(١)
وإنك ما تأت من وجهها تجد بابها غير مُستَغْلِقٍ^(٢)
عدوك ذو العقل أبقى عليك من صاحب الجاهل الأخرق^(٣)
وذو العقل يأتي جميل الأمـ سور وذو خَلَّةٍ الأرشِدِ الأوفق^(٤)
فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير، وأثنى عليهم الجميل، ووصف جدّه^(٥)
بهم، ودلَّ على محبته لهم، فغريب.

قال بعضهم:

أنتم سروري وأنتم مُشْتَكِي حَزَنِي وأنتم - في سواد الليل - سُمَّاري^(٦)
أنتم - وإن بُعِدْت عنا منازلكم - نوازلٌ بين إسراري وتذكاري^(٧)

(١) عليك بتقوى الإله: أي الزمها، والتقوى: مخافة الله. العواقب: جمع عاقبة، وهي الجزاء بالخير.
يأمر الشاعر ابنه بتقوى الله ومخافته، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، مؤكِّدًا له أن الجزاء بالخير
والحسنى إنما يكون للمتقين وحدهم.
(٢) وجهها: بابها. مستغلق: عسير الفتح. يقول الشاعر: إن أبواب التقوى مفتوحة لمن يشاء، وليس منها ما يعسرُ
الدخول منه، ومن أراد أن يلزم التقوى فليطرق إليها أي باب وسيجده مفتوحًا، وسهلاً مُيسرًا.
(٣) الأخرق: الأحمق قليل العقل. يقول الشاعر: إن عدوك ذا العقل أشد إبقاءً على صداقتك ومودتك من صديقك
الأحمق قليل العقل، ومثل ذلك قولهم: «عدو عاقل، خير من صديق جاهل».
(٤) يأتي: يفعل. جميل الأمور: طيبها وحسنها. وذو: أي وهذه. خَلَّة (بفتح الخاء): خصلة. الأرشِد: المهتدي
الذي يُحسن التقدير فيما يُقدَّر. الأوفق: من (التوفيق): وهو جعل الأسباب موافقةً للمطلوب، أو تسهيل طريق
الخير وسدَّ طريق الشر.

يقول الشاعر: إن العاقل لا يفعل إلا جميل الفعال، وتلك خصلة المهتدي الذي يلازمه التوفيق والسداد.

(٥) الجدُّ: الحظ والنصيب. وزاد بعضهم فقال: الحظ من الفضل والخير.

(٦) سُمَّاري: الذين يسْمرون معي، ويتحدثون إليَّ ليلاً، والمفرد: سامر.

يصف الشاعر أصدقائه بأنهم مبعث سروره، وبأنهم الذين يفرِّج بهم الغم عن نفسه بالشكوى إليهم مما يلقي
من أحزان ومواجع، وبأنهم الذين يسْمرون معه ويتحدثون إليه ليلاً حين ينصرف الناس إلى مضاجعهم ويخلو
هو إلى همومه. وقد قيل في مثل ذلك:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يُواسيك، أو يُسليك، أو يتوجَّعُ

(٧) إسراري: أسر السرِّ: كتمه. تذكاري: التذكار: الذِّكر، وهو أن تذكر الشيء بلسانك وتقول فيه شيئاً. =

فإن تكلمت لم أَلْفِظْ بغيركم وإن سكتُ فأنتم عَقْدُ إضماري^(١)
 الله جارُكمُ مما أحاذرُه فيكم، وحيي لكم من هجركم جاري^(٢)
 وقال آخر:

أخ لُمْتُه، أو لامنِي، ثم نرْعوي إلى تائب من حلمنا غير مُخْدَج^(٣)
 أهونُ إذا عَزَّ الجليل وربما أَرَمْتُ برأس الحية المَتَمَعِّج^(٤)
 أخبرنا أبو سعيد السيرافي قال، أخبرنا ابن دريد قال، قال أبو حاتم السجستاني: إذا
 مات لي صديق سقط مني عضو.

كتب علي بن عبيدة الريحاني البصري إلى صديق له: كان خوفي من أن لا أَلْفاك

= يقول الشاعر: إنكم وإن نأت دياركم وبُعدت منازلكم، حَالُون في قلبي، مَذْكُورُونَ من لساني، وفي ذلك قال
 أحد الشعراء:

فإن القُرْب بالروح وليس القُرْبُ بالجسم

وقال شاعر آخر:

خيالك في عيني، وذِكْرُك في فمي ومُثُوك في قلبي، فأين تغيب؟

(١) لم أَلْفِظْ: لم أنطق لفظاً واحداً. عَقْد: عَقْدَ العهد: أحكمه. إضماري: أضمر الشيء: أخفاه في ضميره ولم
 يُصْرَح به. والمعنى: أنكم أنتم الذين لا ينطق لساني إلا بذكركم إذا نطقت، ولا ينطوي ضميري على غيركم
 إذا سكت.

(٢) الله جاركم: مُجِيركم. أحاذرُه: أخشاه، وأخافُ حدوثه.

يقول الشاعر: الله مجيركم وحاميكم مما أخشاه من بعاد وهجر، وحيي لكم هو مُجيري، والشافع لي من أن
 تهجروني:

(٣) نرْعوي: نكف ونرجع. مُخْدَج: ناقص.

يقول الشاعر: إن لي أخواً أنجني عليه باللائمة، ويفعل بي هو مثل ذلك؛ لأعمال تصدر من أحدنا تستوجب هذا
 اللوم، ثم نكف عنها ونرجع ونثوب إلى حلمنا ونثوب توبة كاملة لا خَلَل فيها ولا نقص.

(٤) أهون: أليّن وأسهل. الجليل: الثمام، وهو نبت ضعيف يُضْرَبُ به المثل لما هو هين المُتناول.

أَرَمْتُ: أَرَمَ بصاحبه وبالمكان: لَزَمَهُ. المَتَمَعِّج: المُتَلَوِّي المُشْتِي.

يقول الشاعر: إنه سهلٌ لِي مع إخوانه، فلا يُصْعَر لهم حَدّه، ولا يقف منهم مواقف العناد والمكابرة، بل إنه
 ليسهل ويتضاءل، على حين يشتد ويقوى ويعزُّ الثمام، وهو ذلك النبت الذي يُضْرَبُ به المثل في الضعف
 والضآلة.

ويزيد الشاعر في وصف سهولته وليته، فيقرر أنه ربما لازم شيئاً ضئيلاً كرأس الحية، وأقام إلى جانبه، وهو
 أحقر وأضال وأقل شيء.

متمكناً، ورجائي خاطراً^(١)، فإذا تمكن الخوف طَئِيت^(٢)، وإذا خطر الرجاء حَيَّيت.

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: صُحبة عشرين يوماً قرابة.

وقال رجل لضيغم العابد: أَشْتَهِي أَنْ أَشْتَرِيَ دَارًا فِي جَوَارِكٍ حَتَّى أَلْقَاكَ كُلَّ وَقْتٍ.

قال ضيغم: المودة التي يفسدها تراخي^(٣) اللقاء مَدْخُولَةٌ^(٤).

وكتب آخر إلى صديق له: مثلي هفا، ومثلك عفا. فأجابه: مثلك اعتذر، ومثلي

اغتنفر.

وقال أعرابي: الغريب، من لم يكن له حبيب.

وقيل لأعرابي: مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ عَشْرَةٌ؟ قَالَ: مَنْ إِنْ قُرْبَ مَنَحَ، وَإِنْ بَعْدَ مَدَحَ، وَإِنْ

ظَلَمَ صَفَحَ، وَإِنْ ضُوقَ سَمَحَ، فَمَنْ ظَفِرَ بِهِ فَقَدْ أَفْلَحَ وَنَجَحَ.

وقال الفضل بن يحيى: الصبر على أخٍ تعبت عليه، خير من آخر تستأنف^(٥) مودته.

وقال عبد الله بن مسعود: مَا الدُّخَانُ عَلَى النَّارِ بِأَدَلَّ مِنَ الصَّاحِبِ عَلَى الصَّاحِبِ.

كتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فإن كان إخوان الثقة كثيراً فأنت أولهم، وإن

كانوا قليلاً فأنت أوثقهم^(٦)، وإن كانوا واحداً فأنت هو.

وقال سيف الدولة بن حمدان:

تَرَكْتُ لَكَ الْقُصُوى لِتُدْرِكَ فَضْلَهَا وَقُلْتُ: تُرَى بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي فَرْقٌ؟^(٧)

(١) الخاطر: ما يخطر بالقلب من تدبير أوامر، والهاجس.

(٢) طَئِيتُ: مرَضْتُ.

(٣) تراخي اللقاء: تَبَاعَدُهُ.

(٤) مَدْخُولَةٌ: مَعِيَّة.

(٥) تستأنف مودته: تَأْخُذُ فِيهَا وَتَبْتَدِئُ.

(٦) أوثقهم: أعظم من يُؤْتَمَنُ وَيُوثَقُ بِهِ مِنْهُمْ.

(٧) القصوى: المنزل البعيدة الرفيعة. تُرَى: أَيْ يَأْتُرَى، وَيَا هَلْ تُرَى. ومعناها يا رجل، هل ترى؟

يقول الشاعر لصاحبه: إني قد تركت لك المنزل السامية؛ لتشتأثر بها دوني؛ إذ لا فرق عندي بين أن تنالها أنت،

أو أن أنالها أنا.

ولم يك بي عنها نُكُولٌ، وإنما تَوَنَّيْتُ عن حقي فتمَّ الحقُّ^(١)
ولا بد لي من أن أكون مُصَلِّيًا إذا كنت أهوى أن يكون لك السبقُ^(٢)

قال العباس بن الحسن العلوي يصف جليسا له: لَطِيبُ عَشْرَتِهِ أَطْرَبُ مِنَ الْإِبِلِ
على الحُداء^(٣)، والثَّمَلِ^(٤) على الغناء.

ذهب التواصلُ والتعارُفُ فالناس كلُّهم مَعَارِفُ^(٥)
لم يبق منهم بينهم إلا التملُّقُ والتَّواصُفُ^(٦)

(١) نُكُولٌ: نُكُوصٌ، وإِحْجَامٌ، وَجَبْنٌ. تَوَنَّيْتُ عن حقي: فَتَرْتُ، ولم أَجِدْ في طلبه. تم لك الحق: وافاك تامًّا قد
تكمَّلْتَ أجزاؤه.

يتحدث الشاعر عن قدرته على بلوغ تلك المنزلة القصوى، وأنه لم يكن به ضعف عن بلوغها، أو عجز عن
الوصول إليها، ولكنه تراخى -عامداً- عن طلبها، وتوانى -عن قصد- في السعي لنوالها؛ لينالها صاحبه دونه،
ويظفر بها كاملة تامة.

(٢) المُصَلِّي: التالي من خيل السباق.

قال الشاعر:

إِنْ تُبْتَدِرْ غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ
تَلْقَ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمَصْلِينَ

السَّبَقُ: التَّقَدُّمُ.

يقرّر الشاعر أنه إن كان يريد لصاحبه السبق والتقدم، فلا بدّ من أن يكون هو في المحل الثاني، ولهذا ألزَمَ نفسه
هذا المحلّ الثاني ولم يُجاوِزْهُ؛ لِيَتَبَوَّأَ صاحبه المحل الأول دون مُنَازَعٍ أو مُنافَسٍ.

(٣) الحُداء: سَوْقُ الْإِبِلِ، والغناء لها.

(٤) الثَّمَلُ: الشَّرَابُ حتى السُّكْرِ (بضم السين): وهو حالة تعترض بين المرء وعقله.

(٥) التواصل: ضد التهاجر والتصارُّم. التعارُف: تَعَارَفَ الْقَوْمُ: عرف بعضهم بعضًا.

المعارف: الوجوه، تقول: «هم غُرُّ المعارف، شُمُّ المراعف».

يصف الشاعر أخلاق الناس في عصره، وما هم عليه من التصارم والتهاجر، وانقطاع الصّلات بينهم، وإنكار
بعضهم لبعض، ويقرر أن الناس الآن لبسوا سوى وجوه لا قلوب وراءها، ولبسوا إلا صورًا لا تعرف المحبة
والمودة والإخاء الكريم.

(٦) التملُّق: التودد، والتلطف، وَلِينُ الْكَلَامِ، والتذلل. التواصف: تقول: «تواصفوا الشيء»: أي وصفه بعضهم
لبعض، وَوَصَفَ الشيءَ: نَعَتَهُ بما فيه، وحلّاه.

يمضي الشاعر في وصف أخلاق الناس في عصره، فيذكر أنه قد ضاعت من بينهم كل المكارم، ولم يبقَ بينهم
إلا التودُّدُ الكاذب، والتلطف المصنوع، والتذلل المُتَكَلِّفُ، والكلام اللَّيِّنُ الذي تنطق به ألسنتهم ولا تنطوي
قلوبهم على شيء منه، وتبادلُ الأوصاف الحسنة، والنعوت الكريمة، كذبًا وزورًا وتمويهًا من بعضهم على
بعض.

وَعِنَاقُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي التَّسَايُرِ وَالتَّوَاقُفِ^(١)

صَارِفُهُمْ عِنْدَ الْمَوَدِّ؛ إِنَّهُمْ قَوْمٌ صَيَّارِفٌ^(٢)

إِنِّي انْتَقَدْتُ خِيَارَهُمْ فَالْقَوْمُ سُتُوقٌ وَزَائِفٌ^(٣)

وقال آخر:

فتى ليس لابن العمِّ كالذئب، إن رأى صاحبه يوماً ذمًّا، فهو آكله^(٤)
وكتب يحيى بن زياد الحارثي إلى عبد الله بن المقفع يلتمس معاقدة الإخاء
والاجتماع على المخالطة والصفاء، فلما لم يُجِبْهُ كتب إليه يعاتبه، فكتب له عبد الله:
إن الإخاء رِقٌّ^(٥)، وكرهت أن أملكك رقي قبل أن أعرف حسن ملكتك.

وقال شاعر:

- (١) عناق: عانقه عناقاً: جعل يديه على عنقه، وضمَّه إلى نفسه، والتزمه، وهو خاصٌّ بالمحبة.
التسايُر: سَايَرَهُ تَسَايُراً: جَارَاهُ، وسار معه. التواقف: توقفوا: وقف بعضهم مع بعض.
ويستمرُّ الشاعر في وصفه، فيذكر أنه لم يبق بين الناس أيضاً سوى أن يعانق بعضهم بعضاً كلما ساروا، وكلما وقفوا، لا عن محبة كما يوحي ذلك العناق بها، ولكن عن رياء ونفاق وملق.
- (٢) صَارِفُهُمْ: اختَرَهُمْ، وميَّزَ بعضهم من بعض، مأخوذ من «الصَّرَافَة» -وهي حُرُفَةُ الصَّيْرِفِيِّ الذي يميَّز صرف الدراهم، وفضَّلَ بعضها على بعض. والصَّرْفُ - الفَضْلُ، يقولون: «للدَّهْرَمِ عَلَى الدَّهْرَمِ صَرْفٌ» أي فضْل.
صَيَّارِفٌ: جمع صَيْرِفِيٍّ، وهو المحتال المتصرِّف في الأمور.
- والمعنى: ميَّزَ أصدقاءك قبل مصادقتهم، واختَرَهُمْ بعد تجربة واختبار؛ فإنهم قوم محتالون يتصرفون في الأمور ويتقبلون فيها، فلا تأمنهم ولا تطمئن إليهم.
- (٣) انتقدت: ميَّزْتُ، ونظرتُ وأخرجت الزيف. خيارهم: أفاضلهم وأكثرهم خيراً. ستوق: (كثُتُور وكَفْدُوس): درهم زائف بهرَجٌ مُكْبَسٌ بالفضة، وقيل هو أردأ من البهرج، والبهرج هو الباطل، والرديء، والمضروب في غير دار الأمير. الزائف: الدرهم الرديء المزدود لغش فيه.
- يقول الشاعر: إنه قد ميَّزَ أفاضل الناس واختبرهم، ثم اختارهم لنفسه بعد هذا التمييز والاختبار، وذلك لعلمه أن الناس -في الأغلب الأعمَّ منهم- كالدرهم الزائفة المغشوشة.
- (٤) ذمًّا: مقصور (ذَمَاءٌ): وهو بقية النفس، وفي المثل: «أطول ذَمَاءٌ من الضبِّ» لأن الضبَّ إذا قُتِلَ يُبْطِئ كثيراً تمام موته، ويُقال: «تجا بذَمَائِهِ، وما بقي منه إلا ذَمَاءٌ يتردَّد في خيال».
- الشاعر هنا يصف فتى بأنه لا يقف من أبناء عمومته -كما يقف الكثيرون- موقف الذئب الذي إن رأى صاحبه يُحتَضِرُ ولم تبق فيه إلا بقية ضئيلة من الروح، فإنه لا يتورَّع ولا يتحرَّج من أن يأكله.
- (٥) الرق (بكسر الراء): العبودية.

وَأَعْرَضُ عَنْ ذِي الْمَالِ حَتَّى يُقَالَ لِي: لَقَدْ جَاءَ هَذَا جَفْوَةً وَتَعْظُمًا^(١)
وما بي جفاء عن صديق ولا أخ ولكنه فعلي إذا كنت مُعْدِمًا^(٢)
ورُوي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يأكل تمرًا ومعه جليس له، فكان
النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى حَشَفَةً^(٣) عزلها. فقال جليسه: يا رسول الله،
أعطني الحَشَفَةَ حتى آكلها. قال: لا أَرْضَى لجليسي إلا ما أَرْضَاهُ لِنَفْسِي.
وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: لِنَ^(٤) لِمَنْ يَجْفُو، فَقُلْ مَنْ يَصْفُو^(٥).
وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: قَلِيلٌ لِلصَّدِيقِ الْوَقُوفُ عَلَى قَبْرِهِ.
وقال أَبُو زُبَيْدٍ الطَّائِي:

إِذَا نِلْتَ الْإِمَارَةَ فَاسْمُ فِيهَا إِلَى الْعُلِيَاءِ بِالْحَسَبِ الْوَثِيقِ^(٦)
فَكُلُّ إِمَارَةٍ -إِلَّا قَلِيلًا- مَغْيِرَةٌ الصَّدِيقِ عَلَى الصَّدِيقِ^(٧)

(١) جَفْوَةٌ: جَفَاءٌ - ضِدٌّ وَاصِلُهُ، وَآنَسَهُ وَبَرَّهُ، تقول: «جَفَوْتُ الرَّجُلَ» أي أَعْرَضْتُ عَنْهُ، وَالْجَفْوَةُ الْمَرَّةُ مِنَ الْجَفَاءِ.
تَعْظُمًا: تَكَبُّرًا. والمعنى: أَنَّهُ يُعْرِضُ عَنْ ذِي الْمَالِ وَيَصُدُّ عَنْهُ، حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ عَنْهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ جَفَاءً وَهَجْرًا
وَتَكَبُّرًا.

(٢) مُعْدِمًا: فَقِيرًا، تقول: «أَعْدَمَ الرَّجُلُ» أي افْتَقَرَ، فَهُوَ مُعْدِمٌ وَعَدِيمٌ.
يُفْسِرُ مَوْقِفَهُ مِنْ ذِي الْمَالِ بِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ جَفَاءٍ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ دَائِمًا عِنْدَمَا يَكُونُ مُفْتَقِرًا؛ تَصَوُّنًا مِنْهُ وَعِفَّةً،
وَتَحَرُّجًا مِنْ أَنْ يَتَّهَمَ تَوَاصُلُهُ بِالْحَاجَةِ إِلَى ذِي الْمَالِ.

(٣) الْحَشَفُ: أَرْدَأُ التَّمْرِ، وَفِي الْمَثَلِ: «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ».

(٤) لِنَ: أَي كُنْ لِنَا، وَاللِّينُ ضِدُّ الْخَشُونَةِ وَالصَّلَابَةِ.

(٥) يَصْفُو: مِنَ الصَّفَاءِ وَهُوَ ضِدُّ الْكَدَرِ.

(٦) الْإِمَارَةُ: الْوَلَايَةُ. أُسْمُ فِيهَا: أَعْلَى، وَارْتَفَعَ. الْحَسَبُ: مَا يُعَدُّ الْإِنْسَانُ مِنْ مَفَاخِرِ آبَائِهِ، وَقِيلَ مَا يُنْسَبُ الرَّجُلُ
لِنَفْسِهِ مِنَ الرَّفْعَةِ وَالشَّرَفِ. الْوَثِيقُ: الْمُحْكَمُ.

وَالْمَعْنَى: إِذَا صَرَتْ وَالْيَا عَلَى النَّاسِ وَصَاحِبَ أَمْرٍ فِيهِمْ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَكَ إِلَى الْعُلِيَاءِ وَالرَّفْعَةِ بِمَا تَأْتِي مِنْ جَلِيلِ
الْأَعْمَالِ، وَمِنْ الْمَرْوَةِ وَالْهَمَّةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

(٧) مَغْيِرَةٌ: تَغْيِيرُ الشَّيْءِ؛ صَارَ غَيْرَ مَا كَانَ، وَتَحَوَّلَ وَتَبَدَّلَ.

يقول الشاعر: إِنْ الْوَلَايَةُ وَالْحُكْمُ يُغَيِّرَانِ الصَّدِيقَ عَلَى صَدِيقِهِ، فَيَنْقَلِبُ الْمَتَوَاضِعُ صَلَفًا مُتَكَبِّرًا، وَالْوُدُودُ
الْوَدِيعَ جَافِيًا غَلِيظًا، وَهِيَاهُ أَنْ يَبْقَى صَدِيقٌ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ إِذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْوَلَايَةُ إِلَّا النَّزْرَ الْيَسِيرَ.

ولا تك عندهما حُلُوا فُتُحَسَى ولا مُرًّا فُتُنَشَبَ في الحُلُوق^(١)
وأغْمِضْ للصديق عن المساوي مخافة أن تعيش بلا صديق^(٢)
وقال موسى بن جعفر رضي الله عنهما: خير إخوانك المُعين لك على دهرك،
وشرهم مَنْ هو لك^(٣) لسوق يوم^(٤).

كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية^(٥) قاعدًا في مجلس،
والمُستَملي^(٦) في حدّته^(٧)، فجلس إليه فتى وأراد أن يكتب فقال له: أيها الرجل
استمدّ من محبرتك؟ قال: لا، فانكسر^(٨) الرجل، فأقبل عليه أبو داود -وقد أحسّ
بخجله-: أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان، فقد استوجب بالحشمة^(٩)
الحرمان؟ فكتب الرجل من محبرته، وسُمّي أبو داود حكيماً.

وقال شاعر:

(١) تُحَسَى: تُشْرَب شيئاً بعد شيء. تَنْشَب: تَنْشَبُ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ: عَلِقَ، وَنَشَبَ الْعَظْمُ فِي الْحَلْقِ: عَلِقَ فِيهِ وَلَمْ
يَنْفِذ. الحُلُوق: جمع «حَلَق» وهو مَسَاغُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْمَرِيِّ.
يقول: إِذَا نَلْتَ الْإِمَارَةَ، فَلَا تَكُنْ سَهْلًا حُلُومًا كَالْمَاءِ الزَّلَالِ فَيُشْرَبُكَ الشَّارِبُونَ، وَلَا تَكُنْ مُرًّا غَيْرَ مُسْتَسَاغٍ فَتَبْقَى
غُصَّةً فِي حُلُوقِهِمْ، وَلَكِنْ كُنْ وَسْطًا بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ، فَخَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ.
(٢) المساوي: المساوي.

والمعنى: أغْمِضْ عَيْنَكَ عَنْ مَسَاوِي النَّاسِ، وَتَغَاضَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَنْ تَجِدَ صَدِيقًا،
وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضِي سَجَايَاهُ كُلَّهَا؟ وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَنْ لَمْ يُوطِّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلًا وَأَعْظَمًا
إِذَا الْعَضْوُ لَمْ يُولِّمْكَ إِلَّا قَطْعَتَهُ قَعَدْتَ، فَمَا أَبْقَيْتَ لَحْمًا وَلَا دَمَا

وقال آخر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مَرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمَمْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصِفُو مِشَارِبُهُ؟
(٣) مَنْ هُوَ لَكَ: أَيُّ مَنْ هُوَ مَعَكَ وَفِي صَفِّكَ.

(٤) لِسُوقِ يَوْمٍ: الْمَقْصُودُ لِرَبِّحِ يَوْمٍ، أَوْ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ فِي يَوْمٍ، أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ.

(٥) الرِّوَايَةُ: رَوَايَةُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، أَوِ الشُّعْرِ، وَهِيَ أَنْ تَأْخُذَهُ عَنِ السَّابِقِينَ، وَتَنْقُلَهُ صَحِيحًا سَلِيمًا.

(٦) المُسْتَمْلِي: طَالِبُ الْإِمْلَاءِ.

(٧) الْحِدَّةُ: مَا يَبْغِيهِ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّزَقِ وَالْغَضَبِ.

(٨) انكسر الرجل: كُلُّ مَنْ عَجَزَ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ انْكَسَرَ عَنْهُ، وَالْمُرَادُ هُنَا: فَخْجَلَ.

(٩) الحشمة: الْحَيَاءُ وَالْانْقِبَاضُ.

مولاك مولى عدو لا صديق له كأنه نَفَرٌ، أو عَضَهُ صَفَرٌ^(١)
وقال ابن الحشرج:

فلا وأبيك، لا أعطي صديقي مُكاشرتي، وأمنعه تِلادي^(٢)
وقال العَجِير:

بعيدٌ من الشيء القليل احتفاظُهُ عليك، ومنزورُ الرضا حين يغضب^(٣)
وقال آخر:

أخوك أخوك من تدنو وترجو مودته، وإن دُعِيَ استجابا^(٤)
وقال ميمون بن مهران: صديقٌ لا تنفعك حياته، لا يضرك موته.

أبنانا علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال: أنشدنا ابن دريد عن الأشناداني
لأعرابي:

إن كنت تجعل من حباك بودَّه ظهر البعير، فتق بأنك عاقره^(٥)

(١) مولاك: صاحبك. نفر: نفَر الظُّبْي وغيره: شَرَدَ. الصَّفَرُ (محرّكة): الجُوع.

أي إن صديقك صديقٌ لرجل لا يعرف الصداقة ولا يحمل في قلبه إلا العداوة والبغضاء، كأنه ظبي شارد هائم على وجهه ليس له مُعين أو صاحب أو نصير، أو كأن صديقك هذا إنسان عضه الجوع فهو يتلوّى المأ... فهل تكون بذلك صديقاً له، أم تكون له العدو المبين؟
(٢) كاشرة: ضاحكه وحرك عليه أسنانه. تلادي: مالي.
أي إنه لا يمنع صاحبه ابتساماً وضحكاً فقط، ويمنع عنه المال وقت حاجته.
ومثل ذلك قول الشاعر:

عجبت لبعض الناس يمنع ودَّه ويمنع ما ضمت عليه الأصابع!

(٣) احتفاظه: غَضَبه، تقول: «أَحْفَظْتُهُ فَأَحْتَفَظَ» أي «أَغْضَبْتُهُ فَغَضِبَ». المنزور: القليل.
يقول: إنه إذا غضب فإن غضبه قويٌّ شديدٌ بعيد المدى، وإنه في حالة غضبه لا يُرجى منه قليل من الرضى، أو شيء من السكينة والهدوء؛ فإن غضبه يكتسح ذلك كله.
(٤) إن أخاك الحق هو من تدنو منه فترتاح وتنعم بمودته وتجدها فيها الأُنس والراحة، وهو الذي تدعوه عند الحاجة إليه فيستجيب لك.

(٥) حباك بوده: أعطاك وده. عاقره: ذابحه وناحره.

أي إنك إن لم تحافظ على ذي الود الذي يمنحك وده وصداقته بأن تنساه وتنبذه ولا تلتفت إليه وتجعله وراء ظهر بعيرك، فتق بأن الصداقة بينكما ستنبت وستنقطع كأنك ذبحته ونحرته.

مَنْ ذَا حَمَلَتْ عَلَيْهِ كَلَّكَ كُلُّهُ إِلَّا اشْمَأَزَّ، فَظَنَّ أَنَّكَ حَاقِرُهُ؟^(١)
 كَلَّفَ جُودَكَ مَا يُطِيقُ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِمَا تُطِيقُ حَوَافِرُهُ^(٢)
 أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ دَرِيدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَمِّهِ
 الْأَصْمَعِيِّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: كَمَالَ الرَّجُلِ بِخِلَالٍ^(٣) ثَلَاثٌ، مَعَاشِرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ
 وَالْفَضِيلَةِ، وَمُدَارَاةُ النَّاسِ^(٤) بِالْمُخَالَقَةِ^(٥) الْجَمِيلَةِ، وَاقْتِصَادٌ مِنْ غَيْرِ بَخْلٍ فِي الْقَبِيلَةِ.
 فَذُو الثَّلَاثِ سَابِقٌ، وَذُو الْاِثْنَيْنِ زَاهِقٌ^(٦)، وَذُو الْوَاحِدَةِ لَاحِقٌ. فَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ
 مِنَ الثَّلَاثِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ صَدِيقٌ، وَلَمْ يَتَحَنَّنْ^(٧) عَلَيْهِ شَفِيقٌ، وَلَمْ يَتَمَتَّعْ بِهِ رَفِيقٌ.
 وَقَالَ ابْنُ أَبِي دَوَّادٍ: صَدِيقُ عَدُوِّكَ حَرَبُكَ^(٨).

قال محمد بن علي بن الحسين الباقر رضي الله عنهم لأصحابه: أَيَدْخُلُ أَحَدُكُمْ
 يَدَهُ فِي كُمِّ^(٩) صَاحِبِهِ، فَيَأْخُذُ حَاجَتَهُ مِنَ الدِّرَاهِمِ وَالْدَنَانِيرِ؟
 قَالُوا: لَا، قَالَ: فَلَسْتُمْ إِذْنًا بِأَخْوَانٍ.

- (١) الْكَلُّ (يفتح الكاف وتشديد اللام): الثَّقُلُ. اشْمَأَزَّ: نَفَرَ كَرَاهَةً، وَانْقَبَضَ. حَاقِرُهُ: مُسْتَضْعَفُهُ، وَمُسْتَذِلُّهُ.
 مَنْ هَذَا الَّذِي تُحْمَلُهُ أَثْقَالُكَ كُلُّهَا، وَتَلْقَى عَلَيْهِ أَعْيَافُكَ جَمِيعَهَا، فَلَا يَنْقَبِضُ وَلَا يَنْفِرُ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَزْدَرِيهِ
 وَتَحْتَقِرُهُ؟
- (٢) مَا يُطِيقُ: مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. بِالْحَرِيِّ: تَقُولُ: «هُوَ حَرِيٌّ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا»: أَيُّهُ خَلِيقٌ وَجَدِيرٌ. يَسْتَقِلُّ: اسْتَقْلَ
 بِالشَّيْءِ: انْفَرَدَ بِهِ، وَلَمْ يَشْرَكَهُ فِيهِ غَيْرُهُ. حَوَافِرُهُ: جَمْعُ حَافِرٍ، وَهُوَ مِنَ الدَّابَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْقَدَمِ مِنَ الْإِنْسَانِ.
 يَقُولُ الشَّاعِرُ: كَلَّفَ جُودَكَ حَمْلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَحْمِلَ مَا تَقْوَى قَدَمَاهُ عَلَى حَمْلِهِ، وَأَنْ يَنْفَرِدَ
 بِذَلِكَ دُونَ أَنْ يَطْلُبَ مَسَاعِدَةَ أَحَدٍ. وَالْمَقْصُودُ أَلَّا تَكْلِفَ صَاحِبَكَ أَنْ يَحْمِلَ أَثْقَالَكَ كُلِّهَا، وَإِنَّمَا تَكْلِفُهُ مَا
 يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنْهَا. وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ، فَمَرُّ بِمَا يُسْتَطَاعُ».
- (٣) خِلَالٍ: جَمْعُ خَلَّةٍ وَهِيَ الْخَصْلَةُ.
- (٤) مُدَارَاةُ النَّاسِ: مُدَاجَاتُهُمْ وَمُلَابَسَتُهُمْ.
- (٥) الْمُخَالَقَةُ: الْمَعَاشِرَةُ بِخُلُقٍ حَسَنٍ.
- (٦) زَاهِقٌ: مُتَقَدِّمٌ.
- (٧) يَتَحَنَّنُ: يَتَرَحَّمُ.
- (٨) حَرَبُكَ: عَدُوُّكَ.
- (٩) الْكُمُّ (بِالضَّمِّ): مَدْخَلُ الْيَدِ وَمَخْرَجُهَا مِنَ الثَّوْبِ.

قال شاعر:

ومن يَرَعَ بَقْلًا من سُوَيْفَةٍ يَغْتَبِقُ قَرَاخًا، ويسمَعُ قول كل صديق^(١)
قال العتّابي لصاحب له: ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروءة. إذا غَبَتَ
خلفك^(٢)، وإذا حضرت كَنَفَكَ^(٣)، وإذا بَكَرْتَ عرفك^(٤)، وإذا جَفَوْتَ لَظْفَكَ، وإذا
بَرَزْتَ^(٥) كافأك، وإذا لَقِيَ صديقك استزاده لك^(٦)، وإن لقي عدوك كَفَّ عنك غَرَبَ
العادية^(٧)، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته^(٨) استرحت.

وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.

وقيل للخليل: استفسادُ الصديق أهونُ من استصلاح العدو. قال: نعم، كما أن
تخريق الثوب أهون من نسجه.

وقيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضًا يُحِبُّ أن
يكون صديقًا.

مرض قيس بن سعد بن عبادة، فأبطأ إخوانه عنه، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون

(١) يرعى: رعت الماشية الكلاً: سَرَحَتْ فيه و أكلته. البقل: ما نبت في بَزْره لا في أرومة ثابتة. السويقة: الساق،
أو السُّوق الصغيرة. يغتبق: اغْتَبَقَ: شرب الغُبُوق، وهو ما يُشرب بالعشي. القَرَاخ (بالفتح): هو الماء الذي لا
يخالطه نُفْلٌ من سويق ولا غيره، وكذلك الذي لا يخالطه شيء يُطَيَّبُ به كالعسل والتمر والزبيب.
أي إن الذي يأكل بَقْلًا من سوق صغيرة قليلة الغناء، فإنه كمن راح يطلب الخمر عشيًا، فلا يجد في يديه إلا
ماء قَرَاخًا صافيًا لا أثر للخمر فيه، وعليه أن يتحمل ما يقوله أصدقاؤه فيه من عتب وملامة.

(٢) خَلَفَكَ: كان خليفتك، والمقصود: نَهَضَ بما تنهض أنت به، حتى لكأنك حاضر.

(٣) كَنَفَكَ: صَانَكَ وحفظك وحاطك وأعانك.

(٤) إذا بَكَرْتَ عرفك: أي إذا تقدمت جَاوَزَكَ، وَتَوَلَّىكَ معروفًا.

(٥) بَرَزْتَ: سَبَقْتَ.

(٦) استزاده لك: أي زاد من صداقته لك بحديثه الطيب عنك، ووصفه الجميل لك.

(٧) غَرَبَ العادية: حَدَثَهَا ومُنْتَهَاها. والعادية: الظُّلم والشر. والمعنى أنه إذا لَقِيَ عدوكَ مَنَعَ عنك ظلمه وشره بما
يملك من وسائل.

(٨) باثثته السر: أظهرته له.

مما لك عليهم من الدّين، فقال: أخزى الله ما يمنع الإخوان من العيادة^(١)، ثم أمر منادياً فنادى: ألا مَنْ كان لقيس عليه حق فهو منه في حلٍّ وسعة، فكسرت درجته^(٢) بالعشيّ لكثرة من عادة.

قال عبد الملك بن مروان: مِنْ كل شيء قد قضيت وطراً، إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزّهر^(٣) على التلال العُفر^(٤).

قال شاعر:

وَقَلَّ الذي يرُعاك إلا لنفسه وللنفع يعتدُّ الصديق مُعَدَّة^(٥)

قال أبو عثمان الجاحظ: كان ابن أبي دؤاد إذا رأى صديقه مع عدوه قتل صديقه.

قال أبو حامد المروروذي: هذا هو الإسراف والتجاوز والعداء الذي يخالف الدين والعقل؛ لعلّ صديقك إذا رأيته مع عدوك يثنيه^(٦) إليك، ويعطفه عليك، ويبعثه على تدارك فائتة منك. ولو لم يكن هذا كله لكان التائي مقدماً على العجل، وحسن الظن أولى به من سوء الظن. ثم قال: ذهب الإنصاف في العداوة والصدّاقة، وأصبح الناس

(١) العيادة: زيارة المريض.

(٢) درجته: مرقّاه.

(٣) الزّهر: جمع زهراء، وهي المتلائلة المضيفة.

(٤) العُفر: المَعْفَرُ بالتراب.

(٥) يعتدُّ الصديق مُعَدَّة: يُحضِرُ ما يُعِدُّه من عُدّة.

أي إن مَنْ تراهم من الناس يرعونك ويحفظونك، فإنما يفعلون ذلك رعايةً وحفظاً لأنفسهم لا لك، وسعياً وراء خير يُصيبونه من ورائك، أو خشيةً من أذىٍ تُوقعه بهم. وقريبٌ من ذلك قول الشاعر:

تَحَالَفَ الناسُ والزمانُ فحيثُ كان الزمانُ كانوا
عَاداني الدهر نصف يوم فانكشف الناس لي وبأنا
يأبها المعرضون عني عودوا، فقد عاد لي الزمان!

(٦) يثنيه إليك: يعطفه.

أبناءً واحد^(١) في الرغبة والرغبة والجهل والجبرية^(٢) والعمل على سابق الهوى وداعية^(٣) النفس؛ وهذا لأن الدين مَرخِي الرِّسَن^(٤)، مَخْدُوش^(٥) الوجه، مَقْقُوء العين، مُزَعَزُع الرُّكن^(٦). والمروءة ممزقة الجلباب، مهجورة الباب، ليس إليها داع، ولا لها مجيب، والله المستعان.

قال الأصمعي: كان يقال «البخيل» من أقرض إلى ميسرة^(٧).

قال عمر بن شبة: التقي أخوان في الله، فقال أحدهما لصاحبه: والله يا أخي إني لأحبك في الله، فقال له الآخر: لو علمت مني ما أعلمه من نفسي لأبغضتني في الله. فقال: والله يا أخي، لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لمنعني من بغضك ما أعلمه من نفسي.

وقال المدائني: إذا ولي صديق لك ولاية، فأصبته على العشر^(٨) من صداقته، فليس بأخ سوء.

(١) أبناء واحد: يقصد أنهم جميعاً على سجية واحدة كأنهم ورثوها عن أب واحد، فهم جميعاً متصفون بهذه الصفات.

(٢) الجبرية: التكبر.

(٣) داعية النفس: ما تدعو إليه النفس من الغي والضلال.

(٤) مَرخِي الرِّسَن: مَسْدُولُهُ وَمُرْسَلُهُ، والرِّسَن: الزَّمام الذي يوضع في الأنف.

والمقصود أن الدين أصبح مُهملاً لا يَستَمسِك أحد بحباله، ولا يهتم أحد باتباع ما يأمر به.

(٥) مخدوش الوجه: خَدَشَهُ: خَمَشَهُ وَلَطَمَهُ وضربه. والمقصود أنه صار شائهاً غير مستوي الخلق.

(٦) مززعزع الركن: تزعزع الشيء: تحرك وتقلقل، والركن: الطرف والجانب الأقوى، والمعنى أنه ضعيف واه.

(٧) أقرضه: أعطاه قرضاً. الميسرة: الغنى.

يقول الأصمعي: إنه كان يقال في الأزمنة السابقة إن البخيل هو الذي يعطي المحتاج قرضاً، وينتظر عليه حتى يرزقه الله فيسد هذا القرض، وكان الأصمعي يقول: إن كان هذا هو وصف البخيل فيما مضى، فبماذا يوصف الناس الآن، وهم لا يعطون أصحاب الحاجة إلى ميسرة أو إلى غير ميسرة، مع اقتدارهم على ذلك؟

(٨) العشر (بالضم): جزء من عشرة، والجمع عشور وأعشار.

والمعنى أنه إذا صار صديق لك والياً، فَلَنْتَ منه جزءاً من عشرة أجزاء ممّا ينبغي لك من آثار صداقته وفوائدها، فإنه أخ بار، وليس بأخي سوء.

قال فيلسوف: من عاشر الإخوان بالمكر، كافأوه بالغدر.

وقال إبراهيم بن أدهم: أنا منذ عشرين سنة في طلب أخ إذا غضب لم يقل إلا الحق، فما أجده.

وقال عبد الله بن قيس الرقيّات:

يَسْتَأْسِدُونَ عَلَى الصَّدِيقِ ق، وَلِلْعَدُوِّ ثَعَالِبُ^(١)

اعتلَّ بعض إخوان الحسن بن سهل فكتب إليه الحسن: أجدني وإياك كالجسم الواحد، إذا خَصَّ^(٢) عضوًا منه أَلَمَّ عَمَّ سائرَه^(٣)، فعافاني الله بعافيتك، وأدام لي الإمتاع^(٤) بك.

قال ثعلب: كان يقال: لعداوة يحيى بن برمك أنفع لعدوّه من صداقة غيره لصديقه. أخبرنا القدسي قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن يحيى، قال ابن الأعرابي عن المفضل: جاء رجل إلى مطيع بن إياس، فقال: قد جئتكَ خاطبًا. قال: لِمَنْ؟ قال: لمودتك، قال: قد أنكحْتُكِها^(٥)، وجعلت الصَّدَاقَ^(٦) أن لا يُقبل فيّ مقالة قائل.

قال أبو الدرداء: معاتبة الأخ خير من فقده، وَمَنْ لك بأخيك كله؟ أطع أخاك، ولِنْ

(١) يَسْتَأْسِدُونَ: يصيرون كالأسود. ثعالِب: جمع ثعلب، وهو حيوان مشهور بالتحيل والروغان حتى يضرب به المثل في ذلك.

والمعنى أنهم يكونون على الصديق كأنهم أسود مفترسة. على حين أنهم يكونون مع العدو ثعالِب شديدة الروغان، وقريب من ذلك قول الشاعر: أَسَدٌ عَلِيٌّ وفي الحروب نَعَامَةٌ.

(٢) خَصَّ عضوًا منه: أصابهُ، وحلَّ به.

(٣) سائرُهُ: السائر الباقي، وقد يستعمل بمعنى الجمع، وهو المقصود هنا.

(٤) الإمتاع: التمتع، وأُمتِعَ فلانٌ بماله: تَمَتَّعَ به.

(٥) أَنْكَحْتُكِها: زَوَّجْتُكِ إياها.

(٦) الصَّدَاق: مَهْر الزوجة.

له، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح^(١)، غداً يأتيك أجله^(٢) فيكفك^(٣) فقده، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله؟

قال بعض السلف^(٤): عليك بالإخوان؛ ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]^(٥)؟
 وأنشدنا الأندلسي:

لي صديق هو عندي عَوَزٌ من سِدَادٍ، لا سدادٌ من عَوَزٍ^(٦)
 وقال شاعر:

ما عَاتَبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءَ يُصلحه المجلس فيصلح^(٧)
 وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: حافظ على الصديق، ولو في الحريق.
 وقال شاعر:

لستُ ذا ذِلَّةٍ إذا عَضَّنِي الدهرُ رُ، ولا شامخاً إذا ما أتاني^(٨)

(١) الكاشح: العدو.

(٢) أَجَلُهُ: موته، يقال: «جاء أجله» أي «حان موته».

(٣) فيكفك: فيصرفك ويمنعك.

(٤) السلف: جمع سلف، وهو كل من تقدّمك من آبائك وذوي قرابتك في السنّ أو في الفضل.

(٥) الحميم: القريب الذي تودّه ويودك.

(٦) العَوَزُ: الحاجة واختلال الحال. سداد: قولهم: «في هذا سداد من عوز» و «أصببت به سداداً من عيش» يقصدون به ما تُسدّ به الخلة أي الحاجة.

يقول: إن له صديقاً تجرّ عليه صداقته الحاجة واختلال الحال، ولا تُجدي عليه - كما ينبغي أن تكون الصداقة - سداداً لحاجته، وإصلاحاً لاختلال حاله، ونهوضاً بما لا يحتمل من أعباء.

(٧) عَاتَبَ: لَامَ. المجلس: المُجالس. إن أحداً لا يستطيع أن يعاتب الإنسان ويلومه ويؤنّب عليه ما يبدّر منه، مثل نفسه عندما يخلو إليها مفكراً فيما ارتكب من سيئات، فهي جليسه الذي لا يفارقه، ورفيقه الذي يلازمه، وليس مثل المجلس والرفيق مُصلحاً للإنسان وهادياً له.

(٨) ذا ذِلَّةٍ: صاحب هَوَانٍ، والذلة ضد العزّ. عضني الدهر: اشتدّ عليّ. شامخاً: متكبراً. أتاني: جاءني، وأقبل عليّ. يقول: إنه لا يكون ذليلاً إذا قست الأيام عليه واشتدت؛ فهو أقوى من قسوتها، واشتدادها، وهو كذلك لا يكون مستكبراً شامخاً بأنفه إذا أقبلت عليه الأيام ولانت له الحياة.

أنا نَارٌ في مُرْتَقَى نَفْسِ الحَا سِدٍ، مَا جَارٍ مَعَ الإِخْوَانِ^(١)
أخبرنا الطبراني قال: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: قال بعض الملاح، إن
الناس قد مُسْخُوا خنازير^(٢)، فإذا وجدت كلبًا فتمسك به.
قال أبو العيْناء في رجل أفسد ما بينهما: تنازعا ثوب العقوق حتى صدعاه^(٣) صدع
الزجاجة ما لها من جابر^(٤).
قال شريح القاضي: الخليل^(٥) أحق من الشفيع^(٦)، والشفيع أحق من الجار،
والجار أحق ممن سواه.
قال رجل لأبي مجنب: إني لأودّك. فقال: إني لأجدُّ رائد ذاك^(٧).
وقال كاتب: قد أهديت لك مودتي رغبة، ورضيت منك بقبولها مَثُوبَةً^(٨)، وأنت
بالقبول قاضٍ لحق، ومالكٌ لرقٍّ، والسلام.
سُئِلَ صَعْصَعَةٌ عن طلحة فقال: كان حلو الصداقة، مرَّ العداوة.
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الإِخوان بمنزلة النار، قليلها متاع، وكثيرها
بَوَارٌ^(٩).

(١) ما جار: ماءً جار.

أي إنه يكون نَارًا ملتهبة على العدوِّ الحاسد الذي يتمنى زوال نعمته، كما أنه يكون ماءً جارياً مع إخوانه
الأصفياء الذين يُبادلونه الوداد والإخلاص.

(٢) مُسْخُوا: الْمَسْخُ: تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها، يقال: «مسخه الله قرذاً».

(٣) صدعاه: شَقَّاه.

(٤) جابر: جَبَر العظم: أصلحه من كسر.

(٥) الخليل: المخالط.

(٦) الشفيع: صاحب الشفاعة، وهي طلب التجاوز عن الذنوب ممن وقعت الجناية في حقه.

(٧) رائد ذاك: رسوله الذي يَتَقَدَّمُهُ.

(٨) مَثُوبَةٌ: ثواباً.

والمعنى: أنه قد أهدى إليه مودته وصداقته عن رغبة في أن تنعقد بينهما الصلة، ويقوم بينهما الوداد، فإن رضي
بها وقبلها، فإن ذلك يكون له ثواباً وجزاءً حسناً.

(٩) بوار: هلاك، وفساد.

قال الأحنف: كانت المودة قبل اليوم مَحْضًا^(١)، فليتها تكون اليوم مَذَقًا^(٢).

قال أحمد بن أبي فتن: حدثنا عمرو بن سعيد بن سلام، قال: كنت في حرس المأمون ليلة من الليالي نائبا، فبرز المأمون في بعض الليل مُتَفَقِّدًا من حضر، فعرفته، فقال لي: من أنت؟ فقلت: عمرو -وَعَمَّرَكَ اللهُ^(٣) - بن سعيد -أسعدك الله- بن سلام -سلمك الله- فقال: أنت تكلؤنا منذ الليلة. قلت: الله يكلؤك خير حِفْظًا وهو أرحم الراحمين. فقال المأمون:

إِنْ أَخَا الْهَيْجَاءِ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ^(٤)
وَمَنْ إِذَا صَرَفُ زَمَانٍ صَدَعَكَ بَدَدَ شَمْلٍ نَفْسَهُ لِيَجْمَعَكَ^(٥)
ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار، فوددت أن الأبيات طالت!

قيل للعتابي: إنا نراك زاهداً في استطراف^(٦) الإخوان. قال: إني لم أحمد تالدهم^(٧).
تمثل عبد الملك بن مروان بقول الشاعر:

(١) محضاً: خالصة.

(٢) مذكاً: مشوبة بكدر، وغير خالصة.

أي إن الصداقة كانت فيما مضى خالصة صافية، فليتنا نجد اليوم صداقة مشوبة غير صافية، فإن الصداقة قد انعدمت نهائياً، ولم يبقَ منها صافٍ ولا مشوب.

(٣) عمرك الله: أطال عمرك.

(٤) الهيجاء: الحرب.

إن أخا الحرب الحقيقي هو من يسعى معك فيها دائماً، ولا يتخلّى عنك طرفة عين، ومن يُقدِّم نفسه فيها فداء لك لتسلم وتبقى، فذلك شأن المحارب الحق والصديق المخلص.

ورؤي هذا البيت: «إن أخاك الحق من كان معك».

(٥) صدَعَكَ: الصدع: الشق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢].

يقول: إن الأخ الحق أيضاً هو الذي تجده بين يديك وقت الشدائد، فإن عرض لك الدهر بسوء، حمل عنك هذا السوء، ولو اقتضاه ذلك أن يتشتت هنا وهناك، ويُفَرِّق شمله المجتمع، ما دام في ذلك جُمعٌ لشملك أنت، ويُعَادُّ للسوء عنك.

(٦) استطراف الإخوان: استحداث أخوتهم وصداقتهم.

(٧) تالدهم: قديمهم. والمعنى: أنه زاهد في اتخاذ إخوان جدد؛ لأن الإخوان القدامى غير حميدي الأخوة.

إِسْتَبْقِ وَدَّكَ لِلصَّدِيقِ، وَلَا تَكُنْ قَتْبًا يَعْصُ بَغَارِبَ، مِلْحَاحًا^(١)
 وَاهْجُرْهُمْ هَجْرَ الصَّدِيقِ صَدِيقَهُ حَتَّى تُتْلَقِيَهُمْ عَلَيْكَ شِحَاحًا^(٢)
 أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ دَرِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ: عَرَضَ
 عَمِي الْأَصْمَعِيُّ بِرَجُلٍ كَانَ حَاضِرًا فَأَنشَدَ:

صَدِيقُكَ لَا يُثْنِي عَلَيْكَ بِطَائِلٍ فَمَاذَا تَرَى فِيكَ الْعَدُوَّ يَقُولُ؟^(٣)
 فَقَالَ الرَّجُلُ:

وَحَسْبُكَ مِنْ لَوْمٍ وَخَبَثٍ سَجِيَّةٌ بِأَنَّكَ عَنْ عَيْبِ الصَّدِيقِ سَوُولُ^(٤)
 وَقَالَ شَاعِرٌ:

يُصَافِنِي الْكَرِيمُ إِذَا التَّقِينَا وَيُبْغِضُنِي اللَّئِيمُ إِذَا رَأَيْتَنِي^(٥)
 قَالَ ابْنُ عَائِشَةَ: جَزَعُكَ^(٦) فِي مَصِيبَةِ صَدِيقِكَ، أَحْسَنُ مِنْ صَبْرِكَ. وَصَبْرُكَ فِي

(١) القتب (محركة): برزعة الحمار. الغارب: الكاهل، وقيل ما بين السنام والعنق، وهو الذي يُلقَى عليه خطام
 البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء. ويقال للمُلحَّ: «هو قتب يعصُّ بالغارب» ويقال أيضًا: «قتب ملحاح».
 ملحاحًا: ألح السائل في السؤال: ألحف، وأقبل عليه مُواظبًا.
 والمعنى: أدم مودة صديقك وأبقها؛ وذلك بأن تكون عليه خفيًا هيئًا غير طامع فيه ولا مُلحَّ عليه بمطالب
 كثيرة متتابعة؛ فإن الإثقال على الصديق والإلحاح عليه يؤديان إلى انقطاع علاقتكما وبترها.
 (٢) واهجر أصدقاءك هجرًا جميلًا، هجر الصديق لا هجر العدو، حتى تجد منهم حرصًا عليك، واحتفاظًا، وضنًا
 بك عن العداوة وعن القطيعة، فإن أبدؤا لك ذلك فاستأنف صداقتهم وودهم.
 (٣) الطائل: الفضل.

إِنْ كَانَ ثَنَاءُ أَصْدِقَائِكَ عَلَيْكَ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَرْفَعُ قَدْرَكَ؛ لِأَنَّكَ فَوْقَ ثَنَائِهِمْ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ فِيكَ أَعْدَاؤُكَ؟
 وَغَيْرُ بَعِيدٍ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَضَعُ

(٤) الخُبْتُ: ضد الطيبة، والخبيث: النجس، والرديء المستكره، والفاقد.
 والمعنى: أنه يكفي -لكي يقال عن سجيتك وطبيعتك إنها طبيعة لئيمة خبيثة- يكفي لكي يقال فيك ذلك أنك
 متصف بصفة واحدة وهي كثرة سؤالك عن عيب صديقك وتلمس نقائصه.
 (٥) إن الكرام يخلصون لي الود -إذا التقيت بهم- ويصدقونني الإخاء. أما اللئام فإنهم -إذا رأوني- ظهرت منهم
 البغضاء والكراهية والمقت.
 (٦) جزعك: جزع من الشيء: لم يصبر عليه فأظهر الحزن.

مصيبتك أحسن من جزعك.

قال أبو جعفر المنصور: مَنْ أَعْطَى إِخْوَانَهُ النَّصْفَةَ^(١)، وعاشرهم بجميل العشرة، قَوِيَ بِهِمْ عَضُدُهُ^(٢)، وزاد بهم جَلَدُهُ^(٣)، وبذلوا دونه الْمُهَجَّ، وخاضوا في رضاه اللَّجَجِ^(٤).

بيني وبين لئام الناس مَعْتَبَةٌ ما تَنْقِصِي، وكرامُ الناس إخواني^(٥)
إذا لقيتُ لئيم القوم عَنَنْيَ وإن لقيت كريم القوم حَيَّانِي^(٦)
وقال آخر:

وكنْتُ إذا الصديقُ أراد غيظي وأشرقني -على حَقِّ- بِرِيقِي^(٧)
عفوتُ ذنوبه، وصفحتُ عنه مَخَافَةَ أن أعيش بلا صديق^(٨)
قال بعض السلف: استطرِدْ^(٩) لعدوك، وأَبْقِه بإظهار الرضا عنه والمداراة له حتى تُصِيبَ الفرصة فتأخذه على غِرَّةٍ^(١٠).

(١) النَّصْفَةُ: الإنصاف والعدل.

(٢) عَضُدُهُ: عَضْدُ كل شيء: ما شُدَّ حِوَالِيهِ من البناء وغيره كالصفائح المنصوبة حول شفير الحوض.

(٣) الْجَلَدُ: الشدة، والقوة، والصبر، والصلابة.

(٤) اللَّجَج: جمع لجة (بضم اللام): وهي معظم الماء، وَخَصَّهُ بعضهم بمعظم البحر.

(٥) مَعْتَبَةٌ: غَضَبٌ وَعَتَابٌ.

والمعنى: أن بيني وبين اللئام من الناس غضباً لا ينتهي ولا يهدأ لاختلاف طبيعتي عن طبيعتهم ولكن الكرام من الناس إخوانٌ لي، تربطني بهم مودة دائمة، وإخاء مقيم.
(٦) عَنَنْيَ: لَامَنِي بَعَثَ وشدة، وَعَتَبَ عَلَيَّ.

والمعنى: أنني إذا التقيت باللئيم لآمني لَوْ مَا شَدِيدًا عَنِيفًا لما تمتلئ به نفسه من حقدٍ عليّ وكراهية لي. أما إذا التقيت الكريم فإنه يلقاني بالتحية والتكريم؛ لما يحمل لي من مودة وحب.

(٧) أشرقني بريقي: جعلني أَعْصُ به، أي يعترض في حلقي شيء منه فيمنع النفس. حنق: غيظ وغضب.

أي: إن أراد صديق مَسَاءَتِي وغيظي، وأساء إليَّ إِسَاءَةً تكاد تزهق منها روحي، وأَعْصُ منها بريقي.

(٨) فَإِنِّي أَعْفُو عن هذا الصديق، وأغفر له هذه المساءات، وأصفح عنه؛ خوفاً من أن أعيش وحيداً بل صديق. وأين الصديق الذي لا يسيء؟

(٩) اسْتَطَرِدَّ لعدوك: خَاطَبَهُ بكلام يُرْضِيهِ. وإن لم تكن في ضميرك تقصد هذا الكلام.

(١٠) على غِرَّةٍ: على غفلة.

قال طلحة بن عبد الله: أعظم لخطرِك^(١) أن لا ترى لعدوك أنه لك عدو.
قال الحسن بن وهب: طُرِفُ^(٢) الصداقة أملح من طرف العلاقة، والنفس بالصديق
آنس منها بالعشيق.

قال شاعر:

ولقد طَوَيْتَكُمْ عَلَى عِلَاتِكُمْ وَعَرَفْتُ مَا فِيكُمْ مِنَ الْأَدْغَالِ^(٣)
قيل لروح بن زنباع: ما معنى الصديق؟ قال: لفظ بلا معنى.

وأنشد هلال بن العلاء الرقي:

لما عفوت، ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من غمّ العداوات^(٤)
إني أحیی عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحیات^(٥)
وأظهرُ البشرَ للإنسان أبغضه كانه قد ملا قلبي مَحَبَّاتٍ^(٦)
والناس داءً، وداء الناس قُرْبُهُمْ وفي الجفا لهم قطع الأخوات^(٧)

(١) لخطرِك: لَقْدَرِك ولمنزلكك.

(٢) طُرِفُ: جمع طُرْفَة، وهي المُلْحَة، والغريب المستحسن المُعْجَب.

والمعنى: أن ما يصدر عن تربط به صداقة أجمل وقمًا على النفس وأطيب أثرًا فيها ممّا يصدر عن تربطك به علاقات خالية من الصداقة كعلاقة عمل أو علاقة مكان، أو ما إلى ذلك.

(٣) طَوَيْتَكُمْ: طوى القوم: جلس عندهم، وقيل: أتى إليهم، وأقام فيهم. على عِلَاتِكُمْ: على حالاتكم المختلفة، أي على كل حال، أو على ما فيكم من الأحوال والشؤون. الأدغال: جمع دَغَل، وهو دَخَلَ في الأمر مُفسد.

(٤) الصفح عند الإساءة وترك الحقد والضغينة، يمنعان العداوة وما تجرّه من غمٍّ وهمٍّ. فإن أردت الراحة من عداوات الناس، فاجعل العفو عن ذنوبهم سبيلك إلى ذلك.

(٥) إن تحية عدوك عندما تراه، ولقاءه بالبشر والترحاب، يدفعان الشر، ويمنعان الأذى ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(٦) وأبدي البشر والترحاب للإنسان وأنا مُمتلئ كراهية له، كأنه قد ملا قلبي بالمحبة والمودة!

(٧) الناس داءٌ وعِلَّةٌ، ودأؤهم لا يبدو إلا عندما يقتربون منك ويتصلون بك، ولكن الإعراض والصد عنهم يقطع الصداقة ويمحو المودة، فلا بد إذن من مصاحبتهم على علاقتهم والاتصال بهم، ولو كانوا داءً عُضالاً.

فلمست أَسْلَمَ ممن لست أعرفهُ فكيف أَسْلَمَ من أهل المودات؟^(١)
 ألقى العدو بوجه لا قُطوب به يكاد يَقْطُرُ من ماء البشاشات^(٢)
 وأحزَمُ الناس مَنْ يلقى أعاديهُ في جسم حقدٍ، وثوب من مَوَدَاتٍ^(٣)
 قال الشعبي: تعايشَ الناس بالدين زمانًا حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة
 حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة
 والرغبة، وسيتعايشون بالجهالة^(٤) زمانًا طويلًا.

لَسَعِيَّةَ بن عَرِيضَ اليهودي:

وإذا تصاحبهم تصاحب خانةً ومتى تفارقهم تفارق عن قَلَى^(٥)
 إخوانُ صدقٍ ما رأوك بغبطةٍ فإذا افتقرت، فقد هوى بك ما هوى^(٦)
 إن الكريم إذا أردتُ وصاله لم يُلَفِ حبلي واهنًا رثَّ القوى^(٧)

(١) إنني لا أَسْلَمُ من أذى الذين لا أعرفهم ولا أتصل بهم ولا تقوم بيني وبينهم أسباب للعداوة، فكيف أَسْلَمَ من

أذى الذين أعرفهم وأتصل بهم، وبينهم علاقات ومودات؟

(٢) لا قُطوب به: لا عُبُوس، ولا تَجْهَم. يقطر: يسيل ويسقط قطرةً قطرةً.

إنني ألقى عدوي بوجه باسم مُتَهَلِّل لا أثر فيه لغضب أو كراهية أو عداوة، بل إنه ليكاد يسيل بشاشةً وانطلاقاً
 ولطفًا وإقبالاً على هذا العدو.

(٣) إن أحكم الناس وأوفرهم عقلاً من يلقى أعداءه، وهو يُخفي حقدَه عليهم في طَيَّات قلبه، ويلبَسَ لهم ثوبًا من
 الود والإخلاص!

(٤) الجهالة: ضد العلم والمعرفة.

(٥) خَانَةٌ: جمع خائن، وهو الذي يُؤْتَمَنُ فلا ينصح، والذي ينقضُّ العهد. قَلَى: بُغْض.

وإذا صاحبتَ الناس، فإنما تُصاحب خائنين ينقضون عهدك، ولا ينصحون لك بأمانة وشرف وإخلاص. وإذا
 فارقتهم؛ فإن ذلك بسبب ما تلاقي منهم من كراهية وبغضاء.

(٦) إنهم يُصادقونك ويُؤاخونك ما دمتَ حسن الحال، تَزُفُ في نَعَمٍ يَغبطك الناس عليها، فإذا أدبرتَ عنك الدنيا
 فقد حَلَّتْ بك عداوتهم وقطيعتهم وصدودهم.

(٧) لم يُلَفِ حبلي: لم يَحِدْ حبلي. واهنًا: ضعيفًا. رثَّ القوى: باليًّا.

إنني إذا واصلت كرام الناس، فإن صلتني بهم تكون قوية شديدة، ولن تجدها يومًا مع هؤلاء الكرام ضعيفةً
 بالية، بل هي دائمًا مُتجددة متينة العرى.

أرعى أمانته، وأحفظ عهده جهدي، فيأتي بعد ذلك ما أتى^(١)
يَجْزِيكَ، أو يُثْنِي عليك. وإن مَنْ أثنى عليك بما فعلت، كَمَنْ جَزَى^(٢)
قرع رجل باب بعض السلف في ليل فقال لجاريتته: أبصري من القارع، فأنت
الباب فقالت: مَنْ ذا؟ قال: أنا صديق مولاك. فقال الرجل: قل لي له: والله إنك
لصديق. فقالت له ذلك، فقال: والله إني لصديق. فنهض الرجل وبيده سيف وكيس
يسوق جارية، وفتح الباب، وقال: ما شأنك؟ قال: راعني أمر. قال: لا بك ما ساءك^(٣)؛
فإني قد قسمت أمرك بين صديق فهذا المال، وبين عدو فهذا السيف، أو مشوق فهذه
الجارية، فقال الرجل: لله بلادك، ما رأيت مثلك.

قال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل ظلم الغضب، وظلم الدالة^(٤)، وظلم
الهفوة.

قال بزرجمهر: إياك وقرناء السوء؛ فإنك إن عملت قالوا: راءيت^(٥)، وإن قصرت
قالوا: أثمت، وإن بكيت قالوا^(٦) شَهَرْت، وإن ضحكت قالوا: جَهَلْت^(٧)، وإن نطقت
قالوا: تكلّفت^(٨)، وإن سكت قالوا: عَيَيْت^(٩)، وإن تواضعت قالوا: افتقرت، وإن
أنفقت قالوا: أسرفت، وإن اقتصدت قالوا: بَخِلْت.

(١) فأنا أرعى مودّتهم دائماً وأصون عهودهم وأحافظ جهدي على صداقتهم، وأدع لهم بعد ذلك أن يفعلوا معي
ما يرون فعله.

(٢) وماذا يفعل بي هؤلاء الكرام إلا أن يَجْزُونِي خير الجزاء، أو يُثْنُوا عَلَيَّ بالثناء المستطاب. والثناء في نفسه
جزاء خير جزاء.

(٣) لا بك ما ساءك: دعاء له بأن يُبعد الله عنه السوء.

(٤) الدالة (بتشديد اللام): الدلال، والتدلل، والجرأة عليك بسبب الوجاهة عندك.

(٥) راءيت: راءيته: أريته على خلاف ما أنا عليه.

(٦) شَهَرْت: فَضَحْتُ.

(٧) جَهَلْتُ: تَسَافَهْتُ.

(٨) تكلّفت: تكلف الأمر: تَجَشَّمَهُ وَتَحَمَّلَهُ على مشقة وعسرة وعلى خلاف عادته.

(٩) عَيَيْت: عَيِي في المنطق: حَصِرَ، ولم يقدر على النطق.

وقال أبو بكر: قارب إخوانك في خلائقهم تسلم من بوائقهم^(١)، وترتع^(٢) في حدائقهم.

وقال أعرابي: دُعْ مُصارمة أخيك، وإن حثا^(٣) التراب في فيك.

وقال عمرو بن العاص: من أفحش الظلم أن تلزم حقك في مال أخيك فيبذله لك، ويلزمك حقه في تعظيمك إياه فتمنعه، فإذا أنت قد جشمت^(٤) إفضال المنعمين، وابتذلت^(٥) ابتذال الأكفاء^(٦).

وقال أعرابي لصديق له: كنْ ببعضك لي؛ حتى أكون بكلي لك.

وفي «كلیلة ودمنة»: صحبة الأخيار تُورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرّت على التبن حملت تبنًا، وإذا مرت على الطيب^(٧) حملت طيبًا.

وقال أيضًا: المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب بطيئة الانكسار هيئة الإعادة. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخار التي يكسرُها أدنى شيء ولا جبر له.

قال عثمان بن عفان: ما ملّك رفيقًا، من لم يتجرّع^(٨) بغیظَ ريقًا.

قال أبو عثمان النيسابوري - وكان من الزُّهاد العُباد -: أنكر^(٩) عليّ أبو حفص أيام

(١) بوائقهم: جمع بائقة، وهي الداهية.

(٢) ترتع في حدائقهم: تأكل ما تشاء في رَعْد، وتَنعم وتلهو.

(٣) حثا التراب في فيك: قبضه ورماه، أو صبّه في فمك.

(٤) جشمت: جشمته الأمر: كلّفته إياه فتكلّفه على مشقة.

(٥) ابتذلت: امتنّته.

(٦) الأكفاء: الأمثال والأنداد.

(٧) الطيب: ذو الطيبة وهي مصدر طاب، تقول: «طاب الشيء» أي لذّ وزكا وحسن وحلا. والطيب: كل ذي رائحة عطرة كالْمِسْك والعنبر والدهن ونحو ذلك مما يُتَعَطَّرُ به.

(٨) تجرّع الغیظ: كظمه.

(٩) أنكر عليّ شيئًا: عابه، ونهاه عنه.

ملازمتي وخدمتي له - شيئاً، فضِقتُ ذرعاً، ووددت لو أُنِي بِطَيٍّ^(١) الأرض حتى لا يراني، فخيّل إليه ذاك مني، فلما رأيته قال لي: يا أبا عثمان، لا تثق بمودة من لا يحبك إلا معصوماً^(٢)، قال: فسكنتُ، وعدت إلى العادة.

قال الأصمعي فيما روى لنا المرزباني عن ابن دريد عن عبد الرحمن عن الأصمعي، قال أعرابي: أعجز الناس من قصّر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

قيل لمسور بن مخزومة الزهري: أي الندماء^(٣) أحب إليك؟ قال: لم أجد نديماً كالحائط، إن بصقتُ في وجهه لم يغضب عليّ، وإن أسررتُ إليه شيئاً لم يُفْشِه عني. قال ابن منذر: كنت أمشي مع الخليل فانقطع شسع^(٤) نعلي، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع؟ قال أواسيك بالحفاء.

وقال بعض السلف: إياك وكُره الإخوان؛ فإنه لا يؤذك إلا مَنْ تعرف، وأنشد:

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ولا بينه ودُّ به نَتَعَرَّفُ^(٥)

فما سامنا ضيماً، ولا شَفَّنا أذى من الناس إلا مَنْ نوُدُّ ونألفُ^(٦)

قال شبيب بن شيبّة: إخوان الصديق خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرخاء^(٧).

(١) طي الأرض: ضِمن الأرض وداخلها، تقول: «طوى فلان الغلّ في قلبه» أي في ضِمن قلبه.

(٢) معصوماً: عصَمَ الله فلاناً من المكروه: حَفِظَه ووَقَّاه.

(٣) الندماء: جمع نديم، وهو المنادم على الشراب، وربما تُوسَّع فيه فاستُعْمِل لكل رفيق ومصاحب.

(٤) الشَّسْعُ: قِبال النعل: وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

(٥) جزى الله خيراً كل من لا تربطنا به رابطة صداقة أو مودة أو معرفة.

(٦) سامنا: سَامَهُ خَسَفًا: أي أُولاه إياه، وأراده عليه. ضَيِّمًا: ظُلُمًا. شَفَّنا: هَزَلْنَا، وَأَوْهَنَّا.

إن من لا تربطنا به رابطة صداقة لا يُقدِّم إلينا إساءة، ولا ينالنا منه ضرر، ولا يلحق بنا من ورائه ظلم أو أذى،

وإنما نصب هذه الوليات فوق رؤوسنا ممن نوّدْهم ونألفْهم!

(٧) الرخاء (بالفتح): سَعَة العيش.

وعدة^(١) في البلاء^(٢).

قال أعرابي لصاحب له: أنزلني من نفسك منزلة عبد، أنزلك من نفسي منزلة مولى^(٣)؛ فإنك إذا فعلت ذلك، تطاوعنا^(٤) بلا أمر، وتناهينا بلا زجر^(٥). وإذا كان رقيبنا العقل الهادي إلى الرضا، الذائد عن الأذى، فلا عتب يسود به وجهه، ولا عذر يطرّف منه طرّف^(٦)، والسلام.

وقال كاتب: أما بعد، فقد استجبت لإخائك ثقةً مني بوفائك، فلما أن آنست فضلك، وسرت مسيرك، واستفرغتنى مودتك، واستغرقتني مقتك^(٧). فاجأتني بتغير لونك، وانزواء ركنك^(٨)، وفاحش لفظك، وشانئ لحظك^(٩).

قال شاعر:

سَتْنُكْتُ - نَادِمًا - فِي الْأَرْضِ مِنِّي وَتَعْلَمُ أَنَّ رَأْيَكَ كَانَ عَجْزًا^(١٠)

وقال الراجز:

إِن الرِّفِيقَ لَاصَقٌ بِقَلْبِي إِذَا أَضَافَ جَنْبَهُ بِجَنْبِي

(١) العُدَّة: ما أعددتَه لحوادث الدهر من المال والسلاح.

(٢) البلاء: الغمُّ يُبْلِي الجسم.

(٣) المولى: الصديق.

(٤) تطاوعنا: أطاع كل منا صاحبه دون أمر من أحدهما للآخر.

(٥) تناهينا بلا زجر: انتهى كل منا عما ينهاه صاحبه عنه من غير نهي أو منع.

(٦) يطرّف: طَرَفَ البصر: تحرّك جفناه، وأطبق أحد جفنيه على الآخر. الطرّف: العين.

(٧) مقتك: حبك.

(٨) انزواء ركنك: انقباضه وانطواؤه، يقصد ابتعاده عنه وهجره إياه.

(٩) الشانئ: المُبغض، وقيل بُغضًا مختلطًا بعداوة وسوء خلق. اللَّحْظ (بالفتح): باطن العين.

والمقصود بشانئ لحظك: بنظرائك المُنبئة عن عداوتك وكراميتك لي. وفيما تنبئ عنه العين. قال الشاعر:

والنفس تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها

(١٠) سَتْنُكْتُ: نَكَت الأرض: أثّر فيها بعود أو نحوه، ويُقال: أتيتَه وهو يَنكت، أي يفكر، وكأنه يحدث نفسه.

أي إنك ستندم على هجرك لي وستدرك يومًا أن رأيك فيّ لم يكن حازمًا سديدًا.

أَبْذُلْ نَصْحِي، وَأَكْفُ لِعَبِي لَيْسَ كَمَنْ يُفْحَشُ أَوْ يَغْلَنِي^(١)
اعْلَنِي: تَهِيًّا لِلشَّرِّ.

قال بعض السلف: أبذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك^(٢) ومَحْضُوكَ^(٣)،
ولعدوك عدلك وإنصافك.

وقال شاعر:

تَرْكُ التَّعْهُدِ لِلصَّدِيقِ قِيقٌ، يَكُونُ دَاعِيَةَ الْقَطِيعَةِ^(٤)

قال أبو بكر في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من نظرة غيظ نفذت من عين حاسد،
غائبها حرب، وشاهدها سلم^(٥).

وقال شاعر:

فَلَا تَقْطَعْ أَحَاً مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الْكَرِيمُ^(٦)

وَأُنْشِدُ:

إِذَا أَنْكَرْتَ أَحْوَالَ الصَّدِيقِ فَلَسْتَ مِنَ التَّحِيلِ فِي مَضِيقٍ^(٧)

(١) إن رفيقي إذا دنا مني، وأدام صلته بي، فإنه يلتصق بقلبي ويحلّ به. فأبذل له نصيحتي فيما ينوبه من أمر،
وأكون معه في كل موقف جاداً أعينه بكل ما ينبغي أن يُعان به، ولن أكون معه فاحشاً سفيهاً متهيناً دائماً للشّر
والخصام لأوهي الأسباب.

(٢) الرّفْد (بكسر الراء): العطاء والصلة.

(٣) محْضُوكُ: حضورُك.

والمعنى: اجعل لمعارفك -الذين تعرفهم وليس بينك وبينهم صداقة- اجعل لهم عطاءك وصلتك.

(٤) إن ترك رعاية الصديق وعدم تعهده دائماً بالمودة، يؤديان إلى الهجر والقطيعة بين الصديقين.

(٥) يستعِذ بالله من النظرات المبعثرة عن حقد وغيظ، تلك التي تُبدي لك سلاماً ومحبة، وتُخفي من ورائهما
حرّاً وعداوة.

(٦) لا تقطع أحاك لذنب ارتكبه، ولكن اغفره له، وسامحه فيه شأن الكرام من الناس؛ فإنه كما يقول الشاعر:
«مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ».

(٧) أَنْكَرْتَ: استقْبِحت. التَّحِيلُ: الاحتيال، واتخاذ الحيلة. المضيق: ما ضاق من الأماكن والأُمُور.

إذا استقْبِحت أحوال صديقك ورأيت منه أعمالاً تستنكرها، فلا يكن ذلك داعياً إلى القطيعة بينك وبينه،
واستعمل الحيلة في موقفك منه.

طريقٌ كنت تسلكه زماناً فأوَعَرَ، فاجْتَنَبَهُ إِلَى طَرِيقٍ^(١)

وقال كاتب:

عرضتُ عليك مودتي فأعرضتَ عني، وأعرض عنك غيري فتعرضتَ له، فالله المستعان على فوت^(٢) ما أَمَلْتَهُ لديك، وبه التعزّي عما أُصِبتُ به منك.

مرَّ بخالد بن صفوان صديقان، فعرج^(٣) عليه أحدهما، وطواه^(٤) الآخر، فقيل له في ذلك، فقال: عرج علينا هذا لفضله، وطوانا ذاك لثقتة.

(ويروى في مثله: عَرَجَ علينا هذا بالمِقة. وانصرف عنا ذاك بالثقة).

قال شاعر:

أَعَاتَبْتُ لَيْلَى، إِنَّمَا الْهَجْرُ أَنْ تَرَى صَدِيقَكَ يَأْتِي مَا أَتَى، لَا تَعَاتِبُهُ^(٥)
قال أعرابي لصاحب له: قَدْ دَرَنْ^(٦) ذَاتُ بَيْنَا^(٧). فَهَلُمَّ إِلَى الْعَتَابِ لِنَغْسِلَ بِهِ هَذَا
الدَّرَنْ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ كَانَ كَمَا تَصِفُ؛ فَذَاكَ لِبَادِرَةٍ^(٨) سَاءَتْكَ مِنِّي، إِمَّا لَكَ، وَإِمَّا
لِي^(٩)، فَهَلَا أَخَذْتَ بِقَوْلِ الْقَائِلِ:

(١) أَوَعَرَ الطريقُ: صَعُبَ.

فإن كنت تعامله بطريقة خاصة، فدع هذه الطريقة، واتخذ سواها، فلعلها تكون أكثر مناسبة له، أو لعلها ترده عما تستنكره منه.

(٢) فَوْتُ الشيء: ذهابه وعدم إدراكه.

(٣) عَرَجَ: وَقَفَ، وَلَبَثَ.

(٤) طواه: أَعْرَضَ عَنْهُ.

(٥) إن أساء إليك صديقك ولم تعاتبه فقد هجرته، فالعتاب صلة، وترك العتاب قطيعة.

يقول شاعر: «أما العتاب فبالأحبة أُلْحِقُ». ويقول آخر: «ويبقى الودُّ ما بَقِيَ الْعَتَابُ».

(٦) دَرَنْ الإنسان: أَصِيبَتْ رِئْتُهُ بِالْدَّرَنِ، وهو من أمراض الرئتين.

(٧) ذات البين: الوصل والصدقة.

(٨) البادرة: الحدة، أو ما يندُر من الإنسان عند حدته من خطأ وسقطات.

(٩) إِمَّا لَكَ، وَإِمَّا لِي: أي إما أن تكون هذه الزلة خطأ منك إليّ، أو خطأ مني إليك.

إذا ما أتت من صاحب لك زلةً فكُن أنت مُحْتالاً لزلته عُذراً؟^(١)
والله لا صفت مودَّتنا، ولا عذب شربها لنا إلا بعد أن يغفر كل واحد منا لصاحبه
ما يغفره لنفسه من غير من^(٢) ولا أذى.

قال شاعر:

إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل^(٣)
ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن جانب السيف مَرَحَل^(٤)
قال العوامي: الصديق يرتفع عن الإنصاف، ويجل أيضاً عن الهجران؛ لأن
الإنصاف ينبغي أن يكون عامًّا مع الناس كلهم، وأما الهجر فالعاقل لا يسرع إليه لعدم
الإنصاف بل يستأنى ويقف ويكظم ويتوقع ويرى أن العارض في الأمر لا يزال به الأمر
الثابت والعرق النابت^(٥).

قال شاعر:

إذا رأيتُ ازوراراً من أخي ثقةً ضاقت عليّ برحب الأرض أوطاني^(٦)
فإن صددت بوجهي كي أكافئه فالعين غضبي، وقلبي غير غضبان^(٧)

(١) إن وقعت من صاحبك زلة: أي خطيئة وسقطة، فتولّ أنت البحث عن عذر له فيها كأنما أنت فاعلها! فذلك شأن
كرام الناس الذين لا يكتفون بقبول العذر إذا ما أبداه الجاني، ولكنهم يقومون بتلمس الأسباب والمعاذير له.
(٢) من: من على فلان بما صنع: عدّ له ما فعله له من الصنائع، مثل أن يقول له: أعطيتك، وفعلت لك. وهو تَكْدِيرٌ
وتعْيِيرٌ تنكسر منه القلوب.

(٣) إنك إن لم تعامل أخاك بمثل ما يعاملك به من مودة، فإنه يوشك أن يهجرك ويقطع ودك، وهذا إن كان عاقلاً
حكيمًا لا رعونة فيه.

(٤) مَرَحَل: مُتَنَأى، وموضع يُرْحَل إليه.

أي إن أخاك هذا الذي لم تعامله بمثل مودته قد يشتط، ويتجاوز حدود العقل والحكمة، ويلجأ إلى السيف
يحاربك به ولا يرضى عنه بديلاً، ويجد أنه لا مُتَنَأى له عنه ولا مُتَنَدَح.

(٥) العرق النابت: العرق: أصل كل شيء. والنابت: الناشئ الخارج من الأرض.

(٦) إن وجدتُ عدولاً وانحرفاً ممن أثق بمودتهم، فإن أوطاني الرحبة تضيق بي.

(٧) ولكني إن أعرضت عن صديقي هذا الذي أعرض عني؛ لأجزيه على ما قدم إليّ من إساءة، فالحق أن عيني
-دون غيرها- هي الغضبي! أما قلبي فما به من غضب عليه ولا حنق.

وقريب من ذلك قول الذي يقول: «لساني عليه وقلبي معه».

وقال العتبي:

وصاحبٍ لي أبْنِيهِ وَيَهْدُنِي لا يَسْتَوِي هَادِمًا يَوْمًا وَبَنَاءً^(١)
إِذَا رَأَيْتَنِي فَعَبْدٌ خَافَ مَعْتَبَةً وَإِنْ نَأَيْتَ، فَشَمَّ الْغِمْرُ وَالْدَاءُ^(٢)
بَلَغَ الإسْكَندَرُ الْمَلِكُ مَوْتُ صَدِيقٍ لَهُ فَقَالَ: مَا يَحْزُنُنِي مَوْتُهُ، كَمَا يَحْزُنُنِي أَنِّي لَمْ
أَبْلُغَ مِنْ بَرِّهِ مَا كَانَ أَهْلُهُ مِنِّي.

قال ابن أبي ليلى: لا أماري^(٣) صديقي. فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه.
وكان بين القاضي أبي حامد المرورودي وبين ابن نصرويه العداوة الفاشية^(٤).
والشحناء الظاهرة، فكان إذا جرى ذكر ابن نصرويه أنشد:

وَأَبَى ظَاهِرُ النِّشَاءِ إِلَّا طَعُ سِيَانًا، وَقَوْلٌ مَا لَا يُقَالُ^(٥)
وكان يقول: والله إنني بباطنه في عداوته، أوثق مني بظاهر صداقة غيره؛ وذلك لعقله
الذي هو أقوى زاجر له عن مَسَاةَتِي إِلَّا فيما يدخل في باب المنافسة؛ ولهذا استمر
أمرنا أربعين سنة من غير فحاشة^(٦) ولا شناعة^(٧). ولقد دُعيت إلى الصلح، فأبيت،

(١) لي صاحبٌ أعمل دائماً على إعلاء شأنه وتقوية ركنه، ويعمل هو دائماً على الحط من شأنه وعلى هدم
أركانها، فهل أستوي معه؟
وقريب من ذلك قول أحد الشعراء:

بين النجوم أناسٌ قد رفَعْتُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَسَدُّوا بَابَ أَرْزَاقِي
وَكُنْتُ نُوحٌ سَفِينٍ أُرْسِلَتْ حَرَمًا لِلْعَالَمِينَ، فَجَاوَزَنِي بِأَغْرَاقِي

(٢) المعتبة: الغضب. الغمْرُ (بكسر الغين): الحقد والغِلّ. الداء: المرض والعلّة.
إن رأيتني هذا الصاحب فإنه يكون كالعبد الذي يخشى غضبي، ويرتجف فرقا من أن أنزل عقابي به، وإن بعدت
عنه فهناك الحقد والضغن والعلّة والداء.

(٣) لا أماري صديقي: لا أجادله ولا أنازله ولا أطعن في قوله ولا أعترض عليه.

(٤) العداوة الفاشية: المنتشرة الذائعة.

(٥) النشأة: نشأت السحابة: ارتفعت وبدت، وذلك في أول ما يبدأ منه.

أي إن ظاهر الأمر فيما بيننا يوجب مجاوزة الحد، والتكلم بأسوأ الكلام الذي لا يجوز أن يقال.

(٦) الفحاشة: قُبْحُ القول، والتشنيع.

(٧) الشناعة: الشتم، والفَضْح.

فقلت: لا تحرك الساكن منا؛ فلقد ديم العداوة بالعقل والحفاظ^(١) من الدمام والحرمة، ما ليس لحديث الصداقة بالتكلف والملق^(٢).

ولقد وقفني مرة على ضربة تأتت^(٣) له عليّ كان فيها البوار، فكفّ عنها واتقى وأخذ بالحسنى، فأريته أختها - وكانت خافية عنده - فقال: لولا علمي بأنك تسبق إلى مثل هذه ما قابلتك بتلك. فقلت: هو والله ذاك، والله لقد ضرّني ناس كانوا يتحلون^(٤) مودتي ويتبارون في صداقتي؛ لضعف نحائزهم^(٥) ولؤم غرائزهم ولقد ثبت لي هو في عداوته على عقل وتذمّم^(٦) أفضيا بهما إلى سلامة الدين والنفس والحال.

وورد معز الدولة هذا المِصر^(٧)، فسأله عني سرّاً، فأثنى خيراً وقال: ما قطن مصرنا غريبٌ أعظم بركة منه، وإنه لجمالنا عند المباهاة، ومفزّعنا عند الخلاف. وسألني معز الدولة عنه سرّاً، فأثّنت خيراً، وقلت: أيها الأمير، والله ما نشأت فتنة في هذا المِصر إلا وهو كان سبب زوالها وإطفاء نائرتها^(٨) وإعادة الحال إلى غضارتها^(٩) ونضارتها^(١٠).

فقال معز الدولة لأبي مخلد سرّاً: كيف الحال بينهما؟ - يعنينا - فقال: بينهما بُؤ لا

(١) الحفاظ: الرّعاية، والأئنة.

(٢) إن العداوة القديمة القائمة على العقل والحكمة والأئنة، لها عندي حقّ ومهابة وذمة، أكثر مما للصداقة الحديثة القائمة على الظاهر دون الباطن، وعلى خلاف العادة، وعلى الملّ، وعلى أن يعطيك صاحبك بلسانه ما ليس في قلبه.

(٣) تأتت له: تهيأت له، وسهل سبيلها إليه.

(٤) يتحلون مودتي: يدعونها كذباً.

(٥) لضعف نحائزهم: لضعف طبائعهم.

(٦) تذمّم: استنكأ، يقال: «لو لم أترك الكذب تأثماً، لتركته تذمّماً» أي مجانبه للذم.

(٧) المِصر: المدينة.

(٨) النائرة: العداوة والشحناء - مشتقة من النار - يُقال: «سعت في إطفاء النائرة» أي تسكين الفتنة.

(٩) الغضارة (كسحابة): النعمة، وطيب العيش.

(١٠) نضارتها: حُسْنها ورؤنقها.

يُنَادِي وليده^(١)، وَتَعَادٍ لَا يَلِينُ أَبَدًا شديده. فقال: لئن كان كما تقول فإنهما ركننا هذا البلد، وَعُدَّتَا هذا السَّوَادَ، أَجْعَلُهُمَا عَيْنِي أَبْصِرَ بِهِمَا أَحْوَالَ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَأَعُوْلَ عَلَيْهِمَا فِيمَا يَرِيَانُ وَيُشِيرَانِ.

فخُلا بِي أَبُو مُخَلَّدٍ وَبِصَاحِبِي، وَتَقَدَّمَ إِلَيْنَا عَنْ صَاحِبِهِ بِمَا زَادَنَا بِصِيرَةً وَتَأْلَفًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ^(٢).

ثُمَّ قَالَ أَبُو حَامِدٍ: وَاللَّهِ إِنْ عَادَاةُ الْعَاقِلِ لِلْأَذَى وَأَحْلَى مِنْ صَدَاقَةِ الْجَاهِلِ؛ لِأَنَّ الصَّدِيقَ الْجَاهِلَ يُدِلُّ عَلَيْكَ بِصَدَاقَتِهِ، وَيَصْلِيكَ بِحَرِّ جَهْلِهِ^(٣). وَالْعَدُوُّ الْعَاقِلَ يَتَحَامَلُ بِعَدَاوَتِهِ، وَيَهْدِي إِلَيْكَ فَضْلَ عَقْلِهِ وَرَأْيِهِ^(٤). وَمَنْ نَكَدَ صَدَاقَةَ الْجَاهِلِ أَنْكَ لَا تَسْتَطِيعُ مَكَاشَفَتَهُ حَيَاءً مِنْهُ وَإِثَارًا لِلرَّعَايَةِ عَلَيْهِ. وَمَنْ فَضَلَ عَدَاةُ الْعَاقِلِ أَنْكَ تَقْدِرُ عَلَى مِغَالَبَتِهِ بِكُلِّ مَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَيْكَ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى إِلَى وَقْتِنَا هَذَا مُتَصَادِقَانِ عَلَى الْعَقْلِ وَالِدَيْنِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَمَنْ يَتَحَرَّى أَخْبَارَهُمَا وَيَقْفُو آثَارَهُمَا، يَقِفُ عَلَى غُورٍ بَعِيدٍ. هَذَا مَعَ الْعُنْجُهِيةِ^(٥) الْمَصْحُوبَةِ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْعَجْرَفِيَّةِ^(٦) الْمَعْتَادَةِ أَوَّانَ الْكُفْرِ. فَلَمَّا أَنْارَ اللَّهُ قُلُوبَهُمَا بِالْإِيمَانِ رَجَعَا إِلَى عَقْلِ نَصِيحٍ، وَدِينِ صَحِيحٍ، وَعَرَفَانِ بِالْعُرْفِ^(٧)

(١) النَّبِيُّ: التَّجَافِي والتَّبَاعِدُ.

وقوله: «بَيْنَهُمَا نُبُوٌّ لَا يُنَادَى وَلِيده» أَيُّ أَنَّ بَيْنَهُمَا قَطِيعَةٌ وَتَبَاعُدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَمَعَ مِنْ وَرَائِهِمَا أَيُّ شَيْءٍ، كَالزَّوْجَيْنِ الْمُتَبَاعِدَيْنِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلِدَا وَلِيدًا.

(٢) تَأْلَفًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ: وَصُولًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، تَقُولُ: «أَلَّفَ الشَّيْءَ» أَيُّ وَصَلَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

(٣) يُدِلُّ عَلَيْكَ: يَجْتَرِي عَلَيْكَ. يَصْلِيكَ: صَلَّى الشَّيْءُ: أَلْقَاهُ فِي النَّارِ لِلْإِحْرَاقِ.

إِنَّ الصَّدِيقَ الْجَاهِلَ يَجْتَرِي عَلَيْكَ وَيَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ مَعَكَ، وَيَحْتَمِلُكَ مِنْ جَهْلِهِ نَارًا تَكَادُ تَحْتَرِقُ مِنْ لَهَبِهَا.

(٤) الْفَضْلُ: الزِّيَادَةُ.

(٥) الْعُنْجُهِيةُ: الْجَهْلُ وَالْحُمُقُ، وَالْكِبَرُ وَالْعِظَمَةُ، وَالْجَفَاءُ.

(٦) الْعَجْرَفِيَّةُ: التَّكَبُّرُ، وَالْبَغْيُ، وَالْجَفْوَةُ فِي الْكَلَامِ، وَالْحُرْقُ، وَقَلَّةُ الْمَبَالَاةِ.

(٧) الْعُرْفُ: ضِدُّ التُّكْرِ، وَهُوَ كُلُّ مَا تَعْرِفُهُ النَّفْسُ مِنَ الْخَيْرِ وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، تَقُولُ: «أَوَّلَاهُ عُرْفًا» أَيُّ مَعْرُوفًا.

والتُّكْر^(١)، ونهوض بكل ثقل وخِفَّ^(٢).

وإني لأرحم الطاعن فيهما، والنائل^(٣) منهما لضعف عقله ودينه وذهابه عما خُصَّ به، وعمَّا فيه، وبرِّئاً عنه، ورَقياً إليه.

واندفع في هذا وشبهه وكان والله بليلاً الريق، يستحضر كيف شاء بالطويل والعريض والجليل والدقيق.

أطلنا هذا الفصل على ما اعتنَّ^(٤)، والمعذرة فيه مقدمة إليك، وأنت أولى من يقبلها. وزادني تفضلاً من عنده عليها جامعاً لما شئت من الكرم، حافظاً لما قد ضاع من الذم.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: شر الإخوان من يُكَلِّفُ له^(٥)، وخيرهم من أحدث لك رؤيته ثقة به، وأهدت إليك غيبته طمأنينة إليه^(٦).

قال شاعر:

لو قيل لي: خُذْ أماناً من أعظم الحَدَثَانِ

لما أخذتُ أماناً إلا من الإخوان^(٧)

وأنشد عمر بن عبد العزيز:

(١) التُّكْر: المنكر، والأمر الشديد القبيح. والمقصود أنه على علم ومعرفة بكل شيء.

(٢) الخِفَّ (بالكسر): الخفيف: يُقال: «يَزِلُّ الغَلامُ الخِفَّ عن صهواته».

(٣) النائل منهما: نال من عدوه مطلوبه: أي بلغ منه مقصوده.

(٤) على ما اعتنَّ: على ما ظهر أماناً.

(٥) يكلف له: كَلَفَ الشيء: احتمله على مشقة وعُسْر، مثل تَكَلَّفَهُ.

والمعنى: أن شرَّ إخوانك من تحتله -كارهاً- على مشقة وعُسْر وضيق به كأنك تتجرَّعه.

(٦) وخير إخوانك من إذا رأيته وثقت به واطمأنت إليه، وشعرت بالسرور والغبطة من لقائه، ومن يغيب عنك فلا تستريب من غيابه وتحسب غيابه قطيعة وهجرًا، ولكنك تظل على اطمئنانك وثقتك بصداقته.

(٧) الحَدَثَانِ: حَدَثَانُ الدهر: نوابه وحوادثه. إذا نصح لي ناصح بأن أتخذ أماناً ووقاية من أفدح حوادث الدهر، فلن أتخذ الأمان والوقاية إلا من الإخوان؛ فإنهم سبب البلاء، ومصدر الشقاء.

إني لأمنح من يواصلني مني صفاءً ليس بالمدق^(١)
وإذا أخ لي حال عن خلق داوَيْتُ منه ذاك بالرفق^(٢)
والمرء يصنع نفسه، ومتى ما تبله ينزع إلى العرق^(٣)

وأنشد آخر:

يا أكرم الناس في ضيق وفي سعة وأنطق الناس في نظم وفي خطب^(٤)
إننا وإن لم يكن ما بيننا نسب فرُتَبَةُ الودّ تعلقو رتبة النسب^(٥)
كم من صديق يراك الشهد عن بُعد ومن عدو يراك السّم عن قرب^(٦)
وأنشد آخر:

فما منك الصديق، ولست منه إذا لم يعنه شيء عناكا^(٧)

قال أعرابي: المرء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقد الوثيقة.

قال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف مَنْ لا يجد بداً من معاشرته، حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً.

قال أبو بكر: حق المجلس إذا دنا أن يُرحَّبَ به، وإذا جلس أن يُوسَّعَ له، وإذا حدث

(١) إن الذي يواصلني ويحافظ على ودي سيجد مني ودًا خالصًا صافيًا لا تشوبه شائبة، ولا يكدره شيء.
(٢) حال: تغيَّر، يقال: «حال اللون»، وحال العهد إذا تغيرت أخلاق صديق لي فأني لا أقطع صلتني به، ولكنني أعالج هذا التغير بالرفق واللين عسى أن يرجع عنه ويعود إلى وده القديم.

(٣) ينزع: يحنّ. العرق (بكسر العين): أصل كل شيء.

إن الإنسان قد يستطيع أن يصنع نفسه صنعاً جديداً مغايراً لما أنشأه عليه أبواه، ولكنك عندما تبلوه وتختبره بشيء من الأشياء فإنه يرجع إلى أصله ويحنّ إلى فطرته الأولى التي خلق عليها.

(٤) ينادي الشاعر صديقاً له، فيصفه بأنه أكرم الناس في السعة والضيق، وفي الغنى والفقر، وبأنه أفصحهم في الشعر والنثر.

(٥) ويعلن إلى صديقه هذا أنه وإن لم تقم بينهما رابطة من نسب، فإن الود الذي بينهما أقوى من النسب وأرفع مكاناً.

(٦) وهناك أصدقاء كثيرون يرونك شهداً حلواً وأنت بعيد عنهم، فأولئك هم الأوفياء البررة.. وهناك من يرونك سماً ناقماً وأنت قريب منهم، وأولئك هم الأعداء الألداء.

(٧) ليس منك الصديق، ولست منه في شيء، إذا لم يشغله ولم يهتم به الأمور نفس الذي يشغلك ويهمك.

أَنْ يُقْبَلَ عَلَيْهِ، وَإِذَا عَثَرَ أَنْ يُقَالَ^(١)، وَإِذَا أَنْقَصَ أَنْ يُنَالَ^(٢) وَإِذَا جَهِلَ أَنْ يُعْلَمَ.

كان بعض السلف يقول في دعائه: اللهم احفظني من أصدقائي. فُسِّلَ عن ذلك فقال: إني أحفظ نفسي من أعدائي.

قال أبو سليمان: إذا كانوا عندك أصدقاء فما أقرَّ عينك بهم؛ لأنك محفوظ فيهم، وإن كانوا غير أصدقاء فما وجه فكرك فيهم؟

وقال الشاعر:

تودُّ عدوي، ثم تزعم أنني صديقك، ليس التَّوَكُّ عنك بعازب^(٣)
وليس أخي من ودَّني رأي عينه ولكن أخي من ودَّني وهو غائب^(٤)
ومن ماله مالي، إذا كنت مُعَدِّمًا ومالي له، إن عَضَّ دهرٌ بغارب^(٥)
فما أنت إلا كيف أنت ومرحبا وبالبيض رَوَّاع كروغ الثعالب^(٦)

(١) عَثَرَ: زَلَّ وكَبَا. يُقَالُ: يُصْفَحُ وَيُتَجَاوَزُ عَنْهُ.

أي إن من حق الجليس أنه إذا كبا به الحظ، أو عثرت به الأيام أن تكون عونًا له على النهوض من كبوته.

(٢) ومن حقه أيضًا أنه إذا ضاق رزقه، أو ساء عيشه، أن يدركه نوالنا وعطاؤنا حتى لا يحس الضيق أو الضنك.

(٣) التَّوَكُّ (بالفتح ويضم): الحُمُق. بعازب: ببعيد، وبغائب.

تُصادق أعدائي وتؤاخيهم، ثم تدعي أنك صديق لي؟ وهل يكون صديقًا إلا من يعادي أعدائي؟ إنك في هذا لأحمق قليل العقل.

(٤) غائبي: غائبك: ما غاب عنك.

ليس أخًا وصديقًا من يبذل لي وده عندما يراني، ولكن أخِي الحق هو من يبذل لي وده وأنا عنه بعيد.

(٥) الغارب: الكاهل، وقيل ما بين السنام والعنق، وهو الذي يُلقَى عليه خِطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء،

ثم استعير للمرأة وجعل كنايةً عن طلاقها ف قيل لها: «حَبْلُكَ على غاربك» أي أذهبي حيث شئت، أي أنتِ مرسلَةٌ مُطْلَقة غيرُ مشدودة ولا مُمسَّكة بعقد الزواج.

والمعنى: وإن أخِي الحق أيضًا هو من يصير ماله وما يملك، مالا وملكا لي عندما أكون مفتقرًا إليهما، ومن

يكون مالي مالا له إذا عَضَّ الدهر كاهله ورماء بنكباته وبلاياه.

(٦) رَوَّاع: راغ عن الطريق: حاد عنه، وذهب هكذا وهكذا مكرًا وخديعةً.

والمعنى: ما أنت إلا صاحبُ ألفاظ وكلمات معسولة تلقاني بها عند الرخاء، فإذا جدَّ الجدَّ ولمعت السيوف،

استخفيت ورُغْتَ رَوَّاعًا الثعالب.

قيل لبزرجمهر: ما بال معادة الصديق أقرب مأخذاً من مصادقة العدو؟ قال: لأن إنفاق المال أهون من كسبه، وهدم البناء أسهل من رفعه، وكسر الإناء أيسر من إصلاحه. قال أبو سليمان: لم يعمل شيئاً في الجواب؛ لأنه مائل مسألة السائل بمسألة مثلها، فلو سأله السائل عن هذه كلها ما كان جوابه؟ ثم أجاب هو بكلام لا يدخل في هذه الرسالة؛ لأنه من الفلسفة التي هي موقوفة على أصحابها لا نزاحمهم عليها، ولا نماريهم فيها.

وقال الشاعر:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر، أو لام الصديق فأكثر^(١)
قال معاوية: المودة بين السلف، ميراث بين الخلف^(٢).

قال أبو العتاهية: قلت لعلي بن الهيثم: ما يجب للصديق؟ قال: ثلاث خلال: كتمان حديث الخلوة، والمؤاساة عند الشدة، وإقالة العثرة.

قال عبد الملك بن صالح: مشاهدة الإخوان أحسن من إقبال الزمان، وألذ من نيل الأمان.

وقال بزرجمهر: الإخوان كالسلاح: فمنهم من يحب أن يكون كالرمح يُطعن به من بعيد، ومنهم كالسهم يُرمى به ولا يعود إليك، ومنهم كالسيف الذي لا ينبغي أن يفارقك.

قال شاعر:

(١) يقعد بعض الناس عن السعي وراء كسب قوتهم ومعاشهم، يشكون الفقر ويلومون الأصدقاء الذين يكفون أيديهم عنهم، وهم في الحق أولى باللوم والتقريع.

(٢) إن المودة بين الأصدقاء ميراث يتوارثه الأبناء عن الآباء، فيودون من كان يود آبائهم، ويعادون من كانوا يعادون. وقريب منه قول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوداً أبوه

وَأَبْنَيْتُ «عَمْرًا» بَعْضَ مَا فِي حَوَائِجِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ مَا أَتَجَرَّعُ^(١)
وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي حَفِيزَةٍ إِذَا جَعَلْتَ أَسْرَارَ نَفْسٍ تَطْلُعُ^(٢)
وَسَمِعْتَ أَبَا عَثْمَانَ - أَحَدَ الْخَالِدِيِّينَ - يَحْكِي أَنَّ عِيَارًا^(٣) سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: إِذَا عَزَّ
أَخُوكَ فَهَنْ، فَقَالَ لِلْقَائِلِ: أَخْطَأْتَ، إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَأَهِنْ سِيَالَهُ^(٤).

وَأَنَا أَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا الْحَكَمُ مِنْ رَجُلٍ نَبِيهِ لَهُ فِي الْحِكْمَةِ قَدَمٌ، وَفِي الْفَضْلِ قَدَمٌ،
لَتَأَوَّلَهُ^(٥) مُتَأَوِّلٌ عَلَى وَجْهِ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ، وَلَكِنَّهُ رُويَ عَنْ عِيَارٍ، وَهَذَا الرَّهْطُ^(٦) لَيْسَ
لأَحَدٍ فِيهِمْ أُسُوءَةٌ، وَلَا هُمْ لِأَحَدٍ قُدُوءَةٌ؛ لَغَلْبَةِ الْبَاطِلِ عَلَيْهِمْ، وَبُعْدِ الْحَقِّ عَنْهُمْ؛ وَلِأَنَّ
الدِّينَ لَا يَلْتَنَاطُ^(٧) بِهِمْ وَالْفِتْوَةَ^(٨) الَّتِي يَدَّعُونَهَا بِالْإِسْمِ لَا يَحْلُونَ بِهَا فِي الْحَقِيقَةِ.
وَكَيْفَ تَصِحُّ الْفِتْوَةُ إِذَا خَالَفَهَا الدِّينُ؟ وَكَيْفَ يَسْتَقِرُّ الدِّينُ إِذَا فَارَقَتْهُ الْفِتْوَةُ؟ الدِّينُ
تَكْلِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفِتْوَةُ أَخْلَاقٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا خُلِقَ إِلَّا مَا هَذَبَهُ الدِّينُ، وَلَا دِينَ
إِلَّا مَا هَذَبَهُ الْخَلْقُ.

عَلَى أَنَّ ابْنَ الْمَعْتَزِ أَبَا الْعَبَّاسِ قَالَ: لَسْتُ لِمَنْ خَاشَنِي^(٩) أَلَيْنَ، وَلَا إِذَا عَزَّ أَخِي
أَهُونُ.

(١) أَبْنَيْتُ: أَبْنَيْتُهُ سَرِيًّا: أَظْهَرْتُهُ عَلَيْهِ.

إِنِّي أَطْلَعْتُ «عَمْرًا» عَلَى أَسْرَارِي، وَأَذَقْتُهُ مِنَ الْمُرِّ وَمِنْ غُصَصِ الْغَيْظِ الَّتِي أَتَحَمَّلُهَا؛ لِأَنَّهُ صَدِيقٌ، وَالصَّدِيقُ
يَحْمِلُ هَمَّ صَدِيقِهِ، وَيُشَارِكُهُ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَّاءِ.

(٢) الْحَفِيزَةُ: الْحَذَرُ.

وَلَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَشْكُو هُمُومَهُ إِلَى صَدِيقٍ كَتُومٍ حَذِرٍ لَا يُفْشِي الْأَسْرَارَ بَيْنَ النَّاسِ، إِنْ أَخَذَتْ الْأَسْرَارُ
تَذِيعَ هُنَا وَهَنًا.

(٣) الْعِيَارُ: الرَّجُلُ الَّذِي يَكْثُرُ التَّطَوُّافُ وَالْحَرَكَةُ فِي الْأَرْضِ.

(٤) سِيَالُهُ: جَانِبُهُ وَعِطْفُهُ.

(٥) لَتَأَوَّلَهُ: لَفَسَرَهُ.

(٦) رَهْطُ الرَّجُلِ: قَوْمُهُ وَقَبِيلَتُهُ الْأَقْرَبُونَ، تَقُولُ: «نَحْنُ ذُوو رَهْطٍ»: أَيِ مَجْتَمِعُونَ.

(٧) لَا يَلْتَنَاطُ بِهِمْ: لَا يَلْتَصِقُ بِهِمْ، أَيِ إِنْ الدِّينَ غَيْرَ مُتَغَلَّغٍ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَعْمَلُونَ عَلَى هُدَاهُ أَوْ شَرَائِعِهِ.

(٨) الْفِتْوَةُ: السَّخَاءُ وَالْكَرَمُ، وَالْمَرْوَةُ.

(٩) خَاشَنِي: قَاتَلَنِي، أَوْ خَشَنَ عَلَيَّ فِي الْقَوْلِ أَوْ الْعَمَلِ.

ولعل هذا مُسَلِّمٌ لأبي العباس لُسُموق ديانته^(١) وشرف نسبه، ومُسْتَفِيزُ أدبه وكرمه^(٢).

وبعد، فالصُّراخ ممن يُظَنُّ به أنه صديق، ثم يخرج في مَسْكِ^(٣) عدوّ، قديم، والتشكّي منه مردود^(٤)، وليس إلا الصبر والإغضاء، ودفع الوقت، وطرح الأذى عن الفكر. وأنا أقول هذا؛ لأنني نظرت في حال الإنسان، وصَوَّبْتُ^(٥) طَرْفِي فيه وصَعَدْتُ^(٦)، وَحَسَبْتُ ما له وما عليه، وحصلت وأجملت ما به وفيه، وفصّلت، فلم أجد له شيئاً خيراً من الصبر، فبه يُقاوَمُ المكروه، وتُسْتَدْفَعُ البلية^(٧)، وبه يُؤَدَّى شكر النعمة. وما أحلى ما أشار إليه الشاعر حين قال:

إن الزمان على اختلاف مُروره ما زال يخلط حزنه بسروره^(٨)
لم يُصِفِ عَيْشًا - منذ كان - لمعشرٍ إِلَّا وَعَادَ يَجِدُ في تكديره^(٩)
فالعاقل النّحريرُ يُلْزِمُ نفسه صبرًا عليه في جميع أموره^(١٠)

(١) سموق ديانته: عُلُوها وارتفاعها. أي إن دعوى أبي العباس مُسَلِّمَةٌ ومعترفٌ بصحتها.

(٢) مستفيز: منتشر.

(٣) الْمَسْكُ: الجِلْدُ، والجمع مُسْكٌ ومُسُوكٌ: أي أن الناس يعتقدون فيه أنه صديق، فإذا به يخرج عليهم في جلد العدو!

(٤) التشكّي منه مردود: أي إن الشكوى منه مُرَدَّةٌ ومُعَادَةٌ ومُكَرَّرَةٌ.

(٥) صوبْتُ طَرْفِي: خَفَضْتُ نظري.

(٦) صعدت: نظرت إلى أعلى، أي إنني نظرت إلى أعلاه وأسفله متأملًا فيه.

(٧) يستدفع البلية: استدفعَ الله السوءَ: طلب منه أن يدفعه عنه.

(٨) إن الزمان -في مروره ومُضِيِّهِ- لا يَتَّبِعُ على حال واحدة، وإنما يتنقل بين الفرح والأسى، وبين السَّراءِ والضَّرَّاءِ. وقريبٌ من ذلك قول الشاعر: *إني أرى الدهر ذا نَقْضٍ وإِبرام*.

(٩) إن الدهر -منذ خلق الله الدنيا- ما جعل العيش صافيًا لقومٍ من الأَقْوَامِ، إلا وعاد فقلب لهم ظهر المجن، فكدر صفوهم، وصبَّ عليهم ويلاته ومصائبه. وقد قال أحد الشعراء في مثل ذلك: أبدأً تُسَرِّدُ ما تَهَبُّ الدنيـ ما، فيا ليت جودها كان بخُلا

(١٠) إن الرجل العالم الحاذق في علمه، ليعلم أن الدهر يتقلَّب من حال إلى حال؛ ولهذا فإنه يلتزم الصبر على مكارهه ومختلف أحواله.

وأحقُّ ما صَبِرَ امرؤٌ من أجله ما لا سبيل له إلى تغيّره^(١)
وحكى العلماء أن رجلاً كتب على باب داره: جزى الله من لم نعرفه ولم يعرفنا
خيرًا؛ فإنّا ما أتينا في نكبتنا هذه إلا من المعارف^(٢).

وقال الآخر:

كفاني الله شرّك يا ابن عمي فأما الخير منك فقد كفاني^(٣)
نظرت فلم أجد أشفى لغيظي من أني لا أراك ولا تراني^(٤)
ولقد قلت لابن أبي كانون: لِمَ لا تخالط أصحاب ابن الرازي؟ فأنشد:

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تمرّوا بواديها على حال^(٥)
وإذا أردت الحق علمت أن الصدّاقة والألفة والأخوة والمودة والرعاية والمحافظة،
قد نُبِذَتْ نبذًا، ورُفِضَتْ رفضًا، ووُطِئَتْ بالأقدام، ولُوِيَتْ دونها الشفاه^(٦)، وصُفِرَتْ
عنها الرغبات.

ولما غنى عليه المأمون قول الشاعر:

- (١) وإن أولى الأشياء بالصبر والاحتمال، لهي الأشياء التي لا يملك الإنسان أن يُغيّرَها أو يُزيلها مهما بذل من
جهد. وقد قالوا: «إذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون».
- (٢) إننا ما أتينا، وما أشرف علينا العدو في نكبتنا الحاضرة إلا من أصحابنا الذين نعرفهم، ومن أهل مودتنا، ومن
بيننا وبينهم معرفة. فهؤلاء -دون سواهم- هم سبب نكبتنا وبلاتنا.
- (٣) أدعو الله أن يمنع شرك عني يا ابن عمي ويقيني ضررك، أما خيرك فإن الله قد منعه عني؛ لأنني ما وجدتكَ
قدمت إليّ في يوم من الأيام شيئًا منه!
- (٤) لقد تأملت فلم أجد شيئًا يشفي غيظي ويمحو آلامي، خيرًا من أن أهجركَ وتهجرني، فلا أراك ولا تراني.
- (٥) إن السلامة والأمان من «سلمى» ومن جارتها، ومما يجزّان عليكم من متاعب، محققتان إذا امتنعتم عن المرور
بواديها امتناعًا تامًّا وفي جميع الأحوال والظروف، وبغير ذلك لن يتحقق لكم أمان أو سلامة.
- (٦) لُوِيَتْ دونها الشفاه: أعرضت عنها الشفاه، وسكتت عن ذكرها والاهتمام بشأنها.

وإني لمشتاق إلى ظلِّ صاحبٍ يرقُّ ويصفو إن كَدَرْتُ عليه^(١)
عذيري من الإنسان، لا إن جفوته صفا لي، ولا إن صرت طوع يديه^(٢)
استعاده المأمون مرات، ثم قال، هات يا علويه هذا الصاحب، وخذ الخلافة، قد
صرنا -ولله الحمد- نرضى اليوم من الصاحب والجار والمعامل والتابع والمتبوع،
أن يكون فضلهم غامراً لنقصهم^(٣)، وخيرهم زائداً على شرهم، وعدلهم أرجح من
ظلمهم، وأنهم إن لم يبذلوا الخير كله لم يستقصوا الشر كله^(٤). بل قد رضينا بدون
هذا، وهو أن نهب خيرهم لشرهم، وإحسانهم لإساءتهم، وعدلهم لجورهم، فلا نفرح
بهذا، ولا نحزن لذلك. ونخرج بعد التي واللتيا^(٥) بالكفاف^(٦) والعفاف^(٧).

أخبرنا ابن مقسم النحوي، أخبرنا ثعلب عن أبي زيد عمر بن شيبه قال: قال مطيع
ابن إياس في صديق له كان يصفه بالنميمة:

إن مما يزيدني فيك زهداً أنني لا أراك تصدُقُ حرفاً^(٨)
لا، ولا تكتُمُ الحديث، ولا تنطقُ جدّاً، ولا تُمازِحُ ظرفاً^(٩)

(١) أنا في شوق إلى ظلٍّ -ولو كان ضئيلاً- من صاحب إذا غضبْتُ عليه رَقَّ لي وَصَفَا، ولم يقابلني بمثل غضبي.
(٢) مَنْ عذيري -أي عاذري- من الإنسان؟ أنا في حيرة من أمره وفيما أتخذ حياله من موقف! إن جَفَوْتُهُ وصلني
وصفا لي، وإن صرت طوع يديه فلا وُضِلَ منه ولا صفاء.

(٣) غامراً: غَمَرَهُ: علاه وستره. وغمر فلان فلاناً: غَطَّاه بفضله، أي إننا صرنا الآن في زمان لا نطمع أن نجد فيه
الإنسان الكالم المبرراً من النقائص والعيوب وإنما نرضى كل الرضى إن وجدنا الإنسان الذي تَرَجَّحَ سيئاته
حسناته، وتُغَطِّي فضائله نقائصه وتعلوها وتسترها.

(٤) رضينا بدون هذا: رضينا بأحطِّ وأخسِّ وأضعف من هذا.

(٥) التي واللتيا: اللتيا (بفتح اللام وضمها): تصغير التي، ويقال: «وقع فلان في اللتيا والتي»، وهما اسمان من
أسماء الداهية، وعند البعض «اللتيا» الداهية الكبيرة و«التي» الداهية الصغيرة، فيكون التصغير تصغير تعظيم.

(٦) الكفاف من الرزق (بفتح الكاف): القوت، وهو ما كَفَّ عن الناس، أي أغنى.

(٧) العفاف (بكسر العين): الدواء.

(٨) إن مما يزيدني إعراضاً عنك وترُّكاً لك، أنني ما رأيتك يوماً صادقاً في حرف واحد مما تتكلم به!

(٩) وأنت لا تكتُم الحديث والسِّر الذي يكون بيني وبينك، وأنت لا تنطق إلا هزلاً من القول لا غناء فيه، وأنت
عندما تمازح أو تداعب أو تباسط غيرك، فإنك لا تعرف الكياسة أو البراعة أو الحِدْق في ممازحتك.

وَإِذَا مُنْصِفٌ أَرَادَكَ لِلنَّصِ — ف، أبيت الوفاء، وازدَدْتُ خُلُفًا^(١)
وَإِذَا قَالَ: عَارِفًا، قُلْتَ: سُوءًا وَإِذَا قَالَ: مُنْكَرًا، قُلْتَ: عُرفًا^(٢)
وَأُنْشِدَ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ فِيمَا رَوَى ابْنُ مَقْسَمٍ عَنْ ثَعْلَبٍ:

وَصَلَّتْكُمْ جَهْدِي، وَزِدْتُ عَلَى جَهْدِي فَلَمْ أَرْ فِيكُمْ مِنْ يَدُومٍ عَلَى الْعَهْدِ^(٣)
تَأْنَيْتُكُمْ جَهْدَ الصَّدِيقِ؛ لَتَقْصِدُوا وَتَأْبُونُ إِلَّا أَنْ تَحِيدُوا عَنِ الْقَصْدِ^(٤)
فَإِنْ أَشَسَ فِيكُمْ زَاهِدًا بَعْدَ رَغْبَةٍ فَبَعْدَ اخْتِبَارٍ كَانَ فِي وَصْلِكُمْ زَهْدِي^(٥)
إِذَا خُتِّمَ بِالْغَيْبِ عَهْدِي، فَمَا لَكُمْ تُدِلُّونَ إِدْلَالَ الْمَقِيمِ عَلَى الْوَدِّ؟^(٦)
صَلُّوا، وَافْعَلُوا فَعْلَ الْمُدْلِ بَوصله وَإِلَّا فَصَدُّوا، وَافْعَلُوا فِعْلَةَ الصَّدِّ^(٧)
فَكَمْ مِنْ نَذِيرٍ كَانَ لِي - قَبْلُ - فِيكُمْ وَهَآنَذَا - فِيكُمْ - نَذِيرٌ لِمَنْ بَعْدِي^(٨)
تَعَزَّوْا بِأَسْ عَنْ هَوَايَ؛ فَإِنَّنِي إِذَا انْصَرَفْتُ نَفْسِي، فَهِيَهَاتَ مِنْ رَدِّ^(٩)

- (١) وَأَنْكَ تَكْرَهُ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ، فَإِنْ دَعَاكَ إِلَيْهِمَا أَبَيْتَ، وَلَمْ تَزِدْ إِلَّا إِخْلَافًا وَظُلْمًا وَوَعُودًا بَاطِلَةً.
- (٢) أَمْرٌ عَارِفٌ: مَعْرُوفٌ. سُوءًا: تَقُولُ: «مَا أَنْكَرَكَ مِنْ سُوءٍ، أَيْ لَمْ يَكُنْ إِنْكَارِي إِيَّاكَ مِنْ سُوءٍ رَأَيْتَهُ بِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ لِقَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِكَ، أَيْ: وَأَنْكَ تَحِبُّ الْخِلَافَ دَائِمًا كَأَنَّكَ مُوَلِّعٌ بِهِ، فَإِذَا قَالَ صَدِيقُكَ عَنْ شَيْءٍ إِنَّهُ مَعْرُوفٌ، قُلْتَ: بَلْ هُوَ مُنْكَرٌ مَجْهُولٌ. وَإِنْ قَالَ إِنَّهُ مَجْهُولٌ، قُلْتَ: بَلْ هُوَ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ! وَهَكَذَا.
- (٣) لَقَدْ حَافِظْتُ عَلَى وَصْلِكُمْ وَمَوَدَّتِكُمْ قَدْرَ جَهْدِي، وَأَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَمِلُ جَهْدِي، فَمَا رَأَيْتُ فِيكُمْ وَاحِدًا يُبْقِي عَلَى الْوَدِّ، وَيَصُونُهُ وَيَحَافِظُ عَلَيْهِ، وَيَدُومُ صَدِيقًا لِي.
- (٤) تَأْنَيْتُكُمْ: ائْتَمَرْتُكُمْ. لَتَقْصِدُوا: لَتَعْدِلُوا. لَقَدْ ائْتَمَرْتُكُمْ، وَصَبِرْتُ عَلَيْكُمْ طَوِيلًا لِتَنْبُوِيَ إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَلَكِنَّكُمْ تَأْبُونُ إِلَّا أَنْ تَحِيدُوا، وَتَمِيلُوا عَنِ الْإِنْصَافِ.
- (٥) فَإِنْ صَرْتُ زَاهِدًا فِيكُمْ، وَمَنْصَرَفًا عَنْكُمْ، وَتَارِكًا لَكُمْ، فَإِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ تَجَرِبَةٍ جَعَلْتَنِي أَقْفَ مِنْكُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ، وَأَنْتَهِيَ مَعَكُمْ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ.
- (٦) إِنْ كُنْتَ تَخُونُنِي عَهْدِي عِنْدَمَا أَغِيبُ عَنْكُمْ، فَمَا بِالْكَفْرِ تَجْتَرِئُونَ وَتُفَرِّطُونَ عَلَيَّ اجْتِرَاءً وَإِفْرَاطَ الْمُحَافِظِ عَلَى عَهْدِي الثُّبُتِي عَلَى وَدِّي فِي حُضُورِي وَغَيْبِي، وَالَّذِي لَهُ حَقُوقٌ عِنْدِي تَبِيحُ لَهُ هَذَا الْجِتْرَاءُ وَالْإِفْرَاطُ؟
- (٧) إِنْ وَصَلْتُمُونِي فَإِنْ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تُدِلُّوا عَلَيَّ بِوَصْلِكُمْ، وَإِنْ تَصَدُّوا عَنِّي فَمَا لَكُمْ حَقُّ الْإِدْلِ عَلَيَّ، وَلَنْ أَقْبَلَ مِنْكُمْ دَلًّا أَوْ اجْتِرَاءً.
- (٨) النَّذِيرُ: الْمُنْذَرُ، وَأَنْذَرَهُ أَيْ أَعْلَمَهُ وَحَذَّرَهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَمْرِ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَخَوْفَهُ فِي إِبْلَاغِهِ. وَتَنَازَرُ الْقَوْمُ، أَيْ أَنْذَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شَرًّا مَخُوفًا. لَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ - مِنْ قَبْلِ - كَثِيرًا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَهَآنَا الْيَوْمَ مَنذَرٌ لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدِي.
- (٩) «الْيَأْسُ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ» - هَكَذَا قِيلَ، فَتَعَزَّوْا بِالْيَأْسِ وَفُتِّدَانِ الْأَمَلِ مِنْ صَدَاقَتِي، فَذَلِكَ أَرْوَحُ لِنَفْسِكُمْ، =

أرى الغدر ضدًا للوفاء، وإنني لأَعْلَمُ أَنَّ الضَّدَّ يَنْبُو عَنِ الضَّدِّ^(١)
قال لقمان: من يصحب صاحب الصلاح يسلم، ومن يصحب صاحب السوء لا
يسلم.

وقال أيضًا: جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة
كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

قال الفضيل بن عياض: قال لي ابن المبارك: ما أعياني شيء^(٢) كما أعياني أني
لا أجد أخًا في الله. قال: فقلت له: لا يهملك هذا فقد خَبِثَتِ السرائر، وتنكرت
الظواهر^(٣)، وفَنِيَ ميراث النبوة، وفُقِدَ ما كان عليه أهل الفتوة.

قال بكر بن عبد الله المزني: إذا انقطع شئع نعل صاحبك، فلم تقف عليه، فلست
له بصاحب^(٤)، وإذا جلس يَبُولُ، فلم تلبث له، فلست له برفيق.

كان عامر بن قيس إذا توجه للغزو، توسَّمَ الرفاق^(٥)، فإذا رأى قومًا لهم هُدًى^(٦)،
قال: يا قوم، إني أريد أن أصحبكم على ثلاث خلال. فيقال له: ما هنَّ؟
قال: أكون خادمًا لكم، ومؤذِّنًا بينكم، وأنفق عليكم. فإذا قالوا: «نعم»، صَحِبَهُمْ،
وإلا تركهم.

قيل لفيلسوف: مَنْ أطول الناس سفرًا؟ قال: مَنْ سافر في طلب صديق.

= وأجدى عليكم من التعلل بأمل كاذب في عودة صداقتي؛ ذلك لأنني إذا انصرفت نفسي عنكم، فلن تعود إليكم
يومًا، ولن تُردَّ صداقتي لكم مهما طال الزمن.

(١) الضَّدُّ: المُخَالَف. يَنْبُو: يتجافى، ويتباعد، وَيَنْفِرُ.

إني أرى الخيانة ونقض العهد صفتين مخالفتين لصفتي الوفاء والمحافظة على العهد. و ضد الشيء يتجافى
ويتباعد عن ضده فما مُقَامِي فيكم؟ وكيف يتصل هواي بكم؟

(٢) ما أعياني شيء: ما أتعبنى شيء، وما أكلني.

(٣) تنكرت الظواهر: تغيَّرت من حال تُسَرُّ، إلى حال تُكْرَهُ.

(٤) إذا انقطع زمام نعل صاحبك، فلم تلبث معه، وتتوقَّف، حتى يصلحه، فما أنت له بصاحب.

(٥) توسَّمَ الرفاق: تَبَيَّنَهُمْ، وتَعَرَّفَهُمْ.

(٦) لهم هُدًى: أي فيهم رشاد واهتداء.

سمع ابن عطاء رجلاً يقول: أنا في طلب صديق منذ ثلاثين سنة فلا أجده، فقال له: لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئاً، ولو طلبتَ صديقاً تعطيه شيئاً لوجدت.

قال أبو سفيان: هذا كلام ظالم. الصديق لا يُراد ليؤخذ منه شيء، أو يُعطي شيئاً، ولكنّ لِيسْكُنَ إليه^(١)، ويُعتمدَ عليه، ويُستأنَسَ به^(٢)، ويُستفادَ منه، ويُستشارَ في المُلمّ^(٣)، وينهض في المُهمّ^(٤)، ويُتزيّن به إذا حضر، ويُتَشوّقَ إليه إذا سَفَرَ^(٥). والأخذ والعطاء في عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم بلا حَسَد، ولا نَكَد^(٦)، ولا صَدَدٍ^(٧)، ولا حَدَدٍ^(٨)، ولا تَلوُّمٍ^(٩)، ولا تَلاوُمٍ^(١٠)، ولا كُلوَحٍ^(١١)، ولا فُتوحٍ^(١٢)، ولا تعريضٍ^(١٣) بنكير^(١٤)، ولا نكايةٍ بتغيير^(١٥).

قيل لأرسطوطاليس الحكيم معلم الإسكندر: مَنْ الصديق؟ قال: إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك.

سُئِلَ أبو سليمان عن هذه الكلمة، وقيل له: فسّرْها لنا؛ فإنها وإن كانت رشيقة، فلسنا نظفر منها بحقيقة. فقال: هذا رجل دقيق الكلام، بعيد المرام، صحيح المعاني،

(١) لِيسْكُنَ إليه: لِيرْتاحَ إليه.

(٢) يُستأنَسُ به: يذهب بقربه التوحُّش، وتزول الوحشة.

(٣) يُستشار في المُلمّ: تُطْلَبُ منه المشورة إذا أَلَمَّتْ نازلة شديدة من نوازل الدنيا.

(٤) ينهض في المُهمّ: أي يُسرِع عند وقوع أمر شديد، ولا يتراخي في النجدة والإغاثة.

(٥) سَفَرَ الرَّجُلُ: خرج إلى السفر.

(٦) نَكَد: اشتداد، وعُسْر.

(٧) صَدَد: قُصْد، ومِثْل.

(٨) حَدَد: دَفْع، ومنع.

(٩) تَلوُّم: تمكُّت، وانتظار.

(١٠) تَلاوُم: تلاوَموا: لام بعضهم بعضاً.

(١١) كُلوَح: تَكَشَّرَ في عُبوس، أو عُبوسٌ مفرط.

(١٢) فُتوح: جمع فتح، وهو النصر، والرزق.

(١٣) تعريض: عَرَضَ الكاتب: لم يأت بالكلام على وجهه، ولم يُبين.

(١٤) النكير: الأمر الشديد الصعب.

(١٥) النكاية: القهر بالقتل والجرح.

قد طاعت^(١) له الأمور بأعيانها^(٢)، وحَضَرَتْهُ^(٣) بغيها وشهادتها^(٤)، وكان مُلْهِمًا مؤيِّدًا. وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها.

ألا ترى أن لهذه الموافقة أولاً منه يبتدئانها؟ كذلك لها آخر ينتهيان إليه. وأول هذه الموافقة تَوْحُّد^(٥)، وآخرها وَحْدَة^(٦). وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان، كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق؛ لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتان تتحولان إرادة واحدة.

ولا عجب من هذا؛ فقد أشار الشاعر إلى هذه الغريبة بقوله:

رُوحه رُوحِي، وروحي رُوحه إن يَشَأْ شِئْتُ، وإن شِئْتُ يَشَأْ

وليس يبعد هذا عليكم إلا لأنكم لم تروا صديقاً، ولا كنتم مع أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبس^(٧) من الحيوان، وينظمكم^(٨) النوع المقتبس من الإنسان، ويؤلفكم^(٩) بعد ذلك البلد أو الجوار أو الصناعة أو النسب.

ثم أنتم في كل ذلك الذي اجتمعتم عليه، وانتظمت به، وتألفتم له، على غاية الافتراق؛ للحسد الذي يدب بينكم، والتنافس الذي يقطع علائقكم، والتدابير^(١٠)

(١) طاعت له الأمور: انقادت له.

(٢) بأعيانها: جمع عَيْنٍ، وهي ذات الشيء ونفسه. يقال: «هو هو عينا، وهو هو بعينه، ولا آخذ إلا «درهمي بعينه»، أي عَيْنَ درهمي، وبهذا تكون من المؤكِّدات.

(٣) حَضَرَتْهُ: خطرت بباله.

(٤) بغيها وشهادتها: بغائبها وحاضرها، والمقصود جميعها.

(٥) تَوْحَّدَ: بَقِيَ وَحْدَهُ، وَتَوَحَّدَ بِرَأْيِهِ: تَفَرَّدَ.

(٦) الْوَحْدَة: ضد الكثرة، والانفراد بالنفس.

(٧) الْمُقْتَبَسُ: المأخوذ.

(٨) يُنْظَمُكُمْ: يَضُمُّكُمْ وَيؤَلِّفُكُمْ.

(٩) يُؤَلِّفُكُمْ: يصل بعضكم ببعض.

(١٠) التدابير: التقاطع، والاختلاف والتعادي.

الذي يُثير البَيِّنونة^(١) منكم.

ولو استصحبتم ما شملتكم به الطبيعة الكبرى في الأول، لم تميلوا إلى ما حابَّتكم^(٢) فيه الطبيعة الصغرى في الثاني. أعني أنكم معمولون^(٣) بصورة الإنسان من ناحية النوع، كما أنكم معمولون بصورة الحيوان من ناحية الجنس، ومُعَرَّضون لنيل صورة الملائكة بالاختيار الجيد، كما أنكم معرضون لنيل صورة الشياطين بالاختيار الرديء^(٤).

فلو ثَبَّتْ على الصراط المستقيم^(٥)، وَعَلَقْتُمْ حبلَ العقل المتين المستبين^(٦)، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين^(٧)، كنتم كنفس واحدة في كل حال: ذُلَّتْ أو صُعِبَتْ، تجمعت أو تشعبت^(٨)، تعرفت أو تنكرت.

وكانت هذه الشريفة - أعني الموافقة والوحدة - تسري في الصديق والصديق، ثم في الثاني والثالث، ثم في الصغير والكبير، وفي المطيع والمطاع، والسائس والمُسَّوس^(٩)، وفي الجار والجار، وفي المحلة والمحلة^(١٠)، والبلد والبلد، حتى تبلغ الأغوار والنُجود^(١١) وتشتمل على الأدنى والأقصى.

(١) البَيِّنونة: الانقطاع والانفصال والفرق.

(٢) حابَّتكم: اختصَّتكم.

(٣) معمولون: مشمولون.

(٤) أي إنه في مُكَنَّتكم الارتقاء إلى صورة الملائكة بأعمالكم الرفيعة العالية، وكذلك فإنكم نهبطون إلى صورة الشياطين بأعمالكم المنحطة السيئة.

(٥) لو ثَبَّتْ على طريق الخير واستمررت فيه.

(٦) وتعلَّقتم بحبل العقل، وأحببتموه وهَوَيْتُمُوهُ، وهو حبل قوي، عارف بالأمور، عليم بها، مستوضح لها.

(٧) واستمسكتكم بالعروة القوية المحكَّمة من الهداية والرشاد والدين.

(٨) تشعبت: تفرَّقت، وتباعدت.

(٩) السائس والمسوس: السائس: الذي يتولَّى الأمر، ويُدبِّره، ويُحسن النظر إليه. والمسوس: هو الذي يتولى السائس أمره.

(١٠) المحلة (بالكسر): المكان الذي يُحَلُّ به، (وبالفتح): المنزل.

(١١) حتى تبلغ الأغوار والنجود: الأغوار: جمع (غُور)، وهو ما انحدر من الأرض، والنجود: جمع (نَجْد)، وهو ما أشرف من الأرض وارتفع، أي حتى تبلغ جميع النواحي والجها، عاليها ومنخفضها.

فحينئذ ترى كلمة الله العليا، وطاعته العالية. إلا أن هذا لما كان متعذرًا؛ لأن المادة الأولى لا تنقاد^(١) لهذه الصورة، والصورة الأولى لا تلبس هذه المادة. طُلب هذا المتعذر في الواحد مع الواحد، في الزمان بعد الزمان، على السَّنَنِ^(٢) بعد السَّنَنِ، على المكان بعد المكان، بالدعوة بعد الدعوة، والهيئة بعد الهيئة، بالتعاون بعد التعاون. وإذا بُعِدَ المطلوب من جهة عامة لعلّة مانعة، فليس ينبغي أن يُقَنَطَ من الظفر به من جهة خاصة لعلّة مُعْطِيَة^(٣).

ومن المحال أن يكون المطلوب يَدُلُّ على صحته العقل، ثم لا يوجد في أحد المعدنين اللذين له^(٤). ولو استحال الوصول إليه، والتمكُّن منه، لكان العقل لا يدل على صحته^(٥)، والرأي لا يشتاق إلى تحصيله، والطبيعة لا تنحو نحو مَظَنَّتِهِ، والاختيار لا يَحُولُ في طلبه^(٦).

قال: فعلى هذا يحمل رمز الحكيم في قوله: الصديق إنسانٌ هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك. وكان كلامه أتم من هذا وأنفس^(٧)، ولكنني ظفرت بهذا القدر؛ فرويته على ذلك.

(١) لا تنقاد: لا تخضع، ولا تدلّ، ولا تُطيع، ولا تُدعِن.

(٢) السَّنَنُ: الطريقة، يقال: «استقام فلان على سَنَنِ واحد»: أي على طريقة واحدة. ويُقال: «امضِ على سننك»: أي على وجهك. وسنن الطريق: نهجُه، وجهته، ومعظمه، ووسطه.

(٣) إذا صار المطلوب بعيداً عنا لسبب مانع حجَبَهُ وأبعدهُ عنا، فلا يجوز لنا أن نَبْأَسَ من الحصول عليه لسبب مُغَايِرٍ للأول، أي لسبب يُقَرِّبُهُ منا، ويجعله في مُتناول أيدينا. فالأسباب متنوعة: هذا يأخذ، وذاك يعطي.

(٤) يقول: إنه من المستحيل أن يدل العقل على صحة وجود شيء، ثم لا يكون هذا الشيء موجوداً! وإن لم يكن العقل هو الهادي إلى وجود الأشياء، فما عسى أن يكون الهادي؟

(٥) ولو أن شيئاً استحال الوصول إليه، واستحالت القدرة عليه والظفر به، ما دلّ العقل عليه، وما قرّر صحة وجوده.

(٦) وما اتجه الرأي المصيب المدبّر إلى الحصول عليه؛ لأنه معدوم، وكيف يُحْصَلُ على المعدوم؟ وما قصدت الطبيعة نحو موضعه ومألفه الذي يُطَنُّ وجوده فيه. وما حال -أي وما احتال- البحث والاختيار في طلبه، وكيف يُبَحِّثُ عن شيء معدوم؟ أو كيف يَخْتَارُ ما لا وجود له؟

(٧) أَنَفْسُ: نَفْسُ الشيء: كان نفيساً مرغوباً فيه.

وقول هذا الحكيم شبيهه بقول «روح بن زنباع»، وقد سُئِلَ عن الصديق، فقال: لفظ بلا معنى، أي: هو شيء عزيز، ولعزّته كأنه ليس بموجود. ولو جهل معنى الصديق، لجهل معنى الصاحب. ولو جهل معنى الصاحب، لجهل معنى الخليل. وعلى هذا: الحبيب، والرفيق، والأليف، والوديد^(١)، والمؤاخي، والمساعد.

وهذه كلها على باج واحد^(٢)، وإنما تختلف بالمرتبة في الأخص، والأعم، والألطف، والأكثف، وبالأقرب والأبعد، والأخلص والأزيب.

قال الإسكندر لديوجانس: بِمَ يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَصْدَقَاءَهُ؟ قال: بالشدائد؛ لأن كل أحدٍ في الرخاء صديق!

قال لديوجانس: ما الذي ينبغي للرجل أن يَتَحَفَّظَ^(٣) منه؟ قال: من حسد أصدقائه، ومكر أعدائه^(٤).

قيل لثيفانوس الفيلسوف: مَنْ صَدِيقُكَ؟ قال: الذي إذا صرْتُ إليه في حاجة، وجدته أشدَّ مُسَارَعَةً إلى قضائها، مني إلى طلبها منه.

قال فيلسوف: ليس يُخَيَّرُ العاقل على الصديق؛ لأنه إن كان فاضلاً تَزِينَ به، وإن

(١) الوديدُ: المُحِبُّ. ويأتي «الوديد» اسم جمع بمعنى المُحِبِّين.

(٢) باج واحد: لون واحد، وضَرْب واحد. يقول: إن هذه الصفات جميعها، وهي: الحب، والرفق، والألفة، والمودة، والمؤاخاة، والمساعدة... هذه كلها من لون واحد ومن ضَرْب واحد، كأنها تنبُع من أصل واحد. ولكنها تختلف في درجتها من هذا اللون أو من هذا الضرب، فمنها: ما هو خاص بإنسان أو بشيء لا يتعداه، وما هو عام مشترك بين الناس أو بين الأشياء جميعها. ومنها ما هو صغير دقيق، وما هو غليظ ضخم. ومنها ما هو قريب دان، وما هو بعيد ناء. ومنها ما هو مخلص لا يعرف الرياء والغش، وما هو أَرِيبٌ باعثٌ للرّية والشك في إخلاصه.

(٣) أي ما الذي يجب على الرجل أن يحترز منه ويتوقاه؟

(٤) إنَّ على الرجل أن يتحفظ من أصدقائه ومن أعدائه معاً. أما الأصدقاء فيتحفظ من حسدهم؛ لأنَّ كُلاًّ منهم يتمنى زوال نعمة صديقه إلى نفسه، وأما الأعداء فيتحفظ من خداعهم، ومن حيلهم التي يتخذونها لصرفه عن مقاصده.

كان سفيهاً راضٍ حلّمه به^(١).

قال أنكساغوراس: كيف تريد من صديقك خلقاً واحداً، وهو ذو طبائع أربع^(٢)؟ وفي مثله قال الشاعر:

وَأَنْسَى لَهُ خُلُقَ وَاحِدٍ وفيه طبائعه الأَرْبَعُ؟

قال أبو سليمان: يعني، البسّهُ على هذه الحال التي هو عليها من ناحية الطبيعة؛ فإنك أيضاً في مُسْكِهِ، وخَاطٍ على مَسْلَكِهِ^(٣). فاجتهد بالاختيار الرشيد والرأي السديد أن تجعل طبائعك الأربع طباقاً^(٤) لطبائعه الأربع، أو طبائعه الأربع طباقاً لطبائعك الأربع؛ فإنك إذا قَدَرْتَ على ذلك، قدرت بعده على أن تتعرف روائد هذه الأربع ذاهباً بها نحو الاعتدال الذي هو صورة من صور الوَحدة، فإذا أنت صديقك، وصديقك أنت، على ما صَرَّحَ به الحكيم كانياً، أو على ما كَنَى عنه مُصَرِّحاً^(٥)، فقد بان هذا الحديث من ناحية اللفظ والنطق والعبارة والإشارة.

وإن كان قد بَقِيَ علينا أن نجد هذا المطلوب من ناحية العيان والمشاهدة، فإننا إن وجدنا ذلك غَنِينَا عن الخبر والاستخبار؛ لأن الأثر لا يُطْلَبُ بعد العَيْنِ^(٦)، والحُلْمُ لا

(١) ليس الحكيم العاقل خيراً من الصديق؛ لأن الصديق إن كان ذا فضل وإحسان، بريء من العلل والأسباب، إن كان كذلك فهو زينة الحياة وحليتها. وإن كان سفيهاً خفيف العقل كثير الحركة، راضٍ به حلّمه واحتماله، فذلّلها وسخّرهما وجعلهما طيعين من طول الدُّربة والمران.

(٢) الطبائع الأربع عند الطبيعيين هي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليوسوسة.

(٣) البسّهُ: المقصود: صاحبه وعاشره. خاط: ماش. مسلكه: طريقه.

صادق صديقك على ما به من نقص وعيوب، ولا تحسب نفسك مُبرراً من مثل نقائصه وعيوبه؛ فإنك بشر مثله، تلبس نفس الجلد الذي يلبسه، وتخطو في نفس الطريق الذي يسلكه.

(٤) طباقاً: مطابقة بعضها بعضاً.

(٥) صَرَّحَ: أتى بلفظ خالص للمعنى المراد، عار من تعلّقات غيره ولا يحتمل المجاز ولا التأويل. كنى: كنى عن كذا: تكلم بما يُستدل به عليه، أو تكلم بشيء وهو يريد غيره، أي أن كلمة الحكيم «الصديق إنسان هو أنت» إلا أنه بالشخص غيرك» إما أن تكون كلمة صريحة لا تحتمل إلا ما تحمّل ألفاظها الظاهرة، ويكون معناها أن صديقك هو أنت في أخلاقك وكافة صفاتك ومشاعرك، إلا أنه إنسان له ذات أخرى غير ذاتك. وإما أن تكون كناية عن أن صديقك كأنه أنت في السَّراء والضَّراء، يؤلمه ما يؤلمك، ويفرحه ما يفرحك، وإن كان إنساناً آخر سواك.

(٦) «لا تطلب أثراً بعد عين»: أي بعد معاينة، وهو مثل يضرب لمن ترك شيئاً يراه، ثم تبع أثره بعد فوّت عينه.

يُتَمَنَّى بعد اليقظة، والسُّكْر لا يُحَمَدُ بعد الصَّحْوِ.

سمعتُ برهان الصوفي الدينوري يقول: سمعت الجنيد يقول: لو صحبني فاجرٌ حسنُ الخلق، كان أحبَّ إليَّ من أن يصحبني عابدٌ سيئُ الخلق.

قال: لأن الفاجر الحسن الخلق يُصلحني بحسن خلقه، ولا يضرني فجوره^(١).

والعابد السيئ الخلق يُفسدني بسوء خلقه، ولا ينفعني بعبادته؛ لأن عبادة العابد له، وسوء خلقه عليّ. وفجور الفاجر عليه، وحسن خلقه لي.

وفي الأخلاق كلام واسع نفيس على غير ما وجدت كثيرًا من الحكماء يطيلون الخوض فيه، ويُعوّضون^(٢) المرام منه بتأليفٍ محرّفٍ عن المنهج المألوف.

ولو ساعد نشاطٌ، والتأم عتاد^(٣)، وقَيِّضَ معين^(٤)، وزال الهمّ بتعذر القوت^(٥).

لعلنا كنا نحرر في الأخلاق رسالةً واسطةً بين الطويلة والقصيرة يستفاد منها ما وضح لنا بالمشاهدة والعيان وبالنظر والاستنباط. ولكن دون ذلك أَوْقُ ثَقِيل^(٦)، وَعَوَقُ طَوِيل^(٧)، والله المستعان.

قال الشاعر:

(١) الفُجور: الأنبيات في المعاصي، والفسق.

(٢) يُعوّضون: يُصعّبون. المرام: المطلب، يقال: «هو بُتُّ المَقَام، بعيدُ المَرَام». مُحرّف: مُغيّر من مواضعه. إنهم يُصعّبون الوصول إلى المطلب منه، بأن يُؤلّفوا فيه تأليفًا مُحَرِّفًا مُغيّرًا عن مواضعه الأصلية، ومخالفًا لمعانيه الصحيحة.

(٣) والتأم عتاد: أي اجتمعت واكتملت العُدّة التي تُهيّئها للأمور كالسلاح والدواب وآلات الحرب وغيرها، تقول: «لكل حال عنده عتاد» أي ما يصلح لكل ما يقع من الأمور.

(٤) وقَيِّضَ معين: أي وأتيح لنا ماءً جار.

والمعنى: وإذا أجرى الله لنا رزقًا دائمًا كأنه الماء الجاري الذي لا ينقطع.

(٥) وزال ما يُقْلَقُنَا وَيَحْزُنُنَا بسبب صعوبة الحصول على القوت وتعذره.

(٦) الأَوْقُ (بفتح الهمزة وتسكين الواو): الثَقْلُ والشُّؤْم.

(٧) عَوَقٌ: عاقه عَوَقًا: حبسه وصرفه وَبَّطَه عما يريد أن يعمل.

إذا أنت صاحبتَ الرجال، فَكُنْ فَتًى كأنك مَمْلُوكٌ لكل رفيق^(١)
 وكن مثل طعم الماء: عذبًا وباردًا على كبد حَرَّى، لكل صديق^(٢)
 أخبرنا علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح، حدثنا ابن دريد، قال: أنشدنا عبد
 الأول لرجل من تميم:

كم من أخ لك لست تُنكرُهُ مادمت من دنياك في يُسر^(٣)
 متصنّع لك في مودته يلقيك بالترحيب والبشر^(٤)
 يُطري الوفاء، وذا الوفاء ويلُـ حَى الغدر -مجتهدًا- وذا الغدر^(٥)
 فإذا عَدَا -والدهر ذو غير- دهرٌ عليك، عَدَا مع الدهر^(٦)
 فازْفَضْ بإجمالٍ مودةَ مَنْ يَقلِّي المُقلُّ، ويعشَقُ المُثري^(٧)
 وعليك مَنْ حالاهُ واحدةٌ في العُسرِ إمّا كُنتَ، واليُسْرِ^(٨)

- (١) إن صاحبت الرجال فكن كأنك عبْدٌ مملوكٌ لكلّ منهم، بأمرِكَ تُطّيع، وينهاك فَتَنْتَهِي؛ فإن ذلك يجعلهم يحبونك ويذلّون لك خالص الودّ وصافي الإخاء.
- (٢) وكُنْ معهم كالماء البارد الطيب المستساغ عندما يشربه ذو كبد حَرَّى يكاد يقتله الظمّاء.. والمقصود كُنْ بَرْدًا وسلامًا لأصدقائك مُحَفَّفًا لآلامهم، مُزِيلًا لأوجاعهم ومتاعبهم.
- (٣) تُنكره: تجهله.
- كم من أخ تراه بين يديك دائمًا، ما دمت في رغد من العيش، وما دامت الدنيا مقبلة عليك.
- (٤) يتكلف لك الود تكلفًا، ولا يلقيك إلا بالبشر والترحاب كأنما هو محب لك!
- (٥) أَطْرَاهُ: أَحَسَّنَ الثناء عليه، وبالع في مدحه. يَلْحَى: لَحَاهُ: لَامَهُ، وَسَبَّه، وَعَابَهُ.
- وتجد هذا الأخ المتكلف المتصنع يمدح الوفاء والأوفياء دائمًا كأنه من أنصار الوفاء! ويذمُّ الغدر والغادرين كأنه من أعداء الغدر! وما مدّحه وذمّه إلا كذب ونفاق ومُراءاة.
- (٦) فإذا عاداك الدهر، ووثب عليك بمظالمه وعوائقه -والدهر متغيّر متقلب لا يبقى على حال واحدة- عاداك هذا الأخ كما عاداك الدهر، ووثب عليك كما وثب! فهو يدور حيثما يدور الدهر!
- (٧) يَقلِّي: يُبْغِضُ. المُقلُّ: مَنْ قَلَّتْ جِدَّتُهُ أي ماله، وافتقر.
- ارْضُ رَفَضًا قاطعًا مودةَ مَنْ يُبْغِضُ الإنسان عند افتقاره، ويعشقه إذا أثرى واغتنى.
- (٨) واستمسك بصداقة من يَبْقَى على صداقتك في شدّتك ورخائك، ومن يحفظ مودتك إذا أعسرت أو أيسرت، فذلك هو الصديق الحق.

لا تَخْلُطَنَّهُمْ بِغَيْرِهِمْ مَنْ يَخْلُطُ الْعِيقَانِ بِالصُّفْرِ^(١)
 رأيت الزهيري أبا بكر يعاتب العوامي على هجر جماعة كان يألفهم ويألفونه،
 ويُعيد القول في ذلك ويُبدي، والعوامي لا يَنْبَسُ^(٢) بحرف، فقال له الزهيري: إن كنت
 تسكت استهانةً بخطابي عَذَلْتُكَ^(٣)، فقال العوامي: لا، ولكني كما قال إسماعيل بن
 يسار:

إِنِّي لَصَعْبٌ عَلَى الْأَقْوَامِ، لَوْ جَعَلُوا «رَضَوِي» لِأَنْفِي خِشَاشًا لَمْ يَقُودُونِي^(٤)
 نفسي هي النفسُ آبَى أَنْ أُوَاتِيَهَا عَلَى الْهَوَانِ، وَتَأْبَى أَنْ تَوَاتِيَنِي^(٥)
 والله ما يَبْقَى أَنْسِي بِهِمْ بِالْغَدَاةِ، بِاسْتِيحَاشِي مِنْهُمْ بِالْعَشِيِّ^(٦).
 قال الزهيري: اعْلَمْ أَنَّ الْمُدَارَاةَ مَطِيَّةٌ وَطِيَّةٌ، وَرَوْضَةٌ مُوَبِقَةٌ، مَا لَبَسَ أَحَدٌ ثَوْبَهَا إِلَّا
 وَجَدَهُ فَضْفَاضًا^(٧).

وقد قال صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم: «مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ».

وقالت العرب: مَنْ لَمْ يُدَارِ عَيْشُهُ ضَلَّ.

(١) العِيقَانِ: الذهب الخالص. الصُّفْرُ: النحاس الأصفر.

(٢) لَا يَنْبَسُ بِحَرْفٍ: لَا يَنْطِقُ وَلَا يَتَكَلَّمُ.

(٣) عَذَلْتُكَ: لُمْتُكَ.

(٤) رَضَوِي: جَبَلٌ بِالْمَدِينَةِ. الْخِشَاشُ: عَوْدٌ يُجْعَلُ فِي عَظْمِ أَنْفِ الْبَعِيرِ.

أَنَا صَعْبُ الْمِرَاسِ لَا أَذَلُّ وَلَا أَخْضَعُ، لَوْ جَعَلُوا جَبَلَ «رَضَوِي» فِي أَنْفِي مَا انْقَدَتْ لَهُمْ، وَمَا ذَلَّتْ أَوْ عَنَوَتْ.

(٥) لَا أَقْهَرُ نَفْسِي عَلَى أَنْ تَهُونَ أَبَدًا، وَلَوْ أَنِّي قَهَرْتُهَا عَلَى الْهَوَانِ لَعَصَصْتَنِي، وَأَبَتْ أَنْ تُوَافِقَنِي.

(٦) إِنْنِي مَا أَكَادُ أَنْسُ بِهِمْ صَبَاحًا، حَتَّى أَجِدَ الْوَحْشَةَ مِنْهُمْ مَسَاءً! فَلَا يُخَفِّفُ الْأَنْسُ شَيْئًا مِنَ الْوَحْشَةِ، وَلَا يَفِي بِهَا
 وَيَسَاوِيهَا، بَلْ إِنَّهُ دُونَهَا بِكَثِيرٍ.

(٧) الْمُدَارَاةُ: مُصْدَر «دَارَاهُ»، أَيْ لَاطِفُهُ، وَلَا يَنْهَ، وَرَفَقَ بِهِ، وَأَتَقَاهُ.

يشبه المداراة بالمطية المنخفضة وكأنه يريد أن يقول إنها لا تصل بصاحبها إلى مستوى الحقيقة. ويشبهها
 بالروضة المهلكة لأنها قد تدفع بمن تداريه إلى الغرور والطغيان فينتهي أمره إلى الهلاك والبوار. وبأنها
 ثوب لم يلبسه أحد إلا وجده واسعاً، شأن الثوب المستعار الذي لا يكون محكماً إلا على صاحبه، فإذا لبسه
 المستعير بدا عليه مضطرباً قلقاً؛ وإنما وصفه بالسعة -دون الضيق- لأن المداري كثيراً ما يُضْفِي على من
 يداريه نعتاً أكبر وأعلى مما فيه.

قال العوامي: لو كانت المداراة تَنْتِيهِم لي، أو تَعْطِفُهُم عَلَيَّ، كانت مبدولة. ولكنها مُضَرَّةٌ لَهُمْ عَلَى مَا أَنْكَرَ مِنْهُمْ^(١)، ومُضَرَّةٌ لِي فِيمَا أَعْرِفُ، ولا خَيْرَ فِي بَثِّ خَيْرٍ لَا يُورِثُ خَيْرًا^(٢).

رَأَيْتُ ابْنَ سَعْدَانَ يَنْشُدُ يَوْمًا وَقَدْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ بَعْضِ النَّدَمَاءِ:

عَدُوٌّ رَاحَ فِي ثَوْبِ الصَّدِيقِ شَرِيكَ فِي الصَّبُوحِ وَفِي الْغُبُوقِ^(٣)
لَهُ وَجْهَانِ: ظَاهِرُهُ ابْنُ عَمٍّ وَبَاطِنُهُ ابْنُ زَانِيَةٍ عَتِيقِ^(٤)
يَسُرُّكَ ظَاهِرًا، وَيَسُوءُ سِرًّا كَذَلِكَ تَكُونُ أَبْنَاءُ الطَّرِيقِ^(٥)
وَأَنَا أَسْمِي لَكَ نَدْمَاءَهُ، وَأُرْوِي كَلَامًا لَهُ وَصَفَهُمْ بِهِ، مِنْهُمْ: أَبُو عَلِيٍّ عَيْسَى بْنُ زُرْعَةَ النَّصْرَانِيَّ الْمُتَفَلِّسَ، وَابْنَ عُبَيْدِ الْكَاتِبِ، وَابْنَ الْحَجَّاجِ الشَّاعِرِ، وَأَبُو الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسِ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَمُسْكُوِيَهُ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْأَهْوَازِيَّ، وَأَبُو سَعْدِ بَهْرَامِ بْنِ أَرْدَشِيرٍ -وَكَانَ أَوْزَنْهُمْ^(٦) عِنْدَهُ وَالصَّقَهُمْ بِقَلْبِهِ- وَابْنَ شَاهُوِيَهُ... هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَجْلِسِ سِوَى الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ، وَلَا فَائِدَةٌ فِي ذِكْرِهِمْ.

قال زيد بن رفاعه -وكان قريبًا له من جهة الخوف له-: رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يُكْتَبَ عَلَى الْأَحْدَاقِ^(٧)، وَيُعْرَضَ عَلَى أَهْلِ الْآفَاقِ؛ لِيَسْتَفِيدَهُ

(١) مضرة لهم على ما أنكر منهم: أي إنها تجعلهم أكثر ضراوة وتشبُّبًا بالأعمال التي استقبلوها منهم.

(٢) لا جدوى من بذل خير ونشره، وإذاعته وهو لا يورثني ولا يعقب عليّ خيرًا مثله منهم.

(٣) رُبَّ عَدُوٍّ لِي يَلْبَسُ مَلَابِسَ الْأَصْدِقَاءِ لِيُوْهِمَنِي أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَيُحَسِّنُ الْقَوْلَ وَيُحَسِّنُ اللَّقَاءَ، وَيَشْتَرِكُ مَعِيَ فِي الشَّرَابِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ.

(٤) إِنَّ الْعَدُوَّ الَّذِي يُصَانَعُنِي وَيُدَاهِنُنِي، لَهُ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا ظَاهِرٌ بِيَدِي لِي الْوَدَّ وَالْمَحَبَّةَ اللَّذَيْنِ يَكُونَانِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعُمُومَةِ، وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ ابْنٌ لَامْرَأَةٍ فَاجِرَةٍ عَرِيقَةٍ فِي الْفُجْرِ.

(٥) كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ فِي الظَّاهِرِ سِرٌّ، وَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ فِي السِّرِّ بَعِيدًا عَنِّي فَيَسُوءُ وَيَضُرُّ. وَهَكَذَا يَكُونُ أَبْنَاءُ الطَّرِيقِ الَّذِينَ لَا يَنْتُمُونَ إِلَى أَصْلٍ كَرِيمٍ أَوْ مَحْتَدٍ عَرِيقٍ.

(٦) أَوْزَنْهُمْ عِنْدَهُ: أَرْجَحُهُمْ عَقْلًا وَرَأْيًا.

(٧) الْأَحْدَاقُ: جَمْعُ حَذَقَةٍ، وَهِيَ سَوَادُ الْعَيْنِ الْأَعْظَمِ.

الصغير والكبير، قال: أصحابي طرائقٌ قَدَدٌ^(١). كما قال عبد الحميد الكاتب: الناس أخياف مختلفون^(٢)، وأصناف مُتباينون، فمنهم علق مَضَنَّة لا يُباع^(٣)، ومنهم غلّ مَظَنَّة لا يَنباع^(٤).

الناس أخيافٌ وشَتَّى في الشَّيْمِ وكلُّهم يَجْمَعُهُمْ نَبْت الأَدَمِ^(٥)
أما ابن زُرعة: فِكْبَرُهُ بالحكمة، وخُيْلَاؤُهُ بالثروة، قد قَدَحَا في حاقِّ عقله^(٦)، وهو لا يحس بذلك القَدَح. فليس لنا منه -إذا جالسنا- إلا النفخ^(٧) والتعظم^(٨) والتهويل^(٩)
بأرسطوطاليس، وأفلاطون، وسقراط، وبقراط، وفلان وفلان. ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء^(١٠)، وهؤلاء يجلبون عن مجالس الشراب.

يا نائم يا غافل يا ساهي، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء؟ أسيرتُك سيرتُهم؟ أحالكُ حالهم؟

إنما تدعي عقائدهم باللسان، وتنتحل أسماءهم باللفظ^(١١)، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشطّ تلعب بالرمل^(١٢). ولولا أنه يكدرُ هزلَ جدنا بجَدِّ هزله، لكان

(١) أصحابي طرائقٌ قَدَدٌ: أي فِرَقٌ مختلفة الأهواء.

(٢) الإخوة الأخياف: هم من كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتّى، ويقال أيضاً: «هم بنو أخياف» والمقصود أنهم مختلفون ومتباينون.

(٣) العَلْق «بالفتح»: النفيس من كل شيء، تقول: «هذا علق مَضَنَّة»، أي شيء نفيس يُضَنُّ به.

(٤) غلّ مَظَنَّة لا يَنباع: أي أنه مُقَيَّد بمَظَنَّتِهِ -أي بموضعه- لا يَنفَقُ ولا يروج ولا يرغب فيه أحد.

(٥) الناس مختلفون أخلاقاً مع أنهم جميعاً نابتون من جلد متشابه لا يختلف جلد واحد منهم عن الآخر.

(٦) قَدَحَا في حاقِّ عقله: ذَمَّا في عقله الكامل.

(٧) النفخ: التعظيم والتناول إلى ما ليس له.

(٨) التعظم: التكبر.

(٩) التهويل: تعظيم الأشياء وجعلها هائلة.

(١٠) مجالس الشراب تتجافى عنهم: تتنحى عنهم، ولا تُلزِمُ مكانهم، وتميل من جانبهم إلى جانب آخر.

(١١) إنك تدعي الإيمان بعقائدهم بلسانك فقط دون أن تعمل بشيء منها، كما أنك تدعي أيضاً أسماءهم باللفظ فقط دون أن يكون لك نصيب من حقيقة هذه الأسماء.

(١٢) كناية عن أنك صغير لا ترقى إلى عظام الأمور، وقُصاراك أن تلعب بالرمل على الشاطئ دون أن تقتحم العُباب، أو تركب الصَّعاب.

محمولاً مقبولاً^(١)، ولكنه يأبى إلا ما ألفه، وأفاد المران عليه.

وأما ابن عبيد: فكلفه^(٢) بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة، قد طرحه في عمق لج لا مطمع في انتقاذه منه^(٣)، ولا طريق إلى صرفه عنه. هذا مع حركات غير متناسبة، وشمائل غير دمثة^(٤)، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة^(٥)، ودالة أصحاب الحجة.

وأما ابن الحجاج: فقد جمع بين حدّ القاضي أبي عمر في جلسته وحديثه وقيامه وتخطّته، مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به، فكيف لقائله^(٦)؟ فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء في صورة عقل حسناء، ولا تخلّص هذه من هذه. ولا جرم استماعنا به قاصر عن مرادنا منه^(٧)، ودنوّه منا ناب عن مراده له.

وأما أبو الوفاء: فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة، والمساعدة المطرية، والمُفاكهة^(٨) اللذيذة، والمواتاة^(٩) الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة. هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغداديّ إذا تحرّسن كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا تبعد. وإن شئت فضّع الاعتبار على من أردت، فإنك تجد هذا القول حقاً، وهذه الدعوى مسموعة.

(١) ولولا أنه ينغص علينا ساعة لهونا وفراغنا من الجدّ بما يأتي من هزل هو أثقل من الجدّ... لولا ذلك لاحتملناه وتقيلناه، ولكنه لا يأتي إلا ما عودّه ومَرَنَ عليه.

(٢) كلفه بالخطابة: حبّه الشديد لها، وولعه بها.

(٣) أي قد ألقاه وقذفه في قعر ماء لا أمل في تخليصه وتنجيته منه.

(٤) شمائل غير دمثة: أخلاق ليست سهلة.

(٥) أهل الذمة: هم المعاهدون من النصارى، واليهود، وغيرهم ممن يقيم بدار السلام.

(٦) إن شعره السخيف لا يكتسب روايه من روايته صفة من صفات النخوة أو محاسن الأخلاق والإنسانية، فكيف بقائله ومنشئه؟ إنه - بلا شك - أبعد عن هذه الصفات من روايه.

(٧) إن استماعنا لهذا الشعر يقصّر عن أن يُنبِلنا ما نريد منه، أو يطلّعنا على ما نحب أن نعلم من معانٍ فيه؛ وذلك لضعفه وعجزه واضطرابه.

(٨) المُفاكهة: المُمازحة.

(٩) المُواتاة: الموافقة.

وأما مسكويه: فإنه يستردّ بدَمَامَة خَلْقَه ما يتكلّفُه من تهذيب خُلُقِه^(١)، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مَضَاه في فنّ هو فيه طويل الذيل، مديد السيل، لا يأذن له في تعاطي فنّ آخر هو فيه قصير الباع، بليد الطباع^(٢)، وصاحب هذا المذهب ممكورٌ به، مصاب بجيد رأيه. وقد أفسده قال المهلب^(٣)، قال ابن العميد، وفعل ابن العميد. وما ذكره لهذين إلا استطالةً على الحاضرين. والتشبيّع بذكر الرجال واضح من قدر الرجال^(٤).

وأما أبو بكر: فهو تميمة المجلس^(٥)، ولا بد للدار - وإن كانت قوراء^(٦) - من مخرج. وهو بجعله - مع خفة روحه وقُبْح وجهه - أدخل في العين، وألصق بالقلب من غيره مع علمه وثقل روحه وحسن ظاهره.

وأما الأهوازي أبو القاسم: فلا حلاوة، ولا مرارة، ولا حموضة^(٧)، ولا ملوحة. وإنما هو كالبصل في القدر، وكالاصبع الزائدة في اليد. على أنا نرعى فيه حقاً قديماً، ونرحمه الآن رحمة حديثة.

(١) إنه يتكلّف الأخلاق المهدّبة، ويتجشّم ذلك على مشقّة وعسرة وعلى خلاف عادته، ولكنه يستردّ ذلك بقُبْحِه المنفطور عليه، فيضيع ما تكلفه هباء!

(٢) قصير الباع: الباع قدر مدّ اليدين. بليد الطباع: لا ذكاء فيه ولا فطنة، والطباع: السجايا التي تجبل عليها الإنسان. والمعنى: لا يأذن ولا يسمَح له في تناول فنّ لا يقدر عليه، ولا يقوى على تحمل أعبائه.

(٣) قال المهلب: قَوْلُه.

(٤) التشبيّع: التكثر. واضح من قدر الرجال: حاطٌّ من أقدارهم ومن منازلهم.

أي إن من يتكثر ويفتخر بذكر زيد وعبيد، ويباهي بأنه يعرف فلاناً وفلاناً، فإنه يحطّ من قدر نفسه.

(٥) تميمة المجلس: التميمة: عُوْدة تُعلّق على صغار الإنسان مخافة العين، ومنه «من علق تميمة فلا أتم الله له»، ومنه قول الشاعر:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

والمقصود: أنه زينة المجلس وريحانته.

(٦) قوراء: مقطوع من وسطها خرّق مستدير كما يُقوّر الثوب والبطيخ.

والمعنى: أن الدار وإن كان بها خرّق في وسطها فلا بد لها من مخرج أي باب يُخرّج منه، وكذلك المجلس

مهما كان به من كرام القوم، فلا بدّ له من ذي فكاهة ومزاح.

(٧) حموضة: حمض الشيء: كان حامضاً، وقيل: حمض (من باب علم) للبن خاصة.

وأما سيدي أبو سعيد: فوالله إني لأجد به^(١) وجداً أنهم فيه نفسي، وما وجدت أَلَمَ سَهَرٍ معه قط. وإني أرى حديثه آتَقَ^(٢) من الثمني إذا أدركت، ومن الدنيا إذا مُلِكَت. وإنَّ تَمَازُجَنَا^(٣) بالعقل والروح والرأي والتدبير والنظر والإرادة والاختيار والعادة، ليزيد على حال توأمين تراكضاً في رَحِمِ^(٤)، وتَرَضَعَا من ثَدْيٍ، ونُوغِيَا في مَهْدٍ. وما أخوفني أن يُؤْتَيَا من جهتي، أو أُوتَيَا من جهته^(٥). وإنَّ عاقبته موصولة بعاقبتي لأنني مأمْنُهُ، وهو مأمْنِي، وما أكثر أن يُؤْتَيَا الإنسان من مأمْنِهِ، والله المستعان.

وأما ابن شاهويه: فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقي إلينا من تجاربه ومشاهداته. ولولا زيادته التي تضع بها من نفسه^(٦)، وبعض من خطراته لكان هَدَكُ من رجل^(٧)، ولكن مَنْ لك بالمهذب؟ ألم يقل الأول: أيُّ الرجال المهذب؟

قال زيد بن رفاعه: قلت أيها الوزير: إن طُلوعك على خبايا ضمائرهم، وعَلْمك بخفايا سرائرهم، يطالبانك بالإفراج عنهم^(٨) وقلة الاكتراث بهم.

قال: لا تفعل، والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير^(٩)، وإنهم لأعيانُ أهل الفضل^(١٠)، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم فرقن على الحكمة المزوية،

(١) وَجَدَ بِهِ: أَحَبَّهُ.

(٢) آتَقَ مِنَ الثَّمْنِيِّ إِذَا أُدْرِكَتْ: أَحَبَّ وَأَحْسَنَ مِنَ الْأَمَانِيِّ الَّتِي تَحَقَّقَتْ وَنِيلَتْ.

(٣) تَمَازُجُنَا: تَخَالَطْنَا: يُقَالُ: «تَمَازَجُوا تَمَازُجَ الْمَاءِ وَالصَّهْبَاءِ».

(٤) إِنْ تَمَازَجْنَا يَزِيدُ عَلَى تَمَازُجِ تَوَآمِينَ وَجَدَا فِي بَطْنِ أُمَهُمَا وَوُلَدَا مَعًا، وَتَحَرَّكَ، وَتَدَافَعَا فِي رَحِمِ أُمَهُمَا الَّذِي هُوَ بَيْتُ مَبْنَتِهِمَا مَعًا.

(٥) وَرَضَعَا مِنْ ثَدْيٍ وَاحِدٍ هُوَ ثَدْيُ أُمَهُمَا، وَنَاغَتْهُمَا أُمَهُمَا أَيَّ كَلِمَتُهُمَا بِمَا يَعْجِبُهُمَا وَيَسَّرُهُمَا مِنْ أَلْفَاظٍ، وَهَمَا فِي مَهْدٍ وَاحِدٍ، أَيَّ فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ وَمَوْضِعٍ وَاحِدٍ.

(٦) تَضَعُ مِنْ نَفْسِهِ: تَحْطُ مِنْ قُدْرَتِهَا.

(٧) هَدَكُ مِنْ رَجُلٍ: حَسْبُكَ مِنْ رَجُلٍ، الْوَاحِدَ وَالْجَمْعَ وَالْأُنْثَى سَوَاءً.

(٨) الْإِفْرَاجُ عَنْهُمْ: تَرْكُهُمْ، تَقُولُ: «أَفْرَجَ النَّاسُ عَنِ الْمَكَانِ» أَيَّ تَرَكَوهُ.

(٩) لَيْسَ لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ مَنْ هُوَ مِثْلُ لَهَا، أَوْ مِنْ هُوَ مِثْلُ لَهَا.

(١٠) أَعْيَانُ أَهْلِ الْفَضْلِ: خِيَارُهُمْ، وَسَادَتُهُمْ، وَأَشْرَافُهُمْ.

والأدب المتهادى^(١). أظن أن جميع ندماء المهلبى يَقُون بواحدٍ من هؤلاء^(٢)؟ أو تُقَدَّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقلَّ مَنْ فيهم؟

قال: قلت: هذا ابن عباد بالرَّيِّ وهو من يعرف ويسمع. قال: ويحك، وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذي يَشْغَبُونَ^(٣) وَيَحْمُقُونَ^(٤) ويتصايحون وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم؟ دَعْنَا من حديثه وِعَثَائِهِ^(٥) وشُعْبَدَتِهِ^(٦). فما أَحَبُّ أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليه، والله لو تصدَّى إنسان -متوسط في العلم والأدب والْحُنْكَ^(٧) والإنصاف- لِدِكر شأنه وسيرته، ووصف حاله وطريقته، لحكى كل غريبة وأتى بكل أعجوبة، الرجل مَجْدود^(٨)، وفي زمرة أهل الفضل معدود.

رويت هذا الخبر على ما اتفق، وكنت أطلب له مكاناً منذ زمان، فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق.

قال الشاعر:

إذا لم تدر ما الإنسان، فانظر مَنْ الخِذْنُ المُفَاوِضُ والمُشِيرُ^(٩)

(١) الحكمة المروية والأدب المتهادى: أي الحكمة التي يروها الناس ويتناقلونها فيما بينهم، والأدب الذي يهديه بعضهم إلى بعض.

(٢) يَقُون: يَعْدِلُونَ. أي: هل تحسب أن جميع ندماء المهلبى ورفقائه وأصحابه يعدلون واحداً من هؤلاء؟ يقصد أنهم جميعاً دون هذا الواحد.

(٣) يَشْغَبُونَ: يُهَيِّجُونَ الشرَّ عليهم، ويقال يشغبونهم أو يشغبون عليهم.

(٤) يَحْمُقُونَ: من (الحُمق): وهو قلة العقل ونقصانه أو فساد فيه وكساد. والحمق أيضاً: الخمر.

(٥) الْعَثَائَةُ: الهزال، والرداءة، والفساد.

(٦) الشُعْبَذَةُ: خفة في اليد، وأخذ كالسحر يرى الشيء في رأي العين بغير ما عليه أصله.

(٧) الْحُنْكَ (بالضم): الاسم من «حَنَكَ السن -أي طول الحياة- الرجل» أي أحكمته التجارب والأمور، وجعلته حكيماً.

(٨) مَجْدود: محظوظ، أي ذو حظ حسن.

(٩) الخِذْنُ: الصاحب، والحبيب، والرفيق. المُفَاوِضُ: فَاوَضَهُ في الأمر: سَاوَاهُ، وفاوضه في المال: شَارَكَهُ. إذا لم تعرف إنساناً، فانظر مَنْ يصادق هذا الإنسان؟ فإن وجدت أصدقاءه من أختيار الناس، فاعلم أنه =

وقال الآخر:

لا تسألنَّ عن ائمرئٍ، واسألْ بهِ - إن كنت تجهل أمره - ما الصاحبُ^(١)؟

وقال عديّ بن زيد:

عن المرء لا تسأل، وأبصرُ قرينَهُ فإن القرين بالمقارن مفتدٍ^(٢)
وقال بعض السلف: الصاحب كالرقعة في الثوب، فإن كان مُشاكلاً لم يَنْبُ عنه
الطرف، وإن كان غير مشاكل كان الفضوح^(٣).

وذكر عند النبي صلى الله عليه وآله رجل كان يألفه قبل أن بعثه الله نبياً يقال له أبو
السائب، فقال: نعم الصاحب كان أبو السائب، لا يُماري^(٤)، ولا يُشاري^(٥).

سمعت أبا سعيد السيرافي يقول في تفسير هذين الحرفين: أي كان لا يَشْغَبُ^(٦)
ولا يَلَجُ^(٧).

وقال: قيل في نذرهم^(٨) الشُّرأة^(٩) إنهم إنما نَبِزُوا بهذا؛ للجَاحِهم في دينهم، كما
قيل أيضاً إنهم إنما نَبِزُوا بهذا؛ لأنهم باعوا أنفسهم لما سمع الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ
أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

= هو أيضاً من هؤلاء الأخيار، وإن وجدت أصدقاءه من أشرار الناس، فاعلم أنه هو أيضاً من هؤلاء الأشرار؛
فالمرء مرآة أخيه.

(١) لا تسأل عن المرء، وسل عن أصحابه وقرنائه؛ فإن القرين يقتدي بقرينه وينهج نهجه.

(٢) أبصرُ قرناء الرجل، تعرف من هو؟

(٣) يشبهه الصاحب بالرقعة في الثوب، إن هي شاكلت الثوب تماماً خَفِيتْ عن الأعين فلم تنفر منها لأنها لم
تَبَيَّنْها، وإن هي خالفت الثوب أبدت أنها رقعة دخيلة وفضحت صاحب الثوب.

(٤) لا يُماري: لا يُجادل، ولا يُنازع، ولا يَطعن في القول تزييفاً له وتصغيراً لقائله.

(٥) لا يُشاري: لا يُبايع، ولا يُلاج، ولا يُجادل.

(٦) لا يَشْغَبُ: لا يَهَيِّج الشرّ.

(٧) لا يَلَجُ: لا يتمدّد في العناد إلى الفعل المَرجور عنه، ولا يَعدّ في الخصومة.

(٨) نَبَرَهُ: لَمَرَهُ، وَلَقَبَهُ بلقب مُسْتَهْجَن قبيح.

(٩) الشُّرأة: الشارون، جمع الشاري.

كتب أبو تمام الزينبي إلى ابن معروف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد، فإن الحال التي نزدوج عليها^(١)، ونستبصر فيها^(٢)، ونتقاسم حقيقتها وخالصتها، ونذوق حلاوتها ومرارتها، ونتهادى خَلَقَها وجديدها^(٣)، تُحدثني بأن العُتب على تقصير يكون من ألدنا قُدَح في عتبها^(٤)، ونَحَتُّ لناحتها^(٥)، وخدش لوجهها^(٦).

فإن كان هذا صحيحًا فالعتب محذور، وصاحب التقصير معذور، وإن كان فيه «لو» أو «لا» أو «لعل» أو «نعم»، فأحدنا عليه مُسْتَرَادٌّ وَمَلُومٌ^(٧). وأنا أعوذ بالله من أن يرد على أحدنا من صاحبه ما لا يطيق، أو يعدل بصاحبه من السَّعة إلى الضيق^(٨). وقد نمى إليَّ نَبَذُ^(٩) مما دار بينك -أطال الله بقاءك- وبين مولانا المطيع -أدام الله أيامه- في حديث كنت مخصوصًا به^(١٠) من أمر البصرة، وما أفضى إليه إصعادي

(١) يَزْدُوْجُ عليها: يُقْتَرَنُ عليها.

(٢) نَسْتَبْصِرُ فيها: نتأمل فيها.

(٣) أي يُهدي كلُّ منا إلى صاحبه الهدايا البالية، أو الهدايا الجديدة؛ لأنَّ أحدًا منهما لا يشعر نحو صاحبه بالحرص أو الخجل من ضالة الهدية أو قديمها، أي أنهما ممتزجان امتزاجًا تامًّا، كأنهما شخص واحد.

(٤) ومن كانت حالة امتزاجهما بتلك القوة، فإن العتاب الذي يكون من أحدهما على تقصير جاء من الآخر، إنما هو مدَّة في ذلك العتاب نفسه الذي يعتبر نافلةً من القول وعبثًا.

(٥) نَحَتُّ لناحته: طعن في طاعنه، تقول: «نَحَتَّ عِرْضَ فلان» أي طعن فيه. وتقول: «نحت فلان فلانًا بلسانه»، أي لأمه وشتمه.

(٦) خدش لوجهه: تمزيق لوجهه.

(٧) مُسْتَرَادٌّ: مشكوك، ومعتوب عليه في أمر لم يرُضه العاتب.

(٨) أَسْتَعِذُ بالله من أن يُوقع أحدنا بصاحبه أمرًا لا طاقة له باحتماله، أو أن يؤدِّي بصاحبه إلى العسر من اليسر، أو إلى الشقاء من الرخاء، أو إلى الضيق من السعة؛ فإن هذا أمر لا يُتَوَقَّعُ ممن كانت علاقتهما كعلاقتنا.

(٩) قد أَبْلَغَ إليَّ بعضُ مما دار بينكما، وجاءتني قِطْعٌ من حديثكما.

(١٠) مخصوصًا به: مُفَضَّلًا به، مُفَرَّدًا.

عنها^(١) على الوجه المشهور عند الصديق الجافي على العدو. فَسَبَحَ ظَنِي فِي وادٍ مِنَ الظُّنَّةِ^(٢)، إِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ بَرَّكَ مِنْهَا، فَقَدْ ابْتَلَانِي بِهَا، وَإِنْ كُنْتُ غَنِيًّا عَنْهَا فَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْهَا. وَقَدْ جَدَّ بِي الْفِكْرُ إِلَى تَعَرُّفِ ذَلِكَ مِنْكَ؛ فَلَسَانُكَ أَنْطَقُ بِالْصَدَقِ مِنْ لِسَانِ الْعَابِدِ الزَاهِدِ، وَعَقْلُكَ أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ أَنْ تَتَّخِذَنِي غَيْرَ شَاكِرٍ وَلَا حَامِدٍ^(٣).

وَبِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا يَقُومُ لِي شَعْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الْمَنَامِ، بِحَيَازَتِي جَمِيعِ الْأَمَانِي فِي الْيَقِظَةِ^(٤)، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ لِي إِلَى لِقَائِكَ طَرِيقًا إِمَّا بِالزِّيَارَةِ الْمَشْرِفَةِ، وَإِمَّا بِالِاسْتِزَارَةِ الْمُسْتَشْرِفَةِ، فَعَلْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٥).

فَأَجَابَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْحَالَ الَّتِي أَشْرْتَ إِلَيْهَا بَيَانُكَ النَّاصِعَ، مِنْ أَدَبِكَ الْبَارِعِ، فَهِيَ وَاللَّهُ مَحْوُطَةٌ بِالنَّفْسِ وَالرُّوحِ، مَذْبُوبٌ عَنْهَا بِالْخَاطِرِ عِنْدَ الْمُلَمَّةِ وَالسُّنُوحِ^(٦). وَتَالَلَّهِ أَعُودُ كَمَا عَدْتُ مِنْ رَيْبٍ يَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا، أَوْ شُوبٍ يَدْبُ إِلَيْهَا^(٧)، وَكَيْفَ ذَاكَ وَالشَّفَقَةُ عَلَيْهَا مَرْفُوفَةٌ، وَالرَّافِقَةُ بِهَا مَوْكَلَةٌ، وَيدُ الثِّقَةِ بَعِينُهَا وَشَهَادَتُهَا حَاضِنَةٌ^(٨)، وَالنَّفْسُ إِلَى كُلِّ مَا

(١) إضْعَادِي عَنْهَا: ذَهَابِي عَنْهَا إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى.

(٢) الظُّنَّةُ (بِكسر الظاء): التَّهْمَةُ.

(٣) إِنْ لِسَانُكَ أَكْثَرَ نَطْقًا بِالْصَدَقِ مِنَ الْمُتَعَبِّدِ الْمُتَزَهِّدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَذِبَ، وَإِنْ عَقْلُكَ أَسْمَى مِنْ أَنْ يَمْنَعَ عَنِي فَضْلُهُ وَبِرِّهَ، فَيَعْقِلُ بِذَلِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِهِ وَحَمْدِهِ.

(٤) إِنْ حَيَازَتِي جَمِيعَ مَا أَتَمَّنَاهُ فِي يَقِظَتِي، أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ أَنْ أَرَى فِي أَحْلَامِي أَنَّهُ قَدْ وَقَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فُرْقَةً وَقَطِيعَةً.

(٥) إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَمْهِّدَ لِي السَّبِيلَ إِلَى لِقَائِكَ، إِمَّا بِالزِّيَارَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنِّي شَرِيفًا مَاجِدًا، أَوْ بِأَنْ تَكَلِّفَنِي أَنْ أَقُومَ بِزِيَارَتِكَ فَتَرْفَعُ بِذَلِكَ قُدْرِي. إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَإِنِّي فَاعِلٌ مَا تَرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

(٦) مُدَافَعٌ عَنْهَا بِالْأَنْفُسِ وَالْقُلُوبِ عِنْدَمَا تَصِيبُهَا نَازِلَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ نَوَازِلِ الدُّنْيَا، أَوْ يَعْرِضُ لَهَا مَكْرُوهٌ.

(٧) الرَّيْبُ (بِالكسر): جَمْعُ رَيْبَةٍ، وَهِيَ الشُّكُّ وَالتَّهْمَةُ، وَقَلَقُ النَّفْسِ وَاضْطِرَابُهَا. الشُّوبُ: جَمْعُ «شَوْبَةٍ»، وَهِيَ الْخَدِيعَةُ.

(٨) أَيِ إِنْ الثِّقَةَ تَحْتَضِنُهَا بَعِينُهَا وَحُضُورُهَا، وَلَا تَدْعُ مَجَالًا لِلشُّكِّ وَالرَّيْبِ فِيهَا، فَكَيْفَ تَقُومُ مِنْ حَوْلِهَا الرَّيْبَةُ وَالْخَدِيعَةُ؟

يرد منها أو يصدر إليها ساكنة^(١). فهذا باب يُنبو عن الكلام فيه لمغالطة مخوفة تجري عليه.

فأما الحديث الذي نُمي إليك نُبذ مما دار بيني وبين مولانا -حرس الله مكانه، ونصر سلطانه- فليس فيه إلا ما يجذب بضئعك إلى العلياء، ويُقر عينك بين الأولياء، ويطيل باعك على الأعداء، ويجعلك واحد الدنيا بين الأرض والسماء^(٢). فثق بما قلت، واسكن إلى ما كتبت^(٣)؛ فإن الخير مُتيقن، والسعادة مُظلة، والولي مرفوع، والعدو موضوع، والله على جميع ذلك مشكور محمود.

ولولا أن القلم لا يطيق صريح ما همك، لحملتُه كيفما كان إليك، واللقاء صُبحة^(٤) يوم الإثنين عندك على الرّوشن^(٥) الميمون.

فإن رأيت أن تصرف عن بالك كل شاغل عن ذلك، وتملأه بكل سارّ، فعلت، مُهْدِيًا به إِلَيَّ رَوْحًا^(٦) أعجله، وسرورًا أنتظره إن شاء الله.

وكتب ابن عبيد الكاتب إلى ابن الجمل الكاتب، كاتب نصر الدولة شاشنيكير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصدّاقة -أطال الله مدتك- التي قد وكّدها^(٧) الله بيننا بالدين أولاً، ثم بالجوار

(١) والنفس مطمئنة إلى كل ما يرد منها أو ما يصدر إليها، فلا وجه إذن لقيام أي شك أو تهمة أو ظنون.
(٢) ليس في الحديث الذي انتهت إليك نُبذ منه، إلا ما يجعل المعروف الذي صنّعه في الذروة والعلواء، وما تقرّ به عينك فرحًا وسرورًا بين أصدقائك ومُحبّيك، وما يجعلك مقتدرًا على أعدائك متمكّنًا منهم، وما يُصيرك الواحد الفرد الذي يَعرُظُ نظيره بين الناس جميعًا.

(٣) اسكن إلى ما كتبت: ارتح إليه.

(٤) الصُّبْحَة (بفتح الصاد وضمها): الغداة.

(٥) الرّوشن: الشُّرفة.

(٦) رَوْحًا: راحةً، وسرورًا.

(٧) وكّدها: شدّها، وثَقَّها.

ثانيًا، ثم بالصناعة ثالثًا، ثم بالمُمالحة^(١) رابعًا، ثم بالمنشأ خامسًا، ثم بالمُعاقرة^(٢) سادسًا، ثم بالتجربة سابعًا، ثم بالألفة ثامنًا، ثم بالميلاد تاسعًا، ثم بانتظام هذه كلها^(٣) عاشرًا... تتقاضاني^(٤) لك حقوقًا أنت عن التقصير فيها أغني، وأنا بالإعفاء منها أُملي^(٥).

وإذا كنا على هذا السّياح دارجين، وفي هذه الحومة داخلين، وعنهما خارجين. فليس لحاسد إلينا سبيل، ولا لمتكلفٍ علينا دليل^(٦).

والله إنك لتذكرُ، وأجد لذكرك عبقًا يزيد على عبق العنبر، وتوصفُ فأرى لوصفك ما لا يراه أحدٌ من البشر لأحد من البشر، وربما حلّمتُ بك في الرؤيا فيكون ذلك قوتي طول يومي. ومن كان هذا نعته من أجلك، فكيف ينمّق بالقلم شوقه إليك؟ وكيف يذكر ما يختصّه لك^(٧)؟ وكيف يجهز ما يشتمل عليه من خالصته ومحبته إليك؟

قد يقصّر اللفظ للطف المعنى، كما يطول المعنى لقصر اللفظ، والإخاء إذا قدّم استحصدت مرائره^(٨)، واستوسقت سوائره^(٩)، وعند ذلك يكون الوصف باللسان تكلفًا؛ والتكلف للوصف تعسفًا. وقد حضر لعبدك ولدي ختان أنت أولى الناس فيه

(١) المُمالحة: المؤاكلة، والمُراضعة.

(٢) المعاقرة: المَلْأَمة.

(٣) أي باجتماع هذه الخلال جميعها، وتألفها، وتلاصقها.

(٤) تتقاضاني: تطلب مني، وتوجب عليّ.

(٥) إن تلك الوشائج العشر التي ذكرت، توجب عليّ حقوقًا لك، إن أنا قصّرت فيها فلن يضيرك ذلك التقصير لأنك غني عنها، وإن أنت أغفيتني منها؛ فإن ذلك يؤدي إلى السقوط والانحدار.

(٦) السّياح: المتسع. دارجين: ماشين. سبيل: سبب وصلة. المتكلف: الوقّاع فيما لا يعنيه، العريض للفضول. إن كنا سائرين على ما توجبه تلك الخلال، فلن يجد حاسد سببًا إلينا، و منفذًا يصله بنا، ولن يستطيع وقّاع أن يتسلّل إلينا أو أن يجد ما يدلّه علينا.

(٧) ما يختصّه لك: ما يخصك به من حب، وما يفضّلك به على غيرك.

(٨) استحصدت مرائره: استحكمت، تقول: «استحصدت الجبل» أي قُتل فتلاً محكمًا.

(٩) استوسقت سوائره: استقرّ سلطانه.

بالقيام والقعود، بين الناي والعود. فإن رأيت أن تَبْدُرَ إلى ذلك^(١) - غداة غد - مكافحاً
للشمس عند الطلوع، غير عائج^(٢) إلى غيره، فعلت إن شاء الله.
فأجابه ابن الجمل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لقد أوتيت - مدّ الله في عمرك - لساناً وبياناً وقلماً وخطاً. فمن رامَ شأوكَ تَقَاعَسَ^(٣)،
ومن توهم اللّحاق بك نكصَ^(٤)، فلله أنت من ساحر بلفظه، وخالب بقلمه^(٥)، ومؤيّد
بعقله، ومسعود بفضلّه، ومُقدّم بفرعه وأصله، ومشهور بإنصافه وعدله.

ذكرت الصداقة التي وكّدها الله بيننا بالأسباب التي أحصيتها، والوجوه التي
سردتها، ولو لم يكن الحال على ما وصفت لكان الذي أوجه لك على نفسي من
الطاعة إذا دعوتني، والائتمار إذا أمرتني^(٦)، والشرف إذا ناجيتني، والانتساب إليك
إذا قبلتني، والاعتماد عليك إذا أذنت لي، فوق مودات أهل الزمان بدرجات عاليات،
وقاماتٍ مديدات، وباقيات صالحات.

فكيف ونحن نجتمع في نصاب^(٧)؟ ونجتلي في نقاب^(٨)؟ ليس لنا في إخلاص
المودة شريك، ولا يتقدّمنا فيها ضريب؟

وما أسأل الله بعد هذا كله إلا دوامها، وصرف العيون عنها، ومدّ الامتناع بها،

(١) تَبْدُرُ: تبادر وتسرع.

(٢) غير عائج إلى غيره: غير واقف، أو غير مقيم بغيره.

(٣) مَنْ رَامَ شَأوكَ تَقَاعَسَ: من أراد أن يبلغ أمدك وغايتك تأخّر ولم يتقدّم ولم يستطع.

(٤) ومن توهم اللّحاق بك نكص: ومن ظنّ أنه يستطيع أن يلحق بك، فإنه بعد قليل سينكأ، ويُحجم عما أراد
عجزاً وضعفاً.

(٥) خالب بقلمه: أي إنك تُميلُ القلوب بلطيف ما تكتب وبديع ما تُدبّج.

(٦) الائتمار: الامثال للأمر.

(٧) نجتمع في نصاب: نجتمع في أصل واحد.

(٨) نجتلي في نقاب: نظر إلى الأشياء من قناع واحد كأننا إنسان واحد.

وسكون النفس والروح إليها.

فأما ما أومأت إليه من البدار إلى خدمة ولدك سيدي -نمّاه الله- فإنني غير ملتفت إلى فرض^(١) ونفل^(٢) دونه، والسلام.

وقال جعفر بن يحيى لبعض ندمائه: كم لك من صديق؟ قال: صديقان.
قال: إنك كمثر من الأصدقاء.

وقال سهل بن هارون: الصديق لا يحاسب، والعدو لا يُحَسَّبُ له^(٣).

قيل لأبي العيّن: هل ظفرت بصديق موالٍ؟ قال: ولا بعدوٍّ مُراءٍ^(٤).

ولما احتاج زياد إلى الحقنة، وُصِفَتْ له، فأنكرها. فقيل له: إنما يتولاها الطبيب.
قال: إن كان لا بد منها فالصديق^(٥).

قيل للجنيد: إن ابن عطاء يدّعي صداقتك، فهل هو كما يقول؟ قال: هو فوق ما يقول، وأجد ذلك له من قلبي بشواهد لا تكذبني عنه، ولا تكذبه عني^(٦).

قيل لأبي علي النصير: لم لا تتخذ الأصدقاء؟ قال: حتى أفرّغ من الأعداء، فوالله لقد شغلوني بأنفسهم عن كل صديق يُعينني عليهم، وإحالة العدو عن العداوة^(٧) أولى

(١) الفَرَض: ما أوجبه الله على عباده؛ سُمِّيَ به لأن له معالم وحدودًا.

(٢) النَّفْل: ما تفعله مما لا يجب، وما شُرِعَ زيادة على الفرائض والواجبات.

والمعنى: أنني لا أفكر في شيء سواه، ولا ألتفت إلى أي أمر أو أي عمل غيره.

(٣) لا يجوز لنا أن نحاسب الصديق على الصغير والكبير من أعماله؛ لثقتنا بأن أعماله جميعًا صادرة عن حب وإخلاص. أما العدو فلا نعتد به ولا نقيم لأعماله وزنًا.

(٤) لم يكتف أبو العيّن في إجابته بأن نفى أنه ظفر بصديق محب مخلص، بل إنه تعدّى ذلك فنفى أنه ظفر بعدوٍّ يسانعه، ويظهر له الودّ ولو كذبًا وزورًا!

(٥) أنه يفضل الصديق على الطبيب، فإن لم يكن الطبيب صديقًا، فلا حاجة به إليه، ولا جدوى له من طبّه، فالصداقة في المحل الأول دائمًا.

(٦) إنني على ثقة من إخلاصه ومن صداقته؛ لأن قلبي يشعر بهما، ولديّ عليهما علامات وأمارات صادقة.

(٧) إحالة العدو عن العداوة: صرّفه عنها.

إن تحويل العدو عن عداوته أمر شاق عسير، أما طلب الصداقة من الصديق فأمر يسير سهل على طالبه.

من استدعاء الصدقة من الصديق.

قيل لرؤيم: ما الذي أقعدك عن طلب الصديق؟ قال: يأسى من وجدانه^(١).

قيل لأعرابي: ألك صديق؟ قال: أمّا صديقٌ فلا، ولكن نصف صديق. قيل: فكيف انتفاعك به؟ قال: انتفاع العريان بالثوب البالي^(٢).

قيل لصوفي: صف لنا الصديق. قال: هو الذي إذا عَرَضَ لك بالمكروه، صَرَحْتَ أنت له بالمحبوب^(٣)، وإذا صَرَحَ لك بالمحسوب ساعدته عليه.

قلت للأندلسي: مِمَّ أُخِذَ لفظ الصديق؟ قال: أُخِذَ من الصَّدَق، وهو خلاف الكذب. ومرة قال: الصَّدَق؛ لأنه يقال: رُمِحَ صَدَقٌ أي صُلِبَ. وعلى الوجهين الصديق يَصْدُقُ إذا قال، ويكون صَدَقًا إذا عَمِلَ، قال: وَصَدَقَةُ الْمَرْأَةِ^(٤) وَصِدَاقُهَا^(٥) وصدقتها، كله منتزَع من الصَّدَق والصَّدَق، وكذلك الصادق والصديق والصدوق والصدقة والمصدق والمتصدق، كل هذا متناسب.

سمعت القاضي أبا حامد يقول: قلت للمنصوري: ما أَشْغَفَكَ بابنٍ عندك، مع تشاكس^(٦) ما بينكما في البلد والمذهب؟

فقال: ذاك لأنني وجدته كما قال الشاعر:

(١) إنني لم أقعد عن طلب الصديق كراهية له أو انصرافاً عنه، وإنما قعدت عن طلبه لأنني يائس من وجوده، وليس لي من أمل في الحصول عليه؛ لأنه غير موجود.

(٢) إن العريان ينتفع بالثوب القديم البالي؛ لأنه يستطيع به أن يستر عورته إن لم يكن انتفاعه به أكثر من ذلك. وليس الثوب البالي خاليًا من النفع. وذلك شأن الصديق الذي لا نجد فيه إلا نصف مودة ونصف صداقة.

(٣) عَرَضَ لك: تعرَّضَ لك. صَرَحْتَ: بَيَّنْتَ وأظهرت. الصديق هو الذي إذا تعرَّضَ لك بشرٍّ أو بمكروه، أظهرت له الحبَّ والولاء. وإذا أظهر لك الحبَّ والولاء ساعدته فيه وأعنته عليه.

(٤) صَدَقَةُ الْمَرْأَةِ: «بفتح الصاد وتسكين الدال»: مهرها.

(٥) صِدَاقُ الْمَرْأَةِ (بفتح الصاد وقد تكسر): مهرها.

(٦) أي ما الذي جعلك تُشَغَفُ بهذا الابن، وتحبه أقصى الحبِّ، مع التخالف والتضاد اللذين بينكما في البلد وفي العقيدة؟

مُوقِّقٌ لسبيل الرشْد متَّبِعٌ يَزِينُهُ كل ما يأتي ويجتنب^(١)
 تسمو العيون إليه كلما أنفجرت للناس عن وجهه الأبواب والحُجُب^(٢)
 له خلائقٌ بيضٌ لا يُغَيِّرُها صرْفُ الزمان، كما لا يصدأ الذهب^(٣)
 وحدثنا حمد بن محمد كاتب ركن الدولة، قال: دبَّ بيني وبين أبي الفضل -يعني
 ابن العميد- بعض المفسدين، فكتب إليَّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن تَسْفِيكَ الكلام بيني وبينك موضوع؛ لأنك عن ذلك مرفوع^(٤). وقد رضيت أن
 تستأني فيما تسمع. فإذا صحَّ به ذنب عاقبت بقدره، أباد أم أبقى، توسَّط أم تطرَّف^(٥).
 ولا أقول إلا ما قال الأول:

أطعت الوُشاة الكاشحين، ومن يُطعُ مقالة واش، يقرع السنَّ من ندَم^(٦)
 أتاني عدوُّ كنتُ أحسبُ أنه علينا شفيقٌ ناصحٌ، كالذي زعم^(٧)

(١) الرُّشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلُّب فيه، وضد الغيِّ. مُتَّبِعٌ: ملازم للرشاد متَّبِعٌ له لا يحدد عنه.
 إن الله وفقه لسبيل الهدى والرشاد، فاتَّبِعْهُ والتزم به، ولذا فهو في شرف ورفعة دائماً؛ لأنه يفعل الصواب
 والخير فينال بذلك الشرف، ويجتنب الغيِّ والضلال فينال بذلك الشرف أيضاً.
 (٢) ترتفع العيون إليه، إجلالاً وهيبَةً له، وشوقاً إلى مطالعة وجهه، كلما انفتحت الأبواب والأستار التي تحول
 دون رؤيته.

(٣) ذلك لأن له أخلاقاً بيضاء نقيّة صافية لا تُغَيِّرُها حوادث الزمان، ولا تُكَدِّرُها تقلّبات الأيام، كالذهب الذي لا
 يغيره الصدأ أبداً.

(٤) أي إن تأكيد الكلام، والمبالغة فيه بيني وبينك، أمر لا يجوز أن يكون؛ لأنك أعلى من ذلك؛ ولأن
 صداقتك أجلّ وأؤكد من هذا.

(٥) إنك قد ارتضيت التآني والتمهل فيما ينتهي إلينا ويصل إلى مسامعنا. فإن كان ذنباً لقي جزاء وعقابه.
 (٦) لقد أطعت الساعين بالشَّرِّ بيننا، الذين يُضْمِرون العداوة لنا، وما كنت أحسبهم كذلك، ومن يُطع كلام واش
 حاقِد فإنه سيَعَضُّ سنّه ندماً وأسفاً؛ لأنه سيلقى من وراء هذه الإطاعة الضرر المحقَّق.

(٧) لقد جاءني عدوُّ قد اتخذ ثوب الصديق، فاطمأننتُ إليه، واستجبْتُ لقوله؛ لأنني اعتقدت أنه بارٌّ مخلصٌ في
 النصيحة، وفيّ كما زعم وادّعى.

فلما تَبَاثُنَا الحديثَ، وصَرَّحْتَ سرائِرُهُ عن بعض ما كان قد كَتَمَ^(١)
تَبَيَّنَ لي أن المُحَدِّثَ كاذِبٌ فعندي لك العُتْبَى على رغم من رَعَمَ^(٢)
قيل لصوفي: مَنِ الصديق؟ قال: مَنْ لم يُجِدْكَ سواه، ولم يُفْقِدْكَ من هواه^(٣).

وقيل للشبلي: مَنِ الرفيق؟ قال: مَنْ أَنْتَ غَايَةُ شُغْلِهِ، وَأَوْكُدُ فَرْضِهِ وَنَفْلِهِ^(٤). قيل
له: فَمَنِ الشفيق؟ قال: من إن دَهَمَتْكَ مِحْنَةٌ قَذِيَتْ عَيْنُهُ لَكَ، وَإِنْ شَمِلَتْكَ مِئْذَنَةٌ قَرَّتْ
عَيْنُهُ بِكَ^(٥). قيل له: فَمَنِ الوافي؟ قال: من يحكي بلفظه كَمَالَكَ، ويرعى بِلَحْظِهِ
جَمَالَكَ^(٦). قيل له: فَمَنِ الصاحب؟ قال: من إن غاب تشَوَّفْتَ إِلَيْهِ الْأَحْبَابُ، وَإِنْ
حَضَرَ تَلَقَّحْتَ بِهِ الْأَلْبَابُ^(٧). قيل: فَمَنِ النديم؟ قال: من إن نَأَى ذَكَرَكَ عِنْدَ الْكَاسِ،
وإن دَنَا مَلَكَ الْإِسْتِنَاسِ^(٨).

كتب محمد بن عبد الملك بن محمد الزيات إلى إبراهيم بن العباس الصُّولي أيام

(١) فلما تبادلنا الأحاديث، واطلع كل واحد منا على ما في نفس صاحبه، وانكشفت له طويته، وأبانت السرائر
عما يُخفي ويكتم.

(٢) ظهر لي عندئذ أن هذا المحديث الذي جاء يسعى بيني وبينك كاذب واش يريد الوقعة بيننا. فلك عندي
الرضى بعد الغضب، ولك مني المسرة بعد المساءة، على الرغم مما قاله هذا الواشي الكذوب.

(٣) إن الصديق: هو الذي لا يراك إنساناً آخر غيره، بل يراك كنفسه تماماً، يفرح لما تفرح به، ويألم لما تألم منه...
وهو الذي لا تعمد هواه ومحبه أبداً، بل هواه ومحبه دائمان معك وباقيان لك لا ينصرفان عنك لحظة.

(٤) والرفيق: هو من تكون أنت نهاية ما يَشْغُلُ قلبه ويملك تفكيره، فلا يفكر في شيء سواك... وهو من تكون أنت
كل شيء في حياته؛ فأنت الفرض الواجب عليه أن يعمل، وأنت التطوع الذي يعمل إن شاء، ولا يعمل إذا
أراد!

(٥) والشفيق: هو الذي إذا غَشِيَكَ بلاء دمعَتْ عيناه كأنما سقطت فيهما قذاة؛ حزناً عليك ورتاءً لك. وإذا عَمَّتْكَ
عطايا، ووافاك خير كان فرحاً لما نلت مبتهجاً به.

(٦) والوافي: هو الذي إن غاب عنك حكى للناس عن كريم صفاتك، وتغنى لهم بخلائقك ومناقبك، وإن حضر
لم يحول طَرْفَهُ عنك شغفاً بمطالعة جمالك.

(٧) والصاحب: هو الذي إن غاب أحسَّ أصدقاؤه الشوق إليه واستشعروا الحنين له، وإن حضر كان ثروة جديدة
للعقول والأفهام بما يقدم لها من روائع وذخائر.

(٨) والنديم: هو من يذكرك عندما تدور الكأس وأنت غائب، فيستشعر النقص لغيابك، وإن قرب منك أذهب
عنك الوحشة وملاك أنسا وبهجة.

مقامه بالأهواز كتاباً يقول فيه: قلة نظرك لنفسك حرمتك سنا المنزل، وإغفالك حظك حطك عن أعلى درجة، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة، حتى صرت من قوة الأمل معتاضاً شدة الوجل، ومن رجاء الغد متعوضاً يأس الأبد. وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة، وصرت معرضاً للرحمة بعد ما اكتفتك الغبطة^(١).

وقد قال الشاعر:

إذا ما بدأت أماًراً جاهلاً بيبّر، فقَصّرَ عن حَمَلِهِ^(٢)
ولم تره قابلاً للجميل، ولا عَرَفَ الفضلَ من أهله^(٣)
فَسُمُّهُ الهوان؛ فإن الهوانَ دواءٌ لذي الجهل من جهله^(٤)

قد فهمت كتابك وإغراقت وإطناك وإضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالأفلام، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم، وعوض منك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فكتب إليه إبراهيم يستعطفه:

أخ كنت آوي منه عند ادّخاره إلى ظل أفنان من العزّ باذخ^(٥)
سَعَتْ نُوبُ الأيام بيني وبينه فأقلعنّ منا عن ظلوم وصارخ^(٦)

(١) أي إنك لم ترع حق نفسك، فحرمك ذلك المكانة الرفيعة المرموقة، وأهملت قدرك فأسقطك هذا من الدرجة العالية وجعلك غير جدير بها، ولم تعرف قدر النعمة فحلّت بك النقمة والبلاء. واعتصمت بالأمل الخوف، وبالرجاء اليأس بعد أن كنت في أمن وطمأنينة، وصرت اليوم مستحقاً لرحمة الناس بك وعطفهم عليك بعد أن كنت في نعمة سابغة شاملة.

(٢) إن بدأت صديقاً جاهلاً بيبّر ومعروفك، فقَصّرَ عن حملهما وناء بما ولم يعرفهما.

(٣) ورأيت غير قابل للصنيع، وغير مُعترف بالجميل، وغير مُقَرّ بالفضل لذويه.

(٤) مثل هذا الصديق المنكر للجميل، يجب أن تُذيقه الذل والهوان؛ فإنه ليس جديراً بالبرّ وليس خليقاً بأن تصنع به الجميل، وإن الهوان لهو الدواء الوحيد الذي يشفيه من جهله وجحوده وعدم عرفانه أيادي الناس عليه.

(٥) لي أخ كنت أدخّرهُ لنفسِي، وآوي إلى ظله عند الشدائد، فأستروح ظل أغصان مترامية طولاً وعرضاً، ومرتفعة عالية.

(٦) نُوبُ الأيام: جمع نوبة (بالضم): وهي النازلة والمصيبة. أقلعنّ منا: تركننا. صارخ: مُستغيث.

أي إن حوادث الأيام سعت بيننا فأفسدت علاقتنا وتركنا بين ظالم أو مستغيث من أخيه.

وإني وإعدادي لدهري محمدًا كملتِمْسٍ إطفاءَ نارٍ بنافخِ^(١)
فما نجع، فكتب:

وكنْتَ أخِي فِي رِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا^(٢)
وكنْتُ أذَمَّ إِلَيْكَ الزَّمَانُ فَأَصْبَحْتُ مِنْكَ أذَمَ الزَّمَانَا^(٣)
وكنْتُ أَعِدَّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا^(٤)
فلم يثنِ ذلك محمدًا، فكتب إليه كتابًا غليظًا، وكتب في آخره:

أبا جعفر، خَفَ نَبْوَةٌ بَعْدَ دَوْلَةٍ وَعَرَّجَ قَلِيلًا عَنْ مَدَى غُلُوَائِكَ^(٥)
فإن يكُ هذا اليومُ يومًا حَوَيْتُهُ فإن رجائي في غد كرجائك^(٦)
فما مرت الأيام حتى كان من أمر «محمد» ما كان، وولِّي «إبراهيم» ديوان الرسائل،
فأمر أن ينشئ فيه رسالة بقلّة طاعته، ففعل.

كان بين «أبي الخطاب الصابي» وبين «أبي كعب» الداهية التي لا تُرَامُ^(٧)،
بعد صداقة كانت زائدة على صلة الرّحم^(٨) ولُحمة النسب^(٩)، فقيل له -أعني أبا

(١) وإني عندما أعددت «محمدًا» ليكون عوني على مصائب الدهر وظهيري على بلاياه، كنت في ذلك كمن أراد
إطفاء نار فجاءها بنافخ يزيدا اشتعالًا وتوهجًا!
(٢) لقد كنتَ أخًا لي عندما كان الزمان رخيًا، فلما تغير حالي وتحول الزمان عني، أصبحتَ عليّ حربًا قاسية
شديدة!

(٣) وكنْتُ أذَمَّ لكَ الزمان وأشكوه إليك، فصرْتُ أذَمَ الزمان منك وأشكوه بسببك.
(٤) وكنْتُ قد أعددتكَ حصنًا لي من نوائب الدهر، وأنا الآن أطلب الأمان منك؛ فإنك أنت اليوم مصدر البلاء
والشقاة والخوف والفرع.
(٥) اخذُرْ -يا أبا جعفر- جفوة الزمان وإدباره بعد عزّه وإقباله، واعدل قليلًا عن كبريائك، واترك غلوك ونشاطك
ومبالغتك في تقدير نفسك.

(٦) فإن تك قد حَوَيْتَ اليوم -دوني- جاهًا وسطوةً، فإن لي في غد أملًا مثل أملك، ورجاء يعدل رجاءك.
(٧) التي لا تُرَامُ: أي التي لا تُبْرَأ ولا تُشْفَى، ولا يُتَخَلَّصُ منها.
(٨) صلة الرّحم: الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار، والعطف عليهم، والرفق بهم، ورعاية
أحوالهم، ولو بعدوا أو أساءوا.
(٩) لُحمة النسب: قرابة النسب.

الخطاب- كيف أنت مع ابن كعب؟ فأنشد:

خليلان مُختلفٌ شأْننا أريدُ العَلَاءَ، ويبغي السَّمَنُ^(١)
وكان ابن الجلاء الزاهد بمكة يقول لأصحابه: اطلبوا خِلَّةَ الناس^(٢) في هذه الدنيا
بالتقوى، تنفعكم في الدار الأخرى، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؟

وقال الحرَّاني في تصنيف الناس^(٣): منهم من هو كالغذاء الذي يُمسك رَمَقَكَ^(٤)
ولا بد لك منه على كل حال؛ لأنه قِوام حياتك^(٥)، وزينة دهرك. ومنهم من هو كالدواء
يُحتاجُ إليه في الحين بعد الحين على مقدار محدود، ومنهم من هو كالسَّم لا ينبغي أن
تقربهُ فإنه سبب هُلكتك^(٦).

قيل لأعرابي: كيف أنُسك بالصديق؟ قال: وأين الصديق؟ بل أين الشبيه به؟ بل
أين الشبيه بالشبيه؟ والله ما يُوقِد نارَ الضغائن والدُّحُول^(٧) في الحيِّ إلا الذين يدَّعون
الصداقة وينتحلون النصيحة، وهم أعداء في مُسوك الأصدقاء^(٨)، وما أحسن ما قال:
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق^(٩)

(١) يصف «أبو الخطاب» نفسه، كما يصف صديقه «ابن كعب» فيقول: إننا خليلان، ولكنَّ صفة كل منا تختلف
عن صفة صاحبه؛ فأنا أريد معالي الأمور، وأنشد رفعة المكانة، وأستعين في سبيل ذلك بكل شيء. أما
صاحبي فإن كل ما يهيمه هو إشباع بطنه واكتناز لحمه وتضخم أمواله.

(٢) خِلَّةُ الناس (بالكسر): مصادقتهم وإخاؤهم.

(٣) تصنيف الناس: جعلهم أصنافاً، وتمييز بعضهم من بعض. ومنه تصنيف الكتب.

(٤) يُمسك رَمَقَكَ: يحفظ لك روحك وحياتك.

(٥) قِوام حياتك، عمادها وملاكها الذي تقوم به.

(٦) هُلكتك (بضم الهاء وفتحها): هلاكك.

(٧) الدُّحُول: جمع دَحَل، وهو الثَّار، وقيل: العداوة والحقد.

(٨) مُسوك الأصدقاء: جلود الأصدقاء، جمع مَسَك وهو الجلد، سُمِّي به لأنه يُمسك ما وراءه من اللحم والعظم.

(٩) إذا اختبر العاقل هذه الدنيا، فإنها تتضح له عدوًّا قد لبس ملابس الأصدقاء! يلقاك بالبشر كما يلقونك، ويبدل
لك أعسل الكلام كما يبدلون، ولكنه يخفي وراء ذلك الكراهية والبغضاء والعداوة الضارية.

وقال آخر:

إذا نوبةً نابثٌ صديقك فاغتنم
مَرَمَّتْهَا؛ فالدهر بالناس قَلْبٌ^(١)
وبادرٌ بمعروفٍ إذا كنت قادراً
وحاذرٌ زوالاً من غنى عنك يعقب^(٢)
فأحسنْ ثوبيك الذي هو لابسٌ
وأفرهْ مُهرِك الذي هو يركب^(٣)
وقال أيضاً:

اجعل صديقك مَنْ إذا أَحْبَبْتَهُ
حَفِظَ الإِخَاءَ، وكان دونك يَضْرِبُ^(٤)
واطلبهُم طلبَ المريضِ شفاءهُ
ودع اللئيم فليس ممن يُصَحِّبُ^(٥)
يُعْطِيكَ ما فوق المُنَى بلسانه
ويروغُ منك كما يروغ الثعلبُ^(٦)
واحذرْ ذوي المَلَقِ اللئامِ فإنهم
في النائبات عليك ممن يخطُبُ^(٧)
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي
والنصح أفضل ما يُبَاحُ ويُوْهَبُ^(٨)
وقال آخر:

(١) إذا حلت بصاحب لك مصيبة، فاغتنمها فرصة لإصلاح ما أفسدته تلك المصيبة، وتخفيف آثارها عليه؛ فإن الدهر يتقلب ويتحول على الناس، وعسى أن تقع أنت غداً في مثل ما وقع فيه صاحبك اليوم.
(٢) وأسرع ببذل المعروف إليه، ومساعدته بكل ما تملك وبكل ما تقدر عليه، واحذر زوال غناك وقدرتك وتحولهما إلى فقر وضعف، فكذلك الدهر دائماً، فقرٌ يخلف غنى، وضعفٌ يخلف قوة.
(٣) واجعل له أحسن أثوابك يلبسها، وأنشط وأملح مهارك يركبها.
(٤) اتخذ صديقك ممن يصونون مودتك، ويحفظون إخوانك إذا أحببتهم، وممن يدافعون عنك ويحمونك، ويضربون أعداءك إذا كادوا لك أو أرادوا الإضرار بك.
(٥) هؤلاء هم الأصدقاء الأخيار، فاطلبهم بجد واهتمام، كما يطلب المريض الدواء الذي يشفيه، أما اللئام فاترك مصاحبته؛ فإنهم غير جديرين بالمصاحبة وبالمودة.
(٦) يمنحك بلسانه أكثر مما تتمنى، ولكنه عند الحاجة يحيد عنك ويذهب هنا وهناك مكرراً منه وخديعة؛ ليفر من حاجتك! وقد روي هذا البيت هكذا: «يعطيك من طرف اللسان حلاوة».
(٧) واحذر أصحاب الملق الذين يعطونك بألستهم ما ليس في قلوبهم، وببالغون في مدحك وفي نعتك بأطيب النعوت، وقلوبهم خالية من كل مودة... احذر هؤلاء فإنهم إذا تحول عنك الدهر، تحولوا أعداء لك وحرماً عليك يسلقونك باللسنة حداد.
(٨) ولقد بذلت لك النصيحة إن كنت تقبله، والنصح أفضل وأغلى ما يبوح به الإنسان وينطق به، وخير ما يهبه صديق لصديقه. وقد روي هذا البيت هكذا: «والنصح أغلى ما يُباع ويُوْهَب».

خير إخوانك المشارك في الضُّرِّ — رِّ، وأين الشريك في الضرِّ أيننا؟^(١)
 لا يني - جاهداً - يحوطك في الحَضِّ — ر، فإن غبتَ كان أذنًا وعينا^(٢)
 أنت في معشرٍ إذا غبتَ عنهم — بدّلوا كل ما يزيُّنك شينًا^(٣)
 وإذا ما رأوك قالوا جميعاً: أنت من أكرم البرايا علينا^(٤)

وقلت لأبي المتيّم الصوفي الرّقي: كيف حالك مع فلان؟ قال: تتدارى بالثناء إلى أن يفرج الله. قلت: هلّا تخالصتما عن الرّثاء والنفاق؟ فقال: والله إن خوفي من أن يصير الرّثاء^(٥) والنفاق مُكاشفة، والمكاشفة مُفارقة، أشدّ من خوفي من الرّثاء. والعَجَبُ أن المؤمنة^(٦) علينا في الصبر على هذه الحال أغلظ من المؤمنة لو تصافينا، إلا أن التصافي لا يكون مني وحدي، ولا منه وحده. ولعله يتمنى ذلك مني كما أتمنى ذلك منه، ولكن لا يطابق ذلك مطابقة؛ لحؤول الزمان^(٧)، والفساد العام، وغلبة ما لا سبيل إلى تغييره. طلعت الأرض بأهلها والحاجة ماسّةً إلى كلمة طريّة^(٨)، ودعوة فاشية^(٩)، وأمر جامع^(١٠)، حتى تأتلف القلوب^(١١)، وتنتفي العيوب. وهذا إلى الله الذي خلق الخلق، ودبّر الشأن، وتفرد بالغيّب، وتعزّز بالقدرة.

-
- (١) خير إخوانك مَنْ إذا أصابك ضرٌّ حمل عنك بعضاً منه، وشاركك في العناء والمتاعب اللذين يجلبهما لك ذلك الضرّ. وأين الصديق الذي يشاركك في ذلك؟ أين هو؟
 (٢) لا يفتر لحظة واحدة عن أن يحيطك - في حضورك - بالبرّ والمحبة والمعروف، فإذا غبتَ عنه كان لك أذنًا بدلًا من أذنك يستمع بها كل ما يهَمُّك ويحيط بك، وكان لك عينًا بدلًا من عينك يبصر بها كل ما يتصل بك.
 (٣) ولكنك في قوم إذا غبتَ عنهم قبلوا محاسنك سيئات، وجعلوا كل ما يزينك ويشرفك عيبًا ونقيصةً.
 (٤) فإذا حضرت عادوا مادحين لك قائلين: إنك من أكرم الناس علينا، وأحبهم إلينا، وأعظمهم مكانةً عندنا!
 (٥) الرّثاء: الرحمة والرقّة، تقول: رثي له: أي رَحِمَهُ ورَقَّ له.
 (٦) المؤمنة: الثَّقُلُ والشدة.
 (٧) حُؤُولُ الزمان: تحوُّله، وتغيُّره، وانقلابه.
 (٨) كلمة طريّة: كلمة ليّنة غضة.
 (٩) دعوة فاشية: دعوة منتشرة ذائعة.
 (١٠) أمر جامع: أمر شامل.
 (١١) تأتلف القلوب: تجتمع.

وكما أن في السنة الواحدة للزمان أحوالاً: في الحرّ المفرط، والبرد المفرط، والحر المتوسط، والبرد المتوسط. كذلك للدهر المديد أحوال في الخير العام، والشر العام، والخير الخاص، والشر الخاص.

والعاقل من لا يتمنى ما لا يُوجد، ولكن يصبر على ما يجد، إن حلواً فحلوا، وإن مُرّاً فمُرّاً، إلى أن يأذن الله بالفرج من حيث لا يحتسب^(١).

قال معمر صاحب عبد الرزاق: ما بقي من لذات الدنيا إلا محادثة الإخوان، وأكل القديد^(٢)، وحكّ الجرب، والوقية في الثقلاء.

قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوي العقول^(٣)
وقد كانوا - إذا عُذُوا - قليلاً فقد صاروا أقلّ من القليل!^(٤)
قال الأحنف: لا خير في صديق لا وفاء له، ولا خير في منظر لا مخبر له، ولا خير في فقه لا ورع معه^(٥).

قال العُتبي: قال أعرابي: إذا استخار العبد ربه، واستشار صديقه، واجتهد رأيه، فقد قضى ما عليه لنفسه، ويقضي الله في أمره ما أحب^(٦).

(١) من حيث لا يحتسب: من حيث لا يظنّ، ولا يتوقع.

(٢) القديد: اللحم المجفف في الشمس.

(٣) لم يتبقّ لي من الملذات سوى الحديث إلى الرجال أصحاب العقول والأفهام؛ فإن حديثهم هو الملذة الوحيدة الباقية لي من ملذات الحياة.

(٤) وقد كان هؤلاء العقلاء - إذا عذّبناهم - قلائل، فصاروا اليوم أقلّ من القليل، لا يكاد الإنسان يقع على واحد منهم إلا نادراً.

(٥) لا خير في الصديق الذي لا يعرف الوفاء، فالوفاء هو الصدّاقة، ومن دونه لا يتحقق منها شيء. كما أنه لا خير في منظر ليس له حقيقة، ولا خير في فقه ودرس لشؤون الدين لا يكون من ورائهما ورع وتقوى؛ فإنهما عندئذ لا يعدوان أن يكونا كلاماً لا طائل وراءه.

(٦) إذا ترك الإنسان الخيرة لله في أموره، ثم استشار فيها أصدقاءه، وأعمل رأيه مجتهداً باحثاً عن وجه الصواب... إذا فعل ذلك، فإنه يكون قد أدّى ما يجب عليه نحو نفسه، ولْيترك لله الأمر بعد ذلك يحكم فيه بما يشاء.

توفي ابنُ ليونس بن عبيد، فقيل له: إن ابن عون لم يأتك، فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أخ، لا يضرُّنا أن لا يأتينا.

وحدثني العروضي، قال: لما عاد السلطان علي بن عيسى من مكة تلقاه قوم من بغداد إلى زبالة، وإلى ما فوقها و دونها، فلما قرَّرت به الدار بمدينة السلام، أتاه قوم كانوا بها لم يتجشَّموا لقاءه^(١)، فقال: كم من إنسان قعد لم يرمِ مجلسه^(٢) حتى وافيناه. فكان ألوطٌ بقلوبنا^(٣)، وأسكنَ في أسرارنا، من قوم تجشَّموا المسير إلى زبالة. ألا إن المودة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس وما عدا ذلك فمحمول عليه، ومردود إليه^(٤).

قال يحيى بن أكرم: كنت أرى شيخاً يدخل على المأمون في السنة مرة وكان يخلو به خلوة طويلة، ثم ينصرف لا نسمع له خبراً، ولا نرعى له أثراً^(٥)، ولا نقدم على المسألة عنه^(٦). فلما توفي قال لنا المأمون: وأسفا على فقد صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقي إليه العُجْرَ والبُجْرُ^(٧)، وتقتبس منه الفوائد والغرر^(٨).

قلنا: ومن ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: أما كنت ترى شيخاً يأتينا في الفرط^(٩)، ونخلو به من دون الناس؟

قلت: بلى.

(١) لم يتجشَّموا لقاءه: لم يتكلفوا لقاءه. وتجشَّم الأمر: أي تكلفه على مشقة.

(٢) لم يرمِ مجلسه: لم يُفارقَه.

(٣) ألوطٌ بقلوبنا: ألصقُ بها.

(٤) محمول عليه: مُلحقٌ به. مردود إليه: راجع إليه. أي إن المودة والصداقة والثقة هي الأصل والركن والأساس، وما عدا ذلك ففروع وآثار ترجع إليها، وترتد في نسبتها إليها.

(٥) لا نرعى له أثراً: لا نعرف ما صار إليه أمره.

(٦) المسألة عنه: السؤال عنه.

(٧) العُجْرَ والبُجْرَ: أي العيوب والأحزان، أو ما أبدى وما أخفى.

(٨) الغرر: جمع غُرَّة، وهي كل شيء تُرفع قيمته.

(٩) يأتينا في الفرط: أي في الحين بعد الحين.

قال: قد تأخر عن إِبَّانِهِ^(١)، وأظن أنه قد قَضَى^(٢).

قلت: الله يَمُدُّ في عمر أمير المؤمنين، وما في ذلك؟

قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب^(٣)، وأجدُّ به ما يوجد بالولد السارَّ المحبوب. ولقد كنت أستمَدُّ منه رأياً أقوِّم به أوَدَ المملكة^(٤)، وأصل به إلى رضا الله في سياسة الرعية، وآخر ما قال لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين، إذا استَشَنَّ^(٥) ما بينك وبين الله تعالى فأبْلُلُهُ. قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالافتداء به في الإحسان إلى عباده؛ فإنه يحب الإحسان إلى عباده من عباده، كما تحب الإحسان إلى ولدك من حاشيتك. والله ما أعطاك القدرة عليهم؛ إلا لتصبر على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم والتغمد لسيئاتهم^(٦) وأي شيء أَوْجَهُ لك^(٧) عند ربك من أن يكون أمامك إمام وعدل وإنصاف وإحسان وإسعاف ورأفة ورحمة، مَنْ لي يا يحيى بمثل هذا القائل؟ وأنت لي بمن يذكّرني ما أنا إليه صائر^(٨)؟

لما وقع الاختلاف بالمدينة وخرج «عروة بن الزبير» إلى العقيق، واعتزل الناس، فعاتبه إخوانه، فقال: رأيت ألسنتهم لاغية^(٩)، وأسماعهم صاغية^(١٠)، وقلوبهم لاهية،

(١) تأخَّر عن إِبَّانِهِ: تأخَّر عن حِينِهِ وأوانِهِ.

(٢) قضى: مات.

(٣) المكروب: الذي اشتد عليه الغم.

(٤) أقوِّم به أوَدَ المملكة: أصلحُ به اعوجاج المملكة.

(٥) استَشَنَّ: استَشَنَّت القِرْبَةُ: أَخْلَقَتْ. يقال: «إذا استَشَنَّ ما بينك وبين الله، فأبْلُلُهُ بالإحسان إلى عباده: أي إذا أَخْلَقَ وَبَلَّيَ.

(٦) التغمد لسيئاتهم: سَتَرُها وإخفاؤها.

(٧) أَوْجَهُ عند ربك: أكثر قدراً وشرفاً عند ربك.

(٨) مَنْ أين لي بالرجل الذي يذكّرني دائماً بموتي ثم بعثي ونشوري، وحسابي على ما قدّمت في حياتي، ولا يكتفي بتسليتي وإضحائي؟

(٩) ألسنتهم لاغية: ألسنتهم تُخْطِئُ، وتقول باطلاً، وتتكلم لا عن رويّة وفكر.

(١٠) أسماعهم صاغية: مائلة مُستَمِعة، والمقصود أنها مائلة ومستمعة لهزل القول، وللخوض في الأعراض، وما إلى ذلك.

وأديانهم واهية، فخفت أن تلحقني منهم الداهية، وكان لي فيما هنالك عنهم عافية^(١).

قال سُويد الصامت:

أَلَا رَبَّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا، وَلَوْ تَرَى مَقَالَتَهُ بِالْغَيْبِ، سَاءَكَ مَا يَفْرِي^(٢)
مَقَالَتَهُ كَالشَّهَدِ مَا كَانَ شَاهِدًا وَبِالْغَيْبِ صَابٌ مُسْتَفِيزٌ مِنَ الشَّعْرِ^(٣)
يَسُرُّكَ بِأَدِيهِ، وَتَحْتَ أَدِيمِهِ تَمِيمَةٌ غِشٌّ، تَلُوها دَبْرَ الظَّهْرِ^(٤)
تَحَدِّثُنِي الْعَيْنَانِ مَا الْقَلْبُ كَاتَمٌ وَلَا جُنَّ بِالْبَغْضَاءِ وَالنَّظَرِ الشَّرِّ^(٥)
فَرِشْنِي بِخَيْرٍ طَالَ مَا قَدْ أَرَدْتُهُ فَخَيْرِ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يُثْرِي^(٦)

قال يحيى بن معاذ: ببس الصديق صديقٌ تحتاج معه إلى المداواة، وببس الصديق صديق تحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك، وببس الصديق صديق يُلجئك إلى الاعتذار^(٧).

- (١) أي كان لي في مُعْتَزلي السلامة والأمان من هؤلاء الناس الذين تعاتبوني على اعتزالهم والابتعاد عنهم.
(٢) ربما تدعو أحد الناس صديقًا، ولو عرفت ما يذكرك به -عند غيابك عنه- من سوء، وما يفري به جلدك ويقطعه تقطيعًا، لحزنت، وأبيت أن تدعوه صديقًا.
(٣) إن كنت بمشهدٍ منه فلن تسمع منه إلا معسول القول، فإن غبت عنه تحوّل كلامه علقمًا مرًا ينساب من فمه ويفيض منه.
(٤) إن ظاهره يسرُّك ويرضيك، ولكنه يخفي وراء ظهره، ومن تحت جلده غشًا وخداعًا يتبعانه دائمًا ولا يفارقانه، كأنهما المؤدة التي يعلقها الناس على صغارهم وقايةً لهم من الحسد فلا يخلعونها عنهم أبدًا.
(٥) جُنَّ بالبغضاء: جُنَّت الأرض: أي أخرجت زهرها ونورها، وجُنَّ الثبْتُ: أي طال والتفّ وخرج زهره.
والمعنى: أن عينيه تحدثانني بما يكتُم في قلبه من عداوة لي، وهو لم يُظهر هذه العداوة ولم ينظر إليّ بمؤخر عينيه نظر الغضبان، ولكن العداوة لا تخفى.
ومثل ذلك قول الشاعر:

والنفس تعلم من عيني مُحدّثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها

- (٦) رَاشَةُ: أطعمه وسقاه وكساه، ونفعه وأعاناه وأغناه، وأصلح من حاله.
والمعنى: فأتلني الخير الذي طالما تمنيت، فخير الأصدقاء هو من يمنح الناس فلا يُثري ولا يكثر ماله، وقد روي هذا البيت: «من يرش ولا يبري» أي من ينفع ولا يضر.
(٧) إنه يذم من الأصدقاء ثلاثة: صديق تحتاج معه دائمًا إلى المداواة والملاينة لتستقي صداقته، وصديق تطلب إليه أن يذكرك في دعائه؛ لأنه لا يذكرك من تلقاء نفسه، وصديق يضطرك إلى الاعتذار دائمًا فلا يغفر لك سيئة وإن صغرت، ولا ينسى لك هفوة وإن تكن عن غير قصد.

قال الأعمش: أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقي أخاه شهرًا أو شهرين، فإذا لقيَهُ لم يزدُهُ على: كيف أنت؟ وكيف الحال؟ ولو سأله شطر ماله^(١) لأعطاه، ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقي أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حَبَّةً من ماله لمنعه^(٢).

كَأَنَّ مَعَالِمَ الْخَيْرِ تَسُدُّ دُونَهَا الطَّرِيقُ^(٣)
وَحَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَدْرِي بِمَنْ أَثِقُ؟^(٤)
فَلَا عَقْلٌ وَلَا حَسَبٌ وَلَا دِينَ وَلَا خُلُقٌ^(٥)

لقي رجل صاحبًا له، فقال له: إني أحبك. فقال: كذبت، لو كنت صادقًا ما كان لفرسك بُرْقُع، وليس لي عَبَاءة^(٦).

وقيل لأبي العريب المصري: إذا كان الرجل يحب صاحبه، ويمنعه ماله، أيكون صادقًا؟ قال: يكون صادقًا في حبه، مُقَصِّرًا في حقه.

قال مالك بن دينار: أخوَّةُ هذا الزمان مثل مَرَقَةِ الطباخ في السوق، طَيِّبَةُ الرِّيحِ لَا طَعْمَ لَهَا^(٧).

(١) شطر ماله: نصف ماله. أي إنه صديق قليل الكلام كثير العمل، فهو يسأل عنك في إيجاز واقتصاد في القول، ولكنك لو طلبت إليه أن يعطيك نصف ماله لفعل.

(٢) ولكن هناك نوعًا آخر من الأصدقاء، يُسرف في السؤال عنك وعن أحوالك صغيرها وكبيرها حتى إنه ليسألك

عن دجاجتك التي في البيت! فإذا طلبت إليه حبة واحدة من ماله أو سألته الأقل منه، لَضَنَّ به ومنعه عنك!

(٣) كأن المواضع التي يُتَمَسَّسُ الخير فيها، ويُظَنُّ وجوده بها، قد سُدَّتْ السُّبُلُ المؤدية إليها، وصار الوصول إليها متعذرًا.

(٤) وقد صار الناس جميعًا خائنين، فلا أعلم بمن أثق منهم؟ وليس فيهم من يُوثَقُ به أو يُطَمَّئِنُّ إليه؟

(٥) وقد خلت الحياة الآن من العقل والحكمة، ومن المفاخر التي يفخر الناس بها، ومن الدين والأخلاق اللذين يعصمان الناس من الزلل والانحراف.

(٦) لو كنت تحبني حقًا ما اتخذت لفرسك بُرْقُعًا كذاك البرقع الذي تستر المرأة به وجهها، وأنت تعلم أنني لا أملك لنفسي كساء من صوف.

(٧) إن إخوان هذا الزمان لهم رُؤاء ومظهر، ولكن ليس لهم حقيقة أو جوهر، كالمرق والماء اللذين يمرقان من اللحم، فإن لهما رائحة طيبة، ولكن ليس لهما طعم أو مذاق يلتذ به الإنسان.

قال الأحنف: خير الإخوان مَنْ إذا استغْنِيَتْ عنه لم يزدك في المودة، وإذا احتجَّتْ إليه لم ينقصك^(١).

قال أبو يعقوب: دخلنا على أبي المطيع القرباني نسأله الحديث، فقدم إلينا طعاماً، فأمسكنا عنه. فقال: يا هؤلاء، كانت المواساة بين الإخوان قبلنا بالضياع^(٢)، والرباع^(٣)، والبراذين^(٤)، والممالك^(٥)، والدور، والبدور^(٦)، فصارت اليوم إلى هذا، وهو مروءتنا، فإن أمسكتم عن هذا أيضاً، ذهب هذا القدر، وماتت سنة السلف فلا تفعلوا، فأقبلنا عليه وأكلنا.

قال بلال بن سعد: أخ لك كلما لقيك ذكرك برؤيته ربك، خير لك من أخ كلما لقيك وَضَعَ في كفك ديناراً.

قال يحيى بن معاذ: واشوقاهُ إلى حبيب إذا غضب عفا، وإذا رَضِيَ كفى.

قلت لأبي سليمان: هل يُلاتُ^(٧) ما بين الصديقين؟ وهل يُفْضِيان^(٨) إلى هجر؟ وهل يفرغان إلى عتب^(٩)؟ فقال:

أما ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية، فقد يعرض سوءٌ بينهما، لكنهما

(١) خير إخوانك من كانت مودته لك ثابتة لا تُغَيِّرُها الظروف المتباعدة، فلا تزيد عند استغنائك عنه، ولا تنقص عند احتياجك إليه.

(٢) الضياع: جمع ضَيْعَة، وهي العَقَار، وعند الحاضرة النخل والكرم والأرض.

(٣) الرباع: جمع رُبْع، وهو الدار بعينها حيث كانت، والمحلة.

(٤) البراذين: جمع بَرْدَوْن، وهو الدابة.

(٥) الممالك: جمع مملوك، وهو العبد.

(٦) البدور: جمع بُدْرَة، وهي عشرة آلاف درهم.

(٧) هل يُلاتُ ما بين الصديقين؟: أي هل يُكْتَمُ وَيُحْبَسُ ما بين الصديقين؟

(٨) وهل يُفْضِيان إلى هجر؟: هل ينتهيان إلى هجر وقطيعة؟

(٩) يفرغان إلى عتب: يقصدان إليه.

يرجعان فيه إلى أسس المودة، وإلى شرائط المروءة، وإلى ما لا يَهْتِكُ^(١) سُجُف^(٢) الفتوة^(٣).

وأما الهجر: فإن حَدَثَ حدث جميلًا، ولا مُسْتَمَرَّ لخوافر الشوق إلى المعهود، ومحركات النفس إلى التلاقي^(٤).

وأما العتب: فربما أَصْلَحَ، وَرَدَّ الفائت، وَشَعَبَ الصَّدْعُ^(٥)، وَلَمْ الشَّعَثَ^(٦)، والإكثار منه ربما عرض بالحق^(٧)، وأحدث نوعًا من النبوة. وقد قيل: وما صافيت من لا تعاتبه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عهداه في الأول. وقال الأول:

أَنَاسٌ أَمِنَّا هُمْ، فَتَمُّوا حَدِيثَنَا فَلَمَّا كَتَمْنَا السَّرَّ عَنْهُمْ، تَقَوَّلُوا^(٨)
وَلَمْ يَحْفَظُوا الْوَدَّ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا وَلَا حِينَ هَمُّوا بِالْقَطِيعَةِ أَجْمَلُوا^(٩)
قلت: فما الفرق بين الصداقة والعلاقة؟

فقال: الصداقة أَذْهَبُ في مسالك العقل، وَأَدْخَلُ في باب المروءة، وَأَبْعَدُ من نوازي الشهوة، وَأَنْزَهُ عن آثار الطبيعة، وَأَشْبَهُ بذوي الشيب والكهولة، وَأَزْمَى إلى

(١) يَهْتِكُ: يَحْرِقُ السَّيْرَ عَمَّا وَرَاءَهُ.

(٢) السُّجُفُ: الْأَسْتَارُ.

(٣) الفتوة: السخاء والكرم والمروءة.

(٤) لا جدال ولا منازعة لحق الشوق إلى المألوف المعروف ولحرمته، ولما يتحرك في النفس من رغبة في لقاء الأحياء بعد الغيبة والهجر؛ فإن النفس دائماً تَحَنُّ إلى ما أَلْفَتْهُ.

(٥) شَعَبَ الصَّدْعُ: جَمَعَ المتفرق، وَأَصْلَحَ ما انشَقَّ وَكُسِرَ.

(٦) لَمْ الشَّعَثَ: جَمَعَ المنتشر، وَضَمَّهُ.

(٧) أي إن الإكثار من العتاب قد يؤدي إلى الكراهية والحق، وإلى الجفوة بين المتعابين، فينبغي أن يكون هيئاً لَيْتًا لا اشتطاط فيه ولا إسراف.

(٨) أناس قد أطمأننا إليهم، وبُحِنا لهم بكل ما في صدورنا، فإذا بهم ينمُّون أحاديثنا إليهم، ويظهرونها بالوشاية، ويرفعونها على وجه الإشاعة والإفساد. فلما علمنا ذلك، وكتمنا أحاديثنا عنهم، إذا بهم يبتدعون علينا كلاماً لم نَقُلْهُ، ويكذبون علينا، ويقولون ما لا حقيقة له.

(٩) وهم في ذلك لم يراعوا ما كان بيننا وبينهم من ودٍّ، ولم يكونوا مُجْمِلِينَ حين هَمُّوا بقطيعتنا وهجرنا.

حدود الرشاد، وآخذُ بأهداب السداد^(١)، وأبعدُ من عوارض الغرارة والحادثة^(٢).
فأما العلاقة: فهي من قِبَلِ العشق والمحبة والكَلَفِ^(٣) والشغف والتَّيَمُّمِ والتهيم
والهوى والصبابة والتدائف^(٤) والتشاجي^(٥).

وهذه كلها أمراض أو كالأُمراض، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية، وليس
للعقل فيها ظلٌّ ولا شخص^(٦)؛ ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذُّكران
والإناث، وتنال منهم، وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول، وأداء النفوس
وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب.

ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ؛ لِيَفِيثُوا^(٧) إلى ما فقدوه من
اعتدال المزاج^(٨) والطريق الوسط.

على أن العشق والمحبة وما يحويهما، فيها كلام من نحو آخر.
وأنشد أبو عبيدة:

إِنْ كُنْتَ لَا تَصْحَبُ إِلَّا فَتًى مِثْلَكَ، لَمْ تُقَرَّنْ بِأَمْثَالِكَا^(٩)
فَأَغْضِ عَيْنِكَ عَلَى مَا تَرَى فَالْمِسْكَ قَدْ يَسْتَصْحَبُ الرَّامِكَا^(١٠)

(١) أكثر أخذًا بأسباب الصواب والاستقامة.

(٢) أكثر بُعدًا عن ظواهر الغفلة والجهل الذي يكون مع حادثة السن.

(٣) الكَلَفُ بالشيء: الولَعُ به، تقول: «كَلَفَ بكذا» أي أولَعَ به.

(٤) التدائفُ: المرض الملازم الثقيل.

(٥) التشاجي: الهمُّ والحزن.

(٦) أي ليس للعقل فيها وجود بآثاره، أو بذاته.

(٧) لِيَفِيثُوا: ليرجعوا.

(٨) اعتدال المزاج: المزاج (بالكسر): ما أسسَ عليه البدن من الطبائع. واعتداله: أي توسَّطه بين حالين في كمٍّ
وكيف، وتناسُبُهُ، واستقامتُهُ.

(٩) إِنْ كُنْتَ لَا تَرِيدُ إِلَّا صَاحِبًا مِثْلَكَ وَشَبِيهًا بِكَ، فَلَنْ تَجِدَ قَرِينًا مِثْلَكَ، وَتَسْتَعِيشُ وَحِيدًا دُونَ صَاحِبٍ أَوْ قَرِينٍ.

(١٠) الإغضاء: إِدْنَاءُ الجفون. المِسْكَ: مِنَ الطَّيِّبِ، فَارِسِيٌّ مَعْرَبٌ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ الْمَشْمُومَ.

أي أغمضُ عَيْنِكَ عَلَى مَا تَجِدُ فِي النَّاسِ مِنْ نِقَائِصٍ، وَصَاحِبُهُمْ عَلَى عِلَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ الْمِسْكَ - وَهُوَ الطَّيِّبُ
الَّذِي يَطَيِّبُ بِهِ النَّاسَ وَيَتَعَطَّرُونَ - رُبَّمَا اخْتَلَطَتْ بِهِ مَادَّةٌ سُودَاءُ تَكْرَهُ الْعَيْنُ رُؤْيَهَا.

يُقال: رامك. ورامك سمعته من الحسن بن عبد الله الإمام السيرافي (وهو شيء أسود يخلط به المسك).

عتب «ابن ثوابة أبو العباس» على «سعيد بن حميد» في شيء، فكتب إليه سعيد:

أَقْلِلْ عتابك؛ فالزمانُ قليلٌ والدهرٌ يعدلُ مرةً، ويميلُ^(١)
 لم أبك من زمن ذممتُ صُروفه إلَّا بكيتُ عليه حين يزولُ^(٢)
 والمثْمُون إلى الإخاء جماعةً إن حصلوا، أفناهمُ التحصيلُ^(٣)
 ولكل نائبة - أَلَمْتُ - مُدَّةً ولكل حال - أقبلت - تحويلُ^(٤)
 فلئن سبقتُ لتبكين بحسرةٍ وليكثرن عليَّ منك عويلُ^(٥)
 ولتفجعن بمخلص لك وامقٍ حبْلُ الوداد بحبله موصولُ^(٦)

(١) خَفَّفْ عتابك ولؤمك، فالحياة قصيرة، وهي - على قصرها - تكون مع العدل مرة، وتنحرف وتميل عنه إلى الظلم مرة، فما جدوى اللوم والعتاب؟
 (٢) إنني لم أبك من حوادث زمن مرة، إلَّا عُدْتُ فبكيت على نفس هذا الزمن حين يزول ويأتي زمن غيره!
 ومثل ذلك ما قاله الشاعر:

رب يوم بكيتُ منه، فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليه!
 (٣) والمنتسبون إلى الإخاء قلة قليلة من الناس، يفنون واحدًا بعد الآخر، حتى لا يكاد يبقى منهم الآن إلا النزر اليسير.

(٤) لكل نازلة ولكل مصيبة زمن تنتهي بعده وكأنها لم تكن، ولكل حال تُقبل عليك تحويل وتغيير وتبديل.
 يقول شاعر:

كلَّ حال لضدها تتحولُ فالزَمِ الصبر إذ عليه المَعُولُ
 ويقول ثان:

ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها يُغيّر الله من حالٍ إلى حالٍ
 ويقول ثالث:

يا طالب الدنيا الدنيّة إنها شركُ الرَّذى، وقرارةُ الأفكارِ
 دائرٌ متى ما أضحكك في يومها أبكتُ غداً، تبا لها من دارٍ
 (٥) ولئن سبقتك إلى الموت، فإنك ستبكي عليّ وتُعولُ حُسرةً وحرزًا.
 (٦) وستكون فجيعتك في مُخلصٍ محب لك، متّصل الودّ لك، لم يتصرّم وداده لحظة واحدة.

ولئن سبقت - ولا سبقت - ليمضين
 وليذهبن جمال كل مروءة
 ولذلك نكلف بالعتاب، وودنا
 وودنا لذوي الإخاء صفاؤه
 ولعل أيام الحياة قصيرة
 وقال آخر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة
 فكن أنت محتالاً لزلته عذراً
 وقال آخر:

البس أخاك على تصنعه
 ما كدت أفحص عن أخي ثقة
 ولرب مفتضح على النص
 إلا ذممت عواقب الفحص
 وقال آخر:

احذر مودة ماذق مَزَج المرارة بالحلاوة^(٩)

- (١) أما إذا سبقتني أنت - ولا كان ذلك - فقد مضى عني من لا عدل ولا ضريب له في وده وإخلاصه، ومن لا يُماثله أحدٌ عندي.
- (٢) وسيذهب بذهابك جمال المروءة، وبهاء الأخلاق الكريمة التي ستزول بزوالك، وستصير الدنيا وكأنها قد خلت من كل من فيها، وصارت قفراً ليس بها إلا التراب.
- (٣) ونحن - مع حبنا للعتاب واللوم ورغبتنا فيهما - باقون على الود، ودليل ذلك وفاؤنا الدائم، وإخلاصنا المقيم.
- (٤) وإن ودنا ليظهر صفاؤه ونقاؤه لأصحاب الإخاء والإخلاص الذين لا يُعمي قلوبهم الهوى، وهو ودٌ يبدو فيه الحُسْنُ وتتقَبَّلُه النفس.
- (٥) وقد تكون أيام الحياة قصيرة، فلماذا نضيّعها في العتاب الكثير واللوم الطويل؟ قال الشاعر:
- ما في الحياة لأن تُعَاتِبَ، أو تُحَاسِبَ مُنْعَ
- (٦) إذا بدرت من صديق لك بادرة، أو زل زلة، فكن أنت مُتَكَمِّساً له علة وسبباً، مُفَكِّراً له في عذر يعتذر به عن زلته.
- (٧) صادق أخاك على ما به من تصنع وتكلف؛ فإن التصنع مهما طال زمنه فإنه سينكشف ويفتضح في النهاية.
- (٨) ما كدت أبدأ البحث عن أخي ثقة أطمئن إليه، حتى ذممت نتيجة هذا البحث؛ لأنني لم أجد هذا الأخ، فقد خلت منه الحياة.
- (٩) ماذق: غير مخلص في وده. احذر مصادقة المماذق الذي لا يُخلص لك في وده؛ والذي يُخادعك فيمزج المرارة بالحلاوة تضليلًا لك وتمويهًا.

يُحْصِي الذُّنُوبَ عَلَيْكَ أَيَا مِ الصَّدَاقَةَ لِلْعَدَاوَةِ^(١)

قال سعيد بن حميد:

- لقد ساءني أن ليس لي عنك مذهبٌ ولا لك في حسن الصنعة مرغبٌ^(٢)
أفكر في ودّ تقادم بيننا وفي دونه قُربى لمن يتقربُ^(٣)
وأنت سقيم الودّ، رثّ حباله وخيرٌ من الود السقيم التجنّبُ^(٤)
تسيءُ، وتأبى أن تعقب بعده بحُسنِي، وتلقاني كأنّي مُذنبٌ^(٥)
وأحذرُ - إن جازيتُ بالسوء والقلَى - مقالة قوم ودّهم عنك أجنبُ^(٦)
أساء اختياراً، أو عرته ملالة فعاد يُسيءُ الظنّ، أو يتعتّبُ^(٧)
فخبْتُ من الود الذي كنت أرتجي كما خاب راجي البرق، والبرق خُلِبَ!^(٨)
وقال أعرابي: كثرة العتاب إلحاف، وتركه استخفاف^(٩).

وحدثنا أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضي، قال: كتب إليّ أبو الشهم الحرمي

- (١) إن هذا المخادع يعدُّ عليك ذنوبك أيام صداقته، ويستبقها أسلحة له أيام العداوة المقبلة!
(٢) مما يسوءني ويحزُنني أنني لا أجد مُنصرفاً عنك، وأنك لا ترغب في الإحسان والخير والبرّ.
(٣) إنني أفكر في المودة القديمة القائمة بيننا، وهي مودة كبيرة جميلة، يكفي قليل منها ليتخذ من يرغب في ودنا وسيلةً إلى ذلك الود وإلى القرب منا.
(٤) ولكن ودّك سقيم معتلّ بال، والتجنّب وقطع المودة خيرٌ من مثل ذلك الود المدخول.
(٥) إنك تسيء إليّ، ثم تأبى أن تعقب الإساءة بالإحسان، وبعد ذلك كله تلقاني وكأنّي أنا المُذنب الآثم، وأنت من الذنوب والآثام براء!
(٦) وإني لأخشى إن جازيت بالشرّ وبالبلغض قومًا يتقولون عليك الأكاذيب؛ لأنهم لا يودّونك، ولأن صداقتهم التي يدعونها هي في الحقيقة بعيدة عنك.
(٧) أخشى أن يقولوا إنني أسأت فهم ما يقولون، أو إنني قد سئمتهم ومللتهم، فعدت غاضباً عاتباً عليهم سيئ الظن بهم، ولهذا جازيتهم بالشر والبلغض.
(٨) لقد خاب ودّهم الذي كنت أرتجيه وأحسبه حقيقة، فإذا به برقٌ كاذبٌ خادعٌ لا مطر فيه، ولا خير وراءه.
(٩) إن العتاب ينبغي أن يكون خفيفاً هيئاً، فإن الإكثار منه إلحاح، وإن تركه استهانة بصاحبك.

أيام الشبيبة في خلافة المعتمد، والزمان مُواتٍ^(١)، والعيش رغد^(٢)، والأمل قويّ، وطائر السعد مُرفرف، وغدير الأنس مُغدودق^(٣):

ما أَحَوَّجَكَ أيها الفتى المقتبل^(٤)، والصاحب المؤمل، إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروءة، إذا غَبَّتْ خَلْفَكَ، وإذا حضرتْ كَنَفَكَ^(٥)، وإن لَقِيَ صديقك استزاده لك من المودة، وإن لقي عدوك كفَّ عنك غُربَ عداوته^(٦)، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثنته استرحت^(٧).

قال: فأجبتة: هوّن عليك؛ فليس هذا بأول مُتَمَنَّى فات، والسلام.

أخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا المبرد، حدثنا أبو عمر، قال الأصمعي: دخلت على الخليل وهو جالس على حصير صغير، فقال: تعال واجلس. فقلت: أضيّقُ عليك؟ فقال: مه^(٨)؛ فإن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين، وإن شبراً في شبر يسع متحابين.

قال بعض السلف: ضربة الناصح خير لك من تحية الشاني^(٩)، ولا فضل للمرائي على مظهر الشنآن^(١٠).

(١) الزمان مُواتٍ: موافقٌ ومقبلٌ.

(٢) العيش رغدٌ: واسع طيب.

(٣) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل. مُغدودقٌ: اغدودق المطر: كثر قَطْرُهُ، واغدودقت عين الماء: غَزَزَتْ وَعَذَبَتْ. أي إن البهجة والأنس فيضان من حولنا.

(٤) المقتبل: الذي يستقبل الشباب والحياة.

(٥) كَنَفَكَ: حاطك وصانك.

(٦) غُربَ عداوته: حدتها.

(٧) أي إن شكوت إليه حالك، وأظهرت له ما تعانيه، استرحت وخفّ عنك بعضٌ مما تعانيه.

(٨) مه: اسم لفعل الأمر، ومعناه: اكفف.

(٩) الشاني: المُبغض.

لأنّ يضربك الناصح المخلص الأمين، خيرٌ لك من أن يُحييكَ المُبغض المنافق الذي يُرائيك ويداجيك.

(١٠) الشنآن: البُغْضُ. إن من يُرائيك ويظهر لك الود الكاذب، يساوي تماماً من يُظهر لك العداوة والبغضاء، فليس للأول فضلٌ في إظهار هذا الود؛ لأنه ودّ كاذب، ولأنه في حقيقته عدوٌ مبين.

قال أبو جعفر الشاشي: قد أصاب في الكلمة الأولى، فأما في الثانية فهو مقصّر؛ لأن المرائي له ظاهر يُحمَد، وإن كان له باطن يُذَمّ، وليس كذلك مظهر الشَّنَّان؛ فإنه ليس له باطن يُحمَد، ولا ظاهر يُقَبَّل، فقد بان فضل المرائي بالود على صاحبه.

والمرائي قد يبلغ لك كثيرًا من محابك^(١١)، والرثاء ستر سابغ^(١٢)، وليس بينه وبين الإخلاص إلا عقد نية، وضمير نفس، وصدق غيب، وصلاح سر^(١٣).

وسمعت ابن شاهين يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«استعينوا بالله من شرار الناس، وكونوا من خيارهم على حذر»^(١٤).

ثلاثة أصفيتهم إخائي كأنهم كواكب الجوزاء^(١٥)

عطارديون يرون رأيي كأنما أهواؤهم أهوائي^(١٦)

وقال آخر:

خلان لي: أمرهما عجيب كل لكل منهما حبيب^(١٧)

ما لي في نجواهما نصيب كأنني بينهما رقيب!^(١٨)

(١١) من محابك: مما تحبه وتميل إليه.

(١٢) إن تعدّد المحاسن وذكر المناقب الذي يفعله المرائي، هو ستر متسع طويل تام يحجب العداوة ويخفيها.

(١٣) وليس بين الرياء والإخلاص إلا أن يعقد المرائي النية على الإخلاص في باطنه ولا يكتفي بظاهر القول، وأن يُضمّر المحبة في نفسه، ويكون فيها صادقاً عند غياب صديقه، وأن يُسرّها في قلبه وضميره كما يُبديها. إنه إن فعل ذلك انقلب صديقاً مخلصاً حقاً، وإن هي إلا خطوة يخطوها فإذا هو وليّ حميم.

(١٤) يُنسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برواية: «استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر»، ولم يثبت عنه، وهو منكر.

(١٥) قد أصفيت ثلاثة من أصدقائي ودي وإخائي، وجعلتهما لهما نقيتين خالصين من كل شائبة، كأنما هم كواكب رفيعة في السماء لا تُمسّ.

(١٦) عطارديون: نسبة إلى (عطارد)، وهو نجم من الخُسن، وهي الكواكب السيارة دون الثابتة، وسميت خُسناً لتأخرها، ولأنها الكواكب المتحرّرة التي ترجع وتستقيم.

أي إن هؤلاء الثلاثة يوافقوني في كل ما أرى، ويهوون ما أهوى، كأنهم الكواكب التي رجعت واستقامت بعد حيرة وقلق.

(١٧) لي صديقان يقفان مني موقفاً عجيباً، فكل منهما يحب صاحبه ويخلص له.

(١٨) ولكني بمنأى عن نجواهما وعن سرهما، كأنما أنا رقيب أرقبهما من بعيد، ولي في دخيلة نفسيهما نصيب.

وقال الأول:

قد أَلْبَسُ المرءَ فيه العيبَ أَعْرَفُهُ ولا أَحِب إِخاءَ الكاذبِ المَلِقِ^(١)
حينًا، وأطويه أَسْتَبْقِي ملولته طيَّ الرداء على أَثْنائِهِ الخَرِقِ^(٢)

وقال آخر:

لحا الله مَنْ لا يَنْفَع الوُدُّ عنده وَمَنْ حَبَلُهُ -إِنْ مُدَّ- غَيْرُ مَتِينِ^(٣)
وَمَنْ هو إِنْ تَحَدَّثَ لَهُ العَيْنُ نَظْرَةً تَقَضَّتْ بِهَا أَسْبَابُ كُلِّ قَرِينِ^(٤)
وَمَنْ هو ذُو لَوْنَيْنِ، لَيْسَ بِدَائِمٍ عَلَى خُلُقٍ خَوَّانٍ كُلِّ أَمِينِ^(٥)

وقال آخر:

عاشِرُ النَّاسِ بِالْجَمِيـ ل، وَسَدَّدٌ، وَقَارِبِ^(٦)
واحترسُ مِنْ أَذَى الْكُرا م، وَجُدْ بِالْمَوَاهِبِ^(٧)
لا يَسُودُ الْجَمِيعَ مِنْ لَمْ يَقُمْ بِالنَّوَابِ^(٨)
ويَحُوطُ الْأَذَى وَيَزُ عَى ذِمَامِ الْأَقَارِبِ^(٩)

(١) قد أصادق المرء وبه عيوب أعرفها وأبَيَّتها، ولكنني لا أحب مصادقة المخادع المتملق الكاذب الذي يبدو لي في صورة الصديق وهو لي العدو المبين.

(٢) أَسْتَبْقِي: أَسْتَبْقِي الرجل أخاه: عفا عن زلله لتبقى مودته.

إنني أَسْتَبْقِي الصديق على ما فيه من عيوب أعرفها، وأضمه إليّ، وأعفو عن كل ما به، وأطويه كما يطوى الرداء على حبله الممزق المتخرق.

(٣) قَبَّحَ الله ولعن رجلاً لا تنفع المودة ولا تُثمر عنده، وقَبَّحَ الله ولعن رجلاً لا يكون وداده -مهما امتد وطال- متيناً قوياً.

(٤) وقَبَّحَ الله ولعن من تُنْهَار صداقته لأوهى الأسباب، من نظرة عابرة، أو كلمة شاردة تنهار من أجلها أسباب الصداقة، وتنقضي بها المودة وكأنها لم تكن.

(٥) وقَبَّحَ الله ولعن المنافق ذا اللونين الذي لا يثبت على خلق واحد، والذي يخون إخوانه الأمانة الأوفياء.

(٦) لَتَكُنْ معاشرتك للناس بالمعروف والبر بهم، وبأن توفقهم وترشدهم إلى السداد والصواب من القول والعمل، وأن تحدثهم دائماً بكلام حسن يرضيهم.

(٧) المواهب: جمع موهبة (بفتح الهاء): وهي العطية. أي: وبأن تحذر أذى الكرام منهم، وتجدد عليهم بالعطايا.

(٨) النوايب: نواب الرعية: ما يضرُّه السلطان عليهم من الحوائج كإصلاح القناطر والطرق وسد ما انكسر من الشطوط إلى غير ذلك.

(٩) ويحفظ الناس ويتعهدهم من الأذى، ويحفظ حق الأقارب ويصون حرمتهم.

فَهُمْ ذُو فَطَانَةٍ عَالَمٌ ذُو تَجَارِبٍ^(١)
 لَا تَوَاصُلُ سِوَى الشَّرِيبِ فِ الْكَرِيمِ الضَّرَائِبِ^(٢)
 وَاجْتَنِبْ وَضَلَّ كُلَّ وَغْدٍ دِ دُنْيِ الْمَكَاسِبِ^(٣)
 نَيْرَبٌ لَا يَزَالُ يُو قَدْ نَارَ الْحُبَّاحِبِ^(٤)
 لَا تَبِعْ عَرَضَكَ الْمَصُونِ نَ بَعَرَضِ الْمَكَاسِبِ^(٥)
 أَنَا لِلشَّرِّ كَارَةٌ وَلَهُ غَيْرُ هَائِبِ^(٦)

وقال آخر:

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبِّهُهُ بَلَاءُ عِدَاوَةِ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينِ^(٧)
 يُبِيحُكَ مِنْهُ عَرَضًا لَمْ يَصْنُهُ وَيَزْتَعُ مِنْكَ فِي عَرَضِ مَصُونِ^(٨)

(١) سريع الفهم للأمور، حاذق عالم بوجه الصواب فيما يفعل، قد جرّبه الأمور وأحكمته.

(٢) الشريف: ذو الشرف، وهو الرّفعة، والمجد، وعلوّ الحسب.

الضرائب: جمع ضرب، وهو الصّنف من الشيء، والمثل، والشكل.

لا تصادق ولا تواصل غير الرجل ذي الشرف والمجد وعلو النفس والحسب، الكريم الأنداد والأمثال والأشكال.

(٣) وتجنّب وصال الأوغاد الأذنياء الذين يخدمون بطعام بطونهم، والذين لا يصلون إلى الكسب إلا بالخسة وفقدان الشرف.

(٤) نيرب: شرب. نار الحُباب: الحباب (بالضم): ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج، وربما جعلوا الحباب اسمه لما يرى في ذنبه كأنه نار.

أي اجتنب الشرير، الذي لا يفتأ يسعى بالوقعة بين الناس، وإيقاد نار الفتنة بينهم.

(٥) عرضك (بكسر العين): نفسك، وحسبك. عرض المكاسب (بفتح العين): أي عرض الدنيا، وهو ما كان من مال قل أو كثر.

أي: لا تبع نفسك المصونة الكريمة بعرض هذه الحياة ومنافعها ومكاسبها؛ فإن نفسك أغلى ثمنًا وأرفع منزلةً من ذلك.

(٦) إنني أكره الشر، ولكنني لا أهابه ولا أخشاه إذا حلّ بي، بل إنني أدفعه بكل جهدي.

(٧) البلاء الذي لا يدانيه ولا يشبهه بلاء، هو معاداة الرجل الذي لا دين له، ولا مفاخر له يفخر بها بين الناس.

(٨) إن مثل هذا العدو ليس له عرض يصونه، فهو في عداوته سادر لا يكبحه شيء، وهو يزّزع ويلهو في عرضك النقي الطاهر المصون.

والذين ضجّوا من إخوانهم الذين وثقوا بهم فخانوهم، وبكوا بالدموع الغزيرة على ما فاتهم منهم، وساءت ظنونهم بغيرهم، فكثير بشير^(١)، لا يُحصىهم إلا الله تعالى.

هذا فرار بن سيار روى له ابن الأعرابي قوله:

جزى الله عني مُرّة اليوم ما جَزَى شرارَ الموالي حيث يجزي الموالي^(٢)
إذا ما رأى من عن يميني أكلبًا عَوَيْنَ، عَوَى مستجلبًا عن شمالي^(٣)
ويسألني: أن كيف حالي بعده؟ على كل شيء ساءه الدهر حالي^(٤)
فحالي أني قد حللت ببلدة أصبت بها دارًا لأهلي ومالي^(٥)
وحالي أني سوف أُهدي له الخنا وأمشي له المشي الذي قد مشي لي^(٦)

وهذا الأسود بن يَغْفَر، يقول:

إن امرأً مولاه أدنى داره فيما أَلَمَّ، وشرُّه لك بادٍ^(٧)
إن قلت خيرًا، قال شرًّا غيره أو قلت شرًّا، مَدَّهُ بمدادٍ^(٨)
فلئن أقمت لأظعننَّ لبلدة ولئن ظعنت لأرسيَن أوتادي^(٩)

(١) البشير: الكثير.

(٢) جزى الله عني مرة اليوم، ما يجزي به شرّ الأصدقاء وأسوأ الأصحاب، فإنّ الله قد جعل لهم جزاءً عادلاً.

(٣) إن رأى عن يميني كلابًا تعوي وتصيح، عوى هو الآخر وصاح عن شمالي ليجلب عددًا آخر منها، ويكثر الأعداء من حولي.

(٤) ويسألني عن حالي بعده، ألا: فليعلم أن حالي جمعت كل ما يسوءه ويغمّه.

(٥) ومما يسوءه أنني قد نزلت بلدًا أصبت به لأهلي منزلًا طيبًا، ومالًا وفيرًا.

(٦) وأني سوف أُهدي إليه الفُحش، وأسلك معه السبيل التي سلكها معي.

(٧) أَلَمَّ: ارتكب من ذنوب. باد: ظاهر.

(٨) إن أنت قلت الخير، فإنه لا يقول خيرًا مثله، ولكنه يقول الشر. وإن أنت قلت الشر، فإنه يُساعدك ويُمَدُّ فيه حبالك، ويُقوّي فيه ركنك.

(٩) أظعنن: أسافر.

فإنك إن اعترمت المقام فإني راحل عن دار مقامك، ماضٍ إلى بلد آخر غير البلد الذي تقيم به. وإن رحلت عن هذا البلد، فإني باقٍ مُقيم فيه، مُرسٍ به أوتادي، لا أبرّحه ولا أفارقه.

كان التفرُّق بيننا عن خيرةٍ فاذْهَبْ إليك؛ فقد شفيت فؤادي^(١)
وقال آخر:

إنْ يعلموا الخير يُخفوه، وإنْ علموا شراً أذاعوا، وإنْ لم يعلموا كذبوا!^(٢)
وقال آخر:

إنْ يسمعوا رِيَّةً طاروا بها فرحاً مني، وما سمعوا من صالحٍ دفنوا^(٣)
فهذا باب طويل، لا طمع في بلوغ آخره.
وقال آخر:

ما ودَّني أحدٌ إلا بذلتُ له صفوَ المودة مني آخر الأبد^(٤)
ولا قلاني - وإن كنت المحب له - إلا دعوت له الرحمن بالرشد^(٥)
ولا اتَّمتُّ على سرٍّ فبُحْتُ به ولا مددت إلى غير الجميل يدي^(٦)
ولا أقول: «نعم» يوماً، فأتبعها منعاً، ولو ذهبتُ بالمال والولد^(٧)
ولا أخون خليلي في حليلته حتى أُغَيَّب في الأكفان واللُّحد^(٨)
وقال آخر:

(١) خيرة: اختيار وانتقاء.

أي إن تفرقنا إنما كان عن رغبة واختيار منا، فامضِ إلى سبيلك، وارحل عني؛ فإنك بذلك تشفي نفسي وتريح قلبي.

(٢) إنهم يقفون مني دائماً موقفاً عجباً! فهم إن علموا عني خيراً أخفوه وكنموه، وإن علموا شراً أذاعوه وأعلنوه، وإن لم يعلموا خيراً أو شراً، افترؤا عليّ واختلقوا وكذبوا!

(٣) وإن يسمعوا تهمةً اتَّهم بها طاروا فرحاً وسروراً، وإن يسمعوا عني كلاماً طيباً دفنوه وكنموه!

(٤) ما صادفتني صديق إلا أعطيته مودتي صافية خالصةً نقيّةً حتى آخر أيام حياتي.

(٥) ولا أبغضني مُبغض - وإن كنت له محبباً مخلصاً - إلا دعوتُ الله له بالاهتداء والاستقامة.

(٦) وما اتَّمتني أحد على سرٍّ فأعلنته وبُحْتُ به، وما مددتُ يدي إلا إلى الحسَن والجميل من الأشياء.

(٧) وإن قلت في أمر من الأمور: «نعم»، فلن أعقبها بالمنع والرفض وإمساك اليد، ولا بدّ من أن أبذل ما وعدت به كاملاً وأن أفي به تاماً، ولو أدى هذا الوفاء إلى ضياع مالي وولدي.

(٨) ولا أخون صديقي في زوجته، بل أصون عِرْضه، وأحفظ شرفه إلى أن أموت وتطويني الأكفان وتُعيّني القبور.

لله في الأرض أجناد مُجَنَّدَةٌ أرواحها بيننا بالصدق تعترف^(١)
فما تعارف منها فهو مؤتلف^(٢) وما تناكر منها فهو مُختلف^(٣)
وقال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب:

مَنْ يشتري مني إخاء محمدٍ؟ بل من يريد إخاءه مجاناً؟^(٤)
بل من يخلص من إخاء محمدٍ وله رضاه كائنًا ما كانا؟!^(٥)
وقال آخر:

قل لمن شَطَّ المَزارُ به: ليت شعري عنك، ما خبرُك؟^(٦)
أعلى حِفْظٍ لِحُرْمَتنا؟ أم عَفَا من ودَّنا أئْرُك؟^(٧)
وكتب الحراني إلى صديق له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن كان ذهولك عني لدنيا اخضلت، وهطلَ عليك سماؤها، وأربت بك ديمها^(٨)؛
فإن أكثر ما يجري في الظن بك، بل في اليقين منك، أملك ما يكون لغنانا أن يجمع

(١) أجناد مجنّدة: مجموعة، كما يقال: «ألف مؤلّفة» و «قناطير مُقنطرة»: أي إن لله في هذه الأرض جنوداً متجمعة، تعترف أرواحها بالصدق، وتؤمن به، وتدعو إليه.

(٢) ما تعارف من الأرواح وعرف بعضها بعضاً، فإنه يأتلف ويأتنس ويحب بعضه بعضاً. أما الذي تعادى منها وأنكر بعضه بعضها فهو مختلف متباعد لا يتفق.

(٣) هل يوجد من يشتري صداقة «محمد»؟ بل هل يوجد من يرغب في إخائه دون ثمن؟

(٤) بل هل يوجد من يخلصني من إخائه وله ما يشاء من المكافأة التي ترضيه مهما كانت تلك المكافأة؟ إن إخاءه لعبء ثقيل على نفسي أودّ الخلاص منه. فهل مَنْ يخلصني؟

(٥) سلوا من بعد به المزار، ونأى عن الديار. وقلوا له: ليتنا نعلم ما أخبارك؟ وما أحوالك في هذا البعد؟

(٦) أأنت حافظٌ لحُرْمَتنا ومودتنا؟ وبقا على إخواننا وصداقتنا؟ أم دَرَسَ وامحى وزال ما بقي من مودتك.

(٧) إن كان تدلّهلك وغيابك عن رُشدك لأن الدنيا ترطبت لك، وصارت ناعمة مبثّلة، ولأن سماءها قد أمطرتك خيراً ونعمة، وزاد مطرها وكثُر.

بك، ولنفسك أن تستعلي عليك، إذا لانت لك أكنافها، وانقاد في كفك زمامها^(١)؛ لأنك لم تنل ما نلته خطفًا وخلصًا، ولا عن مقدار أزحف إليك غير حقك، وأمال إليك سوى نصيبك^(٢). فإن ذهبت إلى أن حقك قد يحتمل في قوته وسعته أن يضاف إليه الجفوة والنبوة، فيتضاءل في جنبه ويصغر عن كبيره، فغير مدفوع عن ذلك.

وأيُّ الله لولا ما مُنيت به النفس من الضنّ بك، وأنّ مكانك منها لا يسدّه غيرك، لتنحيّت عنك، وذَهَلْتُ عن إقبالك وإدبارك^(٣)، ولكان في خفائك ما يكسر من غربها، أو يبرّد من غليها، ولكنه كما تكاملت النعمة لك، تكاملت الرغبة فيك^(٤).

قال بشار:

ربما يثقلُ المجلس وإن كا ن خفيفًا في كَفّة الميزان^(٥)

سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكي:

قال العتابي: لا أحب رجلًا نقلَ إليّ ما كرهت عن صديق، فغيّرني له، ولا عن عدوّ فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءني سماعه^(٦).

(١) فإننا أغنياء عنك، فلا تجمّع بنا، واكيح نفسك وامنعها أن تستعلي عليك إذا لانت لك الحياة، وخضعت وامتلكت زمامها وقيادها.

(٢) فإنك لم تبلغ ما بلغته من جاه وعزّ وعِزٍّ بالاختطاف أو بالاختلاس، أو بالاستلاب، ولا بأخذ حق غيرك، وتجاوز نصيبك المقسوم لك.

(٣) وحق الله، لولا ما ابتليت به النفس وأصيب به من البخل بك والحرص عليك، ولولا أن منزلتك من نفسي لا يملؤها ولا يسدها أحد سواك. ولولا هذا لانصرفت عنك واعتزلتك، ولنسيّتك وغفلت عنك إذا أتيت أو وليت.

(٤) بل لكان في خفائك عن عيني وبُعدك عن نفسي ما يكسر من حدة شوقي، أو يبرّد من حرارة ظمئي إليك، ولكن الله كما أكمل لك النعمة حتى نهايتها، قد أكمل لي الرغبة فيك والحب لك حتى نهايتها.

(٥) قد يكون المجلس ثقیلاً على النفس لا تطيقه ولا تحتمله، وإن كان وزنه خفيفًا في كفة الميزان.

(٦) أكره الرجل الذي ينقل إليّ عن أصدقائي ما أكره، فيغيّر من صداقتي لهم، ويشوبها وقد يمحوها. كما أكره الذي ينقل لي عن أعدائي ما يؤغر صدري عليهم، ويدفعني إلى طلب الثأر والانتصار منهم، ومع هذا الفعل وذلك فإنه لا يخجل من أن يواجهني بما يسوءني سماعه، وبما يؤذي نفسي وقلبي.

أما قوله:

قد كنت أبكي على مافات من سلفي وأهل ودِّي جميعاً غيرُ أَشْتَاتِ^(١)
فاليومَ إذْ فَرَّقْتَ بيني وبينهمُ نَوَى، بكيْتُ على أهلِ المودَّاتِ^(٢)
فليس مما نحن فيه؛ لأنَّ الكلامَ في الصداقة على كرم العهد، وبذل المال، وتقديم
الوفاء، وحفظ الدِّمَام، وإخلاص المودة، ورعاية الغيب، وتوقُّر الشهادة، ورفض
الموجدة^(٣)، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكلِّ^(٤)،
وبذل المعونة، وحمل المؤونة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الاستئامة^(٥)،
والثبات على الثقة، والصبر على الضراء، والمشاركة في البأساء.

والعلاقة وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئاً، فليس ذلك لأنه من عَتَادِهَا^(٦)
وأساسها، ولا مما يتم إلا به، ولكن من أجل التحسُّن والتزيُّن.

وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلام قصد قريب سليم مقبول، ولسنا نتعقبه بنقص،
ولا نقدح فيه باعتراض؛ لأنَّ العاشق والمعشوق ليسا من الصديق^(٧)، والصدِّيق وإن
كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق، ويتلاقون في بعض الأحوال، فليكن هذا الرسم كافياً
محفوظاً؛ فإنَّ المغالطة قد تقع في هذا كثيراً، والإنصاف يقوم عليه دائماً^(٨).

(١) قد كنت أبكي على أسلافي الذي مضوا، وكان أهل ودي يومئذ متجمعين من حولي، واليوم وقد فرق البعد
بينني وبين أهل ودي، فإنني أبكيهم بدلاً من بكائي على أسلافي الماضين.

(٢) توقُّر الشهادة: وقَّرها ورزَّانتهَا وتَبَّانتهَا.

(٣) الموجدة (بكسر الجيم): الغضب.

(٤) الكلِّ (بفتح الكاف): الضعيف، واليتيم، والمصيبة.

(٥) الاستئامة: استئام إليه: سَكَنَ إليه سكون النائم، واستأنس به.

(٦) عَتَادُهَا: عُدَّتْهَا، وما تهيَّئَتْه من سلاح أو دابة أو آلة حرب.

(٧) الصديق: يستعمل للواحد والجمع والمؤنث، تقول: «هو صديق، وهم صديق، وهن صديق»، والمقصود هنا الجمع.

(٨) إنَّ العاشق والمعشوق لا يدخلان في زمرة الأصدقاء فإنَّ لهما شأنًا آخر، ورابطة أخرى. أما الأصدقاء فإنَّ

بينهم تشابهًا في بعض الأخلاق، وإنهم ليتلاقون في بعض الصفات، وإلا ما كانوا أصدقاء. فليكن هذا التشابه

الذي بين الأصدقاء ملحوظاً مفهوماً كأنه رسم أو نقش ثابت. فلا يتناول العاشقون ويغالطوا ويدَّعوا أنهم

أصدقاء؛ فإنَّ الإنصاف يأبى ذلك.

قال القرباني محمد بن يوسف: قلت للثوري: إني أريد الشام فأوصني، قال: إن قدرت أن تُنكر كل من تعرفُ فافعل، وإن استطعت أن تستفيد مائة أخ، حتى إذا خلصوا لك، تسقط منهم تسعة وتسعين، وتكون في الواحد شاكاً فافعل^(١).

قد تشدد هذا الشيخ كما ترى، ولست أرى هذا المذهب محيطاً بالحق ولا معلقاً للصواب، ولا داخلاً في الإنصاف؛ فإن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، يستوي له^(٢) أن يأوي إلى المقابر. ولا بد له من أسباب بها يحيا، وبأعمالها يعيش، بالضرورة يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة يصير له بهذه المعاشرة بعضهم صديقاً، وبعضهم عدواً، وبعضهم منافقاً، وبعضهم نافعاً، وبعضهم ضاراً.

ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له من دين أو عقل أو فتوة أو نجدة، ويستفيد من ذلك كله ما يكون خاصاً به، وعائداً بحسن العُقبى عليه، إما في العاجل، وإما في الآجل، ولعزة الحال^(٣) في وُجْدان الصديق^(٤)، وتعذر السلامة على القريب والبعيد.

قال القائل:

كُنْ لِثَغْرِ الْبَيْتِ حِلْسًا وَارْضَ بِالْوَحْدَةِ أَنْسَا^(٥)
وَاعْرِسِ النَّاسَ بِأَرْضِ الزُّهْدِ د - مَا عُمِّرَتْ - غَرْسًا^(٦)
وَلِيَكُنْ يَأْسُكَ دُونَ الطِّمَ مَعَ الْكَاذِبِ تُرْسًا^(٧)

(١) إن استطعت أن تجهل كل من تعرف فافعل، وإن خلص لك مائة صديق، فأسقط من حسابك تسعة وتسعين منهم، وكن من الواحد الباقي على حذر وشك!

(٢) لا يستوي له: لا يستقيم له ولا يعتدل.

(٣) عزّة الحال: عزّ الشيء: قلّ فلا يكاد يوجد ولا يُقدّر عليه.

(٤) وُجْدان الصديق: وجوده، والظفر به.

(٥) الزم بيتك ولا تبرحْهُ، واثنين بالوحدة، فهي خير من كل جليس.

(٦) وازهد في الناس، واطرحهم طول حياتك.

(٧) واجعل اليأس من الناس وقايةً لك من الطمع الكاذب فيهم؛ فإنك لن تلقى منهم خيراً ما حييت.

لست بالواجد حرًّا أو تردُّ اليومَ أمسا^(١)
ما وجدنا أحدًا سا وى - على الخبرة - فلسا^(٢)

قال علي بن عبيدة: إنه لا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ولا إخاء^(٣) لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه له حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى منهم زللًا ولا خللاً.

بعث النَّضر بن الحارث إلى صديق له بعبادان بنعلين مخصوفتين^(٤)، وكتب إليه: إني بعثت بهما إليك، وأنا أعلم أنك عنهما غني، لكنني أحبت أن تعلم أنك مني على بال، والسلام.

فأجابه: ما أنا بغني عن برِّك الذي يحثني على شكرك، ويخرطني في سلكك، ويزيدني بصيرةً بزيادة الله عندك ومحبتك لأن أعلم أنني منك على بال، ويقيني بذلك راسخ، وحمدي لله عليه غاد ورائح. لا عدمتك لي أخًا بارًّا، ولا عدمتني لك قائلًا سارًّا.

وقال الشاعر:

تكثرُ من الإخوان ما استطعت، إنهم كنوزٌ إذا ما استنجدوا، وظُهُورٌ^(٥)
وما بكثير ألف خلٍّ وصاحبٍ وإن عدوًّا واحدًا لكثيرٌ^(٦)

(١) إنك لن تجد في الناس حرًّا ماجدًا، ولن تستطيع ذلك إلا إذا استطعت أن تعيد يومك الحاضر، وتجعله أمسا دابرًا! فهل تقدر على ذلك؟

(٢) لقد جرَّبنا الناس واختبرناهم طويلاً، فما وجدنا منهم أحدًا يساوي فلسا واحداً، أي قطعة واحدة مضروبة من النحاس يتعاملون بها من المسكوكات القديمة.

(٣) إنه لا إخاء لمن يريد أن يقهر إخوانه على أن يكونوا صورة منه لا تعديل فيها ولا انحراف، ولا تكون لهم إرادة أو رأي إلى جانبه. فعليهم أن يحبوا ما يحب، وأن يكرهوا ما يكره، وعندئذ فإنه يرى في مسلكتهم الصواب الذي لا يداخله خطأ أو انحراف.

(٤) مخصوفتين: خَصَفَ النعل: خَرَزَهَا. وقوله تعالى: ﴿وَلَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] أي يُلَزِّقَان بعضه ببعض ليسترا به عورتهم.

(٥) أكثر من اتخاذ الإخوان ما استطعت؛ فإن الإخوان كنوزٌ إذا طلبت النجدة منهم يوماً، وأعوانٌ لك عند الشدائد.

(٦) وليس كثيراً أن يكون لك ألف صاحب و خليل، ولكن كثيراً أن يكون لك عدو واحد.

وقيل: لو تكاشفتُم ما تدافنتُم^(١).

قال أبو غسان غنّة بن كليب: اجتمعت أنا ومحمد بن النضر الحارثي وعبد الله بن المبارك والفضيل ورجل آخر، فصنعتُ لهم طعاماً، فلم يخالف محمد بن النضر علينا في شيء، فقال له ابن المبارك، ما أقلّ خلافاً، فأنشد:

وإذا صاحبتَ فاصحبْ ماجداً ذا حياء وعفاف وكرم^(٢)
قوله للشيء «لا» إن قلتَ «لا» وإذا قلتَ «نعم» قال «نعم»^(٣)
وأنشد أبو حاتم:

لعمري لقد لقيتني الهمو م، كما يألفُ الصاحبُ الصاحباً^(٤)
فأما السرور فمئيلُ العد و، إذا ما رأيَ نأيَ جانباً^(٥)
قيل لعبد الله بن أبي بكرة: أي شيء أمتّع؟

قال: مُمازحة محبّ، ومحادثة صديق، وأمانتي تقطع بها أيامك.

وقال الشاعر:

الناس أشباهُ السبعِ فأنشمرُ فمنهمُ الذئبُ، ومنهمُ النمرُ
والضبعُ العثواءُ والليثُ المبرُ^(٦)

وقال آخر:

(١) لو كشف بعضكم عن داخل البعض وما يكنّ له من عداوة وحقد وبغضاء، لأبى بعضكم أن يدفن البعض الآخر إذا مات، ولتركه في العراء نهياً للكلاب والسباع؛ من شدّة كراهيته له.
(٢) إن صاحبتَ فصاحب كريمةً، يستحيي مما لا يليق، ويعف عما لا يحل ولا يجمل قولاً أو فعلاً، ويصفح عن المسيء، ويتجاوز عن إساءته.

(٣) يوافقك في كل ما ترى، فإن رغبتَ في شيء رغبه، وإن أبئت شيئاً أباه.

(٤) وحقّي إن الهموم لتلقاني لقاء الصاحب لصاحبه من طول ما ألفتها وألفتني!

(٥) إن سروري في أن يتركني العدو، ويحيد عني، وينأى بجانبه بعيداً عني عندما يراني.

(٦) أنشمرَ للأمر: تهيأ له. الضبعُ العثواءُ: الكثيرةُ الشّعْر. الليثُ المبر: السبع الغضوب، والذي يُصوّت في غضب.

أَخْ لِيْ يعطيني إذا ما سألتُهُ ولو لم أعرضْ بالسؤال ابتدانياً^(١)
وقال آخر:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما مِنْ صداقة بُدُّ^(٢)
وقال آخر:

إذا أنت عاتبت الخليل فلم يكن بودك، لم يُعْتَبِكَ حين تُعَاتِبُهُ^(٣)
سمعت ابن كعب يقول: العتاب مذلة. وقلّ من بدأ به متظاهراً، إلا وثاب عنه خاسراً. وربما أورث ما هو أضرب مما عتّب عليه. ومن نكده أنه يُضطر إليه^(٤). وله ورْدٌ حُلُوٌّ^(٥) وصَدْرٌ مُّرٌّ^(٦)، ومأخذ سهل، ومتركّ صعب.

على أن المودة كلما كانت أخلص، كانت أعراضها للمفسدة أكثر.
وقد قال الأول:

وما أنا في عَتْبِيْ بأوّلِ ذي هوى رأى بعض ما لا يشتهي فتَعْتَبَا^(٧)
ولقد أحسن الآخر في قوله:

إذا كنت في كل الأمور مُعَاتِبَا صديقك، لم تَلَقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ^(٨)

(١) لي أخ إن سألته شيئاً أعطانيه، وإن لم أسأله سؤالاً صريحاً، أو تعريضاً، وإذا أحس حاجتي واستشعرها، فإنه يعطيني دون سؤال مني.

(٢) ومن عُسر الحياة وشدتها وشؤمها على الرجل الحرّ، أن يرى نفسه مضطراً إلى مصادقة عدوّ له، مُكرّهاً على مصانعته ومداراته، ولا مفرّ له من ذلك.

(٣) لم يُعْتَبِكَ: لم يُزْهِك ولم يترك ما كنت تغضب عليه من أجله.
إن لمت خليلاً لك على فعلٍ فعله، ولم يكن خليلك هذا على مودة صحيحة لك، فإنه لا يترك هذا الفعل، ولا ينتهي عنه، بل يستمرّ فيه ويتمادي.

(٤) العتاب ذلٌّ، ومنّ تظاهره به وأدعاه، رجع منه في النهاية خاسراً، بل ربما انتهى إلى شرٍّ مما كان يعاتب عليه وأكثر منه ضرراً، ومن شدته وعُسره أنه للإنسان ضرورة لا محيص له عنها.

(٥) ورْدٌ حُلُوٌّ: الوُرودُ: الإشراف على الماء وغيره.

(٦) صَدْرٌ مُّرٌّ: الصَّدْرُ: الرجوع عن الماء.

(٧) لستُ في عتابي أول مُحِبٍّ وجد من محبّه بعض ما لا يرضاه فعتب عليه ولا مه.

(٨) إن كنت تعاتب أصدقاءك على الصغير والكبير مما يفعلون، فإنك ستفقد صداقتهم واحداً إثر واحد، ثم لا تجد بعد ذلك صديقاً تعاتبه!

فَعَشْ واحداً، أو صِلْ أخاك، فإنه مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً، ومُجَانِبُهُ^(١)
وقال آخر:

وليس بِمُعْنٍ في المودة شافعٌ إذا لم يكن بين الضلوع شفيعٌ^(٢)
وقال آخر:

رَأَيْتَكَ تَفْرِي للصديق نوافذاً عدوك من أوصابها - الدهر - آمنٌ^(٣)
وتكشف أسرار الخلاء مازحاً ويا رب مَزُحَ عادَ وهو ضغائنٌ^(٤)
سأحفظ ما بيني وبينك صائناً عهدك، إن الحر للعهد صائنٌ^(٥)
فألقاك بالبشر الجميل مدهناً فلي منك خلٌّ - ما علمت - مدهنٌ^(٦)
أنم بما استودعته من زجاجة ترى الشيء فيها ظاهراً وهو باطنٌ^(٧)
وقال آخر:

عذيري من صديق لا يبالي أَعْذَرُ في الحوادث أم أَلَمَا^(٨)
سَرَتْ نحوي نوابه فَرَادَى فلم أَحْفَلُ بها، فسرت تُؤَامَا^(٩)

- (١) فإذا أن تعيش منفرداً بلا صديق، وإما أن تتغاضى عن هفوات أصدقائك وتحتمل أخطاءهم، فإنهم قد يرتكبون الذنوب اليوم، ثم يقلعون عنها غداً!
- (٢) لن يغني في الصداقة شيء، ولن يُعين فيها معين، إن لم يكن القلب هو المغني وهو المعين.
- (٣) أراك تقطع وتفتح لأصدقائك ثغوراً، وتلمس لهم ذنوباً، عدوك في أمان من متاعبها وأوجاعها طول حياته.
- (٤) وتكشف وتفضح - وأنت تمزح - أسرار أصدقائك، وكثيراً ما يتحول المزح إلى أحقاد وعداوات.
- (٥) إني سأحفظ ما بيني وبينك من أسرار، فإن الرجل الحرّ يصون أسرار صديقه، ويحفظ عهده، ولا يخونه.
- (٦) وسألقاك دائماً بالبشر وطلاقة الوجه، مدهناً لك ومُصانِعاً ومُرائياً، كما تفعل بي تماماً، وإنك لتعلم أنك لي صديق مدهن مُصانع مُراءٍ!
- (٧) أظهرت ما استودعتك من أسراري وجعلته ودیعة كنت أحسبها مصونة عندك، ولكني كنت في ذلك كمن أخفى شيئاً في زجاجة وحسب أن هذا الشيء صار خفياً مُحجَّباً، وهو للناس ظاهر جلي!
- (٨) هاتوا لي من يعذرني من صديق لي لا يبالي من أمري شيئاً، ولا يهتم بأن تؤدي الحوادث التي تمر بي إلى عذري، أم إلى لومي.
- (٩) جاءني بلاياه فرادى، واحدة بعد واحدة، فلما لم أهتم بها ولم ألقِ إليها بالي، جاءني في كل مرة نائبان كأنهما تؤامان متلازمان لا يفترقان.

وأظمأني، فلما رُمْتُ سَقِيًّا سقاني -غير مكثرٍ- سِمَامًا^(١)
وقال آخر:

لا تُطْفَنَنَّ جَوَى بعُتْبٍ؛ إنه كالريح، تُغري النار بالإحراق^(٢)
وقال آخر:

ولا خير في ودِّ امرئٍ مُتَكَارِهٍ عليك، ولا في صاحب لا تُوافِقُهُ^(٣)
وقال آخر:

ألا: إن خير الودِّ ودُّ تطَوَّعَتْ به النفسُ، لا ودُّ أتى وهو مُتَعَبٌ^(٤)
وقال آخر:

إني إذا ما الخليل أحدث لي صَرْمًا، وملَّ الإخاء، أو قطعًا^(٥)
لا أحتسي ماءه على رَنَقٍ ولا يراني لبَيْنِهِ جَزَعًا^(٦)
سمع هذا ابن كعب، فقال: ظُلْمٌ، لِمَ لا أحتسي ماءه على رنق؟ وَلِمَ لا أَجْزَعُ لَبَيْنِهِ؟
وَلِمَ لا أَسْتَصْلِحُه، وَأَنْلَطِفَ لَهُ^(٧)؟ وَلِمَ أخرج عنه إذا أحدث لي صَرْمًا^(٨)؟ ولعل
صرمه عارض، وملله عن غير عقيدة، وقطعه غلط. كأن الصديق مكسوب بسهولة،
وموجود متى طُلِبَ! هيهات!

قال المأمون لعبد الله بن طاهر:

(١) وأظمأني هذا الصديق، وعندما أردت أن أستقي وأدفع هذا الظمًا، إذا به يسقيني السموم القاتلة دون اكتراث
أو اهتمام بشناعة ما يفعل وفظاعة عواقبه.

(٢) الجوى: الحُرْقَةُ، وشدة الوجد. لا تحسبن العتاب يُطفئ حُرْقَتَكَ ووجدك، فإنه يزيدهما وقْدًا واشتعالًا،
كالريح تزيد النار اشتعالًا، وتجعلها أكثر وأشدَّ إحراقًا.

(٣) لا خير في ودِّ من يحمل لك السخط والكراهية، ولا خير في ودِّ صاحب لا تتفق معه في رأي.

(٤) إن خير المودة مودة مَبْعُثْهَا النفس والقلب، لا مودة مُتَكَلِّفَةٌ كَأَنَّمَا تَجْرُهَا إِلَيْكَ جَرًّا من التعب والإعياء!

(٥) إني إذا ما قطعني أحد خلاني، وملَّ إخواني وسِئمه.

(٦) لا أشربه على كدر، ولا أجزع لفراقه.

(٧) لِمَ لا أَسْتَصْلِحُه وَأَنْلَطِفَ لَهُ؟ وَلِمَ لا أحاول إصلاحه؟ وَلِمَ لا أترفق به.

(٨) صَرْمًا (يفتح الصاد إذا أريد المصدر، وبضمها إذا أريد الاسم): قطعًا.

أخي أنت ومولاي وَمَنْ أَشْكُرُ نِعْمَهُ^(١)
وما أحببت من أمر فإني -الدهر- أهواه^(٢)
وما تكره من شيء فإني لست أرضاه^(٣)
لك الله على ذا لك، لك الله، لك الله^(٤)

وقال آخر:

ومولاي كأن الشمس بيني وبينه إذا ما التقينا لست ممن أعائبه^(٥)
وقال آخر:

أكاشره، وأعلم أن كلاً -على ما شاء صاحبه- حريص^(٦)
وقال آخر:

أكرم رفيقك، واعلم -حين تصعبه- أن الرفيق أخ ما ضمته السفر^(٧)
وقال آخر:

الصدق أفضل ما حصرت به ولربما نفع الفتى كذبه^(٨)
ومن البلاء: أخ جنائته علق بنا، ولغيرنا نشبهه^(٩)

(١) أنت أخي، وأنت ناصري ومُعيني، وأنت الذي أشكر منته وصنائه وأياديه عليّ.

(٢) وإن أي شيء تحبه وتهواه، فإني أحبه وأهواه مدى حياتي.

(٣) وإن أي شيء تكرهه ولا ترضاه، فإني أكرهه ولا أرضاه ما حييت.

(٤) وهذا عهد الله مني إليك، أو كده لك، وأكرره ثلاث مرات.

(٥) لي صديق يقوم بيني وبينه حجاب قوي كأنه الشمس، وإذا التقينا فإني لا أعاتبه في شيء.

(٦) كاشره: ضحك في وجهه وبأسطه. إنني أضاحك صاحبي وأبأسطه؛ لأبعث السرور في نفسه؛ لعلمي أن كل إنسان حريص على فعل ما يهواه صاحبه ويرتاح إليه.

(٧) أكرم من يرافقتك في رحلتك وسفرك؛ فإن الرفيق في السفر أخ، وله حقوق الأخوة كاملة، وذلك من موجبات السفر والرحلة.

(٨) حصرت به: كتمته. تكون كلمة الصدق -في بعض المواقف- مؤدية إلى متاعب شديدة، وعندئذ يكون كتمانها هو أفضل عمل عمله، وقد ينفع الكذب يوماً!

(٩) علق بنا: معلقة بنا، وناشبة فينا، ومستمسكة بنا. النشب: المال والعقار.

من المصائب أن تحل بنا جنائيات أصدقائنا وذنوبهم وجرائمهم، وأن يكون لغيرنا مالهم وعقارهم.

وقال عروة بن الورد:

فَدَعُ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَشَيْنُ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ يَلُومُ^(١)
 كتب المعتصم إلى ابن طاهر عبد الله: إياك أن تريني وجهك، فإني لست آمن
 نفسي عليك، ولك من قلبي مكان ما أوتر أن يؤثر فيه ما يحيله عن صورته^(٢). ولأن
 تكون بعيداً وأنا لك، خير من أن تكون قريباً وأنا عليك. ولأن تراني وأنا واثق بك،
 أنفع لك من أن أراك وأنا ظنين فيك^(٣).
 وإذا صدفت^(٤) عما حنيت عليه ضلوعي من أمرك، فقد قضيت حقك في كفايتك،
 واستدمت به صفاء ضميرك.

ولو قرأت لي ألف كتاب بالورود فلا تعمل عليه، ولا يرخصن عندك هذا القول؛
 فإن تحته وجداً بك، واستنامة إليك، وابتهاجاً بمكانك. واكتم هذه الحروف عن
 كل عين رابية^(٥)، ولا تدل على شيء منه مُصرِّحاً ولا مُعرِّضاً، والزم فناء عرك^(٦)،
 واستنشق نسيم شوقي إليك، وتطعم حلاوة ثقتي بك، وشم بارقة عتب إذا همع
 نفع^(٧)، وإذا أمسك أهلك^(٨)، وإذا درّ بر^(٩)، وإذا ألقع أجزع^(١٠).

- (١) اترك ما تلوم الناس عليه؛ فإنه من العار أن يلومك اللائمون.
 (٢) إن لك في قلبي مكاناً، لا أفضل أن يؤثر فيه يوماً ما يُغيّره عن صورته الجميلة التي هو عليها اليوم.
 (٣) الظنين: كل ما لا يؤثق به.
 (٤) إذا أعرضت أو ملت عما أكنه لك في ضلوعي من حب وولاء، فإني قد أدّيت ما علي من قضاء حقك؛ ليدوم
 لي صفاء ضميرك وإخلاصك.
 (٥) عين رابية: ورمة مُتَنَفَخَة.
 (٦) الزم فناء عرك: أي أرضك الممطرة التي أصابها العز؛ أي المطر الشديد.
 (٧) بارقة: سحابة ذات برق. همع: أمطر، وسال.
 أي إن هذا العتاب كالسحاب، إذا أمطر نفع الناس.
 (٨) وإن أمسك ولم يمطر، أهلك الناس جوعاً.
 (٩) إذا درّ بر: إذا سال بالمطر، كثر الخير والبر عند الناس.
 (١٠) إذا ألقع أجزع: إذا سار وانجلى، أبقى وراءه بقية.

كتب «أبو بكر» لرجل كتاباً في شيء جعله قطيعة له، فحمله الرجل إلى «عمر بن الخطاب» ليمضيه، فلما نظر «عمر» فيه بَرَّقَ عليه^(١) ومحاها، فعاد الرجل مُسْتَعِراً^(٢) إلى أبي بكر، فقال: فعل «عمر» كذا وكذا، والله ما أدري أأنت الخليفة أم عمر؟ فقال أبو بكر: هو، إلا أنه أنا.

وكان الزُّهري يرويه «إلا أنه أباي» وعلى الوجهين المراد صحيح، والمرمى عالٍ، والغاية بعيدة.

قيل لأعرابي: أباالصديق أنت أنس أم بالعشيق؟

فقال: يا هذا، الصديق لكل شيء: للجدِّ والهزل، وللقليل والكثير، ولا عاذل عليه^(٣)، ولا قادح فيه^(٤)، وهو روضة العقل، وغدير الروح^(٥).. فأما العشيق فإنما هو للعين وبعض الرّيبة^(٦)، والعدولُ عنه من أجله سريع^(٧)، وفي الولوع به إفراط من جَوَى^(٨)، وحدٌ موقوف دونه، فأين هذا من ذاك؟

قال نهار بن توسعه:

عَبْتُ عَلَى «سَلَمٍ» فَلَمَّا فَقَدْتَهُ وَجَرَبْتُ أَقْوَامًا، بَكَيْتُ عَلَى «سَلَمٍ»^(٩)

(١) بَرَّقَ عليه، بَصَقَ عليه.

(٢) مُسْتَعِراً: استعرت النار: تَوَقَّدَت.

(٣) لا عاذل عليه: لا لائم عليه.

(٤) لا قادح فيه: لا طاعن فيه، ولا عائب عليه.

(٥) غدير الروح: النهر أو الماء الذي يسقي الروح.

(٦) أي إن العشيق هو السرور للعين، وهو فرحها برؤية عشيقها، وقد يكون هذا العشيق أحياناً لبعض ما يُشْكُ وَيُرْتَابُ فيه!

(٧) إن زمن العشق قصير، ولن يقضي إنسان حياته على عشيق واحد أبداً، فإن عدوله من عشيق إلى عشيق سريع قريب.

(٨) الجَوَى: الحُرْقَة وشدة الوجد من عشق أو حزن.

(٩) كنت أعْبُ عَلَى «سَلَمٍ» وألومُهُ، فلماً فَقَدْتَهُ، وَجَرَبْتُ أَصْحَابًا سِوَاهُ، بَكَيْتُ عَلَيْهِ؛ لأنني لم أجِد في هؤلاء الصحاب الجدد من يُماثلُه.

وقال آخر:

ونعتب أحياناً عليه، ولو مضى لكننا على الباقي من الناس أَعْتَبَا^(١)
قال أعرابي: نَصَفَ عقلك مع أخيك، فَالَقَهُ واستشره^(٢).

قال شاعر:

واحفظ صديق أبيك حين وجدته واحب الكرامة مَنْ بَدَا فَجَبَاكَهَا^(٣)
وقال غيره:

قَبَحَ إِلَهُ عداوةً لَا تُتَقَى وقراءةٌ يُذَلَّى بها لَا تَنْفَعُ^(٤)
وقال آخر:

فَتَى لَا يَرْزَأُ الْخِلَانَ إِلَّا مَوَدَّتْهُمْ، وَيَرْزَأُهُ الْخَلِيلُ^(٥)
وقال آخر:

وكلُّ إمارةٍ عما قليلٍ مَغِيرَةُ الصديقِ على الصديقِ^(٦)
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن مألوفة».

قال أبو سعيد السيرافي: معناه أنه يؤلف، ولا يخون أن يؤلف حتى يُؤْنَفُ^(٧). فذكر

(١) إنما نعتب أحياناً على بعض أصحابنا ونلومهم. ولو قضى هؤلاء أصحاب نحبهم، لوجدنا أنفسنا أشدَّ عتياً على الباقيين؛ لأن هؤلاء الباقيين أقلُّ حباً ووفاءً لنا من الماضين.

(٢) يحث الأعرابي على لقاء الإخوان واستشارتهم؛ لأن نصف عقل الإنسان دائماً مع صديقه.

(٣) إن وجدت صديقاً لأبيك، فحافظ على صداقته منذ تجده، وامنع التكريم والإكرام كلَّ من بدأك بهما.

(٤) أبعد الله عني شيئين: عداوة لا يخافها ولا يحذرهما أحد؛ لأنها عديمة الجدوى، وقراءة لا نفع وراءها؛ لأنها هي أيضاً عديمة الجدوى.

(٥) فتى لا يصيب إخوانه في شيء، ولا يقصد إلا مودتهم ومحبتهم، على حين أن إخوانه يُصيبونه بالمصائب والبلايا والنكبات.

(٦) إن ولاية الأمر، وتقلد مقاليد الحكم، لا بد أن تُغيَّر - بعد قليل من الزمن - الصديق الذي صار حاكماً ووالياً على صديقه القديم.

(٧) أي إنه يستمر على إلفه ومحبته، فإن وقع هجر بينه وبين صديقه، فإنه يبقى على مودته له حتى تُستأنف العلاقة بينهما، وتعود كما كانت.

المثال الذي يقع الفعل فيه ومنه.

وقال بعض السلف: خير الناس إلف الناس للناس.

وقال الشاعر:

أقلل زيارتك للصدیق — ق، تكن كثوب تستجدُّه^(١)
إن الصديق يغمُّه أن لا يزال يراك عنده^(٢)

وقال أبو هريرة: لقد دارت كلمة العرب «زُرْ غِبًّا تَزِدُّ حَبًّا»^(٣) إلى أن سمعت من الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه، ولقد قالها لي. قال العسجدي: ليست هذه الكلمة محمولة على العام^(٤)، لكن لها مواضع يجب أن يقال فيها؛ لأن الزائر يستحقها. ألا يرى أنه صلى الله عليه وآله وأصحابه لا يقول ذلك لأبي بكر، ولا لعلي بن أبي طالب، وأشباههما؟ فأما أبو هريرة فأهل ذاك لبعض الهنات^(٥) التي يلزمه أن يكون مُجَانِبًا لها وحائداً عنها.

وقد قال الشاعر:

إذا شئت أن تُقلِّي فزُرْ مُتَوَاتِرًا وإن شئت أن تزداد حَبًّا، فزُرْ غِبًّا^(٦)
وقال آخر:

وعَيْنُ الرضا عن كل عيبٍ كليلَةٌ ولكنَّ عين السُّخْطِ تُبْدي المَسَاوِيَا^(٧)

(١) اجعل زيارتك لأخيك قليلة؛ فإنك بذلك تكن مثل ثوب لا تزال تستجدُّه، وتُعمل فيه يد الإصلاح دائماً، فلا يعتريه البلى، ولا يلحق به الفناء.

(٢) فإن صديقك يضايقه ويحزنه أن يراك تزوره كثيراً، وأن يجده عنده دائماً.

(٣) زُرْ غِبًّا: غَبَّ عن القوم: أتاهم يوماً وترك يوماً، وغَبَّ الرجل: جاء زائراً بعد أيام، وقيل كل أسبوع.

(٤) ليست محمولة على العام: تقول، حمل الشيء على الآخر، أي ألحقه به في حكمه.

والمعنى: أن هذه القاعدة لا تنطبق على الناس جميعاً.

(٥) الهنات (بفتح الهاء): خصلات الشر.

(٦) إن أردت أن يُغضبك الناس، فزُرهم زيارات متصلة لا تكاد تنقطع؛ فإن ذلك يجعلك عندهم مكروهاً مُبغضاً!

وإن أردت أن يزداد الناس حُبًّا لك، فاجعل زيارتك لهم متباعدة الأوقات؛ فإن ذلك يجدد شوقهم إليك.

(٧) كليلة: مُتَعَبٌ، لا تبصر. السُّخْط: الغضب. إن الإنسان إن كان راضياً عن أخيه فهو لا يرى عيباً من عيوبه،

وتعنى عيناه عن كل سيئته. أما إن كان ساخطاً غاضباً عليه فهو لا يرى إلا سيئاته، وتعنى عيناه عن كل =

وقال آخر:

زُرْ قَلِيلًا لِمَنْ يُوَدُّكَ غِيًّا فدَوِّمُ الْوِصَالِ دَاعِيَ الْمَلَالِ^(١)
لِلْعَتَابِي:

ولقد أقول -تصَبَّرًا وتَكْرُمًا- لما تَخَرَّمْ وَدَّكَ الْإِيَّامُ^(٢)
إِنْ تَجَفَّنِي، فَلطالما قَرَّبْتَنِي هذا بِذَاكَ، وما عليك مَلَامُ^(٣)
قال سعيد بن حميد:

إذا كثرت ذنوبٌ من خليلٍ ففقه بين وصلٍ واجتنابٍ^(٤)
وأنظره؛ فلأيام حكمٍ بذلك كل ماضي العزم نابي^(٥)
وعاتبه؛ فكم أبدى عتابٍ جليَّةً مُشْكِلَ بعد ازتيابٍ^(٦)
ورجَّ النفع في الإعراض عنه إذا أخفقت من نفع العتاب^(٧)
وراجعه بعفوك حين يثني عنانًا للرجوع أو الإياب^(٨)
فإن العفو عن ذي الحزم أولى إذا قدَّرت يداك على العقاب^(٩)

= حسناته، وقريب من ذلك قول الشاعر:

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريض يجد مُرًّا به الماء الزلالا

وقول شاعر آخر:

تقول: هذا مُجَاح النحل -تمدحه- فإن ذممت، تقل: قِيءُ الزَّنابيرِ

(١) اجعل زيارتك لأودائك قليلة متباعدة؛ فإن اتصالها يدعو للملال والسأم منك.

(٢) ربما أتعلى، وأتصبر، وأقول لنفسى عندما تقطع الأيام حبال مودتك.

(٣) إن جفوتني وهجرتني اليوم، فإنك كثيرًا ما واصلتني وحفظت ودي، فهذا الهجر بذاك الوصال، ولا لوم عليك ولا عتاب.

(٤) إذا كثرت خطايا صاحبك، فلا تتعجل الحكم عليه، واجعله في موقف وسط بين هجره ووصله.

(٥) وأمهله قليلاً؛ فإن الأيام ستكشف لك عن حقيقته، وتجלוه لك.

(٦) وعاتبه قبل أن تحكم عليه، فكم أوضح العتاب حقائق كانت محل شك وازتياب.

(٧) وإذا فشل العتاب ولم يُجد نفعاً، فالتمس النفع في الصُّدود والإعراض عنه.

(٨) فإن وجدت منه انعطافاً إلى جانبك، وميلاً للرجوع إلى مودتك، فقابل ذلك بالعفو عما ساءك منه، والصفح عما بدر منه إليك.

(٩) فإن الصفح والمغفرة عن أخي الثقة أجدر وأولى، إن قدرت يداك على عقابه والنيل منه، فذلك هو الحلم حقاً. =

فإنك واجدٌ للحيِّ ذنباً وتعدُّمٌ ذنبٌ مَنْ تحتَ الترابِ^(١)
وقال آخر:

تَغَيَّرَ لي - فيمن تَغَيَّرَ - «حارثٌ»
أحارثُ، إن شوركُ فيك، فطالما
وكم من فتى قد غيَّرتُهُ الحوادثُ^(٢)
نَدُونَا، وما بيني وبينك ثالثُ^(٣)
وقال سعيد بن حميد:

جَعَلْتُ لأهلِ الوَدِّ أَنْ لَا أَزْتَهُمُ
وَأَنْ أَجْزِيَ الوَدَّ الجميلَ بمثلهِ
وأحملُهُ مني على حُكْمِ مُنْصَفٍ
وإن يَدْعُنِي وَصَلُّ أَجِبْهُ مُلَبِّياً
وإن مالوا إلى جانب الغدرِ^(٤)
وأقبلَ عُذْراً جاء من جهةِ العُذْرِ^(٥)
تعلَّم حزمَ الرأي من عَقَبِ الدهرِ^(٦)
وإن يدعني هجرٌ أُجِبْ داعِيَ الهجرِ^(٧)
وقال:

وكنْتُ إذا ما صاحبٌ ملَّ صُحْبَتِي صَدَدْتُ، وبعضُ الصَّدْفِ الحبُّ أمثُلُ^(٨)

= وقد قيل قريباً من ذلك:

- كل حِلْمٍ أتى بغير اقتدار
حُجَّةٌ لاجئٍ إليها اللئامُ!
- (١) فإنك ستجد من جميع الأحياء ذنباً ومساوئ، ولن يخلو حيٌّ واحد منها، وإنما يخلو من الذنوب والمساوئ الأموات دون غيرهم!
- (٢) تَغَيَّرْتُ لي مودات كثير من الأصحاب، ومنهم «حارث» الذي لم أكن أتوقع منه ذلك. ولكن كم من أصحاب كثيرين غيَّرت الحوادث موداتهم.
- (٣) ولكن - يا «حارث» - إن شاركني في مودتك غيرك الآن، فطالما انفردت بهذه المودة ولم يشاركني فيها أحد سواك، وطالما سَمَرْنَا ونَدُونَا منفردين لا ثالث لنا.
- (٤) أَزْتَهُمُ: أخذَ رَتَهُ للسفر: أخذَ جِهَازَهُ له. أخذت عهداً على نفسي لأودائي أنني لا أفارقهم غادرَ بهم صارماً لحبل مودتهم، وإن جنحوا هم إلى الغدر بي وصرم حبل مودتي.
- (٥) كما أنني أخذت عهداً على نفسي أيضاً أن أقابل المودة الخالصة بمودة خالصة مثلها، وأن أقبل الأعذار الصحيحة من صديقي، إذا جاءتني من جهاتها الصحيحة التي لا رُبَّ فيها ولا شبهة.
- (٦) وأن أكون معه مُنْصَفاً قد علَّمته التجارب حُزْمَ الرأي، وهدته الأيام إلى الصواب والسداد.
- (٧) وإني لأعامل كُلاًّ بمثل الذي يعاملني به، فإن دعاني صديقي إلى الوصل والمودة، لَبَّيْتُ دعوته ووددته، وإن دعاني إلى الهجر والقطيعة، هجرته وقطعته.
- (٨) إذا سئم صديق صُحْبَتِي أعرضت عنه، فقد يكون الإعراض - بعض الأحيان - أولى وأمثل وأكثر ملاءمةً.

وقلتُ جميلاً حين أصرم حبله إذا كان لم يأت التي هي أجملُ^(١)
وقال:

أشكو إلى الله جفاء امرئ ما كان بالجافي ولا بالملول^(٢)
كان وُصُولاً، دائماً عهدُهُ خيرُ الأخلَاءِ الكريمِ الوُصول^(٣)
ثم ثناءه الدهر عن رأيه فحال، والدهر يقوم يحول^(٤)
فإن يَعدُ أشكر له فعلة وإن يُطل هجرًا، فصبرٌ جميل^(٥)
وقال آخر:

أردتُ عتابكم، فصفحتُ، إني رأيت الهجرَ مبدؤهُ العتاب^(٦)
من كان لا يرجي لرفع شأنٍ ودفع لأواءٍ عن الإخوان^(٧)
وليس في الدنيا بمُستعانٍ فعيشُهُ وموتهُ سيَّان^(٨)
وقال آخر:

الناسُ: من خادع ومختدعٍ وكلهم مانعٌ لما حازا^(٩)

(١) وأقول له - حين أعرض عنه - قولاً جميلاً، ولم يدفعني الإعراض إلى أن أسيء له القول، ولو لم يفعل هو بي مثل ذلك.

(٢) إلى الله أشكو إعراض صاحب لي، وتركه البرّ بي، وما كان كذلك يوماً، وما ملّ صُحْبتي لحظة.

(٣) بل إنه كان دائماً الصلة بي، محافظاً على الود الذي بيني وبينه، وكذلك يفعل خير الصحاب وأكثرهم وفاء.

(٤) ثم صرفته الأيام عن مودتي، وغيرته، فتغيّر. وهكذا تفعل الأيام بالناس فتجعل مودتهم عداوة، وصلتهم قطيعة وهجرًا.

(٥) فإن عاد صاحبي هذا إلى صُحْبتي، فإني أحمّد له هذه العودة، وأشكرها له، وإن أطل الهجر والصدود فلا يسعني إلا أن أصبر على ذلك صبراً جميلاً.

(٦) كنتُ قد عزمْتُ على أن أعاتبكم، ولكنني راجعت نفسي وعفوت عنكم وصفحت عن إساءتكم؛ لأنني أعلم أن القطيعة والهجر مبدؤهما اللوم والعتاب.

(٧) اللأواء: الشدة. إن الصحاب الذي أصحبه فلا يرتفع به قدري، ولا أملُ منه أن يدفع عني شدة أو عناء.

(٨) ولا أجد منه عوناً عندما أحتاج منه إلى العون.. مثل ذلك الصحاب تستوي حياته وموته، ولا يضيرني فقده.

(٩) الناس جميعاً: من ماکر وأبله، وخادع ومخدوع... كلهم بخيل بما يملك، مُمسك يده عن إعطاء الآخرين شيئاً مما يحوزه.

تعاملوا بالخداع بينهم ما جَوَزَ الناس بينهم جَازاً^(١)
وقال آخر:

وصاحبٍ كان لي، وكنتُ لهُ أَشْفَقَ من والدٍ على ولدٍ^(٢)
كُنَّا كساقٍ يمشي بها قدّمُ أو كذراعٍ نيطت إلى عضدٍ^(٣)
وكان لي مُؤنِّساً، وكنتُ له ليست بنا وَحْشَةً إلى أحدٍ^(٤)
حتى إذا احتاجت يدي يَدَهُ كنتُ كمحتاجٍ يَدَ الأسدِ^(٥)
ورُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أحب أحدكم أخاه،
فليعلمه حتى يحبه، فإن القلوب تتجارى»^(٦).

ورُوِيَ أيضاً أنه قال صلى الله عليه وآله: «الأرواح جنودٌ مُجَنَّدَةٌ تتلاقى في الهواء،
فما تعرّفت منها اثتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٧).

وقال رجل لشبيب بن شيبّة: إني لأُخْلِصُ لك الثّقة، وأُصْفِي لك المودة.
قال شبيب: أشهدُ على صدقك وعلى صّحة ودّك. قال: وكيف تشهد عليّ وليس
معك من الشاهد إلا قولي؟ قال: لأنك لستَ بجارٍ قريب، ولا ابن عمّ نسيب، ولا

(١) وكل الناس يتعاملون بالنفاق والخداع والتمويه. ما يراه الناس جائزاً جاز ولو كان الباطل، فلا تحكمهم مبادئ
أو قواعد ثابتة مستقرة.

(٢) كان لي صاحب، وكان كلُّ منا أَشْفَقَ على صاحبه من والد على ولده.

(٣) نِيطْتُ: عَلَّقْتُ. العضد: الساعد وهو من المرفق إلى الكتف. وكنا كالساق التي تمشي بها القدم ولا تستطيع
أن تسير بدونها، أو كالذراع التي علقت إلى الساعد فلا تكون ذراعاً بدونه.

(٤) وكان كل منا مُؤنِّساً لصاحبه، فلا تقع الوحشة من أحداً إلى الآخر.

(٥) حتى إذا عرضت لي حاجة إلى عَوْنٍ أو مساعدة من يديّ، كنت كالذي يطلب العَوْن من أسد هصور، لا يُعِينُهُ
وإنما يفتَرسه افتراساً!

(٦) تتجارى: تتسالم وتتوافق.

(٧) ما تعارف منها اثتلف: أي من عرف بعضهم بعضاً، اثتلفوا واجتمعوا. وما تناكر منها اختلف: أي من تعادى
منهم وأنكر بعضهم بعضاً، اختلفوا ولم يتفقوا.

مُشاكل في صناعة، فتستر عنك أسباب المحاسدة^(١).

وقال عدي بن زيد:

وُظِلُّمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحَسَامِ الْمَهْنَدِ^(٢)
وقلت لأبي سليمان: لِمَ صار التنافس والتعادي وما أشبههما في ذوي القربى أكثر
وأشدّ، وهذا كالشيء المُتَعَالَم^(٣)، وهو غيبيٌّ عن البرهان، وإعادة القول والبيان، وليس
ذلك كذلك مع الأجانب والأبعاد، فإن كان، فكالشاذّ، كما أن التصافي والتخالص
أيضاً في ذوي الرحم كالشاذّ؟

فقال: إن ذوي القرابة والرحم والنسب، يرى كل واحد منهم أنه أولى وأحقّ بحيازة
ما لأبيه وعمه، وأن غيره في ذلك كالمُزَاحِمِ والدخيل والمتدلي^(٤)؛ فتَحْفِزُهُ^(٥) أعراض
كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس على أن يكون هو وحده حاوياً لتلك الموارد من
المال والجاه والقدر والمنزلة. وهذه الأعراض لا تغتري الإنسان في البعيد النسب
والبلد واللغة والصناعة والخلق.

وكان كلامه أكثر من هذا، لكنني أوجزته؛ لأن الرسالة قد طالت، وأخاف أن تُملَّ
عند القراءة، ويُنسَبَ وضعها إلى سوء الاختيار.

كان من دعاء ابن هبيرة: اللهم إني أعوذ بك من بوائق^(٦) الثُّقَاتِ^(٧)، ومن الاغترار

(١) يقول: إن دليلي على صدق مودتك أن أسباب العداوة والمحاسدة لا وجود لها بيننا، فلست لي بجارٍ قريب،
ولست ابن عمٍ نسيب، وليست صناعتك كصناعتي، فتلك هي بواعث العداوة والمحاسدة، وإذا خلت العلاقة
منها فقد صَفَتْ وَخَلَّتْ من العداوة والحسد وانتفت أسبابهما.

(٢) إذا جاءني الظلم من أقربائي، فإن وقَّعه عليّ أشد وأقسى وآلم من وقع السيوف البواتر؛ لأنه ظلم يجيئني ممن
أتوقع منهم الرحمة والبر والإحسان.

(٣) الشيء المُتَعَالَم: الشيء المعروف الذي يعلمه الجميع ويعرفونه.

(٤) المُتَدَلِّي: المُتَعَلِّق.

(٥) تَحْفِزُهُ: تَدَفُّعُهُ، وَتَسْوِقُهُ.

(٦) البوائق: الدواهي والشرور.

(٧) الثُّقَات: يقال: «شاهد ثِقَّةً» و«راوِ ثِقَّةً»: أي موثوق به. والثقات للجمع في الذكور والإناث.

بظاهر المودات^(١).

وقال أيضاً: اللهم إني أعوذ بك من صديقٍ مُطِرٍ^(٢)، وجليسٍ مُغَرٍّ^(٣)، وعدوٍّ يَبَرٍّ.

وقال علي بن ثابت:

إذا أدّيتُ حقّاً لم أطأطئُ برأسي عند لقيانِ الصديقِ^(٤)
وليس على مؤدّي الحقِّ لومٌ وما هو للملامة بالحقيقِ^(٥)
وإن ضيعتُ حقّاً حدتُ عنه كأنّي قد زنيْتُ على الطريقِ^(٦)
وقال آخر:

لعمرك ما أبقى لي الدهر من أخٍ حفيٍّ، ولا ذي خلةٍ لي أوأصله^(٧)
ولا من خليلٍ ليس فيه غوائلٌ وشرُّ الأخلاء الكثيرُ غوائله^(٨)
وقال النمر بن تَوَلب العكلي:

وأحبُّ حبّيك هوناً رويداً إذا أنت حاولتَ أن تحكما^(٩)
وقال آخر:

إذا المرء لم يُحبّيك إلا تکرّها بدا لك من أخلاقه ما يغالبه^(١٠)

- (١) الاغترار بظاهر المودات: الانخداع بظاهر الأصحاب دون فهم دوائر نفوسهم.
(٢) مُطِرٌ: أطراه: أحسن الثناء عليه، وبالغ في مدحه، أو مدّحه بأحسن ما فيه فكأنه جعله غصّاً.
(٣) مُغَرٍّ: أغرى بينهم العداوة: ألقاها كأنه ألزقها بهم وأفسد بينهم.
(٤) إذا أنا كنت مؤدياً لما يجب عليّ نحو أصدقائي، فلن أخفض رأسي خزيّاً عند لقائهم.
(٥) فلا لوم ولا عتاب على من يؤدّي الحقوق لذويها، وليس مثله جديراً باللوم أو العتب، إنما يُلام المقصّر في أداء الحقوق.
(٦) أما إذا ضيعتُ لأحد حقّاً، فإني أتوارى عنه، وأميل عن طريقه، كأنني ارتكبت جريمة الزنى في ذلك الطريق!
(٧) الحفيّ: الذي يبلغ في إكرامك وإلطافك والعناية بأمرك. خلة: محبة وصداقة لا خللَ فيها.
وحقك لم يبق لي الدهر أخاً يُكرمني ويعتني بأمرّي، أو ذا محبة وصداقة صافيتين لا فساد فيهما ولا كدر.
(٨) ولم يبق لي صاحباً خالياً من الشر والفساد لا يجزّ عليّ الدواهي والمهالك.
(٩) إن كنت حكيماً فليكن حبك لحبيبك هادئاً ساكناً وقوراً لا غلو فيه ولا إسراف.
(١٠) إن كان حبّ صديقك لك مُغالبةً لنفسه، وإكراهاً لها عليه، فإن الأيام ستظهر حقيقة هذا الحب، وتُبدّي لك ما استتر من أمره.

وقال ابن سحيم:

إنما مولاك مَنْ ترمي به من ترامي حين يشتدُّ الوَهْلُ^(١)

وقال الفضل بن العباس:

لقد عجبت -وما بالدهر من عجب- يد تشحّ، وأخرى منك تأسوني^(٢)

وقال عبد الله بن معاوية:

لا يُزهدنك في أخ لك، أن تراه زَلَّ زَلَّةٌ^(٣)

ما من أخ لك لا يعي بُ، ولو حرصت الحرص كله^(٤)

وله أيضًا:

ولا تركبَنَّ الصنيع الذي تَلُومُ أخاك على مثله^(٥)

ولا يعجبَنَّ قول امرئ يُخالف ما قال في فعله^(٦)

وقال شاعر:

وأبيض قد نادمتُه فدعوته إلى بدوات الأمر حلو شمائله^(٧)

أخي ثقة إن أبتغ الجدَّ عنده أجده، ويُلْهيني -إذا شئت- باطله^(٨)

وقال آخر:

(١) المولى: الصاحب والمحب. الوَهْل: الفزع والخوف. إن صديقك الحقّ هو الذي يكون كالسيف في يدك

ترمي به أعداءك حين يشتدّ الفزع، وتشور الحرب بينك وبينهم.

(٢) إني لأعجب -وما كان لي أن أعجب لأن الدهر أبو العجائب، والليالي يلدن لنا كل يوم عجبًا- من يد لك

تضنّ بالخير وتأباه على الناس، ويد لك أخرى تأسو جراحي وتداوي عليّ!

(٣) لا تزهد في أخيك وتملّ صحبته لسقطّة أو نبوة أو زلة زلّها.

(٤) فإنك لن تجد أخًا قد خلا من العيوب مهما حرصت وفشّست عنه.

(٥) لا تفعل الفعل الذي تعجب على صاحبك إن فعل مثله.

(٦) ولا تغرنك أقوال الصديق إن كانت تخالف أفعاله، فإنها عندئذ تكون زورًا وبهتانًا.

(٧) بدوات الأمر: حوائجه التي تبدو لك، وما بدا من الرأي.

(٨) مُؤْتَمَنٌ في جميع حالاته، إن طلبت الجدّ عنده وجدته، وإن أردت اللّهو والهزل وجدتهما.

وَجَرَّبَ حَتَّى - لو يشاء - إذا رأى أَخَا الذَّلِّ أَنْبَاهُ بِمَا ضُمِّنَ الصَّدْرُ^(١)
وقال آخر:

دعاني أخي والخيْلُ بيني وبينه فلما دعاني، لم يجدني بَقْعْدٍ^(٢)
أي بضعيف، قال أبو سعيد السيرافي: هذا أحد موضعي «قعد». قال شاعر:

فما أَحَنَّ إِلَى إِلْفٍ أَفَارِقُهُ وَمَا تَصَدَّعُ أَحْشَائِي مِنَ الشَّفَقِ^(٣)
وقال آخر:

إنَّ المَحَبَّ - إذا تَقَادَمَ عَهْدُهُ - نَسِيَ الحَبِيبَ، وَسَامَ صَاحِبَهُ القَلَى^(٤)
العرب تقول: السؤال عن الصديق إحدى القرابتين. وقال آخر:

بأي جريرة أشكو الزمانا لأول من وثقت به فخاناً^(٥)
وقال آخر:

تجنَّبَ صديق السوء واضرَّمْ حباله فإن لم تجدْ منه محيصاً فداره^(٦)
وصادق - إذا صادقت - حرّاً، أو امرأً كريماً من الفتيان يرعى لجاره^(٧)

(١) الذَّلُّ: الحقد والعداوة والثأر.

إنه - لكثرة ما جرَّب الناس واختبرهم - لو رأى حاقداً أو ذا عداوة، فإنه يذكر له ما تضمَّن صدره من العداوة وما يمتلئ به من الأحقاد.

(٢) القُعْدُ: الجبان اللئيم القاعد عن المكارم، والخامل.

(٣) تَصَدَّعَ: تصدَّع أي تفرَّق. الشفق: الشفقة، والخوف.

إذا فارقتني صاحب أو أليف لي، فلا أحَنَّ إليه، ولا تفرق ضلوعي شفقة عليه.

(٤) القَلَى: البغض. إنَّ المَحَبَّ إذا قَدَمَ عَهْدُهُ بالحب، وطال به الهجر والبعد، نسي أعباءه، وأذاقهم البُغْضَ والكرهية.

(٥) بأيّ ذنب أشكو الأيام وأدم الزمان، لأول إنسان جعلته محلّ ثقتي، فإذا به يخونني بلا جريرة مني ولا خيانة؟

(٦) المَحِيصُ: المَحِيدُ والمَهْرَبُ.

(٧) اتخذ صديقك من الأحرار الكرام الذين يحفظون حُرْمَةَ جارهم، ويرعون عهده.

وقال:

هبوني امرأً منكم أضلَّ بعيره له ذِمَّةٌ؛ إن الذِّمامَ كبيرٌ^(١)
وللصاحبِ المتروكُ أعظمُ حُرْمَةً على صاحب من أن يضلَّ بعيرٌ^(٢)

وقال آخر:

وَفَيْتُ كُلَّ صَدِيقٍ وَدَّنِي ثَمَنًا إِلَّا الْمُؤَمَّلَ دُولَابِي وَأَيَّامِي^(٣)
فإِنِّي ضَامِنٌ إِلَّا أَكَاْفَهُ إِلَّا بِتَسْوِيفِهِ فَضْلِي وَإِنْعَامِي^(٤)

وقال آخر:

إِذَا كُنْتُ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَدْعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ^(٥)
أَنْخَهَا، فَأَرْدِفْهُ، فَإِنْ حَمَلْتُكُمَا فَذَاكَ، وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبِ^(٦)

وقال آخر:

كُنَّا نَعَاتِبُكُمْ لِيَالِي عَوْدِكُمْ حُلُوَ الْمَذَاقِ، وَفِيكُمْ مُسْتَعْتَبٌ^(٧)
فَالآنَ إِذْ ظَهَرَ التَّعْتَبُ مِنْكُمْ ذَهَبَ الْعِتَابُ، فَلَيْسَ عَنْكُمْ مَذْهَبٌ^(٨)

- (١) اجعلوني واحداً منكم أهلك بعيره وضيعه، وأضحى فيكم فقيراً لا مال عنده ولا نسب، أليس له عندهم حُرْمَةٌ وذِمَّةٌ، وأليست الحُرُمَاتُ والذِّمَمُ تتسع له وهي كبيرة تتسع لكل شيء؟
- (٢) إن للصاحب الذي تتركه من أجل هلاك بعيره وافتقاره، حُرْمَةٌ وذِمَّةٌ يعظمان على هلاك البعير والافتقار.
- (٣) دولا بي: خزانة ثيابي. أيامي: النعم التي أنعم الله بها عليّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي نعمة. إنني أكافئ مودة أصدقائي بمثلها وبثمنها، إلا من يطلب ملاسي، أو يطلب نعمة مما أنعم الله به عليّ.
- (٤) فإنني على ثقة من أنني لن أكافئه إلا بالتسويق والإرجاء وعدم الوفاء.
- (٥) إن كنت تملك ناقة شابة فلا تركبها وحدك، وتترك رفيقك يمشي وراءها.
- (٦) أبرك ناقتك، وأركب رفيقك خلفك، فإن حملتكما الناقة كان خيراً، وإن لم تحملكما، فليكن العقاب بينكما، فتركب أنت مرة ويركب هو مرة.
- (٧) عودكم: زيارتكم. مستعتب: استرضاء.
- كنا نعاتبكم ونلومكم أيام كنتم تزوروننا زيارات حلوة جميلة، وكان لنا فيكم آمال في استرضائكم وإدانة الصفاء والود بينكم.
- (٨) ولكن، ظهر الآن منكم التجني علينا، فذهب العتاب واللوم.

وقال آخر:

وما أنا بالتَّكْسِ الدنيء، ولا الذي إذا صَدَّ عني ذو المودة أُحْرَبُ^(١)
ولكنني إن دام دُمْتُ، وإن يكنْ له مَذْهَبٌ عني، فلي عنه مذهبُ^(٢)
ولست إذا ذو الود ولَّى بودِّه بِمُنْصَرَفٍ أَثُو عليه وأكْذِبُ^(٣)
ألاً: إن خير الودِّ ودُّ تطوَعَتْ به النفس، لا ودُّ أَتَى وهو متعبُ^(٤)
يُقال: أنا فلان بفلان: إذا وشى به، أَثُوًا وإثابة، سمعت ذلك من أبي سعيد السيرافي.

وأنشد اليزيدي فيما رواه لنا ابن سيف:

ألاً: إن إخوان الصفاء قليلٌ فهل لي إلى ذاك القليل سبيلُ؟^(٥)
قِسِ الناسَ تعرفُ غَثَّهم من سمينهم فكلُّ عليه شاهدٌ ودليلُ^(٦)

وقال آخر:

دُعني من المرء وأعراقه وماله الجَمِّ وأوراقه^(٧)
فما الفتى كلُّ الفتى غيرُ من يستعبدُ الناسَ بأخلاقه^(٨)

(١) لستُ بالرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه، ولست بالرجل الذي إذا صَدَّ عنه صاحبه وأعرض عنه، اشتد غضبه وقال فيه قول السوء.

(٢) ولكنني إن أبقى صاحبي على مودتي أبقى عليها، وإن ذهب عني وترك صحبتي، ذهبت عنه وتركت صحبته بالحسنى ودون أن أؤذيه بالقول، أو أتحدث عنه بالسَّيِّئ من الحديث.

(٣) أئاه: أَثُوًا وإثاوة (واوٍ) وكذا أَثَى به أَثِيًا وإثاية (يائي): وشى به عند السلطان، أو مطلقاً.

(٤) إن خير المودة ما ينبعث خالصاً من النفس دون أن يدفعه دافع آخر، من هوى أو رهبة أو مطمع، فينتهي إليك مُتَعَبًا كأنما يسوقه إليك سائق، ويدفعه دُفْعًا.

(٥) إن إخوان الصفاء والإخلاص قليلون، فهل أجد سبيلاً أسلكه إلى هؤلاء القليلين؛ لأصل إليهم؟

(٦) اختبر الناس - كأنك تقيسهم بمقياس - تجدد منهم الرديء الفاسد، كما تجد منهم الجيد الصحيح، وستدلك الدلائل والأمارات على هذا وعلى ذاك، وتعرف حقيقة كل منهم.

(٧) أعراقه: جمع عِرْق، وهو أصل كل شيء. أوراقه: جمع وَرَق - محركة - وهي الدراهم المضروبة.

دُعني من أصل المرء وحسبه، ومن ماله الوفير، ومن دراهمه التي يمتلكها؛ فما لهذا أثره في قيمته أو قدره.

(٨) فإن قيمة الفتى الحقيقية إنما هي في أخلاقه التي يستطيع بها أن يستعبد الناس ويجعلهم له أصفياء مخلصين.

- أخوك مَنْ إنْ خِفْتَ مِنْ حَدَثٍ حَلَلْتَ مِنْهُ بَيْنَ أَمَاقِهِ^(١)
 ليس بَغْدَارٍ وَلَا خَائِنٍ وَلَا كَذُوبٍ الْوَعْدِ مَذَاقِهِ^(٢)
 وَلَا الَّذِي يُخْبِرُ عَنْ وَدِّهِ وَالْفَعْلُ لَا يَأْتِي بِمُصْداقِهِ^(٣)
 طَوْعُكَ مَا دَامَتْ لَهُ سَوْقَةٌ حَتَّى إِذَا ارْتَابَ بِأَسْوَاقِهِ^(٤)
 وَأَبْصَرَ الشَّرَّ بَدَأَ مَقْبَلًا شَمَّرَ لِلْمَكْرُوهِ عَنْ سَاقِهِ^(٥)
 يَذُمُّ عِنْدَ النَّاسِ إِخْوَانَهُ وَيَمْدَحُ الذَّمَّ بِإِشْفَاقِهِ^(٦)
 يَا لَيْتَهُ أَغْفَاكَ مِنْ لَسَعِهِ وَمِنْ أَيْيَادِهِ وَإِرْقَاقِهِ^(٧)
 لَا خَيْرُهُ قَامَ بِهِ سِرُّهُ وَلَا أَفَاعِيهِ بِدِرْيَاقِهِ^(٨)

وقال آخر:

وأغضي على أشياء لو شئتُ قتلها ولو قتلها، لم أبقِ للصِّلح موضعاً^(٩)

(١) وإن أخاك الحق هو الذي إن خفت حادثاً، أو فزعت من سوء، جعلك بين عينيه، وأولاك الرعاية والعناية والعمون والنجدة.

(٢) مَذَاقُهُ: مَذَقَ الْوَدَّ: أي لم يُخلِصْهُ.

وإن أخاك الحق من لا يعرف الغدر ولا الخيانة، وإن وعدك كان صادق الوعد، وإن ودك كان صافي الوداد خالصه.

(٣) وإن أخاك الحق هو الذي لا يتحدث عن المودة أحاديث تكذبها أفعاله، وهو الذي لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل يكون ما يجري على لسانه هو ما يكتنه في ضميره.

(٤) السُّوقَةُ: نَبْتُ يُؤْكَلُ، وَجَنَاهُ حَمْرَاءُ كَالنَّبْتِ فِي اسْتِدَارَتِهِ.

أي إنه يكون طيئاً ما دام يجري عليه النبت الذي يأكله، والجنى الذي ينعم به.

(٥) شَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ: أي سعى إليك مسرعاً. أي إنه إذا أبصر الشرّ، وأحسن أنه مقبل عليك، جاءك على عجل يدفعه عنك، ويعينك على ردّه وإبعاده.

(٦) إنه كثير الذمّ لإخوانه، ولكنه يُمَوّه عليهم بإظهار الشفقة والخوف عليهم!

(٧) يا لَيْتَهُ لم يلسعك بلسانه ولم يعبك ولم يؤذك بأقواله، ولم يمنحك أيضاً تلك الأيادي والنعم التي يسترّقك بها ويمتلكك.

(٨) سِرُّهُ: أطييه وأفضل مواضعه، والخالص الصافي منه. أفاعيه: جمع أفعى، وهي حية خبيثة.

دِرْيَاقُهُ: الدرياق لغة في (الترياق) بكسر التاء: وهو دواء السموم (فارسيّ معرّب) أي إن أطييه وأفضله ما جاءنا بخير، وإن أفاعيه وحياته ما جاءتنا بدواء تنداوى منه، فشره أعظم من خيره، وضرره أعم من نفعه.

(٩) إنني أغضّ طرفي عن أشياء أستطيع ذكرها، ولو أني ذكرتها، فإنني أسدّ باب الصِّلح بيني وبينه، ولا أبقى له موضعاً.

وإن يك عُودِي من نضارٍ، فإنني لأكرهُ يومًا أن أحطم خِرْوَعاً^(١)
وقال آخر:

ويلقُونِي بالبشر ما دمْتُ فيهمُ فإن غَبْتُ عنهم قَطَّعُوا الجلدَ بالسَّبِّ^(٢)
وأغضي على أشياء منهم تَرِيئِي ولولا اصطباري، ذاب من عِظْمها قلبي^(٣)
وقال آخر:

إذا المرء لم يُحِبِّكَ إلا تَكَرُّهاً عِرَاضُ العلوق لم يكن ذاك باقياً^(٤)
كلانا غنيٌّ عن أخيه حياته ونحن إذا مِنَّا أَشَدَّ تَغَانِيَا^(٥)
ولست بهيَّابٍ لمن لا يهابُنِي ولست أرى للمرء ما لا يرى لِيَا^(٦)
كان ابن كعب يقول: أنا أَسْتَجْفِي^(٧) هذا القائل، ولم لا أرى لصديقي فوق ما
يرى لي؟ ولم لا أعتبده^(٨) بالإغضاء والإحسان والتفضل والصبر؟ ولم أقارضه^(٩)
وأقايضه^(١٠)؟ ولم أراني مغبوناً إذا كان الرئح له؟ ولم لا أظلم نفسي في مَرْضَاتِهِ^(١١)؟

- (١) فإني وإن كنت من ذهب خالص، لأكره أن أكسر نباتاً ضعيفاً كالخروع.
(٢) وإنهم ليقابلوني بالبشر والترحاب ما دمْتُ بينهم، فإذا فارقتهم قَطَّعُوا جلدي بالسَّبِّ والشتم وذكر المعائب زوراً وبهتاناً.
(٣) وإني لأغضُّ طرفي عن أشياء منهم تشكُّنِي في صدق ولائهم وإخلاصهم لي، ولولا صبري لَذَابَ قلبي من هولها وشناعتها.
(٤) فعل الشيء تكرَّهاً: أي فعله وهو لا يريدُه ولا يرضاه.
إن لم يودِّك صاحبك إلا تَكَرُّهاً، كأنما يعارض شوكاً بفيه، كانت مودته سريعة الزوال لا ثبات لها ولا بقاء.
(٥) إنني غنيٌّ عن صديقي، كما أنه غنيٌّ عني طول الحياة، فإذا مِنَّا كان كل منا أكثر غِنًى عن صديقه. وما حاجة الميت إلى الميت؟
(٦) إنني لا أخاف من لا يخافني، ولا أرى لأي إنسان من المكانة إلا مثل الذي يراه لي.
(٧) أَسْتَجْفِي هذا القائل: أراه جافياً غليظاً ثقيلاً.
(٨) أَعْتَبِدُهُ: أتخذُه عبداً، ومنه: «فلان أَعْتَبَدُهُ الطمع».
(٩) أقارضه: المقارضة: المضاربة.
(١٠) أقايضه: قايضه: عارضه، أي أتى إليه بمثل ما أتى.
يقول: لِمَ أجعل نفسي ندّاً ونظيراً لصديقي؟ ولم لا أراه أعلى مني منزلةً وأرفع قدراً؟
(١١) ولم أرى أنني مظلوم إن كان هو الرابع؟ بل، ولم لا أظلم نفسي في سبيل رضائه ومسرته؟

وإن وجب أن نتساوى أبداً في الفعل والقول، ونتكايس^(١) في الانقباض^(٢) والانبساط^(٣)، ونتحافظ على اختلاس الحظ والنصيب، فهل تركنا لأصحاب المذاب^(٤) وأرباب التطفيف نشأ من الدناءة إلا وأخذنا به، ورأيناه مرغوباً فيه؟ تالله ما هذا من الصداقة في شيء، وإنه إلى الخسة والنذالة أقرب.

وقال بعض العلماء: التمس ودّ الرجل العاقل في كل حين، وودّ الرجل ذي النكر^(٥) في بعض الأحيان، ولا تلتمس ودّ الرجل الجاهل في حين.

قيل لديدوجانيس: ألك صديق؟

قال: نعم، ولكني قليل الطاعة له.

قيل: لعله غير ناصح؛ فلذلك أنت على ذاك؟

قال: لا، بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة.

قيل: فلم أنت على دأبك هذا المذموم، مع إقرارك بفضل صديقك؟

قال: لأن جهلي طباع^(٦)، وعلمي مكسوب، والطباع سابق، والمكسوب تابع.

قيل: فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق؛ حتى نخطب إليه صداقته^(٧)، ونجتهد في الطاعة له والقبول منه.

قال: صديقي هو العقل، وهو صديقكم أيضاً، ولو أطعتموه كما ضمتتم لسعدتم،

(١) نتكايس: نتغالب في الكيس، وهو الظرف والفتنة.

(٢) الانقباض: الضيق.

(٣) الانبساط: السرور والسعة.

(٤) المذاب: جمع (مذبة) - بالكسر - وهي ما يُدبُّ به كالمروحة.

(٥) النكر: المنكر، والأمر الشديد.

(٦) الطباع: السجيا التي جُبِلَ عليها الإنسان، وما يقع على الإنسان بغير إرادة.

(٧) أرشدنا إلى صاحبك هذا حتى نسعى إلى صداقته.

وَرَشَدْتُمْ^(١)، وَنْلْتُمْ مُنَاكُم فِي أَوْلَاكُم وَأَخْرَاكُم.

فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك فقلما تجده، فإن وجدته لم يف لك بما يفى به العقل، ولم يبلغ بك ما يبلغ العقل، وربما أتعبك، وربما خربك^(٢)، وربما أشقاك. فاكبحوا أعنتكم^(٣) عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم؛ فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف، ويحسن فيعدّد، ويسيء فيحتج، ويشكك فيُضِلّ^(٤).

قال الشاعر:

أخي، لن تستفيد الدهر مثلي	شريكاً في الحياة وفي الممات ^(٥)
أتركني وأنت ترى مكاني؟	وتطلبني إذا حانت وفاتي؟ ^(٦)
فليس بنافعي طلبٌ بثأري	وأخذك من بغاتي بالثرات ^(٧)
فإن أهملتني، وطرحت حقي	عليك، فلا تغافل عن وصاتي ^(٨)
بنيّ - إذا هلكت - فلا تُضِعْهُمْ	وَصُنْ - عمن يعاديني - بناتي ^(٩)
فلو كنت الأسير - ولا تكنه -	عزمت على حياتك لي حياتي ^(١٠)

(١) رَشَدْتُمْ: اهتديتُمْ، وبُعدتُمْ عن الضلال والغيّ.

(٢) خَرَبَكَ: خَرَّبَكَ، وهَدَمَكَ.

(٣) اكبحوا أعنتكم: اجذبوا اللجام إليكم ولا تُرسلوه، والمقصود اتركوا صداقة الإنسان الذي هو من لحم ودم.

(٤) إنه يجعلك تُشكُّ في الأمور وتُستريب منها، فيتزعزع رأيك، وتضلّ عن الصواب.

(٥) إنك يا أخي لن تظفر طوال حياتك بصديق مثلي، يشترك معك طول حياتك حتى الممات، في السراء والضراء.

(٦) أيجوز أن تتركني وتهجرني وأنت تعرف مكاني، وتراني أمامك رأي العين؟ ثم تعود فتطلبني إذا قُرب موتي؟

(٧) وليس بنافع لي أن تطلب ثأري وتأخذ بدمي وبحقوقي بعد موتي من الباغين المعتدين عليّ.

(٨) فإن كنت قد أهملتني ولم تهتمّ بأمرِي، وهضمت حقوقي عليك طول حياتي، فإني أناشدك ألا تتجاهل وصيتي وتتغافل عنها بعد وفاتي، فهذا أدنى ما يجب عليك نحوي.

(٩) ووصيتي هي ألا تُضَيِّع أولادي من بعدي، وأن ترعاهم وتقوم على شؤونهم، وأن تصون بناتي عن أن يتزوجن أحداً من أعدائي.

(١٠) فإنك لو كنت أسيراً - وأدعو الله ألا يجعلك كذلك يوماً - فإني أفديك بحياتي؛ لأفكّ أسرك، وأكشف كربك.

قال عيسى ابن مريم عليه السلام -فيما حدثنا به ابن الجمل الكاتب النصراني- لتلاميذه: علامتكم التي تُعرَفُونَ بها أنكم مني، أن يودَّ بعضكم بعضاً.

وقال عيسى أيضاً ليشوع تلميذه: أما الربُّ فينبغي أن تحبه بكل قلبك، ثم تحب قريبك كما تحب نفسك.

قيل له: بَيْنَ لَنَا يَا رُوحَ اللَّهِ مَا بَيْنَ هَاتَيْنِ الْمُحِبَّتَيْنِ؛ حَتَّى نَسْتَعِدَّ لِهَمَا بِنُبْصَرَةٍ^(١١) وبيان^(١٢).

قال: إِنْ الصَّدِيقُ تَحَبَّهَ لِنَفْسِكَ، وَالنَّفْسُ تَحَبَّاهَا لِرَبِّكَ، فَإِذَا صَنَتَ صَدِيقَكَ فَلِنَفْسِكَ تَصُونُ، وَإِذَا جُدْتَ بِنَفْسِكَ فَلِرَبِّكَ تَجُودُ.

قال الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُنْصِيفًا فِي الْإِخَا	ءِ، إِنْ زَرْتَ زَارَ، وَإِنْ عَدْتَ عَادَا ^(١٣)
أَبَيْتُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْإِبَا	ءِ، وَإِنْ كَانَ أَعْلَى قَرِيشٍ عِمَادَا ^(١٤)
وَقَارَضْتَهُ الْوَصْلَ كَيْلًا بَكِي	لِ، وَوَزَّنَا بوزنٍ، عَلِيٍّ لِدَادَا ^(١٥)
فَإِنْ هُوَ صَحَّحَ فِي وَدِّهِ	جَعَلْتُ اللِّسَانَ لَهُ وَالْفَوَادَا ^(١٦)
وَإِنْ بَدَّلَ الْقَوْلَ دُونَ الْفَعَا	لِ، بَذَلْتُ اللِّسَانَ وَصُنْتُ الْوَدَادَا ^(١٧)

(١١) تبصرة: تَبَصَّرَ: تَأَمَّلَ وَتَعَرَّفَ.

(١٢) البيان: الحجة، والمنطق الصحيح، والكلام يكشف عن حقيقة حال.

(١٣) إنه ليس من الإنصاف في الإخاء أن تُعامل أخاك بمثل ما يعاملك به تماماً، مثقالاً بمثقال، ودرهماً بدرهم. فإن زارك مرة زرته مرة مثلها، وألا تحاول أن تكون أكثر منه فضلاً، وأوفر منه صداقة ووداً.

(١٤) مثل هذا الصديق أقفُ منه موقفاً متشدداً، وأبى أن أزيد في إخواني له مثقال حبة خردل، وإن يكن أعلى بني قريش منزلةً وأرفعهم كعباً.

(١٥) وأقفُ منه موقف المساواة تماماً، ولا أصِلُهُ إلا بمقدار ما يصلني، وأبذل له من المودة كَيْلاً نظير كَيْلٍ، ووزناً نظير وزن.

(١٦) فإن صحَّحَ هذا الصديق موقفه مني، وخفف قليلاً من غُلُوِّائِهِ، أخلصت له الودَّ وأحسن القول فيه، وملأت فؤادي حباً له.

(١٧) وإن كانت مودته كلاماً ينطق به لسانه وليس وراءه حقيقة، وقفت منه نفس الموقف، فبذلتُ له القول من لساني، وَمَنَعْتُهُ المودة الحقيقية وَصُنْتُهَا في نفسي.

قيل لعبد الله بن المبارك: إن قومًا يلتقون بالبشرِّ والسلم، فإذا تفرّقوا طعن بعضهم على بعض.

فقال: أعداءٌ غيبٌ، إخوانٌ تلاقٍ^(١)، تبا لهذه الأخلاق، كأنها شقت من النفاق^(٢).
وقال آخر:

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فهو المرأى، وأين ذاك الواحد؟^(٣)
وقال آخر:

وإن امرأً يجزي الصديق بشرّه لأول من يبقى بغير صديق^(٤)
قال سعيد بن ميمون: لقيت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فصافحني،
ثم قال:

إذا شئت أن تلقى خليلاً مصافياً لقيت، وإخوان الثقات قليل^(٥)
فقلت له: أمثلك يقول الشعر؟

فقال: أو ما علمت أن المصدور إذا نفث برأ^(٦)؟

وقال بزرجمهر: عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، والعامة بالرغبة والرغبة،

(١) إذا غاب بعضهم عن بعض كانوا أعداء ينهش كل منهم في عرض أخيه، وإن تلاقوا أظهروا الإخاء والحب والإخلاص.

(٢) إنني أدعو على هذه الأخلاق بالهلاك والخسران؛ لأنها مُشتقة من الوباء والنفاق.

(٣) إن أخلص لك صديق واحد، فذلك أمل كبير يتحقق! وأين هو ذلك الواحد؟

(٤) إن الصديق الذي يجازي الشرّ من صديقه بشرّ مثله، سيعيش بلا صديق؛ لأنه لن يجد الصديق الذي يخلو من الشرّ.

(٥) مصافياً: صافاه: صدّقه الإخاء والمودة. ثقات: جمع ثقة، وهو الصديق الذي تأمنه.

إن طلبت إخواناً يصدّقونك الإخاء والمودة فإنك ستجد، ولكنك إن طلبت الإخوان الذين تأمنهم، فإنهم قليل.

(٦) المصدور: الذي يشكو صدره. نفث: نفثه. رمى به. برأ (بفتح الراء): لغة أهل الحجاز في (برئ): أي تخلص وسلم.

أي إن الشاعر يبرأ مما يقاسيه إن قال فيه شعراً، كالمصدور الذي يبرأ إن نفث البصاق من فمه.

وسوسوا السُّفلة بالمَحاور صُراخاً^(١).

إذا صديق نكِرْتُ جانبَه لم تُعِينِي في مَرَامِهِ الحِيلُ^(٢)
وقال آخر:

إذا المرء لم يبذل من الود مثل ما بذلتُ له، فاعلمم بأني مُفارقُهُ^(٣)
فإن شئت فافرضه، فلا خير عنده وإن شئت فاجعله صديقاً تماذِقُهُ^(٤)
قلت للهائم أبي علي: مَنْ تحب أن يكون صديقك؟

قال: من يُطعمني إذا جُعت، ويكسوني إذا عَرِيت، ويحملني إذا كللت^(٥)، ويغفر لي إذا زللت.

فقال له علي بن الحسين العلوي: أنت إنما تريد إنساناً يكفيك مُؤنتك^(٦)، ويكفلك في حالك، كأنك تمنيت وكيلاً فسميته صديقاً! فما أحرار جواباً^(٧).

وقلت للبنوي -ولقيته بالدُّسكرة^(٨) سنة خمس وستين-: من تحب أن يكون صديقك؟

قال: من يُقِيلني إذا عَثَرْتُ، ويُقَوِّمي إذا ازوررْتُ^(٩)، ويهديني إذا ضللتُ، ويصبر

(١) المحاور: جمع محوَر، وهي الحديدية أو الخشبة. صُراخاً (بضم الصاد وكسرها): شفاهاً ومواجهةً ومجاهرةً. أي: روضوا سقاط الناس وأسافلهم وغوغاءهم وأدبهم، بالحديد والخشب، أي بالشدة، مواجهةً ومجاهرةً؛ فلن يصلحهم غيرها.

(٢) إذا استقبحْتُ صديقاً وأنكرت فعاله، فإني أحتال للخلاص منه. وليس عسيراً عليّ ذلك، ولا يُعجزني أن أتخذ حيلة له.

(٣) إذا لم يبذل لي صديقي من الود مثل ما أبذل له، فسينتهي الأمر بيني وبينه بالفراق.

(٤) فإن بُليتَ بمثل هذا الصديق الذي لا خير وراءه، فإما أن ترفض صداقته وتقطع حبل مودته، وإما أن تجعله صديقاً لا تبذل له إخلاصك.

(٥) ويحملني: ويقوم بحاجاتي إذا ضعفت وأعْييت.

(٦) مُؤنتك: مُؤؤنتك: أي قُوَّتكَ. أي يتولى هو إيصال القوت إليك دون أن تحمل تعباً أو مشقة.

(٧) فما أحرار جواباً: فما ردّ جواباً.

(٨) الدُّسكرة: القرية العظيمة.

(٩) ازوررْتُ: انحرَفْتُ.

عليّ إذا مللتُ، ويكفيني ما لا أعلمُ وما علمتُ.

وسمعت أبا عامر النجدي يقول: الصديق من صدّقك عن نفسه^(١)؛ ليكون على نور من أمرك؛ ويصدقك أيضاً عنك؛ لتكون على مثله؛ لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء في السراء والضراء، والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة ولا ترحه^(٢) إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش.

وقال أيضاً: قيل لأعرابي: ألك صديق؟

قال: لا، ولكن أليف.

قال شاعر:

ويلقوني بالبشر ما دمتُ فيهمُ فإن غبتُ عنهم، قَطَّعوا الجِلْدَ بالسبِّ^(٣)
وأغضي على أشياء منك تربيني ولولا اصطباري فاضَ عن عظمها قلبي^(٤)
وما ذاك من ضعف، ولا سوء مَحْتَدٍ ولكن تناسي الذنبِ أَقْطَعُ للذنبِ^(٥)
وقال آخر:

لقد أسمع القول الذي كاد كلما تُذَكِّرُنِيهِ النفسُ، قلبي يَصَدَّعُ^(٦)

فأبدي -لمن أبداه- مني بشاشةً كأنِّي مسرور بما منه أسمعُ^(٧)

(١) صدّقك عن نفسه: أنبأك بالصدق عنها.

(٢) التَّرحُ: الغم والحزن.

(٣) سبق شرحه.

(٤) سبق شرحه.

(٥) المَحْتَدُ: الأصل. وليس إغضائي وصبري عن عجز أو عن سوء أصل، ولكني أرى أن تناسي الذنب أشدّ قطعاً له وإجهاراً عليه من تذكّره وإدامة الحديث عنه.

(٦) ربما أسمع حديثاً، كلما ذكّرتني به نفسي فإن قلبي يكاد يتشقق ويتقطع.

(٧) فأظهر لمن يحدثني به بشاشة وسروراً، كأنما أنا في نشوة بالغة مما أسمع، وهو ألدّ الحديث!

وما ذاك من عَجَبٍ به، غير أنني أرى أن ترك الشرِّ، للشرِّ أَقْطَعُ^(١)
وقال آخر:

نَغِيبُ - إذا غَبْنَا - بَنُصَحْ، ونلتقي بأحسن ما الإلفانِ مُلتَقِيَانِ^(٢)
ونُخْفِي الهوى عمن يخونُ، وإننا إلى من أَمْنَاهُ لمشتكيانِ^(٣)
وقال آخر:

يَحْيِي وَيُسْتَحْيِي إذا ما لقيتهُ وإن غَبْتُ، أو وليتُ، أَوْقَعَ في عِرْضِي^(٤)
ولو شئت، قد عَضَّ الأنامل نادماً وأوطأتهُ عن ذاك في منزل دَخُضِ^(٥)
ولكنه إحدى يديّ، فلم أجِدْ سبيلاً إلى صَوْلٍ لبعضي على بعضِ^(٦)
وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

فأنت أخي ما لم تكن لي حاجةً فإن عَرَضْتُ، أَيْقَنْتُ أن لا أخا ليا^(٧)
فلا ازداد ما بيني وبينك بعدما بلوتك في الحاجات، إلا تماديا^(٨)

- (١) وما هذه البشاشة التي تبدو عليّ، وما ذلك السرور الذي يظهر على وجهي.. ما هذا أو ذاك عن إعجاب بما أسمع، وكيف أعجب بالسيّ من القول؟! ولكنه تركُ للشرِّ؛ فإن ترك الشرِّ وإهماله، يقطع دابره، ويقضي عليه.
- (٢) يغيب أحدنا عن صاحبه، فيبقى إخلاصنا وتبقى مودتنا لا تشوبها شائبة، ثم نعود بعد الغياب فنلتقي كأحسن ما يلتقي الصديقان المؤمنان الودودان.
- (٣) ونكتم هوانا ومحبتنا عمن يخوننا، ولكننا نُظْهِر الهوى والمحبة، ونتشكى الهجر والقطيعة، لمن نأمن جانبه، ولا نخشى منه خيانة.
- (٤) إذا لقيني حيّاني أجمل تحية، وأظهر استحياءً وخجلاً وتأدّباً، فإذا غبتُ أو انصرفت عنه، اغتابني ونهش عِرْضِي.
- (٥) ولو أنني أردت، لأدقُّته من العذاب ما يعَضُّ من أجله أطراف أصابعه ندماً على اغتيابه لي ونهشه عِرْضِي، ولأنزلته منزلاً دوناً زلقاً يزل فيه الإنسان، ويهون قدره.
- (٦) ولكنني -على الرغم مما يفعل بي- أعتبره إحدى يديّ، ولا أستطيع أن أجعل جزءاً مني يصول ويسطو ويستطيل على جزء آخر حتى يقهره ويُذله.
- (٧) إنك أخي ما دمتُ في غِنَى عنك ولا حاجة لي عندك، فإذا عرضت لي حاجة إليك، فإن إعراضك وانصرافك عني، يجعلاني على يقين من أنه لا أخ لي.
- (٨) إنني بعد أن بلوتك واختبرتكَ في الحاجات، ووجدتُكَ مُعْرِضاً ومنصرفاً عني، لأدعو الله أن يُنمّي هذا الإعراض والانصراف، وأن يزيد في هذه القطيعة.

وله:

أُصِدُّ صَدُودَ امْرِئٍ مُجْمِلٍ إِذَا حَالَ ذُو الْوَدِّ عَنْ حَالِهِ^(١)
ولستُ بمُسْتَعْتَبٍ صَاحِبًا إِذَا جَعَلَ الصَّرْمَ فِي بَالِهِ^(٢)
ولكنني صارمٌ حَبْلُهُ وَذَلِكَ فِعْلِي بِأَمثَالِهِ^(٣)
وإني على كل حالٍ لَهُ بِإِدْبَارِ أَمْرٍ، وَإِقْبَالِهِ^(٤)
لِرَاعٍ لِأَحْسَنَ مَا بَيْنَنَا لِحَفِظِ الْإِخَاءِ، وَإِجْمَالِهِ^(٥)
وَأُنْشِدُ الْأَصْمَعِي:

إِذَا مَا امْرُؤٌ سَاءَتْكَ مِنْهُ خَلِيقَةٌ فِي الصَّفْحِ طَيِّ لِّلذُنُوبِ جَمِيلٌ^(٦)
وَإِنِّي لِأَعْطِيَ الْمَالَ مَنْ لَيْسَ سَائِلًا حِفَظًا، وَإِخْوَانُ الْحِفَاطِ قَلِيلٌ^(٧)
حدثني أبو حامد العلوي - وكان من الحجاز، سنة سبعين وثلاثمائة بمدينة
السلام - قال: رَمَى أعرابي من بني هلال عن حيَّه^(٨) إلى أطراف الشام، فقيل له: من
خَلَفْتَ وراءك؟

قال: خلفت والدًا، ووالدةً، وأختًا، وابن عم، وبنت عم، وعشيقة، وصديقًا.

قيل له: فكيف حنينك إليهم؟

قال: أشدُّ حنين.

- (١) إِنْ تَحَوَّلَ صَدِيقِي عَنْ صَدَاقَتِهِ، وَتَنَكَّرَ لِي، فَإِنِّي أُصِدُّ عَنْهُ وَأَهْجُرُهُ هَجْرًا جَمِيلًا لَا مَسَاءَةَ فِيهِ.
(٢) إِنِّي لَا أَسْتَرْضِي صَدِيقًا إِنْ أَيقَنْتُ أَنَّهُ جَعَلَ قِطْعَتِي فِي ذَهْنِهِ، وَعَقَدَ عِزَّهُ عَلَيْهِ.
(٣) وَلَكِنِّي سَاقِطٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ مَوَدَّةٍ، وَإِنِّي لَفَاعِلٌ ذَلِكَ مَعَ أَمثَالِهِ الَّذِينَ يَعْقِدُونَ الْعِزَّمَ عَلَى قِطْعَتِي وَهَجْرَانِي.
(٤) وَإِنِّي فِي كُلِّ حَالَاتِهِ: فِي إِدْبَارِهِ عَنِي وَقِطْعَتِهِ لِي، وَفِي إِقْبَالِهِ عَلَيَّ وَبِرِّهِ بِي.
(٥) إِنِّي فِي كُلِّ هَذِهِ الْحَالَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ، لِرَاعٍ وَمَحَافِظٍ عَلَى خَيْرِ مَا بَيْنَنَا مِنْ عِلَاقَاتٍ، حَرِيصٌ عَلَى الْإِخَاءِ وَالْوَدِّ الْجَمِيلِ.
(٦) إِنْ سَاءَتْكَ أَخْلَاقُ امْرِئٍ، وَارْتَكَبَ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يُغْضِبُ وَيَكْدِّرُ صَفْوُ الْعِلَاقَاتِ، فَإِنَّ صَفْحَكَ وَعَفْوَكَ يَمَحْوَانُ هَذِهِ الذُّنُوبَ وَيَطْوِيَانَهَا.
(٧) وَإِنِّي لِأَمْتَحُ الْمَالَ مَنْ لَا يَسْأَلُنِي مِنْهُ، أَنْفَةً مِنِّي وَرِعَايَةً لِلْخَلْقِ الْكَرِيمِ، وَإِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ لَقَلِيلٌ.
(٨) رَمَى عَنْ حَيَّهِ: تَرَكَهُ وَخَلَّاهُ.

قيل: فصّفهُ لنا.

قال: أما حنيني إلى والدي؛ فللتعزُّز^(١) به؛ فإن الوالد عَصْدُ^(٢) ورُكْنُ^(٣) يُعَاذُ به^(٤)، ويُوَوِّي إليه.

وأما نزاعي^(٥) إلى الوالدة؛ فللشفقة المعهودة منها، ولدعائها الذي لا يَعْرُجُ إلى الله مثله^(٦).

وأما شوقي إلى الأخت؛ فللصيانة لها والترُّوح إليها^(٧).

وأما شوقي إلى ابن العم، فللمُكانفة له والانتصار به^(٨).

وأما ابنة العم؛ فلأنها لحم على وَصَم^(٩)، أتمنى أن أشبل عليها بالركة^(١٠)، أو أصِلُّها ببعض من يكون لها كُفْوًا، ويكون لنا أيضًا إلفًا^(١١).

وأما صبابتي بالعشيق؛ فذاك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عِرْق نابض، وفي المجنون جواد راكض^(١٢).

وأما الصديق؛ فوَجَدِي به فوق شوقي إلى كل من نَعَتُهُ لك؛ لأنني أبأثه بما أجَلُّ

(١) للتعزُّز به: عزَّزَهُ: نصرَهُ، وقوَّاه، وشدَّده.

(٢) عَصْدٌ: مُعَيَّنٌ وناصِرٌ.

(٣) الرُّكْنُ (بالضم): ما يتقوى به الإنسان من مُلْكٍ وجند وغيرهما، والركن: العز والمِنعة.

(٤) يُعَاذُ بِهِ: يُلْجَأُ إِلَيْهِ، وَيُعْتَصَمُ بِهِ.

(٥) نزاعي إلى الوالدة: اشتياقي إليها.

(٦) لا يَعْرُجُ إلى الله مثله: يرتقي ويصعد، أي إن دعاءها مستجاب عند الله؛ مقبول لديه.

(٧) إن عليّ نحو أختي أن أحفظها، وأصونها، وأزورها في الرواح والعشي.

(٨) وإن عليّ لابن العم أن أعاونه في أموره، وأنصر له.

(٩) الوَصَم (محرّكة): خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم، وكل ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير، وفي المثل: «تركهم لحمًا على وضم» أي أوقع بهم فذلّهم وأجمعهم.

(١٠) أشبل عليها بالركة: أعطف عليها، وأعينها.

(١١) أي أن أزوجه من يكون لها كنفًا ونظيرًا، ويكون لنا حبيبًا وأليفًا.

(١٢) يقول: إن العشق فطرة في النفس الكريمة، قلما يخلو منه إنسان ذو حسّ مرهف، وذو قلب خفاق ينبض بالحب، وذو جواد يجري في دنيا اللهُو والمجون ويركض.

أبي عنه، وأجَباً^(١) من أُمِّي فيه، وأطويه عن أختي خجلاً منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفاً من حسد يَفْقأ ما بيني وبينه^(٢)، وأكني عن بنت عمي غيرها؛ لأنها شقيقة ابن العم، ومعها نصف ما معه، وهي من الشجرة التي تَلَفْنَا أغصانها، وتلتقي علينا أفنانها، ويجمعنا ظلها.

فأما العشيقة فقَصَارَى معها أن أشوب لها صدقاً بكذب، وغلظة بلين؛ لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيادة، وتحفة من حديث^(٣).

وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إليّ، دون الصديق الذي حريمي له مُباح، وسارحي عنده مراح^(٤). أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت^(٥). إذا عَزَزْتُ له ذلّ لي، وإذا ذللت له عَزَّ بي، وإذا تَلَاخَظْنَا تساقينا كأس المودة، وإذا تصاممتنا تناجينا بلسان الثقة^(٦)، لا يتوارى عني إلا حافظاً للغيب، ولا يترأى لي إلا ساتراً للعيب.

قيل له: فهل نُمِّي إليك خبره، منذ بان عنك أثره؟

قال: نعم، لحقني بعض فتيان الحيّ أمس، فسألته عن قرابتي وعشيرتي، فنعت لي

(١) أجَباً من أُمِّي فيه: أتوارى عنها.

(٢) أداجي ابن عمي عليه: أداريه، وأناقفه، وأسأتره العداوة.

(٣) قَصَارَى: جهدي وغايتي، يقال: «قصاراك أن تفعل كذا» أي جهدك وغايتك وآخر أمرك. أشوب لها صدقاً بكذب: أخلط لها صدقاً بكذب.

إن آخر جهدي مع العشيقة أن أخلط لها الصدق بالكذب، والقسوة بالرأفة؛ لأنال منها نصيباً من النظر والالتفات إليّ، وحظاً من الزيارة، وبراً ولطفاً من الحديث.

(٤) إن هؤلاء الذين ذكرتهم جميعاً -مع علوّ شأنهم وصلتهم القوية بي- أقل منزلة من الصديق الذي يُباح له مني ما يحرم على سواه، والذي تمرح عنده ماشيتي السائمة المرسلة كأنها ملك خالص له.

(٥) إذا نظرت إلى الدنيا فإنما أنظر بعينه، وإذا فاتني شيء فإنني أجده عنده إن قرُبت منه.

(٦) إن اكتفينا بالنظر دون الكلام، فإننا نتساقى كأس المحبة والوداد. وإن صممتنا، فإننا نتناجى، ونتخاطب، بلسان آخر هو لسان الثقة والاطمئنان والحب.

كلاً، وأطاب أخبارهم، حتى إذا سألته عن الصديق، قال: ما له هَجَيْرِي سواك^(١)، إن عبَّرَ فباسمك يستقل، وإن تنفس فبذكرك يقطع، وإذا أوى إلى ندوة الحي فبلسانك ينشر، وجودك يذكر.

لا يمرُّ بمعهد لك إلا حيَّاهُ، ولا بمكان حلَّةٍ معك إلا تبوأه^(٢).

فقلت له: كُفَّ قليلاً فقد أَجَّجْتَ في صدري ناراً كانت طافئة، وأبدت مني صباية كانت خافية. وما أراني متمتعاً بالعيش دون أن أشخص إليه^(٣) غير مبالٍ بهذه الميرة والغيرة التي خرجت من جرَّاهما^(٤).

قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلى حيه، وترك ما كان فيه مُسْتَعْرًا^(٥).

قلت لأبي حامد: ما أفصح هذا اللفظ، وما أرق هذا الحديث؛ لكنني أنكرت قوله: «جواد راكض».

قال: أراد «ذو ركض»، ومثل هذا يندر من كلامهم.

طوى الكشح عمرو للصدِّيق على حقد وغنى له من شدة الكرب والوجد^(٦)
ألا يا صبا نجد، متى هَجَّت من نجد فقد زادني مَسْرَاك وجدًا على وجد^(٧)

(١) هَجَيْرِي: دأْبُ وشَأْنُ.

(٢) لا يمرُّ بمكان معروف لك إلا حيَّاهُ وعظَّمه، أو بمحلَّة حلَّ بها معك إلا اتخذها محلَّةً وأقام بها، شغفًا بك وجبًا لكل آثارك.

(٣) أشخصُ إليه: أذهب إليه.

(٤) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان. الغيرةُ: الدِّية، والميرة.

(٥) مُسْتَعْرًا: مُتَمَكِّنًا مُتَمَهِّلًا. مُسْقَرًا: مُلَازِمًا.

(٦) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو أقصر الأضلاع وآخرها، وهو من لدن السَّرة إلى المتن. والمقصود أنه نَفَرَ منه وعاداه.

(٧) الصَّبَا: ريح مهبها من مطلع الثُّربا إلى بنات نعش.

يسأل الشاعر الريح الواردة من «نجد»: متى كان مَسْرَاكِ من «نجد»، فقد هَجَّت فيَّ أشواقًا، وأثَّرت حنينًا جديدًا إلى حيني القديم المُقيم.

أما في صروف الدهر أن ترجع النوى؟ بلى، وبذلك القرب يوماً من البعد^(١)
وسمعت أبا دلف الخزر جي يقول: أنا أُلوم الشاعر الذي يقول:
والله لا كنتَ في حسابي إلا إذا كنتَ في حسابك
فإن تزرني أزرك، أو إن تقف ببابي، أقف ببابك^(٢)
وكان يقول: ما هذه الغلظة والفضاعة؟ وما هذه المكايسة والمصادقة؟ أفليس لو
قابلك صاحبك بمثل هذا، وقف الأمر بينكما، وانتكث^(٣) حبل المودة عنكما، ودنت
الشحناء في طيِّ حالكما؟
وكتب أبو النفيس إلى صاحب له كان يغشاه كثيراً، وبيأته طويلاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليس ينبغي -أبقاك الله- أن تغضب على صديقك إذا نصح لك في جليلك ودقيقك،
بل الأقمّن بك، والأخلق لك، أن تتقبل ما يقوله، وتبدي البشاشة في وجهه، وتشكره
عليه حتى يزيدك في كل حال ما يجملك، ويكبتُ عدوك. والصديق اليوم قليل،
والنصح أقل. ولن يرتبط الصديق -إذا وُجد- بمثل الثقة به، والأخذ بهديه، والمصير
إلى رأيه^(٤)، والكُون معه^(٥) في سرائره وضرائه. فمتى ظفرت بهذا الموصوف، فاعلم
بأن جدك قد سَعِدَ، ونجمك قد صَعِدَ، وعدوك قد بَعُدَ، والسلام.

(١) أليس في الأقدار أن نعود إلى ديار أحبابنا يوماً، ونستبدل بهذا البعاد عنهم القرب والأنس بهم؟
(٢) إنك لن تكون يوماً في بالي إلا إذا كنت أنا أيضاً في بالك، ولن أزورك حتى تزورني، أما إن هجرتني فإني
كذلك أهجرك، وإن وقفت خارج داري فإني أيضاً واقف لك خارج دارك.
(٣) انتكث حبل المودة: انتقض، وانحلَّ إترامه.
يقول: إنه لو عاملك صديقك بمثل الغلظة والفضاظة اللتين تعامله بهما، لانتَقَعَ حبل المودة والإخاء بينكما،
ولتسرَّبتَ البغضاء إلى قلب كل منكما.
(٤) المصيرُ إلى رأيه: أي أن تتَّبِعَ رأيه، وتصير إليه.
(٥) الكُونُ معه: أي أن تكون معه، وإلى جانبه.

وكان الصديق يزور الصديق لشرب المدام، وعزف القيان^(١)
فصار الصديق يزور الصديق لبث الهموم، وشكوى الزمان^(٢)
وقال آخر:

أَتَطْلُبُ صَاحِبًا لَا عَيْبَ فِيهِ وَأَيُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ؟^(٣)
قال معاوية بن أبي سفيان: أكلتُ الطعام حتى لم أجد طعمه، وركبت الدوابَّ حتى
استرحت إلى المشي، ونكحت الحرائر والإماء حتى ما أبالي وضعتُ ذكري في فرج
أو حائط، وما بقي من لذتي إلا جليسٌ أطرح بيني وبينه الحشمة.

وواثق باعتقادي ليس يُنصفني إذا تزايدتُ رفقًا، زادُ عُدوانًا^(٤)
أضربُ بي حُسْنُ خُلُقِي عندَ عَشْرَتِهِ وَرَبَّمَا ضَرَّ حُسْنُ الْخُلُقِ أَحْيَانًا^(٥)

وأنشد العطافي - فيما رواه لنا المرزباني عن ابن عمر وعنه:

عُنْفُ الْعِتَابِ مَلَجَةٌ فَتَوَقَّ مِنْ عَنَفِ الْعِتَابِ^(٦)
وَاسْتَبِقْ خُلَّةً مِنْ يَلُو مُ، فَذَاكَ أَدْنَى لِلْإِيَابِ^(٧)

(١) لقد كان الصديق - فيما مضى من الزمان - يزور صديقه؛ ليشرب معه المدام التي تذهب بأحزانهما، وليسمع
معه غناء الإماء الحسان، فيكون مجلسهما مجلس طرب وسرور.

(٢) أما اليوم، فقد تبدلت الحال، وتغيرت الأيام، فصار الصديق يزور صديقه ليشكو إليه همومه وما يبتليه به زمانه
من متاعب وآلام! فأين اليوم من أمس؟ وأين الحزن والشجن، من المرح والفرح؟

(٣) أتريد صاحبًا خاليًا من كل العيوب؟ وَمَنْ مِنَ النَّاسِ قَدْ خَلَا مِنَ الْعُيُوبِ؟
ومَنْ ذا الذي تُرْضَى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معايئه

(٤) لي صديق واثق من صحة ودي، ومن إخلاصي وصفاء إخائي، ومع هذا فإنه لا يُنصفني، ولا يُبادلني ودًا بودًا!
فكلما ازدادت رفقًا وبرًا به وإخلاصًا له، ازداد هو عداوة لي وعُدوانًا عليّ.

(٥) وما أضربُ بي عنده، وما جرأه عليّ، إلا لِيْنُ أخلاقي، وأحيانًا يكون لِيْنُ الأخلاق مُؤدِيًا إلى الإضرار بصاحبه
وإلحاق الأذى به.

(٦) إن شدة اللوم تَمَادٍ في الخصومة، وعناد وإلحاح فيها. فتجنب اللوم الشديد، وكن فيه رفقًا لِيْنًا.

(٧) وأبقى على صداقة لاثميك، بتقبُّل لؤمهم، وترك الغضب منهم، فذلك يُقَرِّب مسافة الخُلْف بينك وبينهم،
ويُدْئِي زمن العودة إلى الإخاء والمحبة.

واصفح عن الأمر الذي علّته هتْكُ الحجاب^(١)

وقال آخر:

كفى حزنًا أن لا صديق، ولا أخ
وإلا التوى، أو ظن أنك دونه
أفاد غنى، إلا تداخله كبر^(٢)
وتلك التي جلت، فما عندها صبر^(٣)
فلا زاد فوق القوت مثقال ذرة
صديق، ولا أوفى على عُسرهِ يُسر^(٤)
وما ذاك إلا رغبة في إخائه
وإلا حذارًا أن يميل به الغدر^(٥)
ومن صحب الأيام عاتب صاحبًا
وحالف عُذالًا، وأدبه الدهر^(٦)

وقال امرؤ القيس:

وجليل قد أفارقهُ ثم لا أبكي على أثره^(٧)

وقال آخر:

لا مرحبًا بوصال ذي ملقٍ تكدي مودّته، ولا تُجدي^(٨)

(١) واغفر لإخوانك ما قد يبدُر منهم من مَسْأَآت، ربما كان مآثها أنهم يرفعون الكلفة بينك وبينهم، ولا يجدون حرجًا في أن يتبسّطوا معك في قولهم وفعلهم.

(٢) يكفي لأن يحزن الإنسان ويغتم، أنه لا يجد صديقًا أو أخًا له أصاب ثراءً وغنى، إلا امتلأ كبرًا، وصعر خدّه لإخوانه. وليس هذا من كرم الخلق في شيء، فالكرام - وحدهم - هم الثابتون على الودّ، الحافظون حقوق الصديق في كل حالاتهم. وفي هذا يقول الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا، ذكروا من كان يألفهم في المواطن الخشن

(٣) وإلا تتأقّل وتعظم، واعتبرك أقلّ منه شأنًا، وتلك هي أسوأ السيئات، فلا تحتمل صبرًا أو صفحًا.

(٤) ولو تأملت لوجدت أن الصديق لا يغني صديقه، ولا يزيد من قوته و من رزقه مثقال ذرة، ولا ينفعه يسر الآخرين إن كان هو مُعسرًا.

(٥) وما احتمال الصديق لسيئات صديقه؛ إلا لأنه راغب في استدامة صداقته، واستبقاء مودته، وخوفًا من أن يغدر به ويخونه.

(٦) ومن جرّب الأيام، وصحب الزمان، وعرف حلوه ومرّه، فإنه يعاتب الصاحب، ويحالف اللائم، ويتنفع بتجارب الدهر وعظاته.

(٧) قد أفارق عظيمًا من الأصدقاء، فلا أبكيه ولا أحزن لفراقه.

(٨) لا أرحّب بوصال منافقٍ مُراءٍ، ليس في مودته خير ولا جدوى.

وإذا الصديق ذممتُ خِلَّتُهُ صَيَّرْتُ قطع حباله وَكُحْدِي^(١)

حتى أرى خِلاً يعاشرني بمودة أَطْرَى من الوردِ^(٢)

وقال آخر:

وصلتُك لما كان ودُّك خالِصاً وأعرضتُ لما صار نَهَباً مُقَسِّمًا^(٣)

ولن يلبث الحوضُ الوثيقُ بناؤه - على كثرة الوردِ - أن يَتَهَدَّمًا^(٤)

وقال آخر:

ليهنتُك بُغْضٌ في الصديق وَظَنَّةٌ تحدُّثُك الشيءَ الذي أنت كاذِبُهُ^(٥)

وكتب عبد الله بن المعتز إلى صديق له: قد أعدت ذكر تصحيح المودة وإخلاص الموالاة، بعد أن أكدهما الله لك مني ومنك عندي، وحللت أعلى المراتب من قلبي، وحُزَّتْ أَجْزَلُ الحظوظ من ودِّي، وخاطبك بذلك ضميري، وظهر شاهدُهُ من فعلي^(٦).

فلا تُزْرِينَ علي ما بيننا بالاستزادة بما لا مزيد فيه، والتذكير بما لا يُنسى، والتجديد

(١) وإذا لم أجد في الصديق إلا صداقة زائفة غير حميدة، جعلتُ همِّي وقصدي في أن أقطع حبل مودته، وأصرم ما بيني وبينه من علاقة.

(٢) وأظن هكذا مع كل ذوي الخلال الذميمة، حتى ألقى صديقاً يصادقني على أساس من مودة جميلة طيبة، نافعة، كأنها غصن الورد الناعم.

(٣) كنت أصلُّك عندما كانت مودتك خالصة لي وحدي لا يشركني فيها أحد، فلما صارت نهباً مقسماً بين الكثيرين، أعرضتُ عنك وهجرتُك.

(٤) فإن الحوض - وإن كان قوياً متيناً - لا يمكث طويلاً حتى يتصدع ويتهدم إذا كثرت وراثة الذين يردونه ليستقوا منه.

(٥) مما يُريحك ويُرضيك في بغضك للصديق وكرهيتك له، أن تعلم أنه يكذبك الحديث، كما تفعل أنت تماماً مع أصدقائك!

(٦) إنك تُعيد القول في تصحيح المودة وإصلاحها، بعد أن صارت وثيقة مؤكدة، وبعد أن نزلت أعظم منزلة في قلبي، وحصلت على أعظم نصيب من وداي، وحدّثك بهذا ضميري، ودلّلت عليه الدلائل من أعمالي، ومن سيرتي معك.

لما لا يَخْلُقُ، والوصف لما قد عُرِفَ^(١)؛ حتى كأنَّ الإخاءَ مُعتَلٍّ، وعقد الوصل مُنحلٌّ، والثقة لم تقع، والهجر متوقَّع، وسوء الظن يَفْري وَيُدَّعِ^(٢).

وقد ورد: أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون بغيضَكَ يَوْمًا ما، وأَبْغَضُ بغيضِكَ هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون حبيبَكَ يَوْمًا ما^(٣).

وكتب آخر: أنا والله الوليُّ المخلص، والوَأْدُ المصحح. وَمَنْ إذا شدَّ عقدة وثَّقَها، وإذا عقد مودة صَدَّقَها، والمُمَازِقُ أخو المنافق، والشاهد هَدَفٌ للغائب، والرجل يعرف موقع رأيه إذا مال ووالى، وإذا انحرف وعادى، وإذا اجْتَنَّبَ واجْتَبَى^(٤). وحركات الإنسان ملحوظة، وأعماله محفوظة، وتصرفه بين وليٍّ مُشفق، وعدوٍّ مطرق، وكلُّ يرصُّده وينقُده، وللسانهِ فَلَاتَات، ولقلبه هَفَوَات^(٥).

وقال بعض البلغاء: ليس تَكْمُلُ محاسن الصفح إلا بالإضراب عن مذلة التوبيخ؛ فإن التائب أوجع وقعًا في وجه الكريم من وقع الضرب في بدن اللئيم^(٦).

وقال أعرابي: الموبِّخ - بعد العفو - أولى بالتوبيخ؛ لأنه أفسد النعمة بالتذكير، وقَبَّحَ الصفح بالتعير.

(١) وهذا الذي تفعله امتهان للعلاقة التي بيننا وتحقير لها؛ كأنك تطلب الزيادة في أمر لا يحتمل الزيادة! وتذكرني بشيء لا يمكن أن أنساه! وتجدد ما يستحيل أن يبلى! وتصف ما هو معروف لي!

(٢) وهذا قد يوحي بأن الإخاء الذي بيننا سقيم، والصلة غير وثيقة، والثقة غير قائمة، والهجر والقطيعة أمران مُتَظَرَّان ومُتَوَقَّعان، وسوء الظن يُتَمَطَّع قلوبنا ويدفعها دفعًا.

(٣) اجعل حبك لحبيبك رفيقًا هينًا؛ فعسى أن ينقلب عدوًّا لك، واجعل عداوتك لعدوك رفيقة هينة؛ فعسى أن يتحول صديقًا لك.

(٤) إن الإنسان ليعلم آثار آرائه في أحوال متعددة: يعلمها إذا أحبَّ وصادق، ويعلمها إذا خاصم وعادى، ويعلمها إذا جانب، وإذا اصطفى واختار، وإن كلاً من هذه الآراء سيكون له وقع خاص يعرفه المرء من موقف هؤلاء الذين أحَبَّهُم أو عاداهم أو اصطفاهم منه.

(٥) فهم يرصُّدونه ويرقُبونه، ثم تند من ألسنتهم كلمات تنبئ بما يحسون نحوه، وما يكتون له من حب أو بُغْض.

(٦) إن العفو لا يقع من نفس المعفو عنه موقعًا حسنًا إلا إذا خلا من التائب والتوبيخ؛ لأن التائب يؤلم الأحرار بأكثر مما يؤلم الضربُ أبدان اللئام.

وقال سهل بن هارون: العفو الذي يقوم مقام العتق، ما سلم من تعداد السقطات، وخلص من تذكار الزلات^(١).

وقال رجل للفضل بن سهل ذي الرياستين: أنت أحق من تغمد هذه الفرطة، واغتفر هذه السقطة^(٢).

وقال أعرابي: الودود من عذر أخاه، وآثره على هواه.

وكتب النصير إلى صديق له: سقيًا لدهرٍ لما خلا لنا، خلا منا. ولما تصدَّى لنا، تولَّى عنا. تلك أحق الأيام بالذكرى^(٣).

وقال الأحوص المدني: اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودك، ومن الاسترسال حتى تجد له مستحقًا^(٤).

وقال أعرابي: إذا جاد لك أخوك بأكثره، فتجاف له عن أيسره^(٥).

وقال آخر: الحرُّ يؤثر كرم الاستبقاء، على لؤم الاستقصاء^(٦).

وكتب الجراحى إلى صديق له: حرَّسني الله من الشك في إخلاصك، وأعاذني من

(١) وإن العفو الذي يرتقي إلى مرتبة عتق العبيد وإخراجهم من الرق وإكسابهم الحرية، لهو العفو الذي يخلو من ذكر أخطاء المعفو عنه وتعداد هفواته وسقطاته، فإن هذا الذكر يُبطل العفو، كما تُبطل الصدقات باليمن والأذى.

(٢) أنت أجدر الناس بستر وتغطية هذا التقصير والإهمال، وباغتفار هذا الخطأ.

(٣) سقيًا لدهرٍ: دُعاء له. تصدَّى لنا: تعرَّض لنا.

يدعو للزمن الذي عندما انفرد بنا، وفرغ لصب ويلاته علينا، كنا قد فارقناه فلم ينل منا نائلًا! ولما بدأ يتعرَّض لنا، تولَّى وذهب عنا فلم يُصبنا بشيء! إنه لزمن جدير بالذكر.

(٤) الأُنس: ضد الوحشة، والإلف، وسكون القلب، وعدم النفور.

اجعل إلفك وسكون قلبك آخر شيء تبذله من المودة، ولا تسترسل في بذل هذا الإلف حتى تلقى مستحقًا له، جديرًا به.

(٥) إن بذل لك صاحبك الكثير مما عنده، فتَنَحَّ عن السير ودَّعه له.

(٦) إن الرجل الحر يفضل أن يعفو عن زلات أخيه استبقاءً لمودته، على أن يستقصي، ويبحث جاهدًا عن عيوبه وزلاته، فلا تدوم المودة بينها.

سوء التوكل عليك، وأجارني مما يُوحش منك ويُباعد عنك.

وقال النصير لصاحب له: أرجو أن يكون فيما لنا عندك، دليل على ما عندنا لك، وإن كنت بالفضل أولى، وبالمكرمة أخرى^(١).

وأخبرنا علي بن عيسى، قال: أنبأنا ابن دريد، قال: أنشدنا عبد الرحمن عن عمه الأصمعي، قال: وأظنها لابن قيس الرقيات:

لا يُعجبَنَّكَ صاحبٌ حتى تَبَيَّنَ ما طِبَاعُهُ^(٢)
 ماذا يَضُنُّ به عليـ لك، وما وجود به اتِّسَاعُهُ^(٣)
 أو ما الذي يَقْوَى عليـ هـ، وما يضيق به ذِرَاعُهُ^(٤)
 وإذا الزمان رمى صَفَا تَكَ بالحوادث، ما دِفَاعُهُ^(٥)
 فهناك تعرف ما ارتفا عُ هوى أخيك، وما اتِّسَاعُهُ^(٦)

وقال آخر:

فَمَنْ يَكْ لا يدوم له وصالٌ وفيه - حين يغترب - انقلابٌ^(٧)
 فعهدي دائم لهُم، وودي على حالٍ، إذا شهدوا وغابوا^(٨)

(١) أرجو أن يكون فيما يحمله قلبك لنا، دليلاً على ما تحمله قلوبنا لك، وإن كنت أولى منا بالفضل، وأجدر منا بالمكارم.

(٢) لا تُعَجَّبْ بإنسان قبل أن تتبيَّن أخلاقه، وتوضح لك التجارب طباعه.
 لا تَمْدَحَنَّ امرأً حتى تُجَرِّبَهُ ولا تَذُمَّنَّه من غير تَجَرِّيبٍ

(٣) ومن قبل أن تعرف إلى أي مدى يبخل عليك، وإلى أي مدى يوجد.

(٤) ومن قبل أن تعرف مبلغ قوّته وقدرته على عونك عندما تحتاج إلى العون، ومبلغ ضعفه وقصوره.

(٥) ومن قبل أن تعلم مقدار دفاعه عنك، ووقوفه إلى جانبك عندما يرمي الدهر صخرتك الصلدة الضخمة يريد تفتيتها وتكسيرها.

(٦) إذا تبيَّنت ذلك كله فستعرف من هو صاحبك؟، وما مدى سموّ أخلاقه أو انخفاضها.

(٧) إن كان بعض الصحاب لا تبقى له مودة، وإذا فارقك واغترب عنك انقلب عدواً لك.

(٨) فإن مودتي لأصحابي باقية ثابتة، وهي على حال واحدة من الصفاء والإخلاص، سواء كانوا حاضرين أو كانوا غائبين.

وأنشد الأصمعي، ولم يُسمِّ قائله:

تُبدي لك العين ما في نفس صاحبها من الشَّناءة أو ودٍّ، إذا كانا^(١)
 إن البغيض له عين يَصُدُّ بها لا يستطيع لها في الصدر كتماناً^(٢)
 وعين ذي الودِّ ما تنفكَّ مقبلةً ترى لها محجراً بشاً وإنساناً^(٣)
 والعين تنطق، والأفواه صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلب تبياناً^(٤)
 قال أبو هاشم الحراني: ومن طباع الكرم وسجاياه، رعاية اللقاء الواحدة، وشكر
 الكلمة الحسنة الطيبة، والمكافأة بجزيل الفائدة، وأن لا يوجد عند عرض الحاجة
 مستعملاً سوم عالة^(٥).

وأنشدنا ابن كعب لعبد الله بن معاوية:

العهدُ عهدان: فعهدُ امرئٍ يأنف أن يغدر أو ينقضاً^(٦)
 وعهدُ ذي لونين مَلالَةٍ يوشك - إن ودَّك - أن يُغضاً^(٧)
 إن لم تزره، قال: قد ملّني وبالحرى - إن زرت - أن يُعرضاً^(٨)

(١) إن عَيْنَ صاحبك تُظهر لك ما ينطوي عليه قلبه من البغض والعداوة، أو من الود والمحبّة إن وُجدَ الودّ،
 ووُجدت المحبة.

والنفس تعلم من عيني مُحدثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها
 (٢) إن العدو له عين يُعرض بها عنك، ويميل عن محبتك، وهي تُنبئ عن ذلك صادقةً أمينةً فيما تُنبئ، ولا يستطيع
 صاحبها أن يجعلها تكتّم ما في صدره وتُخفيه.

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر!
 (٣) أما عين الصديق فإنها مُقبلة عليك ناظرة إليك دائماً، ترى محجراً - وهو حيث يقع عليه النقاب - بشاً
 ضاحكاً، كما ترى لها إنساناً - وإنسان العين هو المثال الذي يرى في سواد العين - تراه مبتسماً مسروراً مما
 يدلّ على الإخلاص والودّ.

(٤) إن العين لتنطق أحياناً والألسنة صامتة، وإنها لذاتُ تعبير يُبين لك دخائل النفوس وخفاياها.
 (٥) سوم عالة: مرور نعمة، أي ألا يفرّ من ذوي الحاجات - عندما يطلبون إليه حاجة - فرار النعمة.
 (٦) الموثق والذمة نوعان، الأول موثق امرئ يستنكف أن يخون وأن يخفر العهد.
 (٧) والثاني موثق ذي الوجهين سريع الملل ونكث العهد، لا يلبث أن يخونك بعد زمن وجيز من صُحبتك.
 (٨) إن أنت لم تزره، قال: إنك ملّلته وسئمّت صحبته. وإن زرت، أعرض وصدّ عنك.

شيمته مثل الخضاب الذي بينا تراه قانيًا، إذ نَصَا^(١)

قال العباس بن الحسن العلوي لما مات الزُّبيري: رحم الله أبا بكر، فقدّته، فما تمسّكتُ بعده من أخ بعروة إلا تخرمت في يدي^(٢).

وعزّى يزيد بن جرير آخر، فقال: إني لم آتِكَ شاكًا في عزمك، ولا زائدًا في علمك، ولكنه حق الصديق على الصديق. فإن استطعت أن تسبق السُّلوة بالصبر، فافعل^(٣).

وكتب عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي إلى صديق له: أما بعد، فمثل إعظامي إياك، دعا إلى الانقباض عنك. ومثل ثقتي بك، دعا إلى الانبساط إليك، فلما تكافأ هذان في نفسي كان أملكُهما بي، وأولاهما بالأثرة عندي أقربهما إلى موافقتك، وأوقعهما بمحبتك^(٤).

فعلمت أن أسرَّ إخوانك لك أفزعهم عند الملمات إليك، وأوثقهم عند حوادث الأمور بك، ثم شفع ذلك عندي ما يدعو إليه المرء نفسه، ويُنازعه نحوه من الطلب، ويثقل عليه المؤونة، فيدمن الإمساك^(٥).

وكتب غسان بن عبد الحميد المدني إلى جعفر بن سليمان الهاشمي يعاتبه: بلغني أن غاشًا ظالمًا أتاك بأمر لم أكن له أهلاً، ولم تكن بقبوله خليقًا؛ لأنني لم أكن بأشباهه

(١) له طبيعة متقلبة متغيّرة تُشبه طبيعة الخضاب الذي يُخضَّب به - كالحِثَاء ونحوه - بينما تراه شديد الحمرة، إذا بك تراه قد ذهب لونه!

(٢) ما تمسكت بعده بعروة أثق بها، وأعوّل عليها، إلا رأيتها تشققت في يدي.

(٣) إن قدرت أن تسبق نسيان المصيبة والسلوة عنها - اللذين يأتيان مع مرور الزمن - بالصبر عليها، فافعل؛ فإن الصبر خيرٌ وأولى.

(٤) إن شدة إجلائي لك تردّني عن زيارتك، ولكنّ ثقتي بذكّك تدفعني إليك. فلما تساوى الأمران - الردّ والدفع - في نفسي، كان أقومهما لديّ، وأفضلهما عندي، هو أدناهما إلى موافقتك وأقربهما إلى هواك.

(٥) إن شدَّ إخوانك لك جعلهم يستغيثون بك عند وقوع النوائب، ويرتبطون بك عند حلول النكبات. وزاد هذا ما يقوم في النفس عادة من التردد عند الطلب من الغير، وما يثقل عليها ويشتدّ حين تسأل الآخرين شيئًا، فتُمسِكُ عن الطلب اتقاء هذه المشقة.

معروفاً، ولم تكن على استماع مثله مخوفاً، فوجد له فيك مساعداً، وعندك مُستَقَرّاً^(١).

وكنت أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك، في حصن حصين، ومحل مكين لا تناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المفترين^(٢)، وذلك أن الكاذب كان بالتهمة عليّ في منزلتي وحُرْمتي، أحق مني بالتهمة على رأيي وخليقي^(٣). وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي، أحق منه بالتصديق في عَظِيهِتِهِ^(٤) إياي، فإن الأخ المخبور أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور^(٥).

وإذا كان تحافظُ الإخوان إنما هو مُعَلَّقٌ بأيدي السفهاء إذا شاءوا سَعَوْا فَقَبِلَ قولهم، فكيف تبقى على ذلك أخوة؟ أو ترعى حُرْمَةً؟ أو يصلح عليه قلب؟ أو يسلم معه صبر^(٦)؟

قال سهل بن هارون:

وما العيش إلا أن تجود بنائل وإلا لقاء الأخ بالخلق العالي^(٧)

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى الحسن بن وهب:

لَعَمْرُكَ ما عيشةٌ رَغْدَةٌ لديّ - إذا غَبَّتْ - بالراضية^(٨)

(١) علمت أن خائناً غير مخلص في نُصْحِهِ، نسب إليّ عندك أمراً لستُ خليقاً به، ولست أنت خليقاً بقبوله منه؛ لأنني غير معروف بارتكاب مثل هذا الأمر، ولأنك لا يُخْشَى منك أن تستمع لمثل هذه الأقاويل. ولكن هذا الإفك وجد عندك مدخلاً سهلاً، وموضعاً يستقر فيه.

(٢) وكنت أعتقد أن أقدار أصحابك عندك، وثقتك بهم، في مكان حصين قوي لا يبلغه إفك الأفاكين، ولا تصل إليه أكاذيب المفترين.

(٣) لأن هذا الخائن الذي نسب إليّ ما نسب، هو أحق مني بالتهمة، وأولى بالكذب.

(٤) عَضَهُ الرجل عَضْهاً وَعَضْهاً وعَضِيته: كذب ونَمَّ وجاء بالإفك والبهتان.

(٥) ولأنني أولى بثقتك من هذا الذي يتهم وفائي، وأجدر منه بالتصديق في إفكه وبهتانه عليّ؛ لأن صاحب الذي اِمتَحَنَتْهُ وَجَرَّتْهُ، أحق بالثقة من صاحب الكذب والزور والبهتان.

(٦) وإن كان حرصُ الإخوان، وحفظهم للمودة بينهم، رَهْناً بإفك الأفاكين الذين يسعون بالفساد بين الإخوان فتَقَبَّلُ أقوالهم، فكيف تدوم صداقة بين الأصدقاء؟ وكيف تُحَفِظُ الحُرُمَاتُ والعهودُ بينهم؟

(٧) وما الحياة إلا أن تهب الأعطيات، وإلا أن يلقي الإخوان بعضهم بعضاً على أساس من الخلق الكريم.

(٨) وحقك إن الحياة لا تكون راضية إذا غَبَّتْ عني، مهما كانت واسعة طيبة.

وإني إلى وجهك المستنير — سرّ في ظُلْمَةِ الليلة الداجية^(١)
 لأشوق من مُدَنِّفٍ خائفٍ لقاءَ الحِمامِ، إلى العافية^(٢)
 قيل لأبي زيد الكلابي: إنك - فيما نراك - تُداجي إخوانك كثيرًا، وهذا خلق أنت
 عالٍ به^(٣)؟

قال: لأن أداجيهم مستديمًا لما بيني وبينهم، أحب إليّ من أن أدعَ المداجاة التي
 أملكها، ولا أجد المصافاة التي قد فقدتها^(٤).
 وسمعت ابن كعب الأنصاري ينشد كثيرًا:

يا أخًا كان يُرهَبُ الدهر — سرّ من ذكرى له عند نائبات الحقوق^(٥)
 كنت تحتلّ حَبَّةَ القلب من قل — بي، وتجري مَجْرَى دمي في عروقي^(٦)
 كنت مني مكان بعضي من بع — ضي، فأصبحت في مدى العُيُوق^(٧)
 ما قذى عينك التي كنت ترعا — ني بها مرة وأنت صديقي؟^(٨)
 أم بَدَت حاجة إليك أحلّت — ني محل البعيد منك، السحيق؟^(٩)
 صرّت تُشْري إذا التحفّت بثوبي — وتُحوّي إذا سلكت، طريقي^(١٠)
 سمعت علي بن القاسم الكاتب يقول: قلت لأبي الفضل - يعني ابن العميد -: ما

(١) وإني إلى وجهك المضيء في ظلام الليلة المظلمة.
 (٢) لأشدّ اشتياقًا إلى السلامة والعافية من مريض ثقل عليه المرض حتى دنا من الموت.
 (٣) إنك - فيما نشهده منك - تداري إخوانك، وتستتر عداوتهم، وتلك صفة معروفة عنك، ظاهرة عليك.
 (٤) لأن أداري إخواني استبقاءً للمودة التي بيني وبينهم، أقرب إلى نفسي من أن أترك المدارة التي أمتلكها، ثم لا
 أجد الإخلاص الذي فقدته!
 (٥) يا أخي الذي كنتُ أخيف به الدهر إذا ما ذكرته عند حلول القضاء.
 (٦) لقد كنتُ تمتلك حَبَّةَ قلبي، وتجري في عروقي مجرى الدم فيها.
 (٧) وكان مكانك مني هو مكان بعض أجزائي من بعضي، قريبًا دانيًا، فصرت اليوم بعيدًا بُعد نجم العُيُوق.
 (٨) ما الذي أعشى عينك وأعماها عني، وبها كنت ترعاني أيام كانت الصداقة قائمة بيني وبينك؟
 (٩) أم إن سبب ذلك هو ظهور حاجة لي عندك، جعلتني منك في مكان سحيق بعيد، كما تفعل الحاجات دائمًا؟
 (١٠) فإن رأيتني سَخِرْتُ بي، وإن سرّت أمامك انقبضت، وتلوّيت، واستدرت.

ينقضي عجبني من إقدامك على الحاجب النيسابوري بعد التصافي الذي كنتما عليه، والمُلح الذي تجتمعان له^(١)، والرَضاع الذي تتراوحان فيه^(٢). والله ما يفصل الناظر بينكما الظالم من المظلوم منكما، وإن إشكال الحال فيكما يدعو إلى سوء الظن بكما، وتوجيه الملامة الشنيعة إليكما^(٣).

فقال: يا أبا الحسن، والله لقد كدت أن أكونه؛ لولا أن الله بسط يدي عليه، وأظفرنني به^(٤).

إنه لما استحال الحال بيني وبينه، أظلم الجوّ في عيني، وعَزَبَ عن رأيي، وَوَجِلْتُ من صَوْلته وجَوْلته^(٥).

وكان - كما علمت - خطيب اللسان، بعيد الغور^(٦)، خفيف الفور^(٧)، يَمْرِي من تَبَجٍّ بحذر^(٨)، ويتلقى جميع أموره بصدر ونحر^(٩). فما هنأني عيش، ولا طاب لي شرب، ولا فارقتي وسواس^(١٠)، حتى كان منه ما كان.

قال: فقلت: هذا لا يشفي غليلي، وإن تعجّبي لَباقٍ أشدَّ مما كان. كيف استحالت

(١) الملح الذي تجتمعان له: المُلحُ: جمع مُلحة «وهي ما حَسُن من الأحاديث واستُملح».

(٢) الرضاع الذي تتراوحان فيه: أي تتداولانه، أنت مرّة، وهو مرّة.

(٣) إن التباس الحال فيكما، يؤدّي إلى سوء الظن بكما جميعاً، وإلى العتب الشديد عليكما؛ لأننا لا ندرى أيكما على حق، وأيكما على باطل.

(٤) لقد أوشكت أن أكون مثله وعلى شاكلته؛ لولا أن الله أنزلني منزلاً يعلو عليه، وحكمني فيه، وأقدرني عليه.

(٥) عَزَبَ عني رأيي: بُعِد، وغاب، وخَفِيَ.

أي إنه لما تغيّرت الحال بيني وبينه وتحوّلت، صارت الدنيا ظلاماً في عيني، وغاب عني رُشدي وصوابي، وخَفْتُ سطوته وجولته وكرّته عليّ.

(٦) بعيد الغور: متعمّق النظر.

(٧) الفور: الوقت الذي لا تأخير فيه، ولا بُطء.

(٨) يَمْرِي من تَبَجٍّ بحذر: يستخرج ويكتشف ما بُعِيه عليه الآخرون بدهاء وحيلة.

(٩) يتلقى جميع أموره بصدر ونحر: صَدَرُهُ صدرًا أي أصاب صدره، ونحره نَحْرًا أي أصاب نحره. والمعنى أنه حَكَم لا يخطئ، وأنه يتلقّى جميع أموره بإتقان وحكمة يُبعدانه عن الخطأ.

(١٠) الوسواس: حديث الشيطان أو حديث النفس بما لا نفع منه ولا خير فيه.

الحال بعد توَّكُّدها وتعهُُّدها؟

قال: طَلَبَ من الحُظوة عند ركن الدولة ما كنتُ أنا قد أفنيت شبابي وعمري وذُخْري له، فلم تسمح نفسي أن أفرج له عنه^(١). ومنازلُ الأولياء عند الملوك محوطة بالغيرة الشديدة، والحمية المشتعلة^(٢)، وليست الغيرة عليها إلا فوق الغيرة على السراري الحظيَّات، وبنات العم الموافقات، وفوق غيرة الضرة من الضرة^(٣).

وإن الذي يعتري الرجال في هذه الأحوال أزيد من الذي يعتري النساء، إلا أن الرجال لا يتواصون بترك هذا الخلق، ولا يغير بعضهم بعضاً باستعماله^(٤).

فقلت له: أفكان يرتقي -لو بقي- إلى أكثر من الحجابة التي أنت مُسلمٌ لها إليه، وغير منازع له في شيء منها^(٥)؟

فقال: ما أسلم صدرك، وأصدأ نصلك. الرجلُ كان يُحدِّث نفسه بالوزارة، ويؤسوس إلى صاحبه بإثارة المال من الوجوه المجهولة. أفكان يجوز لي أن أحلم بهذا في النوم، ثم أتمتع بالعيش في اليقظة؟ لا والله.

وبعد، فأنا -كما قال الشاعر:

ولست مُكلِّفًا -أبدًا- صديقًا معاشرتي على خُلُقٍ مُمضٍ^(٦)

(١) لقد طلب من المكانة والمنزلة عند «ركن الدولة» ما قضيت أيام شبابي، بل طوال عمري في طلبه، وما أنفقت من أجله كل ما ادخرته وخبائثته لوقت الحاجة. فلم تسمح نفسي أن أنزل له عنه، وأتركه له.

(٢) إن مراتب أتباع الملوك موضع غيرة شديدة، كما أنها دائماً موضع اتهام مشتعل متسعر لا يهدأ.

(٣) والغيرة على هذه المراتب فوق الغيرة على الإماء المُكرَّمات عند السلطان، وبنات العم الطيِّعات الموافقات، وفوق غيرة الضرة -وهي زوجة الزوج- من ضررتها، وتلك أشد أنواع الغيرة وأقساها.

(٤) وإن الغيرة التي تملأ صدور الرجال من ذوي المكانة عند السلطان في هذه الأحوال، لأشد وأقسى من غيرة النساء، إلا أنه لم تجر العادة على نهى الرجال عن الغيرة؛ فالأصل أنها ليست في طباعهم، وتكاد تقتصر على النساء.

(٥) أكان يعلو إلى أكثر من أن يكون حاجباً يقف بباب السلطان، وتلك مهنة أنت مُتخلِّل عنها وتاركها له، وراغب عن كل شيء فيها؟

(٦) لست مُلزمًا صديقي أن يصادقني مُكرِّهاً مُضطرّاً على صداقتي التي تؤلمه وتوجعه، فلا إكراه في الصداقة، ولا جدوى منها إن لم تنبع من القلب والضمير.

ولا أن يستقيم على اعوجاج ويغفر بعض أحوالي لبعض^(١)
ولكنني له عبد مطيع على علاته أرضى وأغضى^(٢)
حريز، حين يلمسني صديقي حديد، تحت ضرس رام عضي^(٣)
فإن باشرتني، فإليك أمري وإن باغضتني، فإليك بغضي^(٤)
وكما قال الآخر:

ألم تعلمي يا عصم كيف حفيظتي إذا السر خاضت جانبيه المجارح؟^(٥)
أفر حذر الشر، والشر تاركي وأطعن في أنيابه وهو كالح^(٦)
قلت لعلني بن القاسم: كيف كان يستجيز قتل النفوس^(٧) وهو يتفلسف^(٨)؟

قال: يا هذا، الدين الذي نشره الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، يناق به، ويكذب فيه. والفلسفة التي وضعت على ألسنة قوم مجهولين، لا يجوز أن يناق بها ويكذب فيها؟

إنما كان يتشبع بما يقوله ويدعيه، ويحب أن يكون مبانئاً لهذا السواد الذي هو فيه^(٩).

(١) ولا أطلب إليه أن يستقيم ويعتدل إن كانت طبيعته معوجة، ولا أن يغتفر لي بعض ذنوبي رعاية لبعض مكارمي.
(٢) ولكنني دائماً له كالتابع الذي يطيع متبوعه، فأعماله وأحداثه هي التي تقفني منه المواقف المختلفة، فأرضى إن كانت مرضية، وأغض الطرف عنها إن كانت مسيئة.

(٣) وإن صديقي ليجدني معه كالحرير الناعم إن كانت صداقته لي خالصة صافية، ولكنه يجدني كالحديد الصلب إن كان كالسنن التي تريد تمزيقي وعضي.

(٤) فإن أقبلت علي أيها الصديق وأصفيت لي الوداد، سلمتكم زمام أمري، وكنت معك سهلاً ليناً، ومخلصاً وفياً. وإن أبدت لي البغضاء، فإني عدوك المبغض لك، الراغب عن صداقتك.

(٥) حفيظتي: غضيبي. المجارح: الشقوق، والعيوب.

(٦) ألم تعلمي يا «عصم» كيف يكون مقدار غضيبي، إذا انتهكت أسرارِي، واستباحها الناس، وخاض فيها الخائضون، وعابوها وتنقصوها؟

(٧) كالح: متكسر متعبس. أفر وأهرب حذراً من الشر، وأطعن في أسنانه وهو متكسر عابس سيئ الوجه.

(٨) يستجيز قتل النفوس: يعده جائزاً، ويرتضيه.

(٩) يتفلسف: تفلسف: تعاطى الفلسفة، وتحكم من معنى الحكمة، وتحذق بالشيء.

(٩) كان يتكثر مما يقوله ومما يدعيه، ويحرص على أن يكون ما يقوله مخالفاً لما يقوله عامة الناس من حوله.

وحب الجاه، وحب الرئاسة، وحب المال، مَهَالِكُ الخُلُقِ أَجْمَعِينَ^(١).

نسأل الله تعالى أن يُكَرِّهَ إلينا الدنيا، ويُرَغِّبَنَا فِي التَّقْوَى، وَيَخْتِمَ لَنَا وَلَكَ بِالْحَسَنِ، بِمَنِّهِ وَقُدْرَتِهِ^(٢).

قال شاعر:

عدُوُّ صديقي داخلٌ في عداوتي وإنِّي لِمَنْ وَدَّ الصديقَ صَدُوقٌ^(٣)

أخبرنا أبو السائب القاضي، قال: حدثني أحمد بن أبي طاهر، قال:

سمعت علي بن عبيدة يقول لصديق له: قَسَمَ^(٤) الله لنا من صفحك^(٥) ما يتسع لتقصيرنا، ومن حلمك ما يَرْدَعُ سَخَطَكَ عَنَّا^(٦)، ويعيد ما كان منك لنا، وزَيْنَ أَلْفَتَنَا بمعاودة وصلك واجتماعنا بزيارتك وأيامنا الموحشة لغيبتك برويتك، وسرَّ بقربك القلوب، وبحديثك الأسماع.

قال شاعر:

فَلَا تَلْهُ عَن كَسْبِ وَدِّ الصديقِ وَلَا تَجْعَلَنَّ صديقًا عدوًّا^(٧)

وَلَا تَغْتَرِرْ بِهَدْوٍ امْرئٍ إِذَا هِيجَ، فَارِقَ ذَاكَ الْهُدُوًّا^(٨)

(١) إن حب الوصول إلى أعلى قدر وأرفع منزلة، وحب الإنسان أن يكون رئيسًا يتحكم في مصائر الناس، وحب المال والثراء... تلك هي المهالك التي تُهْلِكُ الناس جميعًا، وسبب كل المتاعب والبلايا التي تلحق بهم.

(٢) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يملأ قلوبنا كراهية لهذه الدنيا وما فيها، ويُحِبَّ إلينا التقوى والصلاح ومخافته سبحانه وتعالى، ويختم حياتنا أحسن وأجمل ختام، بفضله وقدرته.

(٣) من كان عدوًّا لصاحبي فهو عدو لي؛ لأنني على شاكلة صاحبي، أُحِبُّ من يحب، وأُبْغِضُ من يبغض. أما من أُحِبُّ صاحبي وأخلص له الودَّ، فإني صاحب له وصديق صادق المودة.

(٤) قَسَمَ الله لنا: قَدَّرَ لنا.

(٥) صفحك: إغراضك عن ذنوبنا، وتسامحك فيها.

(٦) أي إن الله سبحانه وتعالى قد هَيَّأَ لنا من تسامحك ما يتسع لإهمالنا، كما قَدَّرَ لنا من حلمك وعفوك ما يكفّ غضبك عنا.

(٧) لَا تَغْفُلْ عَن أَنْ تَكْسِبَ مودةَ صاحبك دائمًا، واحذِرْ أَنْ تُحوِّلَ صديقك عدوًّا لك بالإساءة إليه، أو هجره وتقطيع حبال مودته.

(٨) وَلَا يَخْدَعُكَ مَا تَرَاهُ مِنْ هَدْوٍ صاحبك؛ فإنه إِذَا هِيجَ شيءٌ، فَارِقَ ذَلِكَ الْهُدْوِ، وَثَارَ وَغَضِبَ.

وقال آخر:

فبعدك يا شغب اجتويتُ صحابتي ولا حظني الأعداء بالنظر الشرير^(١)
وأبدى لي الشحناء من كان مُخفياً عداوته لما تغيب في القبر^(٢)
وقال آخر:

ولئن كنت لا تصاحب إلا صاحباً لا تزَلْ - ما عاش - نعلهُ^(٣)
لا تراه - ولو جَهِدَت - وأنى بالذي لا يكون يُوجد مثله^(٤)
إنما صاحبي الذي يغفر الذنْب ب، ويكفيه من أخيه أقلُّه^(٥)
وأخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أبو العيْناء، قال: رأيت علي بن عبيدة يعاتب رجلاً، ثم قال في كلامه: العَجَبُ أني أعاتبك، وأنت من أهل القطيعة.
وحدثنا أبو عبيد الله النفري، قال: لما استوزر أبو محمد المهلب سنة أربعين بعد وفاة أبي جعفر الصيمري، كتب إلى أبي الفضل العباس بن الحسين - وكان بينهما تواصل -:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إني - حفظك الله، وحفظني لك، وأمتعك بي، وأمتعني بك - قد بلوتك طول أيام أبي جعفر - قدس الله روحه - فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك^(٦)، حسن الكفاية

(١) لقد كرهتُ أصحابي من بعدك يا «شغب»، وأخذوا ينظرون إليَّ نظر الغضبان بمؤخر أعينهم؛ لما لحظوه عليَّ من جفوة وقطيعة.

(٢) وأبدى العداوة لي من كان يُخفيها عني، وسيظل يخفيها عني إلى أن يموت ويُغيب في قبره.

(٣) إن كنت لا تتخذ صاحباً إلا إذا كان بريئاً من كل خطأ أو زلل.

(٤) فاعلم بأنك لن تجد هذا الصاحب، مهما جَهِدْتَ نفسك وأتعبتها في البحث عنه، ومن لك بهذا الصاحب الفرد الوحيد الذي لا يوجد له نظير أو مثل؟

(٥) إنما الصاحب الحقيقي هو الذي يتسامح، ويغفر الذنوب، وينسى الإساءة، ويكفيه القليل من أصحابه.

(٦) فيما يناط بك: فيما يُعلّق عليك، ويُسنَد عمله إليك.

فيما يُوكِّلُ إليك، كَتُومًا لِلسَّرِّ إِذَا اسْتُحْفِظَتْهُ، حَسَنَ الْمَسَاعِدَةِ فِيمَا يَجْمَلُ بِكَ الْوِفَاقَ عَلَيْهِ^(١).

وقد حدا بي هذا كله على اجْتِبَائِكَ وتقريبك وإِدْنَائِكَ وتقديمك^(٢). وغالب ظني أنك تُعِينَنِي على ذلك بميمون نقيبتك^(٣)، ومأمون ضربيتك^(٤). وجعلت دِعامَةَ هذا كله أَنِّي أَجْرِيكَ مُجْرَى الصَّدِيقِ الَّذِي يَفَاوِضُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيُشَارِكُ فِي الْغَثِّ وَالسَّمِينِ^(٥)، وَيُسْتَنَامُ إِلَيْهِ فِي الشَّهَادَةِ وَالْغَيْبِ^(٦). ولي معك عَيْنَانِ: إِحْدَاهُمَا مَغْضُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مَا سَاءَ نِي مَنكَ، وَالْأُخْرَى مَرْفُوعَةٌ إِلَى كُلِّ مَا سَرَّنِي فِيكَ^(٧).

فَإِنْ كُنْتَ تَجِدُ فِي نَفْسِكَ عَلَى قَوْلِي هَذَا شَاهِدًا صَدُوقًا، وَأَمَارًا نَطُوقًا، فَعَرِّفْنِي؛ لِأَعْلَمَ أَنَّ فِرَاسَتِي لَمْ تُفَلِّ، وَحَدْسِي عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ لَمْ يَمَلِّ^(٨). وَالْحَالُ الَّذِي قَدْ جَدَدَهَا اللَّهُ لِي هِيَ مُحْرُوسَةٌ لَكَ، وَمَفْرُغَةٌ عَلَيْكَ، وَمُسْتَقْلَةٌ بِكَ. فَأَشْرِكْنِي فِيهَا بِخَالِصَةِ الْوَفَاءِ، أَوْ تَفَرَّدْ بِهَا -إِنْ شِئْتَ- بِحَقِيقَةِ الصَّفَاءِ، فَلَكَ الْأَمْنَةُ مِنْ حِيلُولَةِ الْإِعْتِقَادِ، وَالسَّكُونُ إِلَى عَفْوِ الْاجْتِهَادِ^(٩).

(١) أَيِ إِنَّكَ تَحْسِنُ الْمَسَاعِدَةَ وَالْعَوْنَ فِيمَا تَرَى أَنَّ الْأَلْيَقَ بِكَ أَنْ تَوَافِقَ عَلَيْهِ.

(٢) وَقَدْ دَفَعَنِي هَذَا كُلُّهُ إِلَى اصْطِفَائِكَ وَإِدْنَاءِ مَكَانِكَ مِنِّي.

(٣) مَيِّمُونُ نَقِيبَتِكَ: نَفْسُكَ الْمُبَارَكَةُ.

(٤) مَأْمُونُ ضَرْبِيَّتِكَ: طَبِيعَتُكَ وَسَجِيَّتُكَ الْمَأْمُونَةُ.

(٥) الْغَثُّ: الضَّعِيفُ، وَالْهَزِيلُ، الَّذِي ذَهَبَ سَمْنُهُ.

السَّمِينُ: كَثِيرُ اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ. أَيِ يُشَارِكُهُ الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ، وَالشَّرُّ وَالْخَيْرُ.

(٦) أَيِ وَيُسَكَّنُ إِلَيْهِ وَيُسْتَأْنَسُ بِهِ فِي الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ.

(٧) إِنْ لِي مَعَكَ عَيْنَيْنِ: عَيْنًا مُغْلَقَةً مُعْظَمَةٌ عَلَى كُلِّ مَا قَدْ يَسُوءُنِي مَنكَ، وَعَيْنًا مَفْتُوحَةً إِلَى كُلِّ مَا يَسَرَّنِي مِنْ أَعْمَالِكَ.

(٨) إِنْ كُنْتَ تَجِدُ فِي دَاخِلِكَ دَلِيلًا صَادِقًا، وَعَلَامَةً نَاطِقَةً عَلَى مَا أَقُولُ، فَأَخْبِرْنِي؛ لِأَسْتَيْقِنَ أَنَّ اسْتِدْلَالِي بِالْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ مَا زَالَ قَوِيًّا سَلِيمًا، وَأَنْ ظَنِّي وَتَخْمِينِي مَا زَالَ فِي قُدْرَتِهِمَا لَمْ يَمَلَّ وَلَمْ يَضْعُفَا.

(٩) فَلَكَ الْأَمَانُ وَالْإِثْمَانُ مِنْ تَحَوُّلِ الْعَقِيدَةِ وَالرَّأْيِ وَتَغْيِيرِهِمَا، وَلَكَ أَنْ تَرْتَاحَ وَتَسْتَأْنَسَ إِلَى اجْتِهَادِي الَّذِي وَصَلَتْ فِيهِ إِلَى أَقْصَى مَا أُسْتَطِيعُ.

وثقُ بأن الذي خطبته منك إنما أريده لك^(١)، فلا يَقَعَنَّ في وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقًا لنقص، أو لمحِب لنا فيه بابًا إلى الزيادة^(٢).

واكتفِ بهذا القدر الذي دَلَّلْتُكَ عليه، واستقبلْ أمري وأمرِكَ بالذي أرشدتك إليه، وإياك أن تستشير فيه غير نفسك؛ فإنك بِعَرَضٍ حسد يكون عَقْلًا لحظك^(٣).

والله يهديك للحسنى، ويقيني فيك غوائل^(٤) الأعين المرضى، والسلام.

قلت للنفري: فبماذا أجابه؟

قال: مَنْ له بجوابٍ في هذا السَّبَبِ، على هذه الحلاوة إلا أنه استعان بأبي عبد الله، فكتب له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الوزير -أطال الله بقاءه- قد خاطبني بما لو غلِطت في نفسي، وادَّعيت ما لا يليق بي، لكان في ذلك عذري. ولست من أصحاب البراعة فأسهب خاطبًا، أو أخطب مُطنبًا.

وأنا -وإن فاتني هذا بفوت الصناعة- فلن يفوتني إن شاء الله ما يستحق عليَّ من القيام بالخدمة وبذل الطاعة؛ حتى يكون جوابي صادرًا على مذهب الخدم، كما كان ابتداءه صادرًا على مذهب أرباب النعم. وهأنا قد وَكَلْتُ ناظري بلحظه، ووقفت سمعي على لَفْظهِ^(٥)؛ انتظارًا لأمره ونهيه اللذين إذا امتثلت أحدهما وملت عن الآخر،

(١) وكُنْ على يقين بأن ما طلبته منك إنما هو تمامًا ما أحبه لك.

(٢) وبأن ما نحن عليه، هو سواء السبيل، فلا يتطرَّق إليك شيء من الشك بأن عدوًّا يستطيع أن ينقص منه، أو بأن صديقًا يستطيع أن يزيد عليه.

(٣) إنك بِعَرَضٍ حسد يكون عَقْلًا لحظك: أي إنك مُعَرَّضٌ لحسد قد يُمَسِّكُ وَيَحْسِسُ حظك ونصيبك من الخير.

(٤) الغوائل: الدواهي والشُرور والمَهَالِك.

(٥) قد حبسْتُ عيني وحصرْتُها في النظر إلى عينه دون سواها، وكذلك وقفت سمعي وحصرته على الاستماع إلى كلامه دون غيره، فلا أكاد أرى شيئًا سواه، أو أسمع لفظًا غير ما يقول.

ملكتم المنى، وأحرزت الغنى، وكانت شمسي به دائرة وسط السما، وعيشي جاريًا على النعماء والسراء، فلا يبقى لي غمٌ إلا تفرّى، ولا وغمٌ إلا تسرّى، ولا إرادة إلا مبلوغة، ولا بُغية إلا مُدرّكة^(١).

وقد رَفَلت من نعمة الوزير -أدام الله أيامه- في عِطاف من المسرّة، الله أسأل إسباله عليّ مدى الدهر بنفاذ أمره، وجواز خاتمه، وجريان قلمه، وشعاع شمسه، وسلامة نفسه، ودوام أنسه^(٢). وهو يُجيب الداعي إذا أخلص في دعائه، ويعطي السائل سُؤاله إذا صفا ضميره في سؤاله. ولرأى الوزير العُلُوّ في قبول ما جاد به عنده من طاعته، وقابل له دعوته من إجابته إن شاء الله^(٣).

وقال آخر:

أبا يعقوب، صرّت قذّي لعيني وسِترًا بين طرفي والمنام^(٤)
وكنّت على الحوادث لي مُعينًا فصرت مع الحوادث في نظام^(٥)
وكنّت على المصائب لي سلوًا فصرت من المصيبات العظام^(٦)

(١) وكان هذا مني انتظارًا لما يأمر به أو ينهي عنه. وهذا الأمر والنهي منه، إذا أنا استجبت لأحدهما وأنفذته دون الآخر، كان ذلك كافيًا لأن أبلغ كل ما أتمنى، ولأن أنال الغنى والثراء، ولأن تظلّ شمسي ساطعة في كبد السماء لا تخفى ولا تغيب، ولأن تمتلئ حياتي بالنعم والمسرّات، ولأن تنقطع عني الأحزان وتنشقق، وينكشف عني الحقد، ولأن أنال كل ما أريد، وأدرك كل ما أبتغي.

(٢) وقد أطلّت وجرّرت -من نعمة الوزير- أزدية المسرّة، وإنني لأطلبُ إلى الله تعالى أن يُرخيها عليّ طوال الحياة، وذلك بأن يظلّ أمر الوزير نافذًا، وما يضع عليه خاتمه من أوامر ماضيًا مصيبًا لا يعترضه مانع، وأن تدوم شمسه ساطعة مشرقة، ونفسه سالمة من كل أذى، وأن يبقى أنسه وبهجته دائمًا أبدًا.

(٣) والله -جلّت قدرته- يستجيب لدعاء الداعي الذي يخلص في دعائه، ويمنحه ما يطلب إن كان صافي القلب والضمير فيما يطلب. وللوزير الرأي الأعلى في تقبّل طاعتي وإجابتي وامتنالي.

(٤) لقد صرّت -يا أبا يعقوب- بغيضًا إلى نفسي، كالقذّي الذي يسقط في عيني فيؤذيها، أو كالستارة التي تحجب النوم عن عيني.

(٥) ولقد كنت من قبل مساعدًا لي على حوادث الدهر، فصرت اليوم مساعدًا لحوادث الدهر عليّ، كأنك معها في خيط واحد.

(٦) وكنّت تُنسيني مصائب الدهر وتُسليّني عنها، فأصبحت اليوم مصيبة عظمى من مصائب الدهر!

وقال عبدة بن الطبيب:

إن الذين تروُنهم خِلَانكم يشفي صداع رؤوسهم أن تُصرَعوا^(١)
فَصَلَّتْ عداوتُهم على أحلامهم وأبَتْ ضباب صدورهم لا تُنزعُ^(٢)
وقال أبو إسحق السبيعي: ثلاث يُصَفين لك ود أخيك: السلام إذا لقيته، وأن تدعوه
بأحب أسمائه إليه، وألا تماريه.

سمعت العوامي يقول لعلي بن عيسى الوزير: إن الحال بينك وبين أبي مجاهد
صفيقة^(٣)، فما الذي قَرَبه منك؟ وَنَفَقَهُ عليك؟ وأولئك به^(٤)؟

قال: وجدته متواضعًا في علمه، هُشًا في نُسكه^(٥)، كتومًا لسره، حافظًا لمروءته،
شفيقًا على خليفته^(٦)، حسن الحديث في حينه، محمود الصمت في وقته، بعيد القرين
في عصره^(٧). والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة، لكان محبوبًا ومقبولًا.

قال شاعر:

إذا أنا عاتبت المَلُولَ فإنما أُخْطِطُ في جارٍ من الماء أحرُفا!^(٨)
فهَبْهُ ارْزَعَوِي بعد العتاب، ألم تكن مودته طَبْعًا، فصارت تكلُفا؟^(٩)

(١) إن قومًا تحسبونهم أصدقاء أوفياء لكم، هم - في حقيقة الأمر - أعداء لِدَاء لكم، يسرهم ويشفي أوجاع
رؤوسهم أن تصرعكم رُب المَنون.

(٢) أولئك قد زادت عداوتهم وطغت على عقولهم، وأبى الحقد الخفي الكامن في صدورهم أن يُنزعَ منها.

(٣) صفيقة: قوية متينة.

(٤) ما الذي جعله قريبًا من قلبك ومن ودك؟ وما الذي جعل سوقه تروج عندك؟ وما الذي أغراك به، وحببه إليك؟

(٥) إني وجدته متواضعًا لا يشتكر على الناس مع أنه واسع العلم، ووجدته هينًا لينًا في زهده وتعبدته وتقشفه.

(٦) ووجدته رحيماً بالذين يخالطونه ويعاشره، رفيقًا لينًا سهلًا بهم.

(٧) بعيد القرين في عصره: قل أن تجد له نظيرًا في زمانه.

(٨) إن عاتبت الصاحب الكثير المَلَل والسَّام الذي لا يُبْتُ على صحبته، فإنك لن تجد أثرًا لعتابك، كما لو كتبت

أحرُفاً على ماء يجري، فهل أنتَ وابد لكتابتك أثرًا؟

(٩) ولو فرضنا أنه كَفَّ وَرَجَعَ عما يسوءك، وعاد إلى مودتك. أليست هذه المودة مُتَكَلِّفَةً مصنوعة غير طبيعية؟

وهل تبقى مثل هذه المودة على الزمن؟

وقال آخر:

يعاتبكم - يا أم عمرو - مُحِبِّكُمْ ألا: إنما القالي الذي لا يُعَاتِبُ^(١)
وقال آخر:

إذا ما تقضى الود إلا تكاشراً فهجرٌ جميل للفريقين صالح^(٢)
تَلَوْنَتْ ألواناً عليّ كثيرةً وَمَازَجَ عَذْباً من إخائك مالح^(٣)
ولي عنك مستغنى، وفي الأرض مذهبٌ فسيحٌ، ورزق الله غادٍ ورائح^(٤)
لتعلم أني إذ أردت قطيعتي قطعْتُ، وإن سامحت، أني مسامح^(٥)
وقال آخر:

إذا ما المرء لم يُحبِّبك إلا مُغَالِبَ نفسه، سيِّم الغلابا^(٦)
ومن لا يعطٍ إلا في عتابٍ يُخاف يدع به الناس العتابا^(٧)
أخوك أخوك، من تدنو وترجو مودته، وإن دُعِيَ استجابا^(٨)
إذا حاربْتَ، حاربَ من تعادي وزاد سلاحه منك اقترابا^(٩)

- (١) إنما يعتب عليكم - يا أم عمرو - ويلومكم، من يحبونكم، أما من يبغضونكم، فإنهم لا يعتبون عليكم ولا يلومونكم في شيء. يقول أحد الشعراء: أما العتاب فبالأحبة أخلق. ويقول شاعر آخر: ويبقى الود ما بقي العتاب.
(٢) إذا لم يبق من المودة الخالصة إلا مضاحكة لا تنبع من القلب، فخيرٌ منها وأصلح الهجر والقطيعة.
(٣) لقد ظهرت لي بصور وأشكال عديدة، واختلط عذبك بمالحك، وفاسدك بصالحك.
(٤) ولي عنك غناءً، ولي في الأرض نواح فسيحة أذهب إليها، وإن رزق الله ليذهب ويعود، ويمضي ويرجع، غير متوقف على أحد سوى الله الرزاق للجميع.
(٥) وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام الغنى مُتَحَوِّلٌ
(٦) فإن أردت هجري فإني أهجرك. وإن أردت صلتني ومسامحتي فإني واصلك ومُسامحك.
(٧) إذا قهر صاحبك نفسه على مصاحبتك، وأكرهها على مؤاخاتك، فإنه يوماً سيمل هذا القهر، ويسأم هذا الإكراه، ويعود إلى معاداتك.

- كل امرئ راجعٌ يوماً لشيئته وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين
(٧) إن الذي يعطي ويمنح من أثر عتاب أو لوم خوفاً من أن يوجّه الناس إليه العتاب والملامة.
(٨) إن أخاك الحق من تقرب منه، وترغب في مودته وصحبته، وإن دعوته في شدة أو في ملّة، لبأك واستجاب لك، وجاءك مُعِيناً وناصراً.
(٩) وإن حاربْتَ عدوّاً، حاربَ إلى جانبك وكان عدوّاً لأعدائك، واقترب منك بسلاحه وعدته.

يُؤاسي في كراهة كلِّ يومٍ إذا ما مُغْضِلُ الحدثانِ ناباً^(١)
وقال رجل لصاحب له: إنما اشتد غضبي؛ لأن من كان علمه أكثر، كان ذنبه أكبر.
قال: فهلاً جعلت سعة علمي سبيلاً إلى حسن الظن بنزوعي^(٢)، أو إلى أنني غالطُ
في تفريطي، مُخطئٌ لقصدي، غيرُ معاندٍ لك، ولا خزيُّ عليك^(٣)؟

ورأيت الزهيري وقد كتب إلى ابن الأزرَق كتاباً، كتب في آخره هذه الأبيات:

اذهب؛ فلا حاجة لي فيكَ غَطْتُ على عيني مَسَاوِيكَ^(٤)
يا رغبتني فيكَ، بدتْ سَوَاتِي يا سَوَاتِي من رغبتني فيكَ^(٥)
قد كنتُ أرجوك أخالي، فلا أفلح من أمسى يُرَجِّيكَ^(٦)
وقال بعضهم: تركتني معرفة الناس فرداً.

وأنشد آخر:

تَرَكْتَنِي صُحْبَةُ النَّا سِ، وما لي من رفيق^(٧)
لم أجِدْ إشفاق نُدْماً ني كإشفاق الصديق^(٨)

(١) يُعِينُكَ ويعزِّيك في الشدائد التي تلحق بك كل يوم، ويكون عوناً لك إذا حلت بك معضلات وشدائد وحوادث جسام.

(٢) ألا تجعل سعة علمي مؤدبة إلى الظن الحسن بما أميل وأشتاق إليه؟

(٣) خزيٌّ: ذليل، وهينٌ.

(٤) أنا عني، واذهب، فإني غني عنك، وليست بي حاجة إليك، وقد طغت مساوئك وكثرت حتى غطت بصري وحجبته عن رؤية أي شيء فيك سواها.

(٥) إن رغبتني فيكَ أظهرت عورتِي وحاجتي، فيالعورتي التي انكشفت للناس من رغبتني فيكَ، ومحيتي لك!

(٦) قد كنت أمل أن أتخذك لي أخاً ومعيناً، وكنت في ذلك مخطئاً، فلا أخوة فيكَ ولا معونة، وقد خاب من أمل فيكَ خيراً، وارْتَجَى من ورائك مودة أو نفعاً.

(٧) لقد صاحبت الناس طويلاً، فوجدت في النهاية أن البُعد عنهم وعدم اتخاذ أحد منهم رفيقاً، خير وأولى.

(٨) لم أجِدْ إشفاق ندمائي الذين ينادمونني على الشراب، كإشفاق أصدقائي الذين يُخلصون لي الود، فإن الندماء إخلاصهم خداعٌ زائل، والأصدقاء إخلاصهم باقٍ ثابت.

قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق، وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعُتب والرضى والمَدَق^(١) والإخلاص والرتاء^(٢) والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاستكانة والاحتجاج والاعتذار.

ولو أمكن، لكان تأليف ذلك كله أتمّ مما هو عليه، وأحرى إلى الغاية في ضمّ الشيء إلى شكله، وصبّه على قلبه فكان رُونَقَه^(٣) أْبَيّنَ، ورفيقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم.

ولو أردنا أيضاً أن نجمع ما قاله كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه، لكان ذلك عسراً بل متعذراً؛ فإن أنفاس الناس في هذا الباب طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة^(٤)؛ لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم^(٥) أو صاحب أو رفيق أو سكن^(٦) أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولي^(٧) أو خليط، كما لا يخلو أيضاً من عدوّ كاشح أو مُداج أو مُكاشف^(٨) أو حاسد أو شامت أو منافق أو مُؤذٍ أو منابذ أو معاند أو مُزِلّ^(٩) أو مُضِلّ^(١٠) أو مُغلّ.

وقد قال الأوائل: «إن الإنسان مَدَنِيٌّ بالطبع»، وبيان هذا أنه لا بد له من الإعانة والاستعانة؛ لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقلّ بجميع حوائجه، وهذا ظاهر.

(١) المَدَق: عدم الإخلاص.

(٢) الرِّثَاء: المراءاة، وتظاهر الإنسان بخلاف ما يُبطن.

(٣) رُونَقَه: حُسْنُهُ.

(٤) حِصَّة: نصيب.

(٥) الحميم: القريب الذي تهتمّ لأمره.

(٦) السَّكَنُ: كل ما سكنت إليه.

(٧) الوليُّ: ضد العدو.

(٨) مُكاشف: كاشفه بالعداوة: باداه بها.

(٩) مُزِلّ: مُؤدّ بصاحبه إلى الزَّلَل والخُطأ وارتكاب الذنوب.

(١٠) مُضِلّ: مُؤدّ بصاحبه إلى الضلال والانحراف.

وإذا كان مدنيًا بالطبع - كما قيل - فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء والمجاورة والمحاوراة والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سببًا لنظام الحال، أو يكون سببًا لانتشار الأمر^(١). ولا محالة أن هذه وأشباهاها مُفضية بالناس إلى جملة ما نعتَه هؤلاء الذين رويَنا نظمهم ونثرهم، وكتبنا جوهرهم وإنصافهم، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه، وعيون^(٢) ما ذكروه ونشروه.

ونروي في هذا الموضع بقية أبيات، وإن عَنَّ شيء^(٣) حكيناه ونغلق الرسالة؛ فإنها إذا طالت أبغضت، وإذا أبغضت هُجرت، وربما نِيلَ من عَرَض صاحبها، وأُنحِيَ باللائمة عليه من أجلها^(٤). وهو قلم لا يقصد إلا الخير، ولا أراد إلا الرشاد. وقد يُؤْتَى الإنسان من حيث لا يعلم^(٥)، ويُزَمَى من حيث لا يتَّقى^(٦). كما يُؤْتَى من حيث لا يحتسب^(٧)، وينجو وقد أَشْفَى^(٨)، ويُدرَك وقد غَلَبَ الناس^(٩).

قال العطوي:

لا تَبْكِ إثرَ مُوَلِّ عنك مُنحرفٍ تحت السماء، وفوق الأرض، أبدال^(١٠)

(١) انتشار الأمر: تَفَرُّقُهُ.

(٢) عُيُون ما ذكروه: خِيَارُهُ.

(٣) عَنَّ شيء: ظَهَرَ.

(٤) ونُتِهي الرسالة ونُتْمِها؛ لأنها إذا طالت وأسهبَتْ كَرِهها الناس، وإذا كَرِهوها، تركوها ولم يهتموا بقراءتها مَلَلًا من طولها، وقد يَسْبُون صاحبها، وينهشون عَرَضه وشرفه، ويلومونه ويعتبون عليه.

(٥) قَدْ يُشْرِف العدو على الإنسان من مكان لا يدرىه ولا يعلمه.

(٦) وقد يرميه العدو من مكان يأمنه، ولا يحذر منه شيئًا، ولا يتصوّر أن يأتيه الشر من جهته.

(٧) كما أن العدو قد يشرف عليه من حيث لا يظن ولا يُقدَّر.

(٨) وقد ينجو وهو مُشْرِفٌ على الموت، دان منه.

(٩) وقد يلحق به أعداؤه، وهو السِّبَاق الذي سبق الناس جميعًا، وغلبهم، ولم يلحق به أحد يومًا.

(١٠) إذا مال عنك ووَلَّى وانحرف، فلا تحزنْ عليه، ولا تَبْكِ مودته الذاهبة، فإن الحياة مليئة بالأبدال الذي تستبدلهم به.

وفي الناس أبدالٌ، وفي التُّرك راحةٌ وفي الأرض مَنائٌ للحبيب إذا جَفَا

الناس أكثر من أن لا ترى خلقاً مَمَّن زَوَى وجهه عن وجهك المال^(١)
ما أقبح الوصل، يُدنيه ويُبَعِّده بين الصديقين، إكثار وإقلال^(٢)
وللصنوبري:

يا ناصحاً ما زال يُتَّبَع نُصَحُهُ غِشًّا إذا نصح الصديق صديقه^(٣)
فله العزاء، بروم لست أرومه قلت السُّلُو يُطاقُ لست أُطيقه^(٤)
وقال آخر:

رميت هوائي من مَرَمَى قريب وكنت أخي، فصرت أخوا الخطوب^(٥)
قَدَرْتُ من الجسوم على تناء ولكن، لا تنائي للقلوب^(٦)
فممن تطلب الإنصاف يوماً إذا جار الأديب على الأديب^(٧)
وقال آخر:

كم من صديق صادق الظاهر مُتَّفِقِ الأولِ والآخر^(٨)
أطمعني في ودّه مطمع من خاطري، لا كان من خاطر^(٩)

- (١) وإن الناس لكثيرون، وإنك لو اجدّ فيهم الصديق الودود الثابت على مودته، فماذا يضطرك إلى صداقة صديق يُبْطِرُهُ المال، فيُنَحِّي وجهه عنك، ويَقْبِضُهُ ويَصْرِفُهُ؟
(٢) إن الوصالَ لَيَكُونُ قَبِيحاً سيئاً، إذا كان يُقَرِّبُهُ المال والثَّيْسَر، ويُبَعِّدُهُ الفقر والعُسْر.
(٣) أيها الناصح الذي تُتَّبَعُ نُصَحُكَ بالخداع والغش، ما جدوى نصحك هذا؟ وماذا يكون؟
(٤) فلهذا الناصح العزاء؛ فإنه يريد ما لا أريده من غش وخداع، فأنا أريد النصيحة الخالصة الصافية وأحبها ولا أنْعَزَى عنها أبداً.
(٥) لقد رميت صداقتي بسهم من الهجر والقطيعة، وكان المَرَمَى قريباً - لأنك كنت مني قريباً - فأصاب هدفه، وبعد أن كنت أخي ومُعِيني، صرت الآن أخوا لحوادث الدهر ومعيناً لها عليّ.
(٦) لقد استطعت أن أتحمّل تباعد الأجسام والأبدان، ولكن كيف أستطيع أن أتحمّل تباعد القلوب وهي التي لا تكون حياةً إلا بقرّبها؟
(٧) من أيّ الناس نطلب الإنصاف والعدل، إذا ظلم الأديب أخاه الأديب، والأدباء هم أوثق الناس صلةً وأقربهم مودةً بعضهم إلى بعض؟
(٨) إن كثيرين من أصدقائي، لهم ظاهر حَسَن لا يَرْتَاب الإنسان في صدقه، وهم باقون على هذا المظهر الحسن منذ أول صداقتهم حتى اليوم.
(٩) أطمعني وأغرائني بودة هؤلاء الأصدقاء قلبي، فلا كان ذلك القلب، وليت أني خُلِقْتُ من دونه!

حتى إذا ما قلتُ: فازتْ يدي بمثله، فوزَ يدِ القامِرِ^(١)
وجدت في كَفِّي منه كما قد مُلئتُ منه يدِ الزامِرِ^(٢)

وقال آخر:

أخو ثقةٍ يُسرُّ بحسنِ حالي وإن لم يُدنه مني قَرابَه^(٣)
يُسرُّ بما أُسرُّ به ويَشجِي إذا ما أزمَةُ نَزَلَتْ رِحابَه^(٤)
أحبَّ إليَّ من أُلْفِي قريبٍ بناتُ صدورهم لي مُستَرابَه^(٥)
وقال آخر:

ولا تصلِ حبلَ غادرٍ مَلِقٍ فالغدرُ من شرِّ شيمةِ الرجلِ^(٦)
لا خير في غادرٍ مودتُهُ كالصَّابِ، والقولُ منه كالعسلِ^(٧)
وقال آخر:

ما لي جُفِيْتُ، وكنتُ لا أُجفَى ودلائلُ الهجرانِ لا تخفى^(٨)
ما لي أراك نسيْتِي بَطْراً ولقد عهدتُك تَذْكُرُ الإلفا^(٩)
وقال آخر:

- (١) فإذا ما امتدَّت صداقتي بهم إلى مَدَى بعيد، وحسبتُ أنني فُزْتُ من صداقتهم بمثل ما يفوز به المُقامِر الرابع.
(٢) فَنَشِئْتُ في يدي أبحث عما فُزْتُ به، فلم أجِد بها إلا هواءً كالذي يجدهُ الزامر بعد زمره!
(٣) لي أخ أمين صادق في أخوته، يسرُّه أن أكون في حال حسنة، وعيش طيب، وإن لم تربطني به رابطة من قرابة.
(٤) يسرُّه كل ما يسرُّني، ويُفرحه كل ما يفرحني، في الوقت الذي يحزن ويمتلئ همًّا إذا حَلَّت به أزمة أو ضائقة.
(٥) هذا الأخ أحبَّ إلى نفسي، وأقرب إلى قلبي من أُلْفَيْن مَن تربطني بهم روابط القرابة وصدورهم مملوءة بالشكِّ والريبة وعدم الثقة.
(٦) لا تحافظُ على مودة خائن لا وفاء له، ملقٍ منافق خَدَّاع؛ فإن الخيانة وتترك الوفاء من أقبح ما يتصف به الإنسان.
(٧) ولا تنتظر خيراً من غادر ينطوي قلبه على مُرٍّ وعلقم، ويتحرك لسانه بكلام كالعسل الحلو المستطاب.
(٨) ما بال الناس قد جَفَوْنِي وقطعوا برِّي وصلتي؟ وهل تخفي أمارات الهجر والقطيعة؟
(٩) وما أراك -أيها الصديق- قد نسيت مودتي وصلتي بك؛ طغياناً منك، وتكبراً، واستخفافاً بي، وقد عرفتُك تَذْكُرُ من يَألفُك ويصاحبُك؟

أَخْلَقْتُ عِنْدَهُ الْمَلَالَةَ وَجْهِي كَيْفَ لِي عِنْدَهُ بَوَاجِهُ جَدِيدٍ^(١)
وقال آخر:

أَتَعْجَبُ إِنْ جَفَاكَ أَحٌّ لَغَيْرِكَ عَنْهُ مُنْتَقِلٌ^(٢)
فَلَا تَعْجَبْ لَجَفْوَتِهِ ثَقُلْتُ، فَمَلَّكَ الرَّجُلُ!^(٣)
وقال آخر:

عَهْدِي بِطَرْفِكَ لَا يَزَالُ مُلَاحِظِي يَرْنُو إِلَيَّ رُنُوءَ طَرَفِ الْحَافِظِ^(٤)
فَالْيَوْمَ تَنْبُو عَنْ كَلَامِي جَفْوَةً وَأَرَاكَ مِنْ بَعْدِ الْإِسَاعَةِ، لَا فِظِي^(٥)
وقال آخر:

نَوَقَّ مِنَ الْإِخْوَانِ كُلِّ مِمَازِحٍ يَزُولُ مَعَ الْأَفْيَاءِ حَيْثُ تَزُولُ^(٦)
فَلَا تَصْحَبَنَّ مُسْتَظَرَفًا ذَا مَلَالَةٍ فَلَيْسَ عَلَى عَهْدٍ يَدُومُ مَلُولٌ^(٧)
وقال آخر:

وَحَقِّكَ مَا تَرَكِي عِتَابَكَ عَنْ قَلِي وَلَكِنْ لِعِلْمِي أَنَّهُ غَيْرُ نَافِعٍ^(٨)

(١) أبلَى السَّأَمَ والملل وطول الصحبة، وجهي عند صاحبي الذي لا يعرف الحفاظ على المودة والحرص عليها، ومن أين أجيء لي بوجه جديد؟

(٢) أياخذك العجب والدهشة إن هجرَكَ صاحبك وَقَلَاكَ؟ وَإِنْ وَجَدَ مِنْ يَنْقُلُ إِلَيْهِ وَدَّهَ فَتَقَلَّهَ؟

(٣) لا تعجب لهجرَ صاحبك إياك، فإنك قد صرْتَ ثَقِيلًا عَلَى نَفْسِهِ بَغِيضًا إِلَى قَلْبِهِ، فَمَلَّكَ وَهَجَرَكَ وَقَلَاكَ.

(٤) عهدتك ترمقني دائماً بنظراتك، ولا تُحوِلْ طَرْفَكَ عَنِّي، وَتَظَلُّ تُلَاحِظُنِي بِعَيْنَيْكَ، وَتَرْنُو إِلَيَّ وَتَنْظُرُ نَظَرَاتِ الْوُدُودِ الَّتِي يَحْفَظُ الْوَدَّ وَيُرْعَاهُ.

(٥) فما بالك اليوم تجفوني وتتباعد عني، وما بالك اليوم تُلْفِظُنِي وَتَرْمِينِي، بَعْدَ أَنْ كُنْتَ تَجِدُنِي سَهْلًا سَائِعًا مُحِبًّا إِلَى نَفْسِكَ؟

(٦) احذَرِ مِنْ إِخْوَانِكَ مَنْ يَكُونُ كَثِيرَ الْمِزَاحِ وَالِدُّعَابَةِ؛ فَإِنَّهُ يَلَازِمُكَ مَا وَجَدَ فِيكَ غَنَائِمَ يَغْتَنِمُهَا، فَإِنْ زَالَتْ عَنْكَ وَانْقَطَعَتْ زَالَ هُوَ الْآخِرُ عَنْكَ وَانْقَطَعَ.

(٧) لا تصادق من كان متكلفًا لِلطَّرْفِ وَالْكِيَاسَةِ، مَلُولًا سَرِيعَ التَّقَلُّبِ؛ فَلَنْ يَبْقِيَ عَلَى عَهْدِكَ وَمُودَتِكَ، مَلُولٌ مُتَغَيِّرٌ مُتَقَلِّبٌ.

(٨) وحياتك إنني لم أترك عتابك ولو مَكَ بُغْضًا لَكَ وَكَرَاهِيَةً فِيكَ، وَلَكِنْ لِعَقْدَادِي أَنَّ هَذَا الْعِتَابَ لَنْ يُجِدِي شَيْئًا، وَلَنْ يُغَيِّرَ أَمْرًا!

وَأَنِّي إِذَا لَمْ أَصْبِرِ الْيَوْمَ طَائِعًا فَلَا بَدَّ مِنْهُ مُكْرَهًا غَيْرَ طَائِعٍ^(١)
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةٌ فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ بِشَافِعٍ^(٢)
 وقال إبراهيم بن العباس الكاتب:

أَخْ بَيْنِي وَبَيْنَ الدَّهْرِ صَاحِبَ آئِنَا غَلَبًا!^(٣)
 صَدِيقٌ مَا اسْتَقَامَ، فَإِنْ نَبَاهُ رُّعْلِي، نَبَاً^(٤)
 وَثَبْتُ عَلَى الزَّمَانِ بِهِ فَعَادَ بِهِ، وَقَدْ وَثَبَا^(٥)
 وَلَوْ عَادَ الزَّمَانُ لَنَا لَعَادَ لَنَا أَخَا حَدْبَا^(٦)
 وقال آخر:

كُنْتُ عَبْدًا لَكَ مَأْمُورٌ نَا عَلَى دُنْيَا وَدِينٍ^(٧)
 بَعْتَنِي سَمَحًا بِقَوْلٍ جَاءَ مِنْ غَيْرِ أَمِينٍ^(٨)
 لَيْتَ شَعْرِي عَنْكَ، لِمَ حَكَمْتَ ظَنًّا فِي يَقِينٍ؟^(٩)
 سَتَرِي مَا تَكْشِفُ الْخُبْرَ رَعةً مِنْ غَيْبِ الظُّنُونِ^(١٠)
 وقال آخر:

- (١) ولا اعتقادي - ما دام العتاب غير نافع بشيء - بأنه عليّ أن أصبر، وبأنني إن لم أصبر طائعًا مختارًا، فسأصبر مُكْرَهًا مُضْطَرًّا.
- (٢) إن كان لا يعطفك عليّ، ويُميلك إليّ، إلا شفاعَةٌ من آخرين تشفع لي عندي، وتطلب إليك أن تكون بي عاطفًا رحيماً. إن كان الأمر كذلك فلا خير عندي في مودة لا تكون إلا بوساطة من آخرين.
- (٣) لي صاحب يقف بيني وبين الدهر، فإن رأى الدهر مُقبلاً عليّ أقبل، وإن وجده مُعرضاً عني أعرض. إنه مع الغالب الظافر دائماً!
- (٤) إنه صديقي ما صادقتني الدهر، فإن مال الدهر عني فإنه هو أيضاً يميل.
- (٥) وكان عُدَّتِي وعونِي في الهجوم على حوادث الأيام، وهو اليوم عُدَّةٌ وَعَوْنٌ لتلك الحوادث في الهجوم عليّ.
- (٦) ولو رجعت لي الأيام وهادئتي، لرجع هو أخاً لي متعطفًا شقيقاً بي.
- (٧) لقد كنتُ خاضعاً لك، أميناً مخلصاً في أمور دنياك وآخرتك.
- (٨) فلم تَرَ ذلك مني، وبعتني ببيع السَّمَّاح، وتساهلت وبخستني ثمنِي، من جرّاء كلمة كاذبة جاءتكَ عني من واش يريد الوقعة والإفساد بيننا.
- (٩) فليتني أعلم، لماذا جعلت الظنّ والوهم الذي جاءك به هذا الكاذب حكماً في إخلاصي لك وهو يقينٌ ثابت؟
- (١٠) ولكن الأيام والتجارب ستكشفان لك عما هو مخبوء وراء الظنون والأوهام.

خليل نأى عني الزمانُ بودِه فاعرَض، واستولى على أمره الغدْرُ^(١)
 فألبسته الثوبَ الذي اختار لبسه وأحسن من ودّ يضيق به الصدرُ^(٢)
 وأفضل من أمرِ يريِّيك، تركُه وأحمد من مال يُرمُّ به الفقرُ^(٣)
 فإن عاش، فالأيام بيني وبينه وإن مات، لم أجزع لمن ضمّه قبرُ^(٤)
 إذا ما امرؤُ حارتُ عليك ظنونه وسامَكَ ما فيه المذلة والصُّغرُ^(٥)
 فكلُّه إلى حكم الحوادث؛ إنه كفى منصفًا ممن تظلمَكَ، الدهرُ^(٦)
 وقال آخر:

عاشِرُ أخاك على ما كان من خُلُقٍ واحفظُ مودته بالغيبِ ما وصَلَا^(٧)
 فأطولُ الناس غمًّا من يريدُ أخًا ذا خِلَّة لا يرى في ودّه خللاً^(٨)
 وقال آخر:

أجفَوْتَنِي فيمن جفاني؟ وجعلتَ شأنَكَ غيرَ شأني؟^(٩)

- (١) لي صاحب حَجَبَ عني ودّه طوال حياتي، فنأى عني وقطعَ جُل الوصل بيني وبينه، وتمكَّنت الخيانة من نفسه ومن قلبه.
- (٢) فلم أجد بُدًّا من أن ألبسه الثوب الذي اختاره لنفسه، وأبادله خيانة بخيانة وغدرًا بغدر؛ فذلك خير من مودة كاذبة مُتكلِّفة يضيق بها صدري، ولا تنفعني في شيء.
- (٣) وإن أفضل شيء للأمر الذي تستريب منه وتشكك فيه، أن تتركه وتهجره وتستغني عنه، كما أن خير المال هو ما يكفي لإصلاح فرك، وبيك السؤال وإن يكن قليلًا؛ فإنه أفضل من الكثير الذي يجلب لك المتاعب والمهالك والمن والأذى.
- (٤) فهذا الصاحب النائي عني إن هو عاش فلن تُغيّر الأيام مني له شيئًا إلا ما سيُغيّره هو مني بتغيّر مواقفه. وإن مات فإني لا أحزن عليه ولا أجزع.
- (٥) إن التبس عليك أمر صاحبك ولم تكن منه على ثقة ويقين، وإن أذاقك الذلَّ والهوان وأكْرَهَكَ عليهما.
- (٦) فدعُه واطركه لحكم الزمان؛ فإنه كفيْل بأن يتَّصف لك، ويأخذ لك ثأرك ممَّن ظلمك.
- (٧) لتكنُ معاشرتكَ لأخيك على طريقتَه في معاشرتكَ، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وإن هو واصلك ورعى مودتك فاحفظْ مودته إذا غاب عنك، وكن له وفيًّا أمينًا مخلصًا.
- (٨) وإن أعظم الناس غمًّا، وأكبرهم همًّا، لهو ذلك الذي يبتغي صديقًا تخلو صداقته من كل فساد أو زلل، وأين هو ذلك الصديق؟

مَنْ ذا الذي ما ساءَ قَطُّ؟ وَمَنْ له الحُسْنَى فَقَطُّ؟

(٩) أفتعتَ جُل مودتي فيمن قطع من الصحاب؟ واتخذت موقفًا وحالًا غير موقفي وحالي؟

ونسيتَ مني موضعًا لك، لم يكنْ لك فيه ثاني^(١)
 وسُررتَ يومًا واحدًا أن لا أراك، ولا تراني؟^(٢)
 وهجرتني، وقطعتني وقلّيتني فيمن قلاني؟^(٣)
 أفعلتها؟ فالمستعان بالله أفضل مُستعان^(٤)

وقال آخر:

تملّقتُه جهدي، فلما رأيته متى لأن مني جانب، عزّ جانبُه^(٥)
 جرّمتُ له في الصدر مني مودةً وخلّيتُ عنه -مُهملًا- لا أعاتبه^(٦)
 أطيّن عين الشمس كيلا يقال لي: طبائعه مدمومة ومذاهبه^(٧)
 وأطريه بالقول الجميل وعنده من التّيه -مُطريه سَواءً، وعائبُه^(٨)
 وقال آخر:

غلّطَ الفتى في قوله: من لا يُردك، فلا تُردهُ^(٩)
 من ناقش الإخوان لم يُبدِ العتاب، ولم يُعدهُ^(١٠)

- (١) ونسيتَ أنني كنت أجعلك في مكان من نفسي، لم أجعله لأحد سواك، وكنتَ فيه واحدًا لا ثاني له؟
 (٢) وسرّك وأفرحك أن تنقطع الصلة بيني وبينك فلا أراك ولا تراني يومًا واحدًا؟ فماذا يكون مبلغ سرورك إذا انقطعت الصلة بيني وبينك أيامًا وسنين طويلة؟
 (٣) وهل تركت وصالي، وجانبتي؟ وهل أبغضتني فيمن أبغضني؟
 (٤) إن كنتَ حقًا فعلتَ ذلك، وستبقى على فعله، فإني أطلب إلى الله تعالى أن يُعينني ويساعدني على احتمالها، وهو خيرُ مستعان.
 (٥) لقد تودّدتُ إلى صاحبي أقصى تودد، وتلطّفتُ له ما وسّعني الجهد، فلما رأيته صعبًا إن سهّلتُ له، مستكبرًا إن خضعت له.
 (٦) قطعت ودّه الذي كان يملأ نفسي، وتركته، وتخلّيتُ عنه، وأهمّلتُه فلا أعاتبه ولا ألومه في شيء.
 (٧) ولقد كنتُ معه كمن يطلي عَيْن الشمس بالطّين، ويحجب ضوءها؛ حتى لا أرى سيئاته، ولا يقول الناس لي: تلك خلّاله وهذه مذاهبه وطرائقه، ألا تراها مدمومة قبيحة؟!
 (٨) وكنتُ أطريه وأمدحه بالقول الجميل، وهو -لكبريائه وخطريته- يستوي عنده المادح والقادح.
 (٩) لقد أخطأ من قال لك: لا ترغب فيمن لا يرغب فيك، ومن لم يُردك فلا تُرده.
 (١٠) إن كنت تُناقش أحاك وتجادله في أمر من الأمور، فلا تُظهر اللّوم، ولا تُبدئ ولا تُعد فيه.

عَاتِبْ أَخَاكَ إِذَا هَفَا وَاَعْطِفْ بِفَضْلِكَ، وَاسْتَعِذْهُ^(١)
وَإِذَا أَتَاكَ بِعَيْبِهِ وَاشِ، فَقُلْ: لَمْ يَعْتَمِدْهُ^(٢)
فَلَقَلَّمَا طَلَبَ الْفَتَى عَيْنًا لِخِلٍّ، لَمْ يَجِدْهُ^(٣)

وقال جرير:

وَإِنِّي لَمَغْرُورٌ أَعْلَلُ بِالْمَنَى لِيَالِي أَرْجُو أَنَّ مَالِكَ مَالِيَا^(٤)
بَأَيِّ سَنَانٍ تَطْعَنُ الْقَوْمَ بَعْدَمَا نَزَعْتَ سَنَانًا مِنْ قَنَاتِكَ مَاضِيَا^(٥)

وقال آخر:

تَبَدَّلْتُ بَعْدِي، وَالْمَلُولُ - إِذَا نَأَتْ بِهِ الدَّارُ عَنْ أَحِبَابِهِ - يَتَبَدَّلُ^(٦)
فَبَانَ الْقَلَى لِي مِنْكَ، وَاتَّضَحَ الْخَفَا وَوَلَّاحَ لَنَا مِنْهُ الَّذِي كَانَ يُشَكِّلُ^(٧)
أَحِينَ أَنْارَتْ لِلْمُودَةِ بَيْنَنَا رِيَاضُ بَدَانَوَّارِهَا يَتَهَلَّلُ^(٨)
وَدَامَتْ سَمَاءُ اللَّهْوِ تَنْهَلُ سَحَّةً عَلَيْنَا بِأَنْوَاعِ الْوَفَاءِ، وَتَهْطِلُ^(٩)

(١) واعتب على أخيك إذا أخطأ برفق ولين، وأنه فضلًا بعطفك عليه، وبرك به، واستعد مودته وصلته، ولا تقطع حبالهما.

(٢) وإذا جاءك واش كاذب يسعى بالوقية بينك وبين صاحبك، فأنكر ما يقول، واحتج بأن صاحبك لم يتكلم بهذا الكلام، ولم يصدر منه هذا القول، فهو قول مدسوس لا يوثق به.

(٣) واعلم بأن الإنسان قل أن يطلب عيبًا في أي صديق له إلا وجده فيه.

(٤) إنني لمخدوع ألهي بالأماني الكاذبة، ألم تر أنني كنت في بعض الأيام والليالي أعتقد أن ما تملكه أنت فهو ملك لي؟!

(٥) بأي نصل من نصال رمحك تطعن القوم، بعد أن انتزعت نصلًا ماضيًا حادًا من نصال رمحك؟ ألم تنته عن حرب قومك؟

(٦) لقد تغيرت من بعدي، وهذا شأن الملول الذي يسأم صحبة إخوانه ولا يطول عهده بمودتهم، فإنه يتحول عنهم ويتبدل إذا هجرهم وبعده عنهم.

(٧) فظهرت لي منك البغضاء، وبدا ما كان خفيًا، واتضح ما كان ملتبسًا علي من أمرك.

(٨) أفي الوقت الذي بدت مودتنا كالبساتين المضيئة التي ظهر زهرها مثلًا.

(٩) واستمرت سماء السرور والمحبة تصب علينا بوفرة وكثرة صنوفًا من الوفاء والود متتابعة متصلة.

تَنَكَّبْتُ قَوْسَ اللّٰهُوَ، ثُمَّ رَمَيْتَنِي وَأَعْوَلُ^(١)
سَأَحْفَظُ مَا ضَيَّعْتَهُ مِنْ مَّوَدَّتِي لَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْهُ لَا أَتَبَدَّلُ^(٢)
وَلَا بَنَ أَبِي فَنَنْ:

إِذَا كُنْتُ تَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ وَتَعْتَبُ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ عَلَيَّ^(٣)
طَلَبْتُ رِضَاكَ، فَإِنْ عَزَّ بِي عَدَدْتُكَ مَيْتًا وَإِنْ كُنْتُ حَيًّا^(٤)
قَنِعْتُ -وَإِنْ كُنْتُ ذَا حَاجَةٍ- فَأَصْبَحْتُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ شَيًّا^(٥)
فَلَا تُعْجَبَنَّ بِمَا فِي يَدِيكَ فَأَكْبَرُ مِنْهُ الَّذِي فِي يَدِيَّ^(٦)
وَقَالَ آخَرُ:

وَأَخْ كَانَ لِي وَدُودًا مُّحِبًّا نَاصِحًا وَامِقًا رَفِيقًا شَفِيقًا^(٧)
كَانَ أَحْلَى مِنْ الْجَنَى عِنْدَ صُوبِ الْمُرْ نِ يُرْضِيكَ صَامِتًا وَنَطُوقًا^(٨)
ثُمَّ لَمَّا أَصَابَنِي الدَّهْرُ بِالْجَفَا سَوْءَ مِنْهُ، صَارَ الْبَعِيدَ السَّحِيقًا^(٩)

(١) أحيان يغمرنا هذا كله، تحمل أنت قوسك على منكبك وترميني به، وتتركني أبكي ما كان بيننا من ود ووصال، وأرفع صوتي بالعويل على ضياع هذا كله؟

(٢) ولكنني لن أفعل كالذي فعلت، وسأصون ما أهدرتك أنت من ودي وصداقتي؛ لتعرف أنني لا أتحوّل عنهما ولا أترشح.

(٣) إن كنت لا تمنحني رضاك، وتغضب عليّ من غير إثم ارتكبتّه، وتلومني دون جريرة، فماذا تكون حيلتي معك؟
(٤) لقد سعيت إلى كسب رضاك، فإن استعصى رضاك عليّ، وغلبني ولم أظفر به، جعلتك في عداد الأموات وإن كنت ما زلت حيًّا.

(٥) لقد رُضيتُ وقنِيتُ، فأصبحتُ -برضاي وقناعتي- من أغنى الناس، وأوفرهم ثراء، وأعظمهم امتلاكًا للأشياء.

(٦) فلا تمتلئْ عُجْبًا وزهوًا بما تملكه يدك، ولا تغترّ فتحسب أنك تملك الكثير مما لا أملك شيئًا منه، فإن الذي أملكه أنا -وهو القناعة- أكبر وأعظم مما تملكه أنت، أليست القناعة هي الغنى الكامل؟

(٧) كان لي صديق كثير الحب، ينصح لي ويوجهني توجيهًا سديدًا، وكان لطيفًا في عشرته، حريصًا على إصلاحه.
(٨) وكان مَذَاقُهُ عِنْدِي أَحْلَى مِنْ مَذَاقِ الثَّمَرِ الْغَضِّ الْمَتَسَاقِطِ مِنَ الشَّجَرِ مَعَ انْصِبَابِ الْمَطَرِ مِنَ السَّحَابِ، يَرْضِينِي إِذَا صَمَمْتُ، وَيَرْضِينِي إِذَا تَكَلَّمْتُ.

(٩) فلما جفاني الدهر، وعادنتي الأيام، وأنزلت بي مصائبها وويلاتها، صار بعيدًا عني بعدًا سحيقًا كبيرًا، ونسي كل ما كان بيننا من صلات.

يا صديقي، ما كنت لي بصديقٍ إنما كنتَ للزمان صديقاً^(١)
صرتَ تشري إذا التحفتُ بثوبي وتشكى إذا سلكتنا طريقاً!^(٢)
وقال آخر:

وأخ كان لي، فأصبحت منه كأشلّ اليدين، أو كالأجب^(٣)
ضاق ذرعاً بزلة لي كانت فانتحى لانتهاك سرّي وثلي^(٤)
أفما كان في المودة والحرّمة حق يُريه غفران ذنبي^(٥)
وقال آخر:

وكلّ ملّمات الزمان وجدتها -سوى فرقة الأحباب- هيّنة الخطب^(٦)
لئن كنت أمسيّت العشيّة سيّداً شديد شحوب اللون مختلف العصب^(٧)
فما لك من مولاك إلا حفاظه وما المرء إلا باللسان وبالقلب^(٨)

(١) فيا أيها الصديق، إنك ما كنتَ لي صديقاً، ولكنك كنت صديقاً للزمان وللأيام، فلما عاداني الزمان صرت لي عدواً.

(٢) وأصبحت الآن تسخر مني وتهزأ بي إذا لبست ثوبي! وهل في ذلك محل للسخرية؟! وصرت تشكو وتألّم كلما سلكتنا درباً -أيّ درب- وطريقاً -أيّ طريق- وهل في ذلك محل للشكوى والتألّم؟! إنما هي العداوة قد جعلتك تقف مني هذه المواقف!

وعين الرضى عن كل عيب كليلّة كما أن عين السخط تبدي المساويا!

(٣) كان لي أخ، وكان يقف إلى جانبي، فصرت اليوم منه كمن قُطعت يده، أو اقتطع جزء من جسمه، بعيداً كهذه اليد أو كذلك الجزء، بعد أن كنا لا نفترق، وبعد أن كان إلى جانبي دائماً.

(٤) ارتكبتُ زلة من الزلات، فأخذ يحدّ ويكدّح نفسه لكشفها وفضحها وإعلانها على الناس، وأخذ يعيبي ويتقصني ويثلم عرضي.

(٥) ألم يكن لي عند هذا الصديق -من مودتي السابقة له، ومن حقّي عليه- ذمة أو عهد أو نصيب يُعرفه أن يغفر لي هذه الزلة، ويصفح عنها ويتناساها؟

(٦) لقد وجدت كل نوائب الزمان هيّنة يسيرة إلا فراق الأحباب، فإنه الخطب الذي لا يُحتمل.

(٧) فلئن كنت قد صرت سيّداً عظيماً، متغيّر اللون عظمة وكبرياء، مختلف البرود والثياب عما كنت عليه من قبل.

(٨) فإن الإنسان ليس له من صاحبه إلا حفاظه على وده، واستمساكه بصحبته، وما له منه شيء وراء ذلك؛ فالإنسان ما هو إلا لسان ينطق، وقلب يخفق.

هما الأَصْغَرَانِ الذائِدَانِ عن الفتى مكارهَهُ، والصاحبانِ على الخَطْبِ^(١)
فإِلَّا أَكُنْ كُلَّ الكَريمِ، فَإِنِّي أَكْفُ عن الجاني، وَأَصْبِرُ في الجَدْبِ^(٢)
وقال ماني الموسوس:

رَأَيْتُكَ لَا تَخْتَارُ إِلَّا تَبَاعُدِي فَبَاعَدْتُ نَفْسِي، لَا تَبَاعُ هَوَاكَ^(٣)
فَبُعْدُكَ يُؤْذِينِي، وَقُرْبِي لَكُمْ أَدَى فَكَيْفَ احْتِيَالي، يَا جُعِلْتُ فِدَاكَ؟^(٤)
وقال آخر:

رَأَيْتُكَ تَجْفُونِي، فَأَحْدَثْتُ عُزْلَةً لِيخْفِيَ الَّذِي تَأْتِي إِلَيَّ فَتَعْذِرَا^(٥)
وقال آخر:

أَطْلُ حَبْلَ الشَّنَاءَةِ لِي وَبُغْضِي وَعَشْ مَا شِئْتَ، فَانْظُرْ مَنْ تَضِيرُ^(٦)
فَمَا بِيَدِيكَ نَفْعٌ أَرْتَجِيهِ وَغَيْرُ صَدُودِكَ الْخَطْبُ الْكَبِيرُ^(٧)
إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَعْرَضْتَ عَنِّي كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِي تَدُورُ^(٨)
وقال آخر:

(١) وهذان -اللسان والقلب- هما العضوان الصغيران الضئيلان في جسم الإنسان، ولكنهما هما اللذان يدفعان عن المرء الأذى والمكاره، ويصاحبانه عند الشدائد.

(٢) فإن لم أكن كريماً أقصى الكرم، فإنني أصفح عن المسيء وأعفو عن المذنب، وإنني لصبور عند الجدب والمحل، لا أتشكى ولا أغضب.

(٣) وجدتك لا تحب قُرْبِي، ولا تهوى إلا ابتعادي، فالزمت نفسي الابتعاد عنك تمشياً مع رغبتك، وجزياً على هواك.

(٤) وبُعْدُكَ عَنِّي يُؤْذِي نَفْسِي، وَقُرْبِي مِنْكَ يُؤْذِيكَ! فما حيلتي؟ وماذا أعمل يا صاحبي، جعلني الله فداك؟
(٥) ولقد رأيتك تهجرني وتعتزلي، فاعتزلتك وتركت لقاءك لكي يخفى على الناس ما تأتي من إساءة إليّ فيعذروك، ولا تُوجَّه إليك ملامة أو عتب.

(٦) الشَّنَاءَةُ: البُغْضُ.

(٧) أطل حبل عداوتك وبغضك لي، واستمرّ عليهما، ثم عش عليهما طويلاً، وانظر بمن ألحقت الضرر والأذى؟!
(٨) إنه ليس في يديك أي نفع لي أمّله وأرجّبه، وإنني قد أرى في أي شيء خطباً كبيراً، ونازلة عظيمة، سوى صدودك عني!

(٨) إنك إن تبصرني تُعرض وتدبر عني، كأنما تغيب الشمس، ويحتجب النور من ناحيتي.

وموَلَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِذَا مَا التَّقَيْنَا، لَيْسَ مَمَّنْ أَعَاتِيهِ^(١)
قال ابن المرزبان الكاتب: سمعت الخليفة المطيع يقول: صديقك صديقك،
وصديق صديقك صديقك، وعدوك عدوك، وصديق عدوك عدوك، وعدو صديقك
عدوك، وعدو عدوك صديقك.

وَذُوِي ضَبَابٍ مُّظْهِرِينَ عَدَاوَةً قَرَّحَى الْقُلُوبَ مَعَاوِدِي الْأَكْبَادِ^(٢)
ناسيتهم بغضائهم، وتركتهم وهم -إِذَا ذُكِرَ الصَّدِيقُ- أَعَادِي^(٣)
وسمعت ابن بابويه القميّ العالم يقول: قال جعفر بن محمد: مناغة الصديق أعبث
بالروح، وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق؛ لأنك تفزع بحديث المعشوق إلى
الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق^(٤).

وحدثني ابن السراج قال: كتبت إلى ابن الحارث الرازي: كتبت إليك من محل
قد ابتهج بودك، وانزعج لصدك، يناديك: ألا، إن القلب قد تألم بمفارقتك، فمتى يَلُمُّ
شَعْتُ الْأَنْسَ^(٥) بمشاهدتك؟

فأجبت: كلا، وإن امتزج فرح الاتصال، بترَحِ^(٦) الانفصال، فما ضرَّ مباحدة الأشباح،
مع مساعدة الأرواح.

(١) لي صديق إذا التقيت به أدار وجهه وأعرض عني، كأن الشمس -التي تؤذي عينيه- معترضة بيني وبينه. مثل
هذا لا أعاتبه ولا ألومه على شيء.

(٢) إن قومًا ذوي أحقاد خفية، معلنين عداؤهم، قلوبهم مليئة بالقروح والبثور، وأكبادهم لا يفتأ يعاودها الحقد
والضغينة ولا تكاد تبرأ منهما.

(٣) نسيت كراهيتهن لي، وجعلتهن في عداد الأعداء.

(٤) مناغة الصديق: مغالته. تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق: تلجأ إلى الصديق مستغيثًا من حديثه المعشوق.
إن مغازلة الصديق والحديث معه أكثر اختلاطًا بالقلب، وأدخل في باب اللهو والمرح، وأبرد على القلب من
حديثك مع المعشوق، وإنك لتمضي إلى صديقك مستجيرًا مستغيثًا من حديث معشوقك، ولا تفعل مثل ذلك
بحديث صديقك إلى معشوقك.

(٥) يَلُمُّ شَعْتُ الْأَنْسَ: يُجْمَعُ المنتشر المتفرق منه.

(٦) التَّرَحُّ: الغم.

قال: فأجابني: أما صَدْرُ كتابك فغنيٌّ عن دلالتي عليه؛ لإحساسي بشاهده عندي، وكيف أعدَمُ الشاهد عليه^(١) وأنا الأول فيه، والجالِبُ له؟ وأما عَجْزُهُ فشديدُ الأخذِ بِطَرَفٍ من القسوة لسلوكٍ بأحد الأمرين عن الآخر. ولو علمت أن تمام الأفرح لمساعدة الأرواح، ومشاهدة الأشباح، لم تقل ما قلت، ولم يبلغ -أكرمك الله- في اللطافة^(٢) أن يكون من غير هذا النوع الذي نحن منه.

لكني أقول: كتبتُ إليك من محل موحش لبعذك، بلفظ مطرب آنسُ بذكرك مستوحشًا، وأستوحش إلى رؤيتك مُستأنسًا^(٣).

ولو كنت قريبًا مني لكان هذا كُلُّهُ مُطَرِّحًا، والأمل مُدْرَكًا مُقْتَرَحًا، والعائق مرفوعًا، والطرف منتزهًا، والزمان نضراً^(٤)، والدهر محمودًا، والسلام.

قال شاعر:

وحسبك حُسرةً لك، من صديق يكون زَمائُهُ بيدي عَدُوٍّ^(٥)
أخبرنا ابن مقسم قال: سمعت أحمد بن يحيى يقول: كتب رجل إلى الزبير بن بكار يستجفيه، فأجابه:

ما غيَّرَ الدهرُ ودًّا كنتَ تعرفهُ ولا تبدَّلْتُ بعد الذِّكْرِ نسيانًا^(٦)

(١) كيف أعدَمُ الشاهد عليه: كيف أفقد الدليل عليه.

(٢) اللطافة: الرفق، ومن الله تعالى: التوفيق والعصمة.

(٣) أي إنني أكون مُستأنسًا بذكرك في هذا المكان الموحش وأنا عندئذ في استيحاش، وأستوحش وأحنّ إلى مشاهدتك وأنا مستأنسٌ بالكثيرين من حولي.

(٤) ولو أنك قريب مني لانتفي من حياتي وطرح هذا كله، ولكانت الأمانِي والآمال مُدْرَكةً مُحَقَّقةً لوقتها وساعتها كأنها شيء أرْتَجِلُهُ ارتجالًا، ولزالت كل الموانع والعوائق وارتفعت، ولكانت العين متنقلة هنا وهناك بعيدًا تستمتع بما ترى، ولكانت الأيام بهيجة حسنة ذات رونق وبهاء.

(٥) يكفيك حسرةً وغمًا أن ترى صديقًا لك يملك زمامه ويتحكم فيه عدو له.

وقريب من ذلك قول الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ

(٦) لم تُغيّر الأيام شيئًا من مودتي التي تعهدتها وتعرفها، ولا استبدلتُ بذكرك نسيانك.

ولا حمدت وفاءً من أخي ثقةٍ إلا جعلتك فوق الحمد عنواناً^(١)
وكتب سعيد بن جبير إلى أخ له: أما بعد يا أخي، فأحذر الناس، واكفهم نفسك،
وَيَسْعُكَ بَيْتُكَ^(٢).

قال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحُبُّكَ في الله.

قال: فأطع من تحبني فيه.

قال أبو حازم المدني لسلمة بن دينار: لَأَن يُبْغِضَكَ عَدُوُّكَ الْمُسْلِمَ، خَيْرٌ مِنْ أَن
يَحْبُبَكَ عَدُوُّكَ الْفَاجِرَ^(٣).

سمعت ابن الجلاء يقول بمكة: يُقَالُ: مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ فَلَا عَيْشَ لَهُ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ
فَلَا ذِكْرَ لَهُ، وَمَنْ لَا مَالَ لَهُ فَلَا مَرْوَةَ لَهُ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَلَا دُنْيَا لَهُ وَلَا آخِرَةَ.

قال أبو عثمان النصبي: مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ فَلَا تَعَبَ لَهُ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ فَلَا حِجَابَ لَهُ،
وَمَنْ لَا مَالَ لَهُ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ.

قال شاعر:

هَبْنِي أَسْأْتُ - كَمَا زَعُمُ - تَ - فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأُخُوَّةِ؟^(٤)
وَإِذَا أَسْأَتَ كَمَا أَسَأْتُ، فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمَرْوَةُ؟^(٥)
وقال أعرابي: نَصَحَ الصَّدِيقُ تَأْدِيبَ، وَنَصَحَ الْعَدُوُّ تَأْنِيبَ^(٦).

(١) وما شكرتُ لإنسان جميلاً صَنَعَهُ بِي، إِلَّا اتَّخَذْتُكَ مَثَلًا أَعْلَى لِصَانِعِ الْجَمِيلِ، وَجَعَلْتَ مِنْكَ عُنْوَانًا عَلَى ذَلِكَ.
(٢) كُنْ مِنَ النَّاسِ عَلَى حَذَرٍ دَائِمٍ، وَخِذِ الْحَيْطَةَ مِنْهُمْ دَائِمًا، وَاسْتَغْنِ عَنْهُمْ، وَامْنَعْ نَفْسَكَ مِنْ أَنْ تَكْلِفَهُمْ شَيْئًا، ثُمَّ
الزَّمْ بَيْتَكَ، فَإِنَّهُ - دُونَ سِوَاهُ - هُوَ الَّذِي يَتَّسِعُ لَكَ وَلَا يَضِيقُ بِكَ.

(٣) إِنَّ كِرَاهِيَةَ عَدُوِّكَ الْمُسْلِمِ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ مَحَبَّةِ عَدُوِّكَ الْفَاسِقِ الْعَاصِيِ الْكَاذِبِ.

(٤) إِنْ كُنْتُ قَدْ أَسَأْتُ كَمَا ادَّعَيْتَ عَلَيَّ، فَأَيْنَ أَثَرُ الْأُخُوَّةِ الَّتِي بَيْنَنَا؟ وَأَيْنَ مَا تَوَجَّهَ صَحْبَتُنَا الطَّوِيلَةَ مِنَ الصَّفْحِ وَالْغَفْرَانِ؟
(٥) فَإِنْ بَادَلْتَنِي إِسَاءَةً بِإِسَاءَةٍ، وَجَرِيرَةً بِجَرِيرَةٍ، فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَكَرَمُكَ؟ وَأَيْنَ عَفْوُكَ الَّذِي تَمْتَارُ وَتَتَفَرَّدُ بِهِ؟ وَأَيْنَ
مَرْوَتِكَ الَّذِي لَا تَلْحَقُ بِهَا مَرْوَةٌ؟

(٦) إِنَّ الصَّدِيقَ إِذَا نَصَحَ لِي، فَإِنَّمَا يَهْدُنِي إِلَى تَقْوِيْمِي وَإِصْلَاحِي. أَمَّا إِذَا نَصَحَ لِي الْعَدُوُّ، فَإِنَّهُ يَهْدُنِي إِلَى تَوْبِيخِي
وَتَقْرِيعِي وَالتَّشْهِيرِ بِي.

قال الفضل بن يحيى: الصبر على أخ يعتب عليه، خير من أخ تستأنف مودته. وسمعت ذا الكفائيين ابن العميد ببغداد يقول: إنشاء المعرفة صعب. فلما ندرنا من مجلسه^(١) قال أبو إسحق الصابي: تربيتها أصعب من إنشائها. عرضت هذا الكلام على أبي سليمان، فقال: أما الإنشاء فإنما صَعِبَ لأنه لا أوائل له يُنَاطُ بها^(٢)، ويؤَسَّسُ عليها. وأما التربية فإنما صُعِبَتْ أيضًا لأنها تستعير من الإنسان زمانًا مديدًا هو يَشْحُ به، وعناءً متصلًا يشتد صبره عليه، ومالًا مبدولًا قلما تطيب النفس بإخراجه إلا إذا كان الكرم له طباعًا، ويجد من ضريته^(٣) إليه نزاعًا^(٤). وقال ذو الشامة يرثي أخاه:

ذكرت أخي أخا الخـ	ير الذي لم يُبَقِّ لي خَلَفًا ^(٥)
ولا أرجوه إلا الله منـ	ه الدهر مؤتلفًا ^(٦)
أخا ما كان لي كأخ	وبي برًّا، وبي لطفًا ^(٧)
كفى مَنْ كنت كافيهِ	وسدَّ مسدًّا من سلفًا ^(٨)
وحُقَّ لِعَيْنٍ مَنْ أَمسى	بما أَمْسَيْتُ مُعْتَرِفًا ^(٩)
من الإيحاش والإيجا	س والإفراد، أن تكفًا ^(١٠)

(١) نَدَرْنَا من مجلسه: خرجنا منه.

(٢) يُنَاطُ بها: يُوصَلُ بها.

(٣) ضريته: طبيعته وسجيته.

(٤) نَزَاعًا: اشتياقًا.

(٥) تَذَكَّرْتُ أخي الذي وَلَّى عني، والذي كان أخا الخير والبرِّ والمحبة، والذي لم يترك لي من بعده مثيلًا له أو نَدًّا.

(٦) والذي لم أطلب سواه أخًا جديدًا، أبتدئُ معه المودة والصُّحبة.

(٧) كان أخًا ليس لي أخ مثله، في برِّه وَحَدْبِهِ عَلَيَّ، والتلطف معي، والترقُّ بي.

(٨) إنه أغنى من كنتُ أنا مُغْنِيهِ، وقام مقام السالفين الصالحين الذين كانوا يقومون بحاجات الناس.

(٩) وقد وجب علي من يعترف له بهذا الفضل، وبهذه المكارم التي أعترف بها.

(١٠) من الوحشة والإفقار، ومن الخوف والتوجس، ومن التفرد والوحدة، التي أحسَّ بها كلها من بعده... وجب عليه أن تقطر عينه وأن يسيل دمعها حزنًا عليه.

وقال أبو بكر: خيرٌ إخوانك من آسأك، وخيرٌ منه من كفأك^(١). وخير مالك ما أغناك، وخيرٌ منه ما وراك.

قال المأمون الخليفة: من لم يؤاس الإخوان في دولته، خذلوه في شدته^(٢).
وقال الشاعر:

لا أعرفتك بعد الموت تَدْبُنِي وفي حياتي ما رَوَدَّتْني زادي^(٣)
وقال آخر:

ليس عندي - وإن تغضبتَ - إلا طاعة حرة، وقلب سليم^(٤)
وانتظار الرضا، فإنّ رضا الساد اتِ عزٍّ، وعُتْبُهُم تقويم^(٥)
وقال رجل من بلعبر:

لقد أَلْبَسُ المولى على غشّ صدره وأَفْقاً بيضات الضغائن بالهجر^(٦)
يُشير التداني بيننا كل دِمْنَةٍ ويَشْفِي التناي بيننا وعر الصدر^(٧)
وقال آخر:

ضَعُفْتُ عن الإخوان حتى جفوتُهُم على غير زُهدٍ في الإخاء، ولا الود^(٨)
ولكنّ أيامي تَخَرَّمَنَ منيتي فما أبلغ الحاجات إلا على جَهْدٍ^(٩)

(١) خيرٌ أصحابك من يُعزِّيك في مصائبك، ويُنسيك بلاياك، ولكنّ خيراً منه من يكفيك حاجتك، ويُغنيك عن المسألة.
(٢) من لم يُعزّ الناس وهو في عزّه وصولجان دولته وحكمه، نبذوه وتركوه ولم ينصروه إذا وقع في محنة أو شدة.
(٣) لا جدوى لي من بكائك عليّ وراثك لي بعد موتي، وفي حياتي ما أعتنتي وما نصرتني وما منحتني الزاد الذي أتزود به.

(٤) لا أملكك معك - مهما غضبت - إلا أن أطيعك طاعة لا حدود لها، وإلا أن أكون سليم القلب والصدر معك، لا أحمل لك إلا المحبة والود.

(٥) وإلا أن أنتظر رضاك عليّ دائماً؛ فإن رضا العلية مُجدٍ، وإن عتابهم لإصلاحٍ وتهذيبٍ.
(٦) إنني أصحاب الصديق وأنا أعلم ما تمتلئ به نفسه من حقد وضغينة، فأعالج ذلك بالهجر والابتعاد.
(٧) فإن القُرْب يهيج بيننا الأحقاد، وإن البُعد ليشفي الغيظ الذي يتوقّد في الصدور.
(٨) لقد زهدت إخواني ورغبت عن لقائهم، لا كراهيةً لهم وانصرافاً عنهم، ولكنّ ضعفاً عن احتمالهم.
(٩) ولكنّ حوادث الأيام استأصلت واقتطعت كل ما أبغيه وأتمناه، فلا أبلغ حاجة ولا أنال مطلباً إلا بجهد جهيدٍ.

وقال آخر:

من عَفَّ، خَفَّ على الصديق لقاءُهُ وأخو الحوائج، وَجَّهه مَمْلُولٌ^(١)
وأخوك، من وَفَّرَتْ ما في كيسه فإذا غدرت به، فأنت ثَقِيلٌ^(٢)

وقال آخر:

أَيَّامَ إِنْ قَلْتُ، قال في سَرَعٍ وإن كرهنا، بدا تَأْبِيهِ^(٣)
مُسَاعِدٌ، مُنْجِدٌ، أخو كرمٍ فليس شِبْهَهُ له يُدَانِيهِ^(٤)

وقال آخر:

قُلْ لِلَّذِينَ صَحَبْنَاهُمْ؛ فلم نَرَهُمْ -إِلَّا لِمَنْ صَحَبُوا- يَرْضُونَ بِالذُّونِ^(٥)
سلامة الدين والدنيا، فِرَاقُكُمْ وَقَرَبُكُمْ، آفَةُ الدنيا مع الدينِ^(٦)
أنا النذير لمغبونٍ بصحبَتكم مُجَارِفٌ جاهل بالأمر مفتون^(٧)
خاب الغيبين الذي يبغى مودتكم وليس هاجرکم -عندي- بمغبونِ^(٨)
وأخبرنا ابن مقسم، قال: أنشدنا أحمد بن يحيى الشاعر:

- (١) من كان عَفًّا لا يسأل إخوانه حاجةً، كان خَفِيْفًا على إخوانه لا يضيِّقون به، ولا يَسْتَقْبِلُونَهُ، أما ذو الحاجة فهو عندهم ثَقِيلٌ مَمْلُولٌ تضيق به صدورهم.
- (٢) إن أخاك الحقُّ هو من توفَّر له ماله، ولا تكلفه إنفاق شيء عليك منه، فإن كلفته إنفاق مال فأنت ثَقِيلٌ على نفسه، بغضٍ إليه.
- (٣) مرَّت بنا أيام كان صاحبي يُؤَيِّدُنِي في كل ما أقول، ويُوَافِقُنِي -دون تردد- فيما أبدي من آراء. وإن أنا أبديتُ كراهيتي لشيء، كَرِهَهُ وَأَبْغَضَهُ وامتنع عنه.
- (٤) فهو لي معين ذو نجدة كريم، لا أجد أحدًا يُشَبِّهُهُ أو يُدَانِيهِ.
- (٥) أخبر هؤلاء الذين صحبناهم فلم نرهم يَرْضُونَ بالحقير الهَيْنِ إِلَّا لأصحابهم! كأنما أصحابهم هم أعداؤهم الألداء!
- (٦) أخبرهم بأن السلامة والخير في الدنيا وفي الآخرة إنما هي في فراقهم والبعد عنهم، وأن القرب منهم هو آفَةُ الدنيا والآخرة، وسبب الشقاء فيهما.
- (٧) أنا المنذر لمن يصاحبون هؤلاء بأنهم مغبونون مخدوعون مُجَارِفُونَ «بفتح الراء» لا يكسبون خيرًا ولا يُنْمُون مالههم، جاهلون ليس بهم عقل.
- (٨) وإن من يبغى مودتهم فهو الخاسر المغبون، وإن من يهجرهم فهو الرابح الكاسب.

وإني لَتَصْفُو للخليل مودتي وقد جعلتُ أشياء منه تَرِيبُ^(١)
 أخاف لجاجاتِ العتاب بصاحبي وللجهل من قلب الحليم نصيبُ^(٢)
 فإن فاء، لم أعددُ عليه ذنوبه وهل -بعد فيئات الرجال- ذُنُوبُ؟^(٣)
 وقال ابن عروس:

يا فتى كانت به دنيا يَ تصفو وتَطيبُ^(٤)
 وله كانت تضيق الأر ضُ بي، حين يغيبُ^(٥)
 ما الذي رآبك والأيا م ما زالت تَرِيبُ؟^(٦)
 فيم إعراضك عني أيها الحرُّ اللبيبُ؟^(٧)
 أملاً، فهو ما لـ سَ يداويه الطبيبُ؟^(٨)
 أم لظنٍّ؟ فامتحن فالظنُّ يُخطي ويصيبُ^(٩)
 أم لعنبٍ؟ فعتاب الحر رَّ يجدي ويشيبُ^(١٠)
 أم لذنوبٍ؟ فلك الل ه بأني سأتوبُ^(١١)

- (١) وإني لأصفو لصاحبي، وأخلص له الودَّ مع ما أراه منه من أشياء تُشكِّكني في إخلاصه لي.
 (٢) وإني لأخشى من صاحبي التمادي في الخصومة والعناد فيها مهما كان هذا الصاحب حليماً كريماً؛ فإن للجهل والسَّفه نصيباً في نفس كل إنسان.
 (٣) فإن رجعت صاحبي عن غيِّه وثاب إلى رشده، فلن أعدَّ عليه ذنوبه، وإنما أنساها وأتجاوز عنها. وهل تبقى للصدِّيق ذنوب بعد أن يقيء إليَّ ويعود إلى مودتي؟
 (٤) أيها الفتى الذي كانت أيامي حلوة صافية طيبة بقربه.
 (٥) وكانت الأرض -على سعتها- تضيقُ بي إذا غاب عني.
 (٦) ما الذي جعلك تتشكك في مودتي وإخلاصي؟ أم ذاك شأن الأيام التي لا تُبقي على مودة، وإنما تعكِّرها -بالشك والريبة- وتفسدها؟
 (٧) ولماذا أعرضت عني وصددت؟ ولماذا هجرتني أيها العاقل الحرَّ الكريم؟
 (٨) هل كان إعراضك عن سأم، وضيق، ومَلال، فهذا ما لا دواء له عند الطبيب؟!
 (٩) أو هو عن ريبة وتظنن وتشكك؟ ولماذا لا تجربُنِّي حتى تتجلى لك حقيقتي وأنت تعلم أن الشك قد يصيب وقد يخطئ؟
 (١٠) أم تريد بهذا الإعراض العنب والملامة؟ فإن العنب قد يُفيد ويُصلح؟
 (١١) أم لذنوب ارتكبتها؟ فإني أعاهدك الله على أن أتوب، وعلى ألا أعود إلى ارتكابه.

وقال شاعر:

كيف صبري عن بعض نفس — سي؟ وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان؟^(١)
وقال آخر:

وإذا أَرَادَكَ صاحب بخيانه جعل التجنّي للجفَاء سبيلاً^(٢)
فترى دواعي الهجر في حركاته وكفى بذلك شاهداً ودليلاً^(٣)
وأخبرنا المرزباني قال: حدثنا ابن أبي الأزر قال: أنبأنا بیدار، قال: أنشدني ابن السكيت:

إني لأضبر من عَوْدٍ به جَلَبٌ عند المَلَمَّاتِ، إلا عند هَجْرانٍ^(٤)
إذا رأيت أزوراراً من أخي ثقةٍ ضاقت عليّ برُحْب الأرض أوطاني^(٥)
وما صُدُود ذوات الدلِّ أَرَمَضَنِي لكنما الهجر -عندي- هَجْرٌ إخواني^(٦)
فإن صَدَفْتُ بوجهي كي أجازيَهُ فالعين غَضْبِي، وقلبي غيرُ غَضبانٍ^(٧)
أخبرنا المرزباني أبو عبد الله، حدثنا الصولي، حدثنا أبو العيناء، قال: كان ابن أبي

(١) كيف أصبر على بعادك وأنت جزء من نفسي؟ وهل يُطبق الإنسان صبراً على اقتطاع جزء من نفسه وإبعاده عنه؟

(٢) إن أضمر صاحبك أن يخونك، وعزم على قطع الصلة بك، فإنه ينتحل لذلك الأسباب، فتراه يدعي عليك ذنباً لم تفعلها؛ ليجعل منها سبباً للجفاء.

(٣) فترى في حركاته أعمالاً تصلح لأن تكون أسباباً للهجر! وما هي إلا أسباب مُزَوَّرة مُدَّعاة! وهذا دليل على ما يضمّره من نية الغدر والخيانة!

(٤) العَوْدُ: المُسِن. جَلَبَ الدَّمُ: يَسَس.

إني لأكثر صبراً واحتمالاً من الهَرَمِ المُسِنِّ اليباس عند وقوع المصائب، إلا عند الهَجْران والفراق، فإني لا أستطيع لهما احتمالاً.

(٥) إن رأيت صدوداً ممن كنت أثق فيه وأطمئن إليه، فإني لا أطيق ذلك، وإن الأرض عندئذ لتضيق بي على اتساعها ورحبها.

(٦) وليس صدود الحسان ذوات الدلال هو الذي يُحرِّق أكبادي، لكنه صدود أصدقائي وهجرهم.

(٧) فإن أعرضت عنه لأجازه على صدوده عني، فإن عيني -دون سواها- هي التي تبدو غاضبة، وأما قلبي فخالٍ من الغضب مليء بالرّضا.

دؤاد يقول: لو أراد العباس بن الأحنف بقوله:

المرء قد يُرْزَقُ أعداؤه منه، وَيَشْقَى بالصدق الصديق! ^(١)
إصلاحاً بين قبيلتين من العرب، أو إقامةً لخطبة، أو إرسالاً لَمَثَلٍ وحكمة، كان
أبلغ وأحسن.
وله أيضاً:

إذا امتنع القريب فلم يُنَوَّلْ -على قُرب- فذاك هو البعيد ^(٢)
أخبرنا القاضي أبو السائب، حدثنا ابن أبي طاهر، قال الكندي: العباس -والله-
ظريف مليح حكيم، وشعره جَزَلٌ، وكان قليلاً ما يرضى الشعر، فكان ينشد هذا كثيراً
له:

ألا تعجبون كما أعجبُ صديقٌ يُسيء، ولا يُعْتَبُ ^(٣)
وأبغى رضاه على سُخْطِهِ فيأبى عليّ، ويستصعب ^(٤)
فيا ليت حظي إذا ما أسأْتُ، أنك ترضى ولا تغضب ^(٥)

وقال لنا الناقط: كتب أبو الحوراء إلى صديق له: الله يعلم أنك ما خطرَ ببالي
في وقت من الأوقات إلا مَثَلُ الذكر منك لي محاسنٌ تزيدني صبابةً إليك، وضناً بك،
واغتراباً بإخائك ^(٦).

أخبرنا ابن سحرة، حدثنا أبو إسماعيل الحرّمي، قال: دخلت على عبيد الله بن

(١) قد يحدث أن يرزق أعداء الإنسان منه، وأن يشقى به أصحابه.

(٢) إذا كفّ القريب يده عنك، ومنع عنك خيره وبرّه، فليس هذا قريباً لك، وإنما هو أبعد الناس عنك.

(٣) ألا ترون عجباً -كما أرى- في صديق يُسيء إليّ، ثم لا يحاول بعد ذلك أن يسترضيني ليمحو إساءته؟!

(٤) أطلبُ رضاه عني وترك سُخْطِهِ وغضبه عليّ، فلا يرضى بل يصعبُ ويقسو.

(٥) ليت نصيبي منك -إذا ما أسأت- أن ترضى، ولا تسخط عليّ ولا تغضب.

(٦) إنك تخطر ببالي دائماً، وأذكر محاسنك التي تزيدني شوقاً إليك، وحرصاً وبخلاً بك، وفرحاً وسروراً
بأخوتك.

عبد الله بن طاهر - وكنت قد تأخرت عنه - فقال:

رأيت جفاء الدهر بي، فجفوتني كأنك غضبانٌ عليَّ مع الدهر!^(١)
فقلت: أيها الأمير؛ لو علمتُ أنني أسمع هذا، لأعددتُ له جواباً يُناضلُ عني في الاعتذار،
ويتقدّمني بطلائع الشوق إليك، ويقوم لي مقام العذر قبلك. ولقد بدّهتني بمُفحمة^(٢)،
وتركتني بمُظلمة^(٣)، وبالله الذي أسأله الزُلفة عندك^(٤)، إني ما تأخرت إلا لعذر، خافيه
كالشمس وضوحاً، وغائبه كالحاضر عياناً، ومظنونه كالمشاهد يقيناً، ومع ذلك فلم أُخلُ
من خاطر شوق كالسنان ونزاع نفس كالجمر^(٥)، وتبرّم بالعيش كالحمام^(٦).
أفأنا أجفوك مع الدهر، وأكونُ إلّفاً له عليك؛ وأنا ألحاه^(٧) على جفائه لك، وإنحائه
على إرادتك بما خالف هواك^(٨)؟

كلا، والذي شقّ البصر، وجعلك لنا الوزر^(٩).

فقال لي: هذا جوابك عما لم تُعدّ له. فكيف بنا لو غمرتنا منك سحابتك الغداقة
ومُرنتك الدفاقة^(١٠)؟ لله درك بادها؛ ومروياً سابقاً، ومُصلياً^(١١).

(١) إنك قد وجدت الدهر قد هجرني فهجرتني أنت أيضاً، كأنما أنت غاضب عليّ مع الدهر!

(٢) بدّهتني بمُفحمة: فجأتني بما يُسكّتي، وأعجز عن الردّ عليه.

(٣) تركتني بمُظلمة: أي تركتني بمكانٍ مُحوشٍ مُظلم لا أرى فيه شيئاً.

(٤) الزُلفة عندك: القُرْبَة والمنزلة.

(٥) نزاع نفس كالجمر: اشتياق كالنار المتقدة.

(٦) تبرّم بالعيش كالحمام: سأمٌ ومَلَلٌ بالحياة كالسأم من الموت.

(٧) ألحاه على جفائه لك: ألومُه وأسبُه وأعييه لصدوده عنك.

(٨) إنحائه على إرادتك: أنحى عليه باللوائيم: أقبل عليه بها.

(٩) كلا، وحقّ الله الذي شقّ في وجوهنا هاتين الفتحتين اللتين بُصر بهما وهما العينان، والذي جعلك لنا ملجأً
نلجأ إليه في الملمات.

(١٠) إن كان هذا جوابك عما لم تكن تتوقع، وعمّا لم تُعدّ له الإجابة، فكيف إذا عرفت السؤال، وأعددت الإجابة
عنه؟ إنك عندئذ كنت ستغمرنا وتشملنا بسحابتك الغزيرة، وتعمّنا بمطرك المنصب المتدفق.

(١١) لله أعمالك الجلييلة، سواء كنت مرتجلاً مفاجئاً، أو كنت مروياً عنك من الناس بكلام يعرفونه عنك
ويعرفون أنك فيه السابق الأول الذي لا يُبارى ولا يُجارى، أو كنت التالي للسابق.

وقال آخر:

غير ما طالبين ذُحلاً، ولكن مَالَ دهرٍ على أناسٍ، فمالوا^(١)

وقال الخليع:

لا تعجبَنَّ لملة صَرَفْتُ وجه الأمير؛ فإنه بَشَرٌ^(٢)

وإذا نَبَا بك في سريره عَقْدُ الضمير، نَبَا بك النظر^(٣)

أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن علي الهجيمي، قال: حدثنا أبو داود الطائي، قال: جاء رجل إلى حماد بن زيد، فقال له: يا أبا سعيد، أطلب لي رفيقاً إلى مكة، ما بينك وبين سنة.

فلما جاء الحوّل، جاء رجل إلى حماد، فقال: أنا أطلب رفيقاً إلى مكة، فجمع بينهما، فمَضَيَا إلى ابن عون، فودَّعاه، وقالَا له: أَوْصِنَا.

قال: أوصيكما بخصلتين. قالَا: وما هما؟ قال: كَظْمُ الغيظ، وبَذْلُ المال. قال: فأتى أحدهما في منامه أن ابن عون أهدى لهما حُلَّتَيْنِ.

وقال الزبرقان:

ومن الموالى، مؤلَيَانِ: فَمِنْ مُعْطِيِ الْجَزِيلِ، وبَاذِلِ النَّصْرِ^(٤)

ومن الموالى ضَبُّ جَنْدَلَةٍ لَحِزُ المروءة، ظاهرُ الغَمْرِ^(٥)

(١) غير طالبي ثأر، ولكن الدهر مال عليهم وأعرض عنهم، فمالوا وأعرضوا.
(٢) المَلَّةُ (يفتح الميم): المَلَلُ والسَّأم، تقول: مَلَّ الشيءَ مَلَّةً: أي سَمَهُ وَضَجَرَ منه. أي لا تعجب إذا مَلَّكَ الأمير وضجر منك فصرف وجهه عنك، فإنما الأمير بَشَرٌ مثل سائر الناس يغتر به ما يغترى الناس من سأم وضجر.
(٣) إذا أَضْمُرْتَ في سريرتك كراهيةً لإنسان وتجاوفاً وتباعداً عنه، فإن نظراتك إليه ستدَلُّ على ذلك مهما حاولت إخفاءه وسُتْره.

(٤) الأصدقاء صِنْفَانِ: صِنْفٌ يعطي ويمنح الكثير والعظيم، ويبدل الذَّهب.
(٥) ومنهم صنف كتلك الدويبة التي توجد في الحجارة، شحيح بخيل لا مروءة له، ممتلئ بالحقد والغِلِّ البادئين الظاهرين على وجهه.

يجني عليك إذا استطاع، ولا يعطيك عند غنى، ولا فقراً^(١)
وإذا حَبَاكَ اللهُ، أرغمه ودعا، لتصبح غير ذي وفرٍ^(٢)

وقال آخر:

ومولى كداء البطن، لو كان قادراً على الدهر، أفنى الدهرُ أهلي وماليا^(٣)
وقال آخر:

ومولى قد رعيتُ الغيبَ فيه ولو كنتُ المُغيَّبَ، ما رَعَانِي^(٤)
وقال آخر:

فما حياةٌ امرئٍ أضحتْ مدامعُه مقسومةً بين أحياءٍ وأمواتٍ؟^(٥)
قيل لابن المقفع: بأيّ شيء يُعرَفُ الأخ؟

قال: أن ترى وجه منبسّطاً، ولسانه بمودته ناطقاً، وقلبه ببشره ضاحكاً، ولقربه في المجلس مُجيباً، وعلى مجاورته في الدار حريصاً، وله فيما بين ذلك مُكرماً.
قال شاعر:

لَهْفِي لِأَيَّامٍ مَضَتْ مشغولةً بكَ فرغاً^(٦)
وقال آخر:

- (١) لا يمنعه من الجناية عليك إلا الضعف عن ارتكابها، فإن قدر عليها فإنه لا يتوانى عن ارتكابها لحظة، وهو مناع للخير، بخيل به في فقره وغناه.
(٢) وإذا منحك الله نعمةً، وقع ذلك من نفسه موقعاً سيئاً وغضب وسخط، ودعا الله أن يسلبك تلك النعمة لتصير فقيراً لا مال في يديك، ولا غنى لديك.
(٣) لي صديق كالداء الدين، لو ملك يوماً زمام الدهر لسَلَطَه عليّ لثِقَنِي أهلي، ويهلك مالي.
(٤) لي صديق أحافظ عليه في غيابه، فإذا كنتُ أنا الغائب فإنه لا يحفظ مودتي ولا يرهاها.
(٥) ما جدوى حياة امرئٍ توزعت دموعه بين أحياء يهجرونه، وأموات يفقدهم؟
(٦) إنني حزينٌ متحسّرٌ على أيام سلفت وانقضت، كانت مشغولة، مليئة بالشوق إليك، والحنين الدائم إلى مطالعة وجهك، فارغة من الهموم والأحزان؛ لأن وجودك أضفى عليها البهجة والسرور.

وبي بَرَحْ شوقٍ لو بَشَّتْكَ كنههُ
ولا تأس من روح اجتماع يَضُمُّنا
لأيقنتَ أني في ودادك مخلصٌ^(١)
إلى بَرَدِ أيامٍ بَقُرْبِكَ يَخْلُصُ^(٢)
وقال آخر:

أتاني عنك ما ليس
فأغضيتُ على عَمْدٍ
وأدبْتُكَ بالهجرِ
فلما زادني المكرو
تناولتُك من شرِّي
فحرَّكتَ جناح الذ
إذا لم يُصلح الخيرُ
على مكروهه صَبْرُ^(٣)
وقد يُغضي الفتى الحرَّ^(٤)
ولما ينفع الهجرِ^(٥)
ه، واشتدَّ بي الأمرُ^(٦)
بماليس له قَدْرُ^(٧)
ل، لما مَسَّكَ الضَّرُّ^(٨)
فتى، أصلحه الشرُّ^(٩)
وقال آخر:

ولما رأيته لا صاحباً
ولا ذو العداوة بالمتَّقي
تقيّاً، ولا أنت بالعابدِ^(١٠)
ك، ولا ذو الصداقة بالحامدِ^(١١)

- (١) إن بي شوقاً متوهجاً لو أطلعتك على حقيقته لاعتقدت أني مخلص أمين في مودتي.
(٢) ولا تقنط ولا تيأس من أنه سيضمنا اجتماع يصفو ويسلم من الكدر، وتكون أيامه علينا برّداً وسلاماً.
(٣) بلغني عنك ما لا أستطيع الصبر على أذاه ومكروهه.
(٤) فأغضت عيني عامداً، وقد يضطر الإنسان الحرّ إلى الإغضاء.
وقد قيل في معنى قريب من ذلك:
أغضيتُ ضناً بعرضي أن يلمّ به
وقد يروق العمى للحرّ والصمّ^(٥)
(٥) وأردت تأديبك وتهذيبك بهجرانك، فلم يُجد ذلك - حتى اليوم - شيئاً.
(٦) فلما عظم الأمر واشتدَّ الكرب عليّ، وأحاط بي الضّرّ والمكروه.
(٧) أخذتُك بالشرّ الذي لا نهاية ولا حدّ له.
(٨) فخضعت وذلك عندما أصابك مني هذا الشرّ العظيم.
(٩) وكل إنسان لا يصلحه الخير والبرّ، فإن الشدّة والعنف كفيلاّن بإصلاحه.
(١٠) لما وجدت أنك لست بالتقيّ الذي يخشى الله ويتقي حرّماته، ولست بالعابد الذي يعبد الله في السرّ والعلن.
(١١) ووجدت أن عدوك لا يخافك ولا يحذرك، وأن صديقك لا يحمّد لك فعلاً ولا يشكر لك عملاً.

دخلتُ بك السوقَ سوقَ الرقيـ ق، وناديتُ: هل فيك من زائدٍ؟^(١)
 فما إن رأيتُ سوى واحدٍ يزيد على درهم واحدٍ^(٢)
 فبعثتُك منه بلا شاهدٍ مخافةً ردّك بالشاهد^(٣)
 وأُبتُ إلى منزلي حامداً وعاد البلاءُ على الناقدِ^(٤)
 وقال آخر:

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه يلوّن ألواناً عليّ خطوبها^(٥)
 إذا عبتُ منه خِلَّةً فهجرته دعّني إليه خِلَّةً لا أعيبها^(٦)
 وكان المهلب يعبج من أبيات المُنقّب العبدى - على ما حدثني به ابن البقال
 الشاعر -:

فإما أن تكون أخى بحقٍّ فأعرف منك غثي من سميني^(٧)
 وإلا فاطرخني، واتخذني عدواً، أنقيك وتّقينني^(٨)
 فإنني لو تخالفني شمالي خلافاً، ما وصّلتُ بها يميني^(٩)
 إذن لقطعتها، ولقلتُ: بيني كذلك أجتوي من يجتويني^(١٠)

- (١) لما وجدتكَ على تلك الحال السيئة، دخلت بك سوق العبيد الذين يمتلكهم الناس بالمال، يدفعونه ثمناً لهم، وناديت في السوق مُزايداً في ثمنك، وقلت: هل مَنْ يُزايِد ويشترى هذا؟
 (٢) فلم أجد سوى مشترٍ واحدٍ، قدّر ثمناً لك درهماً واحداً!
 (٣) فبعثتُ لهذا المشتري دون استحضار شاهد على البيع خشية أن يردّك إليّ!
 (٤) وعدت إلى منزلي وأنا أحمد الله على هذه الصّفقة، وعاد البلاء على هذا الشاري الذي نقدني ودفع إليّ بالدرهم!
 (٥) لي أخ تتخذ مودته الألوان التي تكون عليها الأيام! فمرة يكون صافياً، ومرة يكون مُعبراً.
 (٦) قد أخذ عليه صفة تسوءني فأهجره، ولكنني أجد فيه صفة أخرى تسرّني فأحمدُها له ولا أعيبه عليها.
 (٧) فإما أن تكون أخوتك لي حقيقةً فأدرك كُنه صداقتك إدراكاً حقيقياً، وأعرف السمين الممتلئ، والمهزول الغتّ منك.
 (٨) إن لم تكن كذلك فدع صداقتي واهجرني واتخذني عدواً أحذرُك وتحذُرني.
 (٩) ولو أن يدي اليسرى خالفَتني في أمر لقطعتها وفصلتها عن يدي اليمنى.
 (١٠) ولقطعتها تقطيعاً، وقلت لها: فارقيني وأغرّبي عني. وكذلك أكره من يكرهني، فأقطعها قطعاً لا وصل له.

وقال آخر:

بَلَوْتُهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا فَكُلُّهُمْ ذَلِكَ الْوَاحِدُ^(١)
وَكُلُّهُمْ خَيْرُهُ نَاقِصٌ وَكُلُّهُمْ شَرُّهُ زَائِدٌ^(٢)

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه لنا ابن شاهين: «تصافحوا؛ فإن التصافح يذهب غلّ الصدور، وتهادؤا؛ فإن الهدية تذهب السخيمة»^(٣).

قال أعرابي: البشْرُ سِحْرٌ، والهدية سِحْرٌ، والمساعدة سِحْرٌ.

وقال الأحوص:

فَإِنْ تَشْبَعِي مِنِّي، وَتُرْوِي مَلَالَةً فَإِنِّي -وَرَبِّي- مِنْكَ أَرْوَى وَأَشْبَعُ^(٤)
وقال آخر:

إِذَا كَتَبَ الصَّدِيقُ إِلَى صَدِيقٍ فَقَدْ وَجَبَ الْجَوَابُ عَلَيْهِ فَرُضًا^(٥)
وقال آخر:

وَصَاحِبٍ سَلَفَتْ مِنْهُ إِلَيَّ يَدٌ أَبْطَتْ عَلَيْهِ مُكَافَاتِي فَعَادَانِي^(٦)
لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّ الدَّهْرَ حَارِبَنِي أَبْدَى التَّنَدَّمَ فِيمَا كَانَ أَوْلَانِي^(٧)

(١) لقد اختبرت الناس واحداً واحداً، فوجدتهم جميعاً على شاكلة واحدة، وذوي طبيعة واحدة.

(٢) فجميعهم قليلو الخير كثيرو الشر، وجميعهم تزجج سيئاتهم حسناتهم.

(٣) إن التصافح ووضع صُفْح الكف في صفح الكف - كما يفعل الناس عند الملاقاة - يُذهب الحقد والضغينة من الصدور، وإن الهدية تذهب المودة من النفوس.

(٤) فإن تشبعي مني، وتزوي سأمك وملالك من صداقتي، فلتعلمي أنني أكثر منك رياءً وشبعاً.
قال شاعر:

فَإِنْ تَدُنُّ مِنِّي تَدُنْ مِنْكَ مَوْدَتِي وَإِنْ تَنَّا عَنِّي تُلْفِنِي عَنْكَ نَائِيًا

وقال آخر:

فَقُلْ لَخِيَالِ الْحَنْظَلِيَةِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهَا؛ فَإِنِّي وَاصِلٌ حَبْلٌ مِنْ وَصَلٍ
(٥) إذا أرسل صديق إلى صديق كتاباً، فقد وجب على من أرسل إليه الكتاب أن يردّ عليه بمثله.
(٦) أنعم عليّ أحد الأصدقاء بنعمة، فأبطأت في مكافأته عليها، فإذا به ينقلب لي عدواً مبيناً!
(٧) وعندما رأى تغير الدهر عليّ، ندم على ما أنعم به عليّ من نعمة!

أفسدت بالمنّ ما أوليت من حسنٍ ليس الكريم - إذا أولى - بمنّان^(١)
وقال أبو سائل:

أرى فيك أخلاقاً حسناً قبيحةً وأنت صديقٌ كالذي أنا واصفُ^(٢)
قريبٌ بعيدٌ، أبْلَهُ ذو فِطَانَةٍ سخيٌّ بخيلٌ، مُسْتَقِيمٌ مُخَالِفُ^(٣)
كذاك لساني، شاتمٌ لك مادحٌ كما أن قلبي، جاهلٌ بك عارفُ^(٤)
تلوّنت حتى لست أدري من العمى أريحُ جنوبٍ أنت أم أنت عاصِفُ؟^(٥)
ولست بذِي غِشٍّ، ولست بناصحٍ وإنّي لمن جهلٌ بشأنك واقِفُ^(٦)
أظنك كالسُّتُوق ما فيك فضةٌ فإن كنت مغشوشاً فإنك زائفُ^(٧)
وقال آخر:

أأمنحه وديّ، ويمنحني الأذى؟ لَحَى الله مَنْ ترضى بهذا خلأئقهُ^(٨)
وقال آخر:

بنفسي مَنْ إن قال خيراً، وفَى به وإن قال شراً، قاله وهو مازحُ^(٩)
وقال آخر:

- (١) وقد أفسدت يا صديقي نعمتك بمنّك، وما هكذا يفعل كرماء الناس.
(٢) إنني أجد فيك من الأخلاق ما هو حسن كما أجد فيك ما هو قبيح، وهذا ما وصفتك به سابقاً.
(٣) فأنت قريب مني وأنت بعيدٌ عني! وأنت ضعيف العقل وأنت ذو فهم! وأنت كريم وأنت بخيل! وأنت موافق وأنت مخالف! كل ذلك في آن واحد، وهو من المتناقضات التي لا يتفق وجودها جميعاً في فرد واحد!
(٤) وكذلك شأن لساني وقلبي معه، فلساني يسبّه ويمدحُه! وقلبي يجهله ويعرفُه! فكما يكون يكونان!
(٥) لقد صرّت ذا ألوان عديدة، وصرّت أنا أعمى لا أدري، أنت ريح لينة رخوة من رياح الجنوب؟ أم أنت ريح عاصفة شديدة؟
(٦) وهل أنت غاشٌّ غير مخلص؟ أم أنت مخلص أمين؟ إنني من جهلي بك حائر واقِفٌ لا أدري أي موقف أتخذه معك؟
(٧) وإنني لأحسبك كالدرهم الزائف البهرج.
(٨) أأبذل لصديقي مودتي، ويعطيني هو الأذى والضرر؟ قَبِّح الله ولعن من ترضى أخلاقه بذلك.
(٩) أفدي بنفسي صديقاً إن قال خيراً أنفذه وأداه، وإن قال شراً كان في قوله مازحاً لا يعدو قوله لسانه، ولا يتعداه إلى التنفيذ.

يرانا سواء، فَيُعْطِي السوا ءَ على كل حال، وإن زِدْتُ زادا^(١)
وقال آخر:

وقد تتعايش الأقسام حيناً بتلفيقِ التصنعِ والنفاقِ^(٢)
وقال آخر:

أراني إذا عاديْتُ قومًا ودِدْتُهُمْ وَأُنْأَى بُوْدَ القلبِ عَمَّنْ أَقاربُهُ^(٣)
ويأتيك ودي وهو سهلٌ وقد أبى فؤادك إلا النأيَ ما لا يغالبُهُ^(٤)
فصلني؛ فإني من جناحك مَنكِبٌ وما خير ريشٍ بانَ عنه مناكبُهُ؟^(٥)
وقال فيلسوف: خير الأصحاب من سَتَرَ ذنبك فلم يُقرَّعْكَ، ومعروفه عندك فلم
يمنن عليك^(٦).

وقال فيلسوف آخر: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليها فلا تُصدِّقْهُ، ولا
تعلمه أنك تكذبه فينتقل عن ودِّك، ولا ينتقل عن طبعه.

وقال فيلسوف آخر: حَسْبُكَ من عدوك كونه في قدرتك^(٧).

وقال فيلسوف آخر: لا تقطعْ أحدًا إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تُتْبِعْهُ
بعد القطيعة وقية فيه فينسُدَّ طريقه عن الرجوع إليك؛ فلعلَّ التجارب تردُّه إليك،
وتصلحه لك.

(١) يرانا على العدل وعلى الطريق الحق فيعطينا العدل والحق، وهو معنا كذلك، فإن زدنا، زاد.

(٢) قد يعيش الناس زماناً بتمويه الباطل وزخرفته، وبالنفاق وتصنع المودات.

(٣) إنني إذا وقع بيني وبين قوم عداً ودِدْتُهُمْ وتقرَّبْتُ إليهم، ولكني أبعدُ وأنأى عن الأقرباء مني.

(٤) ويأتي إليك ودِّي سهلاً دون مشقة منك، ولكن فؤادك يأبى إلا البعد والفرق والهجران.

(٥) فصلني ولا تقطع مودتي، فإنك إن كنتَ جناحاً فإني لك مَجْمَعُ عظم العُضدِ والكتف الذي يُمسك الجناح،
وما جدوى ريش غير متّصل بالمنكب؟

(٦) إن خير أصدقائك من أخفى ذنبك ولم يُؤنِّحْك ويُؤنِّبْكَ، ومن كانت أباديه كثيرة عليك، وصنائع معروفه
مُغْدَقَةً منه عليك، ولا يُكَدِّرْها بالتعيير والتشهير.

(٧) يكفيك من عدوك أنه في قبضة يديك، فلا تزدّه فوق ذلك عقاباً.

وقال فيلسوف آخر: لا يزال الإخوان مسافرين في المودة حتى يبلغوا الثقة، فتطمئن الدار، ويقبل وفود التناسخ، وتؤمن خبايا الضمائر، وتلقى ملابس التخلق، وتحل عقد التحفظ^(١).

وقال فيلسوف آخر: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة^(٢)، ثم يوكّلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيراً ونالوه، لم يذكروه ولم يشكروه. وإن رأوا شراً أو ظنوه، أذاعوه ونشروه. فإن أدمت مواصلتهم فهو الداء المعضل المخوف على المقاتل^(٣)، وإن استرحت إلى مصارمتهم ادّعوا الخبرة بك لطول العشرة لك، فكان كذب حديثهم مُصدّقاً، وباطلهم مُحققاً.

وقال شاعر:

إني لأمل أن ترتد ألفتنا بعد النذائر والبغضاء والإحْن^(٤)

قال أفلاطون: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله.

قال سقراط: لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك؟

وقال أفلاطون أيضاً: عمر الدنيا أقصر من أن تطاع فيها الأحقاد^(٥).

(١) الأصحاب - في مودتهم - كقوم مسافرين، يستمرون في رحلتهم حتى يثق بعضهم ببعض، فيدخلوا ديارهم آمنين مطمئنين، ويقبلوا نصيح بعضهم لبعض، ويأمن كل منهم خبايا قلوب الآخرين، وينزعون ملابس التخلق والتكلف والرياء والنفاق، وينحل ما عقدوه من الحرص والتحفظ.

(٢) إن إخوان الشؤ والشر، بناون عنك إذا نكبك الدهر بإحدى نكباته، فإذا أقبل الدهر بالنعمة أقبلوا عليك، ومن دأب هؤلاء أن يظهر لك الإخلاص والحب والمودة إلى أن تطمئن إليهم وتأنس بهم وتثق فيما يقولون وما يفعلون.

(٣) أي الداء الشديد الذي لا يهتدى لوجهه، والذي يعيي الأطباء، ويخشى منه على مقاتل الإنسان؛ لأنها إذا أصيبت قتلت صاحبها.

(٤) إني لأرجو أن تعود صداقتنا ومودتنا بعد هذه النذر وبعد هذه الكراهية والأحقاد.

(٥) إن الحياة أقصر وأقل اتساعاً من أن يتبع الإنسان أحقادها، ويجري وراء العداوات التي تستهلك وقته وعقله ونفسه.

قال الشاعر:

والعمرُ أقصرُ مدةً من أن يُكَدَّرَ بالعتاب^(١)
وقال أفلاطون أيضًا: إذا صحبت حازمًا فأرضه في إسقاط حاشيته، وإذا صحبت
أحمقًا فأسخطه في رضا حاشيته^(٢).

قيل لديدوجانس: ما الذي ينبغي للمرء أن يتحفظ منه؟
قال: من حسد إخوانه، ومكر أعدائه.
وقال أفلاطون: الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم. كما يتبع
الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح.

وقيل لأبارينوس: ما لفلان أعرض عنك؟
فقال: ما أشبه إقباله بإدباره، ومن زعم أنه يضرنني فلينفع نفسه^(٣)!
وقيل لثيفانون: من صديقك؟
قال: الذي إذا صرْتُ إليه في حاجة، وجدته أشدَّ مسارعة إلى قضائها مني إلى
طلبها.

وقال أنكساجوراس: إن الشدائد التي تنزل بالمرء، محنة إخوانه^(٤).
وقال أفلاطون: لا ينبغي للعاقل أن يتمنى لصديقه الغنى؛ فيزهي عليه، ولكن يتمنى

(١) العمر أقصر زمانًا من أن نكدَّر صفوه بالعتب واللوم وتقريع الأصحاب. قال شاعر:

ما في الحياة لأن تُعا تَب، أو تحاسب مُتَّسَع

(٢) إن صحبت حكيمًا يضبط أموره ويأخذها بالثقة، فاجعل رضاه في إغضاب الصغار الذي يلتفتون ويحيطون به،
وإن صحبت أحمق قليل العقل فاجعل غضبه في إرضاء هؤلاء؛ لأن الأول لا يرضى إلا بالحق الذي يُغضب
هؤلاء الصغار، والثاني لا يسخط إلا بالباطل الذي يرضيهم.

(٣) من ادعى أنه يستطيع الإضرار بي، فلماذا لم يستطيع أن ينفع نفسه؟

(٤) إن البلايا التي تحل بالإنسان، تكون امتحانًا لإخوانه واختبارًا لأخوتهم.

له أن يساويه في الحال^(١).

قيل لبشار: ما تقول في العتاب؟

قال: هو من الرجال خير، ومن النساء شر.

وقال أعرابي: ما افترق متعتان قط إلا على حسيكة^(٢).

وقال الأحنف: ما عاتبت أحداً إلا وما انثال عليّ منه، أكثر مما عاتبته عليه^(٣).

وقال ابن همام السلولي: ما عاتبت أحداً إلا وهو مغیظٌ مزهوٌّ، وما اعتذر إلا وهو ذليلٌ مقفوّ. فإذا كان العذر لا يسلم من الكذب، فكيف يسلم العتاب من الحقد؟

وسمعت ذا الكفایتین بمدينة السلام يقول لابن فارس: ما عاتبت أحداً إلا بلسانٍ يخرج عن طبع صحيح، وقلب نصيح، وفؤاد سجيح.

قال شاعر:

خليلٌ لي جزاءُ الله خيرًا كلما ذُكِرًا^(٤)

أطاع بهجرنا قومًا أطاروا بيننا شرًا^(٥)

وقال العتابي: قلت لأعرابي فُحّ^(٦): إني أريد أن أتخذ صديقًا، فابعثه لي حتى أطلبه.

(١) لا يصح لك أن ترجو لصديقك الغنى الواسع، والثراء العريض؛ فإنه إن أصاب ذلك فستجده مستكبرًا تباهاً عليك، ولكن ارجُ له أن يكون مثلك في الغنى والثروة مساويًا لك فيهما.

(٢) الحسيكة: الضغن والعداوة.

إنه لا يتعاتب صديقان ولا يتلاومان، إلا ويفارق كلُّ منهما الآخر وملء نفسه ضغن وعداوة.

(٣) ما عاتبت إنساناً يوماً، إلا وما انصبَّ عليّ من أذاه وشره، أجل وأعظم مما عاتبته ولمته عليه، وما ساوى عتابي يوماً ذنوب أصدقائي!

(٤) لي صاحب أدعو الله أن يجزيه خيراً كلما ذكره الذاكرون.

(٥) أوقع قومٌ بيننا وبينه، وأدعوا علينا ما لم نقل وما لم نفعل، فطبروا الشر والنار بيننا، فأطاعهم هذا الصاحب وهجرنا وقلائنا.

(٦) أعرابي فُحّ: محض خالص.

قال: لا تبعث؛ فإنك لا تجدّه.

قلت: فابعثه كيفما كان، حتى أتمناه وإن كنت لا ألقاه.

قال: اتَّخِذْ من ينظر بعينك، ويسمع بأذنك، ويبطش بيدك، ويمشي بقدمك، ويحطّ في هواك^(١)، ولا يرى سواك. اتَّخِذْ من إن نَطَقَ فعن فكرك يستملي^(٢)، وإن هجع فبخيالك يحلم^(٣)، وإن انتبه فبك يلود^(٤)، وإن احتجّت إليه كفأك، وإن غبت عنه دعاك. يستر فقره عنك لئلا تهتمّ له^(٥)، ويؤدي بشره لئلا تنقبض عنه^(٦).

قالت امرأة عبد الله بن مطيع لعبد الله: ما رأيت ألامّ من أصحابك، إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك.

فقال: هذا من كرمهم، يغشوننا في حال القوة منا عليهم، ويُفارقوننا في حال العجز منا عليهم^(٧).

وقلت للعباداني: من الصديق؟

قال: من شهد طرّفه لك عن ضميره بالوفاء والودّ؛ فإن العين أنطق من اللسان، وأوقد من النيران.

وكتب الزهيري إلى ابن السكن في آخر كتابه -وابن السكن إذ ذاك بالأهواز

(١) يحطّ في هواك: ينزل، ويضع رحاله، حيث تهوى وتحب.

(٢) إن نطق فإنه يأخذ عن عقلك وفكرك، ويستوحيهما، وكأنه يطلب إليهما أن يُمليا عليه لينطق بما يمليان.

(٣) وإن نام، فإنه يحلم بك، ويرى خيالك في الرّؤى التي يراها النائمون.

(٤) وإن استيقظ من نومه، فإنه يقصدك ويمضي إليك.

(٥) إنه يحجب عنك فقره، ويخفي حاجته، حتى لا تبذل له اهتماماً، وتجهد نفسك في سدّ هذه الحاجة، شأن الذين يحسبهم الناس أغنياء من التعفّف.

(٦) ويظهر لك البشر والسرور، مهما كان به من متاعب وآلام؛ حتى لا تنصرف عنه؛ فإن الإنسان ينصرف دائماً عن الحزين المصاب.

(٧) إنهم يزوروننا ونحن أقوياء عليهم، ولا يؤذي نفوسهم أن يرونا في تلك الحال، ويتركون زيارتنا ونحن عاجزون لا قدرة لنا عليهم حتى لا يؤذي نفوسنا أن يرونا في تلك الحال، وهذا وذاك لكرم نفوسهم.

والزهيري ببغداد:-

لئن غاب عن عينيَّ شخصك بالنَّوى لَمَّا غاب عن قلبي المصافاة والودُّ^(١)
ولا استبدلتك النفس منِّي ساعةً ولا انتقض الميثاق والودُّ والعقدُ^(٢)
أنشدنا علي بن هارون سنة خمسين وثلاثمائة، ومات سنة ستين:

لئن غبتَ عن عينيَّ بالبُعد والنَّوى لما غبتَ عن فكري وعن ناظر القلبِ^(٣)
أراك على بُعد المسافة بيننا كما تُبصر العينان مني على القُرْبِ^(٤)
وقال روح أبو همام:

وعينُ السخط تُبصر كلَّ عيبٍ وعينُ أخي الرضا عن ذاك تَعْمَى^(٥)
ولو يُمنى يديَّ تكرَّهتني إذن لَحَسْمْتُهَا بالنار حَسْمًا^(٦)
وقال ابن هبيرة في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من جليس مُغرٍ، وصديق مُطرٍ، وعدو مُسرٍ. وأعوذ بك من إرضاء النَّوْكَى، وكل ما أوجب ملابسة الحمقى^(٧). وأعوذ بك من أدب التجار، ومن أخلاق الصغار، ومن خُلطة كلِّ مُحَرَّمٍ تصعب رياضته، وكل حريص يَغُرُّه حُرْصُه^(٨).

-
- (١) لئن غاب شخصك بالفراق، فما غاب عن قلبي ودك وما فارقتني محبتك.
(٢) وما استبدلت بك سواك لحظة واحدة، وما انتكث عهدي، وما تقطعت جبال مودتي.
(٣) ولئن فارقت نظري ببدنك؛ فما فارقت عقلي وخيالي، وما فارقت قلبي الذي يخفق بحبك، والذي يراك أمامه دائماً.
(٤) فإني أراك بقلبي قريباً مهما طالت المسافة بيني وبينك، كما أراك بنظري قريباً دائماً مني؛ فإن القلب يبصر من بعيد بمثل ما تبصر العينان من قريب.
(٥) إن عين العدو المُبغض ترى كل عيوبك ولا ترى سواها، أما عين حبيبك فلا ترى إلا حسناتك ولا ترى سواها.
(٦) ولو أن يدي اليمنى أبغضتني وكرهتني، لقطعتها بالنار قطعاً لا يُبقي على شيء منها.
(٧) النَّوْكَى: الحمقى، جمع (نَوْك) وهو الأحمق. ملابسة: مخالطة.
(٨) أستجير بك من أن أضطرَّ إلى إرضاء الحمقى من الناس، ومن مخالطتهم ومعاشرتهم.
(٩) كما أستجير بك من أدب التجار الذين يبذلونه من ألسنتهم غزيراً كثيراً وليس في قلوبهم شيء منه، ومن أخلاق صغار الناس عقولاً، ومن مخالطة الجافي الغليظ الذي تتعذر رياضته وتذليله، والحريص الجشع الذي يغتر بما يجمع.

ونعوذ بالله من صحبة من غايته خاصة نفسه، والانحطاط في هوى مستسيره^(١).
وأستعيذ بالله ممن لا يلتبس خالص مودتك إلا بالتأتي لمواقع شهواتك^(٢)، وممن
يساعدك على ساعتك، ولا يفكر في حوادث غدك، ولا يبالي في أي أقطارها نزلت،
ومن أي أعيانها سقطت^(٣)؛ ولذلك قالوا: صاحب السوء قطعة من النار، وكذلك قال
القائل: ما رأينا في كل خيرٍ وشرٍّ، خيرًا من صاحب.

وكان يقول: اللهم احفظني من بوائق الثقات^(٤)، وعداوة ذوي القربات.

وقال شاعر:

إذا أنت لم تُشرك رفيقك في الذي يكون قليلاً، لم تشاركه في الفضل^(٥)
وقال آخر:

إذا قلّ مال المرء، قلّ صديقُه وضاعت عليه أرضه وسماؤه^(٦)
إذا قلّ ماء الوجه، قلّ حياؤه ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه^(٧)
وأصبح لا يدري - وإن كان حازماً - أقدامه خير له أم وراؤه^(٨)
وقال آخر:

- (١) ومن مصادقة من لا هم لهم إلا أنفسهم، وممن ينحطون في حبّ الشراب الذي يدور ويرتفع في نفوسهم، فيملك عليهم أمورهم.
- (٢) وعليك أن تستعيذ بالله ممن لا يرجو مودتك إلا إذا تهيأ واستيقن من الوصول إلى مواقع الشهوة والنفع منك.
- (٣) وممن صداقته لك موقوتة غير دائمة، فهو معك في لحظتك الحاضرة ولا شأن له بك بعدها، ولا يهتم إن رحلت عنه فلا يدري إلى أين ذهبت، ولا في أي النواحي أقمت.
- (٤) اللهم احفظني من دواهي الصحاب الذين أثق فيهم؛ فإنها شرّ الدواهي وأفدحها.
- (٥) إذا أنت لم تشترك مع صديقك فيما ينوبه من قليل الدواهي وصغيرها، فبالحري لن تشترك معه في جليلها وعظيمها.
- (٦) إذا افتقر الإنسان وقلّ ماله، تفرّق الصحاب من حوله وقلّوا، وضاعت عليه الأرض الرحبة والسماء الواسعة، وأصبح كأنه حبيس أسير في هذه الدنيا.
- (٧) إذا قلّ حياء الإنسان فلا خير فيه، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.
- (٨) وإذا انعدم الحياء من إنسان فقد صار - وإن كان صاحب حزم وحكمة - متخبطاً ضالاً لا يعلم أمسيه إلى الأمام خير له، أم رجوعه إلى الوراء؟

ستذكرني إذا جرّبت غيري وتعلم أنني لك كنتُ كَنَزاً^(١)
 بذلتُ لك الصفاء بكل ودٍّ وكنتُ كما هويت، فصِرْتُ جِزْراً^(٢)
 وهنّت إذا عززت، وكنتُ ممن يهون إذا أخوه عليه عزّاً^(٣)
 فرحتُ بُمديّة، فحزرتُ حبلي بها، ومودتي بيديك، حرّاً^(٤)
 فلم تتركُ إلى صلحٍ مَجَازاً ولا فيه لمَطْلَبٍ مَهَرّاً^(٥)
 ستُنْكُ نادماً في الأرض بعدي وتعلم أنّ رأيك كان عَجْزاً^(٦)
 وقال آخر:

أخوك الذي لوجئت بالسيف قاصداً لتضرّبه، لم يستغشك في الودّ^(٧)
 ولوجئت تدعوه إلى الموت، لم يكن يردُّك؛ إشفافاً عليك من الردّ^(٨)
 يرى أنه في ذاك وإنّ مُقَصَّرٌ على أنه قد آل جهداً على جهدٍ^(٩)
 وقال رجل من بني نهشل بن دارم:

إذا مولاك كان عليك عوناً أذاك القومُ بالعجب العجيب^(١٠)

- (١) إن جرّبت أصحاباً غيري، فستعلم أنني كنت خيراً، وكنت كنزاً لك وثراءً، وعندئذ ستذكرني وتعرف فضلي.
- (٢) فقد بذلت لك الودّ الخالص النقيّ، وكنت كما تريدني دائماً لا أضنّ عليك بشيء، فصرت اليوم بخيلاً لا تنضح بخير، ولا تجود يداك بشيء.
- (٣) وكنت أهون وأسهل إذا اشتدّت أنت وصعبت.
- (٤) فذهبت أنت - بعد كل هذا الودّ الذي بذلته لك - فاتخذت شفرة حادة، وقطعت بها حبال مودتي تقطيعاً.
- (٥) وأنت بهذا قد سدّدت كل طريق أجتارُهُ إل الصلح بيني وبينك، ولم تدع لي مكاناً أتحرك منه إلى الصلح.
- (٦) ولكنك ستندم على ذلك بعد حين، وتفكر فيما فعلت طويلاً، وتعلم أنك كنت بعيداً عن الحزم والحكمة والصواب.
- (٧) إن أخاك الحق هو الذي إن جئتُه تبغي قتله بالسيف، لم يدعُهُ ذلك إلى أن يخدعك في مودتك، أو يخونك في نصيحته.
- (٨) ولو أنك جئتُه داعياً له إلى الموت، ما ردّك عنه؛ خوفاً عليك من وقع هذا الردّ في نفسك.
- (٩) ومع هذا كله، فإنه يرى نفسه مُقَصَّراً فاتراً.
- (١٠) إن كان صديقك عوناً عليك - وليس لك - فإنك ستري من الناس العجائب التي لم تكن تتوقعها منهم.

فلا تخنع إليه، ولا تردّه وَرَمَ برأسه عرض الجنوب^(١)
 فما لشناء في غير ذنب - إذا ولّى صديقك - من طيب^(٢)
 قال عبد الله بن جعفر لصديق له: إن لم تجد من صحبة الرجال بُدًّا، فعليك بصحبة
 مَنْ إذا صحبته زانك، وإن حققت له صانك^(٣)، وإن احتجت إليه مانك^(٤)، وإن رأى
 منك خلّة سدّها^(٥)، أو حسنة عدّها، وإن وعدك لم يخرصك^(٦)، وإن كبرت عليه لم
 يرفضك^(٧)؛ إن سألته أعطاك، وإن أمسكت عنه ابتداك.

وقال دُعْبَل في معاذ بن سعيد الحميري:

فإذا جالسته، صدّرتَه وتنحّيت له في الحاشية^(٨)
 وإذا سايّرتَه، قدّمتَه وتأخرت مع المُستأنية^(٩)
 وإذا سايّرتَه، صادفتَه سلس الخلق سليم الناحية^(١٠)
 وإذا عاشرتَه، ألفتَه شرس الرأي أبيتا داهية^(١١)
 فاحمد الله على صحبته واسأل الرحمن منه العافية^(١٢)

(١) فلا تخضع لصديقك هذا، ولا ترغب في مودته، ولا تهتم بأن تجعله صديقاً لك، واضربه حتى تجنبه وتكسر
 جنبه.

(٢) فإن العداوة التي تكون من غير جريرة، والتي تُفرّق بينك وبين صديقك وتجعله يُولّي ويفرّ منك.. مثل هذه
 العداوة لا علاج لها ولا دواء.

(٣) إن حققت له صانك: إن اختصمت إليه حفظك ورعاك.

(٤) وإن احتجت إليه مانك: إن احتجت إليه احتمل مؤونتك وكفاك وعالك، وأنفق عليك.

(٥) وإن رأى منك خلّة سدّها: إن رأى فيك حاجة وفقراً سدّها وأزالهما عنك.

(٦) وإن وعدك لم يخرصك ولم يفسده.

(٧) وإن كبرت سنك، وصرت شيخاً فانياً لا يُرجى منك نفع، فإنه لا يتركك ولا يرميك ولا يتخلّى عنك.

(٨) إن جلست معه جعلته في صدر المكان، وتخلّيت له عن مكان الصدارة، واتخذت موضعك مع الصغار الذين
 لا شأن لهم.

(٩) وإن سرت معه جعلته أمامك، وتأخرت أنت مع السائرين في الخلف.

(١٠) وإذا لا يئنه وساهلته، وجدته سهل الأخلاق سليم القلب والصدر.

(١١) وإذا خالطته وصاحبته، وجدته سيئ الخلق شديد الخلاف.

(١٢) فاشكر الله على صحبتك له، واسأله سبحانه وتعالى السلامة منه.

وأراد رجل الحجّ، فأتى «شعبة بن الحجاج» فودّعه، فقال له شعبة: أما إنك إن لم ترَ الحلمَ ذُلًّا، والسفَهَ أنفًا، سلِمَ حُجُّكَ^(١).

وقال كثير:

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائِلٍ قليلٍ، ولا راضٍ له بقليلٍ^(٢)
وليس خليلي بالملول، ولا الذي إذا غبْتُ عنه، باعني بخليلٍ^(٣)
ولكن خليلي من يدوم وصاله ويحفظ سرِّي عند كل دخيلٍ^(٤)
وقال آخر:

لا تثقنْ بامرئٍ طويتهُ غشٌّ، ويُندي اللسانَ بالملقِ^(٥)
فربما يلبسَ الجديدَ دلًّا لأن يسترَ ما تحته من الخلقِ^(٦)
وقال آخر:

ولربما غفلَ الفتى عن نفسه ولحاضٍ عينَ عدوّه ترعاهُ^(٧)
حتى إذا ظفرَ العدوُّ بفُرصةٍ نفثَ الذي في بَغْضِهِ وِارَاهُ^(٨)
وقال آخر:

- (١) إن كنت من ذوي الرأي الذين يفرّقون بين الحلم والمذلة، كما يفرّقون بين السفاهة والأنفة. إن كنت من هؤلاء، فقد صار حجك إلى البيت الحرام صحيحًا سليمًا تُثاب عليه وتؤجر، وإن لم تكن منهم فلا ثواب لك.
- (٢) لستُ أقبلُ من صاحبي عطاءً قليلًا، ولا أرضى له عطاءً قليلًا.
- (٣) ولا أعدُّ خليلًا لي ذلك المتقلب السريع الملل، الذي إن غبْتُ عنه خان مودّتي، وباعني واشترى خليلًا آخر سواي.
- (٤) ولكن خليلي الحق هو من يبتقي على مودّتي سواء كنت حاضراً أم غائباً، ومن يحفظ سرّي ويصونه عن الناس جميعاً.
- (٥) لا تطمئن إلى صداقة امرئ ينطوي قلبه على الغش والفساد، ولسانه يترطب بمعسول الكلام ولّيته كذباً ونفاقاً ورياء.
- (٦) فقد يتخذ لك الصديق الجديد الحسن من الأثواب ليستر ما تحته من الأثواب الرثة البالية.
- (٧) ربما يغفل الإنسان ويلهو عن نفسه، ولكن عين عدوّه تراقبه ولا تغفل عنه لحظة.
- (٨) فإذا وجد عدوّه فرصة تمكّنه منه، أظهر ما يخفي من كراهية وبغضاء كاننا منطويتين في صدره.

تَغَرَّبْتُ، أَسْأَلُ مَنْ قَدْ أَرَى من الناس: هل من صديقٍ صَدُوقٍ^(١)
فَقَالُوا: عَزِيزَانِ، لَنْ يُوجَدَا صديق صدوق، وَبِضُّ الْأُنُوقِ^(٢)
وقال ثامسطيوس: الإنسان بلا أصدقاء، كالشمال بلا يمين.

وقال أرسطوطاليس: أخلص الإخوان مودةً، مَنْ لم تكن مودته عن رغبةٍ ولا رهبةٍ.
وقال هرمس: القربةُ تحتاج إلى المودة، والمودة لا تحتاج إلى القربة.

وقال سقراط: مما يدلّ على عقل صديقك ونصيحتك، أنه يدلك على عيوبك وينفيها
عنك^(٣)، وَيَعِظُكَ بِالْحَسَنِ وَيَتَعِظُ بِهَا مِنْكَ، وَيَزُجُّكَ عَنِ السَّيِّئَةِ وَيَنْزِجُ عَنْهَا لَكَ^(٤).
وقال خالد بن صفوان يصف رجلاً: ليس له صديق في السرّ، ولا عدوّ في
العلانية^(٥).

قال شاعر:

ومما يُسْكِنُ قَلْبَ الْغَرِيبِ رَفِيقٌ تَطِيبُ بِهِ الصُّحْبَةَ^(٦)
وقال آخر:

فلا تصحبْ أَخَا الْجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ^(٧)
فكم من جاهل أَرَدَى حليماً، حين آخَاهُ^(٨)

(١) تَغَرَّبْتُ عن داري وموطني أسأل مَنْ ألقى من الناس: ألا يوجد في هذه الحياة صديق دائم الصدق، حفيظ
على الوَدِّ؟

(٢) الْأُنُوقُ: الْعُقَابُ، وَقِيلَ ذَكَرَ الرَّخَمَ. يُقَالُ: «هُوَ أَعَزُّ مِنْ بِيضِ الْأُنُوقِ» وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ لِلْمَحَالِ أَوْ لَمَّا لَا سَبِيلَ
إِلَيْهِ. أَيْ إِنْ فِي الْحَيَاةِ شَيْئَانِ عَزِيزَيْنِ لَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَظْفِرُ بِهِمَا، وَهُمَا الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ الْمَخْلَصُ الدَّائِمُ
الْوَفَاءُ، وَالْعُقَابُ.

(٣) يرشدك إلى عيوبك، ولكنه ينفيها عنك إذا ذكرها الناس ونسبها إليك.

(٤) وينهاك عن فعل السوء، وينتهي هو عنه ولا يفعله رعايةً لك.

(٥) لا يصادقه الناس إلا علانية، ولكنهم يُبْغِضُونَهُ وَيَعَادُونَهُ سِرّاً وفي الخفاء.

(٦) مما يُهْدِي قَلْبَ الْمَغْتَرِبِ وَيُطَمِّنُهُ، أَنْ يَكُونَ لَهُ رَفِيقٌ صَالِحٌ تَطِيبُ بِهِ الْحَيَاةَ، وَتَزُولُ بِهِ وَحْشَةُ الْغُرْبَةِ.

(٧) لَا تُصَاحِبْ جَاهِلاً سَفِيهاً، وَاحْذَرُهُ، وَبَاعِدْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ.

(٨) فكم من جُهاَل سَفْهَاء أَهْلَكُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ حِينَ صَاحَبُوهُمْ.

يُقاس المرءُ بالمرءِ إذا ما هو ماشاه^(٩)
وفي الشيء من الشيء مقاييسُ وأشباه^(١٠)

وقال عبد الرحمن بن حسان:

ومتَّخِذٍ ودًّا لمن لا يودُّه كعمتذرٍ عذراً إلى غير عاذرٍ^(١١)
وقال المتلمس:

احفظ نصيحة من بدا لك نصحه وكذلك رأى الحرَّ - جهدك - فاقبل^(١٢)
وللقطامي:

لعلك إن رددت عليّ نصحي سيئدُمك الذي عملت يداك^(١٣)
وأنشدنا بندار بن غانم وكان عامل حلوان منها لنفسه:

يختار «عمرو» عداوتي سفهاً وأبتغي سلماً، ويمتنع^(١٤)
كلُّه إلى بغيه، سيضرعه والدهر بيني وبينه جَذع^(١٥)

كان يبلغ محمد بن الحنفية عن عبد الله بن الزبير ما يكره، فقال له أصحابه: إن إمساكك عنه يُجرُّه عليك. قال: ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد بداً من معاشرته بالمعروف، حتى يجعل الله له منه فرجاً ومخرجاً، وقد يدفع الله باحتمال المكروه مكروهاً أعظم منه.

أنشد أبو علي النحوي الشاعر:

(٩) إن المرء يُقاس بصاحبه الذي يصاحبه، وقد قيل: إن القرين إلى المقارن يُسبَّب

(١٠) إن في بعض الأشياء نظائر وأمثالاً لبعضها الآخر، وكذلك الأصدقاء.

(١١) إن من يطلب المودة من إنسان راغب عن مودته غير مُتَقَبِّلٍ لها، كمن يسطُّ عذراً لإنسان لن يقبل عذره، وسيرفضه دون بحث في صحته أو فساد!

(١٢) اعمل بنصيحة من يتضح لك إخلاصه في النصيحة، واجهد نفسك في العمل برأي الأحرار من أصحابك.

(١٣) إن أنت رفضت نصحي، فسيجعلك هذا الرفض تندم على ما جئت يداك.

(١٤) يعاديني «عمرو» جهلاً منه وسفهاً، وأريد مسالمته فيأبى ويمتنع.

(١٥) سأتركه وأدعه إلى ظلمه الذي سيهلكه ويضرعه، والدهر بيني وبينه باقٍ متجددٌ دائماً.

كيف أصبحت؟ كيف أمسيت؟ مما
يَزْرَعُ الوَدَّ في فؤاد الكريم^(١)
وقال شاعر:

ومن الناس من يودُّك حقًّا
صافي الود ليس بالتكدير^(٢)
فإذا ما سألتَه دَفَعَ فُلْسٍ
أَلْحَقَ الوَدَّ باللطيف الخبير!^(٣)
وقال آخر:

فلا تغررك خِلَّةٌ من تُواخي
فمالك عند نائبةٍ خليل^(٤)
وقال آخر:

ومن شيمتي أني إذا المرء ملّني
وأظهر إغراضًا، ومالَ إلى الغدر^(٥)
أطلتُ له فيما يحب عتابه
وفارقتُه في حسن مسٍّ، وفي ستر^(٦)
فإن عاد في ودِّي، رجعتُ لودّه
وإن لم يعد، أُلغيتُ ذاك إلى الحشر^(٧)
وقال آخر:

لولا شماتةُ أقوام ذوي حَسَكٍ
أو اغتنام صديقٍ كان يزجونني^(٨)

- (١) يسألني: كيف أصبحت؟ كيف أمسيت؟ وأمثال ذلك مما يخلق المودة في قلب الرجل الكريم.
(٢) قد يودُّك بعض الناس مودة حقيقية صافية خالصة لا يُكدرها شيء.
(٣) فإذا ما طلبت إليه يومًا أن يعطيك فُلْسًا واحدًا قليل القيمة من النحاس، تنصّل، ووكل ذلك إلى الله اللطيف بعباده، الكريم المتأن!
(٤) لا تخدعك صداقة ومؤاخاة أصحابك، فلن تجد واحدًا منهم في وقت الشدة وحلول النائبات.
ومثله قول الشاعر:
فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل!
(٥) ومن طبعي أنني إذا سئم صاحبي صداقتي، وصَدَّ عني، وجَنَحَ إلى الغدر والخيانة.
(٦) عاتبته بأحسن ما يحب من الكلام، وفارقتُه - في لمُس رقيق - فراقًا حسنًا طيبًا، وفي خفاءٍ عن الناس بحيث لا يستشعر أحد ما بيننا.
(٧) فإن رجعت إلى مودتي رجعت إليه، وإن لم يرجع فإنني أُلغيت هذه المودة إلى يوم القيامة.
(٨) لولا أنني أخشى أن يفرح ببلّيتي قوم ذوو عداوة وضغن، أو أن يَغْتَمَّ من أجلي أصدقاء محبوبون كانوا يأملون مني الكثير.

لما خطبتُ إلى الدنيا مطامعها ولا بذلتُ لها نفسي ولا ديني^(١)
وقال آخر:

أُحِبُّ من الإخوان كلَّ مُواتٍ وكلَّ غَضِيضِ الطرف عن عثراتي^(٢)
يساعدني في كلِّ أمرٍ أُحِبُّه ويحفظني حيًّا، وبعد وفاتي^(٣)
فمن لي بهذا؟ ليت أني وجدته فقامته ما لي من الحسنات^(٤)
وقال آخر:

كريم له من نفسه بعض نفسه وسائره للحمد والشكر أجمع^(٥)
وقال آخر:

لم يبق مما فاتني كسبه إلا فتى يسلم لي قلبه^(٦)
ينأى فلا يفسده نأيه عني، ولا يُسئمه قربه^(٧)
يكون حسبي من جميع الورى في كل حال، وأنا حسبه^(٨)
وقال آخر:

عُثِي عليك مقارن العذر قد زاد عنك حفيظتي صبري^(٩)

- (١) لولا هذا وذاك ما اهتممت بشيء من أمور الدنيا، وما طمعت في نيل غرض من أغراضها، وما بذلت لهذه المطامع كرامتي وتقواي، وما أهنت من أجلها نفسي.
- (٢) أحب من الإخوان من يوافقني في آرائي وفيما أذهب إليه من الأمور، فيكره ما أكره ويحب ما أحب. كما أحب الصديق الذي يَغْضِي وَيُغْلِقُ عَيْنَهُ عن زلاتي وأخطائي ولا يَتَّبِعُهَا واحدة واحدة.
- (٣) فهو يُعِينُنِي على ما أحب من الأمور، ويصون مودتي طول حياتي وبعد مماتي.
- (٤) فأين هو هذا الصديق؟ ومن يدلني عليه؛ ليقترن معي ما لي من حسنات؟
- (٥) رجل كريم لا يملك من نفسه إلا بعضها القليل، أما باقيها الكثير فقد نزل عنه للمكرات وللمروءات التي تجعل الناس يلهجون بحمده وشكره والثناء عليه.
- (٦) لم يبق لي مما ضاع عليّ وفاتني كسبه، سوى صديق يُخَلِّصُ لي الودَّ، ويصنِّي لي قلبه ويخلصه من الأحقاد والضغائن.
- (٧) إذا ابتعد عني فلا يُفسد الابتعاد مودته، وإن كان مني قريباً فإنه لا يملّ صحبتي ولا يسأمها.
- (٨) إن وجدتُ هذا الصديق فإنه يكفيني من الخلق أجمعين، وأنا أيضاً أكفيه منهم جميعاً.
- (٩) إن عتابي عليك يصاحب عذري لك، ولذا فقد دفع صبري عليك، غضبي منك.

فمتى هفوتَ، فأنت في سعةٍ ومتى جفوتَ، فأنت في عذرٍ^(١)
ترك العتاب - إذا استحقَّ أخٌ منك العتاب - ذريعة الهجر^(٢)
وقال آخر:

إقبل معاذير من يلقاك مُعتذراً إن برَّ عندك فيما قال، أو فجراً^(٣)
خيرُ القرينين مَنْ أغضى لصاحبه ولو أراد انتصاراً منه، لانتصراً^(٤)
وقال آخر:

صديقك - حين يذخر عنك خيراً - وآخر لست تعرفه، سواءً^(٥)
وقال آخر:

فإن تنأ عنا، لا تضرنا، وإن تعد تجذنا على العهد الذي كنت تعلم^(٦)
وقال آخر:

بلوتُ الناس قرباً بعد قرْنٍ فلم أر غير خلانِ المَقَالِ^(٧)
ولم أر في الخطوب أشدَّ هولاً وأصعبَ، من معادة الرجالِ^(٨)
وذقتُ مرارة الأشياء طُرّاً فما طعمُ أمرٍ من السؤالِ^(٩)
وقال آخر:

(١) فإذا أخطأت فإن عفوي يسعك، وإذا هجرتني فإنني ألتمس لك المعذرة.
(٢) إذا ارتكب أخ لك ما يستوجب عتابه، ثم تركت هذا العتاب، فإنك قد مهّدت له سبيل الهجر.
(٣) إذا جاءك صديقك مُعتذراً، فاقبل عذره، سواء كان صادقاً فيما اعتذر به أو كان كاذباً.
(٤) إن خير الصاحبين من يغفر لصاحبه سيئاته مع قدرته على التَّنْكِيل به وأخذ الثأر منه، فإن العفو حقاً هو العفو عند المقدرة.

(٥) إن الصديق الذي يخبأ عنك الخير ويمنعه، يستوي هو ومن لا تعرفه من الناس، ولا تربطك به رابطة صداقة.
(٦) إنك إن هجرتنا وبعدت عنا فلن يضرنا ذلك في شيء، وإن عُدتَ إلى مودتنا فإنك ستجدنا محافظين على العهد، باقين على الوُد الذي كان بيننا.

(٧) لقد اختبرتُ الناس أعواماً طويلة، فما وجدت صداقتهم إلا كلاماً لا يعدو اللسان!
(٨) ما وجدت في الشدائد أشد فزعاً وهولاً من معادة الرجال، وقديماً قال الشاعر: وإن عدواً واحداً لكثير.
(٩) ولقد ذُقتُ آلام الأشياء جميعها، فما وجدت ألم من سؤال الناس وطلب شيء منهم، فإن له مرارة لا تعد لها مرارة.

فإنك لن ترى طَرْدًا لحرٍّ كإلصاق به طَرَفَ الهوان^(١)
ولم تجلب مودة ذي وفاءٍ بمثل البذل أو لطف اللسان^(٢)
وقال فيلسوف: من لم يرض من أخيه بحسن النية لم يرض منه بحسن العطية^(٣).
وقال أعرابي: الحِفاظَ عمودُ الإخاء^(٤).

وقال فيلسوف آخر: لكل جليلة دقيقة، ودقيقة الموت الهجر^(٥).
وقال شاعر:

إذا أنت لم تترك أخاك لزلةٍ إذا زلَّها، أو شكُتْما أن تفرَّقا^(٦)
وقال آخر:

إذا أنت لم تغفر ذنوبًا كثيرةً تُريبك، لم يسلم لك - الدهر - صاحب^(٧)
ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه، يمت وهو عاتب^(٨)
وقال آخر:

أردت لكَيْما لا ترى لي زلةً ومن ذا الذي يُعطى الكمالَ فيكمُل؟^(٩)
ومن يسأل الأيام نأي صديقه وصرْف الليالي، يُعط ما كان يسأل^(١٠)

- (١) لن نجد شيئاً أكثر إبعاداً للحرِّ مثل أن تمسَّه بشيء من الإهانة ولو كان قليلاً هيئاً.
(٢) وإنك لن تجلب صداقة الرجل الوفيّ بشيءٍ خيّر من البذل والعطاء ومن رقة القول وعدوبة اللسان.
(٣) إنك إن لم تكْتَفِ من صديقك بنيته الحسنة على إعطائك والبذل لك، فما أنت بمكتفٍ منه بعطاء مهما كان حسناً كبير القيمة.
(٤) إن مراعاة الصداقة والمواظبة عليها هي العمود الذي تقوم عليه.
(٥) لكل عظيمة من عظام الأمور لحظة محدّدة، ولحظة موت الصداقة هي لحظة الهجر.
(٦) إذا أنت لم تهجر صديقك لجرم ارتكبه في حقك، فإنكما توشكان أن تتفرّقا وينقطع حبل مودتكما، فإن الهجر علاج لزلّات الأصدقاء.
(٧) وإذا أنت لم تتجاوز لصديقك عن أخطاء تكرهها وتغضب لها، لم يبق لك صديق طوال حياتك.
(٨) وإن الذي لا يصفح عن بعض ما يرتكبه صديقه، فإنه سيقضي حياته مُعَاتِبًا لائماً لإخوانه، وسيظل كذلك حتى الممات.
(٩) إنك تريد ألا تكون لي زلة واحدة! ومن هذا الذي منحه الله الكمال كلّ فلا يزل ولا يُخطئ؟
(١٠) من يطلب إلى الله أن ينأى عنه أصدقاؤه، وأن يوزأهم بالحدائث الجسام، فإن الدهر سيعطيه ما يطلبه لأصدقائه!

وقال آخر:

نضع الزيارة حيث لا يُزوي بنا كرم المزور، ولا يُعَابُ الزُّورُ^(١)

وقال آخر:

قل للذي لست أدري من تلونه أناصح، أم على غشٍّ يُداجيني؟^(٢)

إني لأكثرُ مما سُمّنتي عجبًا يدُ تشحُّ، وأخرى منك تأسوني!^(٣)

تغتابني عند أقوام، وتمدحني في آخرين، وكلُّ عنك يأتيني^(٤)

هذان أمران شتى بؤنُ بينهما فاكفف لسانك عن ذمي وتزيني^(٥)

وقال آخر:

كلُّ يُوازيك المودة بالسوا يُعطي ويأخذ منك بالميزان^(٦)

فإذا رأى رُجحان حبة خردلٍ مالت مودته مع الرُّجحان^(٧)

وقال آخر:

والصدق أفضلُ ما لفظت به إنَّ النفاقَ سجيّةٌ تُردي^(٨)

إني - وإن أظهرت شكركم - أخفي وأضمِرُ غير ما أبدي^(٩)

(١) إننا نزور الإخوان حيث لا يعيننا كرم الذين نزورهم، ولا يلومنا أحد على الزيارة.

(٢) قل لهذا الذي لا أعلم - من كثرة تلونه وتقلبه - أهو ناصح مخلص لي؟ أم هو منافق يخدعني؟

(٣) إني لأعجب مما ألقاه منك! فلك يدُ شحيحة تضنُّ عليَّ بكل شيء، ولك يد أخرى تداوي جراحي، وتعزّيني وتساعدني فيما ينوبني!

(٤) تذكّرني عند بعض الناس بالسوء الذي يغمّني، وعند آخرين بالخير الذي يسرّني، فيبلغني هذا عنك كما يبلغني ذلك.

(٥) والسوء والخير أمران متناقضان بينهما بُعدٌ كبير، فامنع لسانك عن الاثنين: ذمي ومدحي.

(٦) كل من الناس يمنحك قدرًا من الودّ كالقدر الذي تمنحه تمامًا بالعدل والحق، فهو يعطيك مثل ما تعطيه، ويأخذ منك مثل ما تأخذ منه.

(٧) فإن وجد زيادة تعادل حبة صغيرة جدًا من حبات الخردل، فإن مودته تميل مع هذه الزيادة!

(٨) أفضل كلام تنطق به هو ما كان صادقًا، أما الكذب والخداع والنفاق، فهي صفات تهلك صاحبها.

(٩) إنني - وإن أبديت شكرًا لكم وثناء عليكم - فإنني أضمّر لكم في نفسي غير هذا الذي أبديه.

لا مرحبًا بوصول ذي ملقٍ يُكدي مودته، ولا يُجدي^(١)
 وإذا الصديقُ ذمَّتْ خِلَّتْهُ صَيَّرْتُ قُطْعَ حباله وكُدي^(٢)
 حتى أرى رجلاً يعاشرني بمودة أطرى من الورد^(٣)
 وله أيضًا:

لو أن كَفِّي غيرُ نافعتي لقطعتها بالفأس من زُندي^(٤)
 عيني - إذا قَذِيتْ - ضَجِرْتُ بها فأودَّ لو سالت على الخدِّ^(٥)
 أنا عَبْدٌ من أرضى مودته ثم الخليفةُ بعد ذا، عَبْدِي!^(٦)
 وأفرَّ ممن خانني فرَّقًا إن الخيانةَ علَّةٌ تُعدي^(٧)
 وقال ديوجانس للإسكندر لما مَلَكَ: أيها الملك، إني إلى اليوم كنت أخًا، وأنا
 اليوم تابع، وشتان بين الأخ والتابع.

فقال الإسكندر: الأخوة قبل اليوم كانت أنعم بك، وهذه الحال اليوم أرفع لك،
 وإذا كنت تباطني على ما عهدناه قديمًا، لم يضرك أن يكون ظاهرك على ما نستديم
 به أنسنا حديثًا^(٨).

قال شاعر:

- (١) إني لا أرحب بصداقة المنافق المخادع الذي يبخل بالعطاء وبالخير، والذي لا تنفعني صداقته بشيء.
- (٢) وإذا وجدت الصديق ذا خصال سيئة ذميمة، جعلت همِّي في أن أقطع حبال المودة بيني وبينه.
- (٣) إلى أن ألقى إنسانًا يُصاحبني بمودة ناعمة ليّنة سهلة أطرى من الأزهار والورد.
- (٤) ولو كانت كَفِّي غير ذات نفع لي، لقطعتها بالفأس من ذراعي وما أبقيت عليها، وما بقاؤها إذا لم تكن ذات جدوى لي؟
- (٥) ولو أن عيني فسدت، وكلَّ بصرها، ووقع فيها ما حجب الرؤية عنها، لتمنيتُ أن تفنى وتسيل ماءً على خدي ولا تبقى لها باقية.
- (٦) إني عَبْدٌ خاضعٌ لمن رضيت بصحبته، ولكنني لست عبدًا لسواه، بل إن الخليفة نفسه عَبْدٌ لي!
- (٧) وإني لأفارق الذي يخونني خوفًا منه؛ فإن الخيانة داء يُعدي الآخرين.
- (٨) إن كنت تضمّر لي المودة المعهودة بيننا، فلا يضرك أن تبدو للناس في مظهر التابع لي حتى نستبقي تلك المودة، ونستديم ذلك الأنس.

لعمري لئن رِيحُ المودة أصبحت شمَالاً، لقد بدَّلت وهي جَنُوبٌ^(١)
وقال آخر:

وأني لِمِكرامٍ لِمُكرِمٍ نفسه وأبتذلُ المرءَ الذي لا يصونها^(٢)
متى ما تَهَنُّ نفسي على من أودَّه أَهْنُهُ، ولا يكرمُ عليَّ مُهينها^(٣)
وقال آخر:

ومن نَمَّ في الناس لم تُؤْمِنْ عقاربُه على الصديق، ولم تُؤْمِنْ أفاعيه^(٤)
فالويلُ للعهد منه، كيف ينقضه والويلُ للودِّ منه، كيف يُفنيه؟^(٥)
وقال آخر:

وعينُ الفتى تُبدي الذي في ضميره ويُعرَف بالفحوى الحديث المغمَّسُ^(٦)
وقال أعرابي: عاشرُ أخاك بالحسنَى.

وقال أعرابي آخر: أوحشُ قريبك إذا كان في إيحاشه أنسُك^(٧).
وقال شاعر:

فلا أدعُ ابن العم يمشي على شفا وإن بلغني من أذاه الخنادُعُ^(٨)

- (١) وحتى إن صارت مودتنا كريح الشمال الباردة، فقد تتبدل إلى ريح الجنوب الحارة.
(٢) إني لشديد الإكرام لمن يُكرم نفسه ويصونها عما يؤدي بها إلى الإهانة، ولكنني أمتهن المرء الذي لا يحترم نفسه ويرتكب من الصغائر ما يحمل الناس على ازدراؤه.
(٣) إن هانت نفسي وصغر قدرها لدى الصديق الذي أبذل له ودي، فإني أهين ذلك الصديق ولا أعطيه شيئاً من الودِّ، ولا أكرم يوماً من يهين نفسي.
(٤) من كان نماماً واشياً يسعى بالإفساد بين الناس، لم يأمن الناسُ صداقته التي هي كالحيات الخبيثة والعقارب ذات السمِّ اللاسع.
(٥) فالعذاب والشرُّ له من نقض العهد، وخيانة الود وتبديده وإفناؤه.
(٦) الفحوى: فحوى الكلام، معناه ومذهبه، تقول: «عرفت ذلك في فحوى كلامه» أي فيما تنسبت من مراده بما تكلم به. أي إن عين الإنسان تظهر ما يخفيه في ضميره، ويدرك الإنسان ما يخفي في الضمير منها.
(٧) أوحشُ قريبك واذهب عنه وانفرُّ منه إن كان في ذلك سَكَنٌ وراحة لك.
(٨) الشَّفَا: حرِّف كل شيء وحدّه. الخنادع: الجنادب، وهي الصغير من الجراد.

ولكنْ أواسيه، وأنسى ذنوبه لترجعه يوماً إليَّ الرواجع^(١)
وحسبك من ذلٍّ، وسوء صنيعه مناواة ذي القربى، وإن قيل: قاطع^(٢)
وقال آخر:

فلا تغترزُ برواء الرجال وإن زخرفوا لك، أو موهوا^(٣)
فكم من فتى يُعجب الناظرين له ألسُنٌ، وله أوجُه^(٤)
ينام إذا حَصَرَ المكرماتِ وعند الدناءة يستنبه^(٥)

وقال الخليل النحوي: رغبتك في الزاهد فيك ذلٌّ نفس، وزهدك في الراغب فيك
قصر همة.

وقال شاعر:

وتنكرتُ حالَ الصديق، فبُعْدهُ عني، ومحضره لديّ سواء^(٦)
وبدت عليّ من الأعادي رقةً ومن الصديق فظافةً وجفاء^(٧)
وألفتُ ضنكَ العيش عندك فاستوتُ عندي به السرَّاء والضرَّاء^(٨)
وعلى الليالي أن تلمَّ صُروفها وعلى الكريم تحمُّلٌ وعزاء^(٩)

= إني لا أترك ابن عمي يتعرّض للخطر، ولو أدى إيذاؤه لي إلى أن يبلغ الجراد داري ومنزلي.

(١) وإنما أشدَّ أزره وأغتفر له ذنوبه، حتى يرجع يوماً إلى صداقتي ومودتي.

(٢) يكفي ذلاً وسوء فعال أن يعادي الرجل أقرباءه وإن قاطعه وهجره.

(٣) لا نتخدعُ بحُسن منظر بعض الناس، مهما زَيَّنوا لك القول وحسنوه.

(٤) فكثير من الناس يعجبك منظرهم، ويُبهرك مرآهم، ولكنك إذا امتحتهم وجدت لهم عدداً من الألسن، وعدداً
من الوجوه! يستعملون بعضها لهذا، وبعضها لذاك!

(٥) وربّ صديق لك ينام أو يتناوم هارباً عندما يدعو الداعي إلى البذل والتضحية، ولكنه يستيقظ ويتنبه عندما
تدعو دواعي الخسة.

(٦) لقد اختلطت عليّ حال الصديق، وصار بُعْدهُ عني وقُرْبُهُ مني سواء.

(٧) وتبدلت الأمور فعاملني العدوّ برحمة ولين، وعاملني الصديق بقسوة وخشونة وغلظة!

(٨) وتعوّدت ضيق العيش، حتى أصبح الرِّخاء والشدة عندي سواء.

(٩) فلنجمع الليالي خطوبها كلها عندي؛ فإن الكريم الحرَّ يحتمل كل خطب ويتعزَّى عن كل مصيبة.

قال مالك بن دينار: نَقَلَ الحِجَارَةَ مع الأبرار، أنفع لك من أكلِك الخبيصَ مع الفجّار^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «تَهَادَوْا تحابُّوا».

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة، قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا، وتبسّم كل واحد منهما لصاحبه، تحاتَّت^(٢) خطاياهما كما يتحاتُّ ورق الشجر. فقلت: إن هذا ليسير.

فقال: لا تقل ذاك؛ فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ^(٣) بَيْنَكَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فعلمت أنه أفقه مني.

قال ثابت البناني: جالست الناس خمسين سنة، فما جالستُ أحداً إلا وهو يحب أن تنقاد الناس لهواه، وإن الرجل ليُخطئ، فيحب أن يُخطئ الناس كلهم.

التقى يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما السلام، فتبسّم «يحيى» في وجه «عيسى»، وقطَّب^(٤) «عيسى» في وجه «يحيى»، وقال له: أتتبسّم كأنك آمن^(٥)؟

فقال له «يحيى»: أتعبس كأنك قانط^(٦)؟

فأوحى الله أن ما فعله يحيى أحب إليّ.

وقال شاعر:

(١) لَأَن تَحْمِلَ مَشَقَّةَ نَقْلِ الْحِجَارَةِ مع قوم مخلصين متحابين رفقاء، أنفع لك وأجدى عليك من أن تأكل الحلواء مع قوم عاصين فاسقين كاذبين.

(٢) تَحَاتَّتْ: زالت وسقطت كما يسقط ورق الشجر.

(٣) أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ: جمعت بينهم، ووصلت بعضهم ببعض.

(٤) قَطَّبَ وَجْهَهُ: عَبَسَ، وَزَوَّى مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

(٥) أَتَتَبَسَّمُ كَأَنَّكَ آمِنٌ؟: أَتَضْحَكُ كَأَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ الْأَمَانَ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ وَمَصَائِبِهِ؟

(٦) أَتَعْبِسُ كَأَنَّكَ قَانِطٌ؟: أَتَتَجَهَّمُ وَيَكْلَحُ وَجْهَكَ كَأَنَّكَ قَدْ يَسْتُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؟

عَمِرْتُ مع الناس دَهْرًا طويلاً وعاشرتُ شبانهم والكهولاً^(١)
وَجَرَبْتُ أحوالهم في الخطوب فشرًّا كبيرًا، وخيرًا قليلًا^(٢)
وقال آخر:

إلى الله أشكو من خليل أودُّه ثلاثَ خِلالٍ كُلِّها لِي غائضٌ^(٣)
فمنهن ألا يجمع الدهرَ تلعةً بيوتًا لنا يا تلُعَ سَيْلِكَ غامضٌ^(٤)
ومنهن ألا أستطيعَ كلامه ولا ودّه، حتى تزول عوارضٌ^(٥)
ومنهن ألا يجمع الغزو بيننا وفي الغزو ما يُلقى العدوُّ المباغضُ^(٦)
كفى بالفتور صارمًا لو رعيتَه ولكنَّ ما أعلنتَ بادٍ وخافضٌ^(٧)
وقال مبذول العدوي:

ومولى كُضِرْسِ السوء يؤذيك مَسُّه ولا بد -إن آذاك- أنك ناقِرُهُ^(٨)
وذو الخوف إن يُنزعَ يسوؤك مكانه وإن يبقَ تُصبحُ كلَّ يوم تُحاذِرُهُ^(٩)

(١) عَمِرْتُ مع الناس: عَمِرَ الرجل: عاش زمانًا طويلاً.

لقد عشت مع الناس زمانًا طويلاً، وخالطت وصاحبت الشباب منهم، كما خالطت وصاحبت الذين جاوزوا الشباب ووَحَطَهُمُ الشَّبَب.

(٢) وَجَرَبْتُ مواقعهم عند حلول المصائب، فما وجدت إلا كثيرًا من الشرِّ، وقليلًا من الخير.

(٣) غائض: يَتَقَصَّنِي ويَتَهَضَّمُنِي، تقول: «غاضَ الماءُ والثَّمَنُ» إذا نَقَصَهما.

(٤) التلعة: أرض غليظة يتردّد فيها السيل، ثم يندفع إلى تلعة أسفل منها. رجل تلُع: كثير التلفت حوله.

أي إن الخلّة الأولى التي أشكوها من خليلي هي أنه لا يجتمع بي في أرض واحدة، ولا يضمنا بيت واحد أبدًا.
(٥) والخلّة الثانية هي أنني لا أقدر على الحديث والتودّد إليه، إلا إذا زالت العوارض والعقبات التي تقف بيني وبينه.

(٦) والخلّة الثالثة هي أنه لم يجتمع معي في غزوة يومًا، لئذيق العدوِّ الويل والدَّمار.

(٧) بادٍ: من «بدا» أي نزل بالبادية. خافض: خَفَضَ بالمكان: أقام به.

أي إن مَلَلَ الصديق وحده كافٍ لهجره وقطع مودته، ولكنَّ هذه الخلال التي ذكرتها هي حقائق ثابتة لا تتغير، سواء أنزلت إلى البادية أم أَقَمْتُ بمكانك.

(٨) وصديق كأنه ضِرْسٌ سيئ فاسد، إن لمسته آذاك وأوجَعَكَ، وإن هذا الإيذاء سيؤدّي بك إلى قهْره وانتزاعه وإبعاده عنك.

(٩) وهذا الذي تخاف إيذاءه إن نزعته؛ فإن هذا النزع سيُتعبُك ويسوؤك، وإن بقي وظل كما هو، ظللت أنت على حذر وحيطة منه.

يُسِرُّ لَكَ الْبَغْضَاءَ وَهُوَ مُجَامِلٌ وَمَا كُلُّ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ تُنَاكِرُهُ^(١)
فَلَا يَكُ أَذْنَى النَّاسِ مِنْكَ حِبَاءَةً جَوَى الصَّدْرِ يُخْفِي غَشَّهَ وَتَكَاشَرُهُ^(٢)
وَمَا كُلُّ مَنْ مَدَّدَتْ ثُوبَكَ دُونَهُ -لَتَسْتَرَهُ مِمَّا أَتَى- أَنْتَ سَاتِرُهُ^(٣)
وقال آخر:

فَأَبْلَغُ «مُصْعَبًا» عَنِّي رَسُولًا وَقَدْ يُفْنَى النَّصِيحُ بِكُلِّ وَادٍ^(٤)
تَعَلَّمُ أَنْ أَكْثَرَ مِنْ تُنَاجِي -وإن ضحكوا إليك- هُمُ الْأَعَادِي^(٥)
وقال آخر:

إِنَّمَا شَيَّبَ الذُّؤَابَةَ مِنِّي وَبِرَانِي، مَقَاطِعُ الْإِخْوَانِ^(٦)
وقال آخر:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، أَمَّا قُلُوبُنَا فَمَرَضَى، وَأَمَّا وَدُّنَا فَصَحِيحٌ^(٧)
وقال آخر:

عَزَمْتُ عَلَى هَجْرٍ، فَلَمَّا أَبَى الْهَوَى رَجَعْتُ إِلَى قَلْبٍ عَلَيْكَ شَفِيقٍ^(٨)
فَلَا يَمَكُنُ الْهَجْرَانُ مِنْ ذَاتِ بَيْنِنَا فَيُعْيَا صَدِيقٌ مِنْ لِقَاءِ صَدِيقٍ^(٩)

(١) إنه يجاملك ظاهراً، ويعاديك باطناً، وأنت لا تستطيع معاداة كل من يجني عليك.

(٢) فلا تجعل عطاءك منه دانياً، ولا ودك منه قريباً؛ فإن ما بصدّره يمحو زيف صداقته وبشره.

(٣) وليس كل من أرخيت له ثوبك لتستره به بمستور، ولا أنت بقادر على ستره.

(٤) رسول: رسالة. أبلغ «مصعباً» رسالة عني، والنصيحة قد يلقاها الإنسان في كل مكان.

(٥) والرسالة هي أن يعلم أن أكثر الذين يخاطبهم من الناس أعداء، مهما ضحكوا له ولأنوا القول.

(٦) الذؤابة: الناصية، أو منبتها من الرأس.

إن الذي جعل شعري يشيب، والذي يرى جسمي وهزله، هو قطعة الإخوان لي.

(٧) إننا ننشطر في موقفنا منك شطرين: قلوب مريضة لبعادك، ومودة لك صحيحة سليمة من كل سوء لا يغيرها ابتعاد ولا يؤثر فيها افتراق.

(٨) كنت قد انتويت أن أهجر، فأبى ذلك حبي لك، فرجعت إلى قلبي الرحيم الودود.

(٩) فلا يتمكن الهجر من صداقتنا؛ فإن ذلك يجعل لقاءنا عسيراً شاقاً.

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَأَبَارِبَاحِ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ مِنْذُ حِينِ^(١)
لَيْبَغِضُنِي، وَأُبْغِضُهُ، وَأَيْضًا يِرَانِي دُونَهُ، وَأَرَاهُ دُونِي^(٢)

وقال آخر:

وَأَصْبَحَ عَمِي -بَعْدَ وَدٍّ- كَأَنَّهُ إِلَيَّ مِنَ الْبُغْضَاءِ شَهْبَاءَ مَاحِضُ^(٣)

وقال آخر:

مَتَحَتْ لَنَا سَجَلُ الْعِدَاوَةِ مُعْرِضًا كَأَنَّكَ عَمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ - غَافِلُ^(٤)

وقال آخر:

فَتَى غَيْرُ مُحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مَظْهَرُ الشُّكْوَى إِذَا النَّعْلُ رَلَّتْ^(٥)

وقال آخر:

إِذَا أَقْبَلْتُ مِنْهُ الْمَوَدَّةُ أَقْبَلْتُ وَإِنْ غُمَزْتُ مِنْهُ الْقَنَاءُ اكْفَهَرَتْ^(٦)

وقال شاعر من الأعراب:

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِي غَائِبًا لَمُقَادِزُ مِنْ دُونِهِ وَوَرَائِهِ^(٧)
وَمُفِيدُهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ امْرَأً مَتَرَجِرَجًا فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ^(٨)

(١) وحقك إنني مع «أبي رباح» على طول جيرتنا وقدمها.

(٢) إنه رغم هذا التجاور القديم بكرهني وأنا أيضًا أكرهه، وإنه يعتبرني أقل منه شأنًا، وإنني أيضًا أراه أقل مني.

(٣) صار عمتي -بعد المودة والصفاء- بغيضًا كريهًا إلى نفسي كالسنة المُجْدِبَةِ القاحلة التي لا خضرة فيها ولا مطر، ولا يخالطها شيء من الخير.

(٤) مَتَحَ الْمَاءُ: نَزَعَهُ. السَّجَلُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ.

أي إنك أفرغت فينا كل عدوتك ولم تبقَ منها شيئًا، كأنك غافل لا تدري حوادث الدهر ومصائبه التي تتطلب منا المودة والتعاون على دفعها وردّها.

(٥) فتى إذا اغتنى فاض غناه على أصحابه، وإذا افتقر أو عثر لم يشتك إلى أحد.

(٦) يومًا تقبل منه المودة طيبة صافية، ويومًا تعضُّ قناته فيكفهرو ويعبس وجهه.

(٧) إنني أدود عن ابن عمي وأدفع عنه السوء، وإن كان بعيدًا وغائبًا عني.

(٨) وإنني لأمنحه نصري ومؤازرتي، وإن كانت صداقته ومودته لي مضطربة غير ثابتة وغير مكيّنة.

- ومتى أجدهُ في الشدائد مُرملاً أَلقِ الذي في مِرْودي بوعائه^(١)
 وإذا تتبعتِ الجلائفُ ماله خُلطتْ صحيحَتنا إلى جَرْبائه^(٢)
 وإذا أتى من وجهةٍ بطريفةٍ لم أطلع مما وراء خبائه^(٣)
 وإذا اكتسى ثوباً جميلاً لم أقل يا ليت أن عليّ حُسنَ ردائه^(٤)
 وإذا غدا يوماً ليركب مركباً صعباً، قعدتُ له على سيسائه^(٥)
 وإذا استراش وفرتهُ وحمدتهُ وإذا تصعلك كنت من قرنائهِ^(٦)

السياس: فقار الظهر، هكذا قال أبو سعيد السيرافي الإمام.

وقال آخر:

حَبَاكَ خَلِيلُكَ «القسريُّ» قَيْدًا لِبُسْ - على الصدقة - ما حَبَاكَ^(٧)

وقال آخر:

ومولّى أُمْتَنَا داءُهُ تحت جَنْبِهِ فلسنا نجازيه، ولسنا نُعاقبه^(٨)
 رأى الله أعطاني، فأغلق صدرهُ على حَسَدِ الإخوان فازورَ جانبهِ^(٩)

(١) وإن وجدته يوماً مفتقراً قد نَفَدَ زاده وقلّ ماله، فإنني أجعل مالي مآلاً له، وطعامي طعاماً له، وأنقل كل ما في وعائي إلى وعائه.

(٢) وإن تتبع الأجلاف الغلاظ من الناس أمواله وتعقبوها طامعين فيها، فإنني أخلط الصحيح النافع مما أملك، إلى الفاسد الذي يُشبهه الأجر الذي لا نفع فيه، مما يملك هو.

(٣) الخباء: سَمَةٌ في موضع خفيٍّ من الناقة النجيبة.

أي إنه إن جاء بأي شيء وبأي أمر من جهة خاصة به، لم أحاول معرفة سرّه.

(٤) وإن رأيته يوماً في كساء حسن يُنبئ عن حال طيبة، لم أحسده، ولم أتمن أن تزول النعمة عنه وتنتقل إليّ.

(٥) وإن رأيته يوماً يركب مركباً صعباً، نَحَيْتُهُ عنه، وركبتُ أنا ذلك المركب، وحملت تلك الصعوبة.

(٦) استراش: استغنى، وانتعش. وَفَرْتُهُ: كَثَرْتُه، وَوَسَعْتُهُ: تَصَعَّلَكَ: افتقر.

أي إنه إذا صار غنياً زِدْتُهُ غِنًى، وارتحْتُ إلى ذلك، وإذا افتقر قُرْبْتُ منه وصرت قريباً وصاحباً له.

(٧) أعطاك صديقك «القسري» قيوداً، وَحَمَلَك أَغْلالاً، وبُس ما أعطاك، وبُس ما حَمَلَك.

(٨) لقد أُمْتَنَا أدواء صاحبنا ودَفَنَّاها في جنبه، فلا نُشِيبُ عليها، ولا نُعاقبه.

(٩) قد رأى أن الله أنعم عليّ بنعمه، فضمَّ صدرهُ على الحسد المألوف بين الصحاب، ومال عنا وانحرف.

فويلٌ لهذا، ثم ويلٌ لأُمَّه
علينا إذا ما حارَبَتْنا حوارِبُهُ^(١)
ولمُطِيع بنِ إِيَّاس:

ليس من يُظْهَر المودَّةَ إِفْكَاً
وإذا قال خالفَ القولَ فِعْلُهُ^(٢)
وَصُلُّهُ للصديقِ يومٌ، وإن طأ
ل، فيومان، ثم يَنْبَتُ حَبْلُهُ^(٣)
وقال العَرَجِي:

ولا بُعْدِي يُغَيِّرُ حالَ ودِّي
عن العهدِ الكريمِ، ولا اقترابي^(٤)
ولا عند الرخاءِ أخونٌ يوماً
ولا في فاقةٍ دَنَسَتْ ثيابي^(٥)
ولا يَغْدُو عَلَيَّ الجارُ، يشكو
أذاتي - ما بقيتُ - ولا اغتياي^(٦)
وما الدنيا لصاحبها بحظٌّ
سوى حظِّ البَنانِ من الخِضابِ^(٧)
إذا ما الخصمُ جارٍ، فقلْ صواباً
فإنَّ الجورَ يُدْفَعُ بالصوابِ^(٨)
فإنِّي لا يَغُولُ النَّأْيُ ودِّي
ولو كنا بِمُنْقَطَعِ الترابِ^(٩)

وقال آخر:

- (١) فالعذاب والشرَّ له إذا قاتلنا ورمانا بحرا به وسهامه.
- (٢) ليس هذا الذي يُظْهَر الودَّ زوراً وبهتاناً، فيقول كلاماً تخالفه أفعاله.
- (٣) إنه يصل صديقه ويودُّه يوماً، فإن زاد فيومين، ثم تنقطع صداقته ومودته.
- (٤) إن ودِّي لأصحابي ثابت، لا ينقصه بُعْدِي عنهم، ولا يزيده اقترابي منهم.
- (٥) فلا أخونهم ولا أهجرهم إذا كنت في سعة ورخاء، ولا ألطِّخ ثيابي وأوسِّخها بالطلب والمسألة منهم إذا كنت في فقر وحاجة.
- (٦) ولا يظلمني جاري ويتجاوز الحدَّ معي فيشكو إِيَّائي أو اغتياي له وذكرِّي عيوبه التي يسترها.
- (٧) لا يتجاوز نصيب الإنسان من الدنيا قدر نصيب الأصابع من الخضاب الذي يخضبها به، فكما يضع نصيب الأصابع من الخضاب بعد قليل من الزمن لأنه سيزول ويمحى، فكذلك نصيب الإنسان من الدنيا.
- (٨) إن حادَّ صاحبك عن الحق والصواب، فقلْ أنت الحق والصواب، فإن الجور لا يُدْفَعُ إلا بالتزامك أنت جانب الحق والصواب.
- (٩) إني لا يهلك البعاد مودتي ولا يُفْنِي صداقتي، ولو كان بعادي وفنائي بمواراتي التراب.

فلولا أن فَرَعَكَ حين يَنْمِي وأصلَكَ، مُتَمِّى فَرَعِي وأصلي^(١)
 وأني -إن رميتُ- رميتُ عظمي ونالْتَنِي -إذا نالْتُكَ- نَبْلِي^(٢)
 لقد أنكرْتَنِي إنكارَ خوفٍ يَضُمُّ حَشَاكَ عن شَتْمِي وأكْلِي^(٣)
 وقال المتلمّس:

ولو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي جعلتُ لهم فوق العرَينِ ميسمًا^(٤)
 وما كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كَفِّهِ بكفٍّ له أخرى، فأصبحَ أجْذَمًا^(٥)
 يدَاهُ: أصابت هذه حَتَفَ هذه فلم تُجِدْهُ الأخرى عليها مقدّمًا^(٦)
 فلما استقاد الكف بالكف، لم تَجِدْ لها دَرْكًا في أن تبين، فأحجمًا^(٧)
 فأطرق إطراق الشجاع، ولو رأى مساعًا لَأَنِيَابِ الشجاع، لَصَمَمًا^(٨)
 وقال آخر:

وإذ شَتِيتُ فتى، شَتِيتُ حديثه وإذا سمعتُ غِنَاءَهُ ، لم أطرب^(٩)
 وقال آخر:

له خلائقُ بيضٌ لا يغيّرُها صرْفُ الزمان، كما لا يصدأُ الذهبُ^(١٠)
 وقال آخر:

- (١) فلولا لم يكن فرعك الذي تفرّعت منه هو فرعي، وأصلك الذي نبت منه هو أصلي.
 (٢) ولولا أنني إن رميتك فإني أكون قد رميت نفسي، وإن أصابتك سهامي فإنها تكون قد أصابتنى.
 (٣) لقد جحدتني وأنكرتني جحود الخائف الذي لا يستطيع -لخوفه- أن يشتمني وأن يأكل لحمي.
 (٤) لو أن أحدًا غير أقاربي أراد الانتقاص من قدري والحط من شأنى، لضربت أنفه حتى أترك عليه علامةً وأثرًا.
 (٥) وكنت في ذلك كالذي يقطع كفّه بكفّه الأخرى، فيصير أجذم مقطوع اليدين.
 (٦) أهلكك إحدى يديه اليد الأخرى، ففقد اليدين معًا ولم تنفعه إحداهما دون أختها.
 (٧) تبين: تبعُد، وتنفصل. أحجم: كفّ، ونكص.
 (٨) مساعًا: مجازًا. الشجاع: الحيّة.
 أي إنه أطرق إطراق الحيّة، ولو أنه وجد طريقًا إلى سموه لَنَفَثَهَا دون تردد.
 (٩) إذا أبغضت إنسانًا أبغضت كلامه، وإذا سمعت حديثه فإنتى لا أطرب ولا أهتز له.
 (١٠) له أخلاق بيضاء صافية لا يخالطها غش أو خداع، وهي كالذهب لا تصدأ ولا تتغير أبدًا.

سَبَكْنَاهُ، ونَحْسَبُهُ لَجَيْنًا فَأَبْدَى الْكَيْرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ! (١)
وقال النابغة:

ولستَ بمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْدَبُ؟ (٢)
ولما جفت «سعد» سيدها «الأضبط بن قريع»، تحوّل عنهم إلى قبيلة أخرى،
فظلموه وأذوه، فقال: «بكل واد بنو سعد».

قال شاعر:

إِنِّي لَيَرْدَعُنِي عَنْ ظَلَمِ ذِي رَحِمٍ لُبُّ أَصِيلٍ، وَحِلْمٌ غَيْرُ ذِي وَصَمٍ (٣)
إِنْ لَانَ لِنْتُ، وَإِنْ دَبَّتْ عَقَارِبُهُ مَلَأْتُ كَفِيهِ مِنْ صَفْحٍ وَمِنْ كَرَمٍ (٤)
وقال آخر:

ولو أخاصمُ أفعى نأبها لَبِقٌ أَوِ الْأَسَاوِدَ مِنْ صُمِّ الْأَهَاضِبِ (٥)
لَكُنْتُ مَعَهَا إلبًا، وَكَانَ لَهَا نَابٌ بِأَسْفَلِ سَاقٍ أَوْ بِعَرْقُوبٍ (٦)
وقال آخر:

أَذِيْتُمْ بِقُرْبِي مِنْكُمْ وَمَوَدَّتِي فَأَعْنَيْتُ عَنْكُمْ مَا أَذِيْتُمْ بِهِ مِنِّي (٧)

(١) أدبناه وصهرناه، ونحن نظن أنه فضة، فأظهر منافخ الحديد أنه حديد خبيث رديء فاسد!
(٢) إنك لا تستطيع أن تستبقي مودة أخ لا تُغضي عن هفواته وسيئاته، ولا تغفر له زلاته، وأين في الرجال المهذب
الخالى من العيوب؟
(٣) إني ليزجرني عن ظلم الأقارب، عقل حكيم راجح، وحلم وأناة خاليان من كل عيب وعار. وقد قيل قريباً
من ذلك:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على الحرّ من وقع الحسام المهندد
(٤) فإن لَانَ أقاربي لي وسهلوا، لنْتُ لهم وسهلْتُ، وإن جَفَوْا وخشِنُوا، لم أعاملهم بمثل ذلك، وإنما أصفح عنهم
وأغفر لهم.
(٥) لو أنني خاصمت عقرباً ذات أسنان حاذقة تعرف كيف تصيب وتقتل، أو أسوداً تسكن الجبال الصماء المنيعه
التي لا يصل إليها أحد.
(٦) لو خاصمت هذه العقارب أو تلك الأسود، لاجتمعنّ معها على عداوتي، وصرتم لها أنياباً أخرى في سيقانها
أو في أعقاب أقدامها!
(٧) علمتم بأنّي قريب منكم وبأنّي ودودٌ لكم، فلما أدركتُ ذلك منكم جعلت أזורكم يوماً، وأترككم يوماً،
واتخذت ذلك ديدناً لي وطريقة معكم.

وَأَصْبَحْتُ عَنْكُمْ غَائِبًا فِي عَدْوِكُمْ وَأَغْنَاكُمْ تَقْصِيرُ رَأْيِكُمْ عَنِّي^(١)
وقال آخر:

لعمرك لو أني أخاصم حيَّةً إلى «فَقْعَسٍ» ما أنصفتني «فَقْعَسُ»^(٢)
وقال آخر:

أفكر ما ذنبي إليك، فلا أرى عليَّ سبيلًا، غير أنك حاسدٌ^(٣)
وإنَّا لموسومان: كلُّ بوسمةٍ أقرَّ مقرُّ، أم أبى ذاك جاحدٌ^(٤)
وقال آخر:

بني عمنا، لا تقربوا البُطلَ؛ إنه يضيِّق، وإنَّ الحقَّ مأتاه واسعٌ^(٥)
فلا الضيمَ أعطيك طول وعيدكم ولا الحقَّ من بغضائكم أنا مانعٌ^(٦)
وقال آخر:

لقد زادني حُبًّا لنفسي أني بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلي^(٧)
وأنني شقيٌّ باللئام، ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمالِ^(٨)
إذا ما رأني قطعَ الطرفَ بينه وبينِي، فِعْلَ العارف المتجاهلِ^(٩)

(١) وصرتُ بهذا أغيب عنكم في أعدائكم، ورضيتم أنتم ذلك وغنيتم به.

(٢) فَقْعَسٌ: أبو قبيلة من بني أسد، وهو فقْعَس بن عمرو بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد.

أي لو أنني خاصمت حيَّة ثم اختصمت إلى قبيلة «فقْعَس» لمالْتُ مع الحيَّة ضدي، وما أنصفتني منها ولو كان الحق إلى جانبي، فالناس مع القوة دائماً.

(٣) أسائل نفسي دائماً: أي ذنب ارتكبته معك فجعل لك سبيلاً وحجَّة عليَّ؟ فلا أجِد من ذلك شيئاً، ولا أرى إلا أنك حاسد تتمنى زوال نعمتي إليك.

(٤) لكلِّ منا علامة تُميِّزه عن صاحبه، سواء اعترفتم بذلك أم أبَيْتموه.

(٥) لا تقربوا الباطل الفاسد الساقط فإنه ضيقٌ عديم الجدوى يضع صاحبه في مآزق لا يستطيع الفكاه منها، أما الحق فرحٌ فسيح لا حرج فيه ولا مآزق.

(٦) أنا لا أجزيكم ضيماً وظلماً لوعيدكم وتهديدكم، ولا أمتع عنكم الحقَّ لبغضائكم وكراهيتكم لي.

(٧) مما جعلني أحب نفسي أكثر من حب الناس لأنفسهم، أني كرهه إلى من لا يستطيع أن ينال مني منالاً، ولا يطول مني طائلاً لضعفه وعجزه عني.

(٨) وأنني تعبٌ بالآدنياء أشحاء النفوس، ولن تجد إنساناً يتعبه هؤلاء إلا إذا كان كريم الشمال طيب النفس.

(٩) إن وجدني غَضَّ عني، كما يفعل الذين يتجاهلونك وهم أعرف الناس بك.

ملأْتُ عليه الأرضَ، حتى كأنها من الضيق في عينيه كَفَّةُ حابلٍ^(١)
أكلُ امرئٍ ألقى أباه مقصِّراً مُعَادٍ لأهل المكرماتِ الأوائلِ^(٢)
وقال آخر:

ومولى كمولى الزَّبْرَقانِ دَمَلْتُهُ كما دملتُ ساقَ يَهَاضٍ بها كَسْرُ^(٣)
ترى الشرَّ قد أَفْنَى دوائرَ وجهه كَضْبِ الكُدَى أَفْنَى بَرائِثِهِ الحَفْرِ^(٤)
تراه كأن الله يَجْدَعُ أنفه وَعَيْنِيهِ إِنَّ مَولاه ثاب له وَفَرُ^(٥)
وقال آخر:

إِخْوَةٌ - ما شَهِدْتُ - سَرُّونَ بَرُّو نَ، فَإِنْ غَبْتُ، فَالذَّنابُ الجِيعُ^(٦)
لا لِسُوءِ البلاءِ مني، ولكنْ ظَهَرْتُ نِعْمَةً عَلَيَّ، فَلأَعُوا^(٧)
وقال آخر:

ستعلمُ أَيْنا أُنْدَى وَأَفْرَى وَأَقُولُ للعَظِيمِ، ولا يُبالي^(٨)
وَمَنْ بنوافِرِ السَّوآتِ أُخْرَى إِذا نحنُ ارْتَمِينا فِي النِّضالِ^(٩)

- (١) إنه يضيق بي كأنني قد زحمتُه وملأت عليه الأرض حتى صارت في نظره مثل حبال الصائد.
- (٢) أكل إنسان وجد أباه قاعدًا عن المكارم ومعالي الأمور، يكون عدوًّا للأوائل السابقين من أصحاب المكرمات والفضائل؟
- (٣) لي صاحب كأنه صاحب القمر التَّام، داوئته وعالجته كما عولجت الساق المهيضة التي كُسِرَتْ بعد أن كادت تُجْبِر.
- (٤) تجد آثار الشرِّ قد غيَّرت معالم وجهه وذهبت بنضارته وبشاشته، كذلك الحيوان الزاحف الغليظ الجسم الخشن الذي يسمى «الضَّبَّ» والذي يعيش في الكُدَى - أي الصحراء - فيكثر من الحفر حتى تفنى مخالفه.
- (٥) إذا نال صاحبه وفراً من المال، حَزَنَ وتألَّم كأن الله قد قطع أنفه وفقاً عينيه.
- (٦) أصحاب يكونون سارزين لي، بارزين بي، ما دمتُ فيهم، فإن غبت فهم ذئاب نهَّاشة.
- (٧) وليس ذلك عن اختبار لي أثبت سوءاً وفساداً، ولكنْ ظهرت آثار نعمة الله عليَّ فمرضوا واحترقوا غمًّا وكمداً.
- (٨) سنُبْنِك الأيام أَيْنا أكثر ندَى وبرًّا، وأشدَّ قطعاً وشقًّا وتفتيتاً للعَصِي من الأشياء، وأجرأ قولاً للعظيم الجليل من الأقوال دون مبالاة.
- (٩) وأجدر بأن يقهر أعداءه في الحرب، ويأخذ منهم الأسلاب والغنائم، وأَيْنا أجدر بأن يكون نصيبه في الحرب ما يُلْفِظه عدوُّه من نُفَايات الأسلاب وعوراتها.

وَمَنْ أَخْلَقَهُ فَزَعٌ وَلُؤْمٌ وَمَنْ يَرْمِي بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ^(١)
وقال الخريمي:

فلم أَجْزِهِ إِلَّا المودة جَاهِدًا وَحَسْبُكَ مِنِّي أَنْ أُوَدَّ فَأَجْهَدًا^(٢)
وقال مسكين الدارمي:

ولا تحمد المرءَ قبل البلاءِ ولا يسبقُ السيئُ منك المطرُ^(٣)
وإني لأعرفُ سيما الرجالِ كما يعرفُ القائفون الأثرُ^(٤)
وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد: إن الله إذا أحبَّ عبدًا حبَّبه إلى خلقه، فاعتبر
منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما لله عندك.

وقالوا: إذا أحبَّ الله عبدًا ألقى مودته على الماء، فلم يشرب منه أحد إلا أحبه،
وإذا أبغض الله عبدًا ألقى بُغضه على الماء، فلم يشرب منه أحد إلا أبغضه.

وسمعت ابن سمعون الصوفي يقول: ما يقف البشر على بُعد غور قول الله تعالى
لكليمه: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِيُضَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] فإن في هاتين الكلمتين ما
لا يبلغ كنهه، ولا يُنال آخره. ولو أن أرقَّ الناس لسانًا، وألطفهم بيانًا، أراد أن يتوسط

(١) وستنبئك الأيام أيضًا مَنْ منا تنطوي أخلاقه على الجُبْن والخوف والدناءة وَمَنْ منا الذي يرمي أعداءه بالويلات
والهزائم التي تُنصب على رؤوسهم كالجبال.

(٢) لم أَجْزِ صاحبي إِلَّا المودة بأقصى ما يستطيع جَهْدِي وتحتمل طاقتي، ويكفيك أن يودَّك صاحبك إلى هذا
المدى.

(٣) لا تمدح إنسانًا قبل أن تجرِّبه؛ فإن المطر يسقط أولاً، ثم يعقبه السيئ المنهمر الغزير، فلا يكن موقفك من
صديقك على العكس من ذلك.

وقد قال شاعر في مثل هذا المعنى:

لا تمدحْ امرأً حتى تُجرِّبه ولا تذمَّه من غير تجريبٍ

(٤) القائفون: جمع «القائف»، وهو الذي يُحسن معرفة الآثار ويتبَّعها ويقفوها.

أي: إني لأعرف علامات الرجال، كما يعرف الذين يتبعون الآثار مواضعها وسيرها.

حقيقة هذا القول، لم يستطع، وعاد حسيراً^(١)، ونكص مبهوراً^(٢)، وبقي عاجزاً. ثم قال: اللهم حَبِّبْ بعضنا إلى بعض، واجمع شَمْلَنَا إلى رضاك عنا مع إحسانك إلينا؛ إنك أهل ذلك، والجوادُ به.

وقال بعض السلف الصالح: خير الناس، خير الناس للناس. وقال آخر منهم: من أحبَّ أن يُحبه الناس، صَنَعَ ما يحبه الناس. وقال رجل من قريش: خالطوا الناس مخالطةً إن غِثْمَ حُنُوا إليكم، وإن مِثْمَ بكوا عليكم.

وقال بكر بن عبد الله المزني: لو كان هذا المسجد -مسجد البصرة- مُفَعَّماً بالرجال، ثم قيل: مَنْ خيرُهم؟ لقلتُ: أخيرُهم لهم. وقال معاذ بن جبل: خيرُ الرجال الأُلُوفُ، وشرُّهم العُرُوفُ^(٣).

وقال الشاعر:

وما الودُّ إلا عند مَنْ هو أهلُهُ وما الشرُّ إلا عند مَنْ هو حاملُهُ^(٤)
وقال ابن دارة:

إذا أنت لم تستبق يوماً صحابةً على عتبة، أكثرَتْ بثَّ المعاتبِ^(٥)
وقال آخر:

(١) عاد حسيراً: رجع أسفاً حزينا.

(٢) نكص مبهوراً: رجع مقهوراً مغلوباً.

(٣) إن خير الرجال وأفضلهم هو الكثير الألفة لهم، والكثير الالتئام معهم، والاجتماع بهم. وشر الرجال هو العزوف الذي لا يثبت على مصداقة أحد منهم.

(٤) إن الودَّ الصحيح لا يكون إلا عند مَنْ هو أهل له، ومن هو جدير به، وإن الشر لا يكون إلا عند فاعله، ولا يعود ضرره إلا إليه، ولا يحق إلا به.

(٥) إذا أنت عتبت على أصحابك في الصغير والكبير من الأمور، قضيت حياتك في بث العتاب، وشكوى الأصحاب؛ لأنك ستلقى منهم في كل يوم ما يستحق العتب، ويستوجب اللوم.

أخي وصفيّ فرّق الدهرُ بيننا بكرّه، ولكن لا عتاب على الدهر^(١)
تصبّر على جنب الخوان مبصرًا تصبّر بحاجات المجاور والصّهر^(٢)
وقال آخر:

إذا أنت أكثرَت الأخلَاءَ صادفتَ بهم حاجةً بعضَ الذي أنت مانع^(٣)
إذا أنت لم تبرحْ تؤدّي أمانةً وتحمل أخرى، أفدحتك الودائع^(٤)
وقال آخر:

ومحتملٍ ضِعْفًا عليّ، وشامتٍ شديدِ اللسان، ودَّ لو أتضعضُ^(٥)
ملأتُ عليه الأرضَ، حتى كأنما يضيق عليه عَرْضُها حين أطلُع^(٦)
وقال آخر:

عجبت لبعض الناس يبذل ودّه ويمنع ما ضُمّت عليه الأصابع^(٧)
إذا أنا أعطيتُ الخليلَ مودّتي فليس لمالي بعد ذلك مانع^(٨)
وقال آخر:

-
- (١) لقد فرّق الدهر بيني وبين أخي الذي اخترته واصطفيته من الإخوان، ولكن لا عتب ولا ملامة على الدهر.
(٢) تصبّر: حمّل نفسه على الصبر، وتكلف الصبر. الخوان: ما يؤكل عليه.
تكلف الصبر على ما يحمل خوانك لأصحابك مما يكلفك أن تنفق الكثير، وتكلف الصبر على حاجات جارك، ومطالب أصهارك، فإن لهؤلاء وهؤلاء مطالب يجب عليك أن تنهض بها.
(٣) إن أكثرت من الأصحاب، فقد يتصادف أن يحتاج أحدهم إلى بعض الذي تمنع من الأشياء.
(٤) إن لم تزل تؤدّي البعض من الأمانات، وتحمل البعض الآخر، فإن هذا سيتقل عليك، ويبهظك، وقد لا تستطيع النهوض به.
(٥) ربّ من يضمّر الحقد لي، والشامت الفرح بما يلحق بي من مصائب، والشديد القول السيئ اللسان في حقّي. يودّ أن تهتدم أركانِي وأن أخضع وأذلّ.
(٦) يَصوّر له حقدّه أنني أملأ عليه الأرض، وأنه يراني في كل مكان منها، حين أظهر وأطلّ عليه.
(٧) إنني أعجب لبعض الناس الذين يبذلون الودّ كلامًا وألفاظًا، ثم يضتون بما تُضمّ عليه أصابعهم من مال لو طلبت إليهم شيئًا منه.
(٨) إن أعطيت صاحبي صداقتي ومودّتي، فما أنا بمانع عنه مالي إن أرادته أو احتاج إليه.

وكم من أخ فارقت، لو كان أمره إليّ طَوَالَ الدهر، لم نتفرّق^(١)
وقال آخر:

أنا ابنُ عمك إن نابثك نائبةٌ ولست ذاك إذا مانعُكَ اعتدلاً^(٢)
وقال آخر:

إذا شئت ألا يبرح الودُ دائماً كأفضل ما كانت تكونُ أوائله^(٣)
فأخ فتى لا المُقْدِفَاتُ وَلَدْنَهُ كريماً كنصل السيف حلوا شمائله^(٤)
فذاك الذي يُرضيك صارمُ حدّه ويكفيك من لهو الكواعب باطله^(٥)
وقال آخر:

ومولّى كداء البطن ليس بزائلٍ تَدِبْ أفاعيه لنا والعقاربُ^(٦)
دملتُ على أشياء منه لو أنها تنم، لم يَسلم عليهنّ صاحبُ^(٧)
أمولاي: إني لا تكون عداوتي عليك، ولكني بوترك طالبُ^(٨)
وقال آخر:

فَتُبْ، واتخذني جُنّةً تتقي بها عدوك إن نابث عليك النوائبُ^(٩)

- (١) كم من صديق فارقت، ولو أنني أملك أمره، ما فارقتَه يوماً طول حياتي.
- (٢) إني ابن عم لك، ومن أقرب الأقرباء إليك، إذا حلّت بك كارثة أو شدة، أما إذا استقامت أمورك وزالت عنك الشدائد والكوارث، فما أنا لك بابن عمّ، وما أنا لك بقريب؛ فإنك عندئذ تكون في غير حاجة إليّ.
- (٣) إن أردت أن تستمرّ صداقتك قوية كما كانت في أول عهدك بها.
- (٤) فصاحب فتى لم تلد الوالدات مثيلاً له كريماً حرّاً حادّ السيف ذا شمائل حلوة مرضية.
- (٥) فمثل هذا الفتى هو الذي يُرضيك سيفه القاطع البتار، أما الكواعب النّواهد فيكفيك من لهوهمّ وعبثهمّ أنه باطل ومفسدة للإنسان ووبال عليه.
- (٦) وصديق كأنه داء في البطن لا يزول ولا يبرأ، وتظل تنهشني عقاربهِ وحيّاته.
- (٧) ذاريتُه وأغضيتُ عن أشياء منه لو أنها تضاعفت وتزايدت ما بقي له صديق.
- (٨) إني لا أعاديك، ولكني أطلب بثأرك من أعدائك.
- (٩) فارّج عن عداوتي وتُبْ عنها، واجعلني جُنّةً وسلاحاً لك تستتر به من أعدائك، وتستعين به على ما يحلّ بك من شدائد.

وقال آخر:

إني ليحمدني الخليل إذا احتوى مالي، ويكرهني ذوو الأضغان^(١)

وقال آخر:

إني تودّكم نفسي، وأمنحكم حبي، ورُبَّ حبيبٍ غير محبوبٍ^(٢)

وقال آخر:

أجاملُ ذا الضغن الميّنِ ضِغْنَه وأضحك حتى ييدوَ النابُ أجمُعُ^(٣)

وأهديه -عمداً- بالمقول، ولو يرى سريرة ما أخفي، لظل يُفَزَعُ^(٤)

وقال آخر:

وما المرءُ إلا بإخوانه كما تقبض الكفُّ بالمعصم^(٥)

ولا خيرَ في الكفِّ مقطوعةً ولا خيرَ في الساعدِ الأجزمِ^(٦)

وقال آخر -وهو جاهلي-:

إني لأبذل لل خليل -إذا دنا- مالي، وأترك ماله موفوراً^(٧)

وإذا أردتُ ثوابَ ما أعطيتُه فكفى بذلك نائلاً تكديراً^(٨)

وقال آخر:

(١) إن الصديق يُثني عليّ ويمدحني إن هو أصاب مني مالاً، أما ذوو الأحقاد فإنهم يكرهوني.

(٢) إن نفسي لتودّكم، وإني لأعطيكم حبي، ولكن قد أكون حبيباً لكم ولكنكم لا تجبوني.

ومن المصائب أن تُحبَّ -سبب، ومن تُحبُّ يحبُّ غيرك

(٣) إني لأبذل المجاملة والتودّد للصاحب الذي لا يُخفي ضغيته عليّ.

(٤) وأهديه وأمنحه أقوالاً كاذبة، ولو رأى ما أضمره له من عداوة لعاش في فزع دائم.

(٥) المعصم: موضع السّوار من الساعد.

لن يستطيع إنسان أن يعيش إلا بأصحابه، كما لا يستطيع الكفّ أن تعيش إلا إذا أمسكها المعصم.

(٦) ولا جدوى من كفّ مقطوعة عن المعصم، ولا في ساعد مقطوع عن الكف.

(٧) إن قُرّب مني صاحبي وواصلني، فإني أعطيه مالي، وأترك له ماله كاملاً تاماً.

(٨) وإن أنا ابتغيْتُ جزاءً على ما أعطيه، فإن هذا يكدر ويعكر عطائي، وبئس هذا الطلب من عطاء.

- تَبَعَ ابْنُ عَمِّ الصَّدَقِ حَيْثُ وَجَدَتْهُ فَإِنَّ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ أَوْعَرَ جَانِبُهُ^(١)
تَبَغَّيْتُهُ، حَتَّى إِذَا مَا وَجَدْتُهُ أَرَانِي نَهَارَ الصَّيْفِ تَجْرِي كَوَاكِبُهُ^(٢)
وَرُبَّ ابْنِ عَمٍّ تَدَّعِيهِ، وَلَوْ تَرَى خَبِيئَتَهُ يَوْمًا، لَسَاءَكَ غَائِبُهُ^(٣)
فَإِنَّ يَكُ خَيْرًا فَالْبَعِيدُ يَنَالُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا، فَابْنُ عَمِّكَ صَاحِبُهُ^(٤)
أَلَا رُبَّ مَنْ يَغْشَى الْأَبَاعِدَ نَفْعُهُ وَيَشْقَى بِهِ حَتَّى الْمَمَاتِ أَقَارِبُهُ^(٥)
فَخَلَّ ابْنُ عَمِّ السُّوءِ وَالْدهْرُ؛ إِنَّهُ سَتَدْرُكُهُ أَيَّامُهُ وَنَوَائِبُهُ^(٦)

وقال آخر:

- أُوَ أَخِي كَرَامَ الْقَوْمِ، ثُمَّ أَحَوَّطَهُمْ وَلَسْتُ بِمَذْقِ الْقَوْلِ مُسْتَطَرَفِ الْوَصْلِ^(٧)
وَمَا لِي مِنْ ذَنْبٍ إِلَيْكَ، فَلَا تَكُنْ إِلَيَّ بِلا شَيْءٍ، كَأَنْشُوطَةِ الْجَبْلِ^(٨)
فَلَا مَرْحَبًا بِالسُّخْطِ مِنْكَ وَبِالْقَلْبِ فَكُلِ الَّذِي يَرْضِيكَ بِالرَّحْبِ وَالسَّهْلِ^(٩)
وَإِنِّي أَخُوهُمْ عِنْدَ كُلِّ مُلَمَّةٍ إِذَا مِتُّ، لَمْ يَلْقَوْا أَخًا لَهُمْ مِثْلِي^(١٠)

(١) اطلب دائماً ابن العمِّ الخَيْرَ الصادقِ الوَدَّ، أما ابن العمِّ السيِّءِ المودة، الذي لا يُخلص لك في مودته، فدعه فإنه صلب جامد لا ينضج بخير.

(٢) لقد لقيت من ابن العمِّ السيِّءِ متاعب وأهوالاً صَبِرْتُ نَهَارِي لَيْلاً أَسُودَ.

(٣) وقد يكون لك ابن عمٍّ تحسبه ابن عمٍّ صادقاً مخلصاً أميناً في وده، ولكنك لو اطلعت على ما يخفيه لك في نفسه لساءك هذا الذي يخفيه لأنه الشرُّ كله.

(٤) فإنني لو لقيتُ خيراً فإنه يجيئني من البعيد الذي لا تربطني به قرابة، ولو لقيتُ شراً فإنما يجيء إليَّ من ابن العمِّ.

(٥) وإنك لتجد الكثيرين يدرك الأبعدَ نفعهم وخيرهم، ويشقى بهم أقاربهم.

(٦) فاترك ابن عمِّك السيِّءَ للدهر، ودعه للأيام؛ فإن مصائبها وويلاتها ستلحق به يوماً ولا منأى له عنها.

(٧) إنني أصاحب الكرام من الناس، وأحوطهم وأشملهم بمودتي ورعايتي؛ فإنني لست الرجل الذي لا يُخلص في مودة، ولست الرجل الحديث المودة، التي ليس له بها عهد قديم، ولكني عريق في الإخلاص والود والوصال.

(٨) ليس لي ذنوب ارتكبتها معك، وأفعالي معك دائماً كلها خير ونفع، فلا تكن معي عديم النفع والجدوى كأنك عقدة في جبل!

(٩) إنني لا أرْحَب ولا أرضى بغضبك أو بهجرك، وإنني لأرْحَب وأرضى بكل ما يُرضيك.

(١٠) وأنا أخُّ لهم إن ألمَّت بهم ملمة أو أصابتهم مصيبة، فإذا مِتُّ فلن يجدوا صديقاً مثلي.

ومولّى دفعْتُ الدَّرَّ عنه تَكْرُمًا ولو شئتُ أَمْسِي وهو مُغْضٍ على تَبَلٍ^(١)
وقال آخر:

تُواصل أحيانًا، وتصرم تارةً وشرُّ الأَخْلَاءِ الحَبِيبُ المُمَزَّحُ^(٢)
وقال آخر:

كم من عدوّ أخي ضِغْنٍ يُجامِلني يخفي عداوتَه أن لا يرى طمعا^(٣)
وقال آخر:

وكم تورّعتُ من مولّى تعرّضَ لي وحِدْتُ عنه ولو أَلْفَيْته خِرْعًا^(٤)
وقال آخر:

كالتَمَرِ أنتَ - إذا ما حاجةٌ عَرَضَتْ - وحَنَظَلٌ - كلما استغنيتَ - للجاني^(٥)
تنأى بودّك ما استغنيتَ عَنْ أَحَدٍ وما افتقرتَ، فأنت الواغِلُ الداني^(٦)
وقال آخر:

فيا قومنا، لا خير في كلِّ صاحبٍ إذا اصطنَعَ المعروف، مَنْ وعدّا^(٧)
وقال آخر:

(١) الدَّرُّ: النفس. التَّبَلُّ: السقم والفساد، وذهاب العقل.

أي: إنني دفعت نفسي وكففتها عنه كرمًا مني، ولو أردت لجعلته يغضّ بصره ويسكت على ما أنزله به من السقم والفساد، وذهاب العقل.

(٢) تصلني أوقاتًا، وتهجرني أوقاتًا أخرى، وإن شرّ الصحاب لهو الكثير المزاح الذي لا تعرف جدّه من هزله، ولا تستطيع أن تتبين له موقفًا محدّدًا.

(٣) كم من أعداء يحقدون عليّ ولكنهم يجاملونني، ويخفي عداوتهم لي أنهم لا يجدون عندي شيئًا يطمعون فيه، ولو وجدوه لظهرت عداوتهم جليّة واضحة.

(٤) كثيرًا ما تحرّجتُ من صديق تعرّض لي بالأذى، وملّت عنه، ولو أنني التقيتُ به لضعفَ دهش وانكسر.

(٥) إنك حُلُو كالتمر، إن كانت بك حاجة إليّ، وإنك كالحنظل المرّ لمن يجنيه، إن كنت في غنى عني.

(٦) إذا استغنيتُ بعدت عني بمودتك، فإذا افتقرتُ فأنت القريب الداني الداخل عليّ.

(٧) لا خير في صاحب يصنع فيك معروفًا، ثم يأخذ يعلّفه ويذكره دائمًا.

متى ما يَشَا ذُو الْوَصْلِ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِ - لا محالة - ظالماً^(١)
وقال آخر:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدْعُهُ لَمَلَمَةٍ يُجِبْكَ، وَإِنْ تَغْضَبُ إِلَى السِّيفِ يَغْضَبُ^(٢)
وقال آخر:

أَلَمْ تَرَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَامِرٍ مِنْ الْوَدِّ، قَدْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ؟^(٣)
فَأَصْبَحَ بَاقِي الْوَدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَالْدَهْرُ فِيهِ الْعَجَائِبُ!^(٤)
فَمَا أَنَا بِالْبَاكِيِّ عَلَيْهِ صَبَابَةً
وَلَا بِالَّذِي مَلَّكَ مِنْهُ الْمَثَالِبُ^(٥)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُحِبِّكَ إِلَّا تَكَرُّهَا
بَدَا لَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِ مَا يُغَالِبُ^(٦)
فَدَعُهُ، فَصْرُمُ الْمَرْءِ أَهْوَنُ حَادِثٍ
وَفِي الْأَرْضِ لِلْمَرْءِ الْكَرِيمِ مَذَاهِبُ^(٧)
وقال آخر:

فَإِنْ تَتَرَكَّ يَوْمًا أَخَا لَكَ صَالِحًا
فَفِي الْأَرْضِ مَنَآئٍ عَنْ بِلَادِكَ وَاسِعٌ^(٨)
وقال آخر:

لِيْ ابْنُ عَمٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ فِي كَبَدٍ لِّظِلِّ مُحْتَجِرًا بِالتَّبَلِّ يَرْمِينِي^(٩)

(١) عندما يريد الصاحب المواصل أن يقطع حبال مودة صاحبه، وأن يغضب عليه، فإنه يكون بذلك ظالماً لأخيه، متجنّياً عليه.

(٢) أخوك الحق هو الذي إن دعوته ليساعدك في كارثة استجاب لدعوتك، وإن حاربت حارب معك.

(٣) ألم تعلم بأن ما بيننا وبين «ابن عامر» من المودة، قد استحال إلى عداوة وبغضاء؟

(٤) وصارت البقية الباقية من الود الذي كان بيننا وبينه، كأنها لم تكن من قبل، والدهر فيه العجائب والغرائب.

(٥) فلست بالباكي عليه من رقة شوقي إليه وحرارته، ولا بالذي تغمه أو تهمة العيوب والمثالب التي ينسبها إلي.

(٦) إذا كان حب صاحبك لك مُتَكَلِّفًا مصنوعاً، بدا ذلك التكلف في أخلاقه وتصرفه.

(٧) فاترك هذا الصاحب الذي يتكلف مودتك؛ فإن قطع المودة أمر هيئ، بل إنه أهون الأمور جميعها، وإن في الأرض لُمُتَسَعًا يذهب إليه المرء بعيداً عن هؤلاء المنافقين.

(٨) فإن تترك صديقاً لك وتهجره، فإن في الأرض سعة عن بلادك تنأى إليها.

(٩) إن لي ابن عم، لو رأى الناس في شدة وكربة، لاستمر ملتزماً بحجرته يرميني بالسهم.

إني -لعمرك- ما بابي بذِي غَلَقٍ عن الصديق، ولا خيري بممنون^(١)
وقال آخر:

إذا افتقرت، نأى واستد جانبه وإن رآك غنيًّا، لأن واقتربا^(٢)
وإن أتاكَ لِمَالٍ، أو لتصرهُ أثنى عليك الذي يهوى، وإن كَذَبًا^(٣)
مُدلي القِرابَةِ عند التَّيْلِ يطلبُهُ وهو البعيدُ إذا نال الذي طلبا^(٤)
حلوا اللسان، بعيدُ القلب، مشتملٌ على العداوة لابن العم ما اضطحبا^(٥)
وقال آخر:

ويزعم لي الواشون أني فاسدٌ عليك، وأني لستُ مما عهدتني^(٦)
وما فسدتُ لي -يعلم الله- نيةً عليك، بل استفسدتني فاتهمتني^(٧)
غدرتُ بودي جاهدًا، فأخفتني فخفتُ، ولو آمنتني لأمتني^(٨)
إلى الله أشكو، لا إليك، وطالما شكوتُ الذي ألقاه منك، فزدتني^(٩)
وقال آخر:

(١) إني -وحقك- ليس لبابي مغلاق أغلقه به عن الصديق، بل إنه مفتوح له دائماً، ولستُ إذا أسديت خيراً لأحد،
أُظَلُّ أعدَّهُ وأذكرُهُ له، وأفخرُ عليه به.
(٢) إذا افتقرت إلى صاحبك هذا واحتججت إليه، ضَمَّ جانبه ومضى عنك فراراً من أن تطلب إليه مساعدة أو عوناً
على حاجتك. أما إن رآكَ مستغنياً عنه فإنه يرقّ ويلين ويقترّب منك يلتصق بك.
قال شاعر:

إن قلّ مالي فلا خلّ يصاحبني أو زاد مالي فكلّ الناس إخواني
(٣) وإن جاءك طالباً مالاً، أو مستعيناً بك على قضاء حاجة له، أثنى عليك كذباً وبهتاناً.
(٤) عندما يجد لديك ما يريد أن يناله فإنه يدعي القِرابَة منك، ويكون أبعد الناس عنك إذا نال حاجته، وتَقَضَّى له
مطلبه.

(٥) إنه طيب القول، ولكنه ينطوي على العداوة والبغضاء لصحابه طول صحبتهم له.
(٦) يدعي الكاذبون أنني سيئ فاسد لا أصلح لصداقتك، وأنتي لستُ كما عرفتني من المودة والحب.
(٧) والله يعلم أنني ما ساء ضميري لك يوماً، ولكنك أسأت إليّ حتى استعصبتُ عليك فاتهمتني.
(٨) وأنت قد خُنتُ مودتي، وأفزعتني بذلك ففزعت، ولو أنك كنت معي أميناً مخلصاً لأمنتُ شري، وسَلِمْتُ
لك مودتي.

(٩) وإنني لأشكو إلى الله ظلمك لي، ولن أشكو إليك يوماً؛ فإن شكواي تزيدك لي ظُلماً على ظلم.

ولستُ بذِي لونين يهفو، ولا الذي إذا ما خليلٌ بَانَ منه، تَقَلَّبَا^(١)
ولكنْ خليلي مَنْ يدوم وصالُهُ على كل حالٍ إن نأى، أو تَقَرَّبَا^(٢)
وقال آخر:

أَلَيْنُ لذي القُرْبى مِرَارًا، وتلتوي بأعناق أعدائي حِبالي، فَتَمَرُّثُ^(٣)
وقال قَعْنَب:

ما بالُ قوم صديقًا، ثم ليس لهم عهدٌ، وليس لهم دينٌ إذا اتَّمِنُوا؟^(٤)
إن يسمِعوا رِبةً، طاروا بها فرحًا مني، وما سمعوا من صالح دَفَنُوا^(٥)
صُمُّ إذا سمعوا خيرًا ذِكُرْتُ به وإن ذِكُرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا^(٦)
وإن بطنت أُوْخي ودَّهم، ظهروا وإن ظهرت لُلُقيا كيدهم بطنوا^(٧)
فَطَانَةُ فطنوها، لو تكون لهم مروءةٌ أو تُقَى لله، ما فطنوا^(٨)
وقد علمت على أني أعاتبهم لا يبرح - الدهر - فيما بيننا إْحَنُ^(٩)
كلُّ يَداجي - على البغضاء - صاحبه ولن أُعَالِنَهُمْ إلا كما علنوا^(١٠)

(١) ولستُ بذِي لونين، أميلُ مسرعًا مع الأيام حيث تميل، ولا بالذي يتغيَّر على صاحب ويتقلب عليه، إذا بُعِد عنه.

(٢) وإن خليلي الحق هو من تبقى مودته على الأحوال المختلفة، فسواء كان بعيدًا أو قريبًا فإنه الصديق المخلص الوفي.

(٣) إني أَلِينُ وأسهُلُ مرات عديدة مع أصحابي، ولكنني أطوِّق أعناق أعدائي بحبالي فتعضهم وتكدمهم وتؤثر فيهم.

(٤) ما شأن قوم أصدقاء لي، ومع صداقتهم لا يرعون لي ذمَّة ولا موثَّقًا، وإذا اتَّمتهم خانوني؟

(٥) إن سمعوا عني تهمة أو شكًا، كادوا يطيطون من الفرح، وإن سمعوا عني خيرًا أو صالحًا، دفنوه وأخفوه ولم يذكره.

(٦) إن ذكرني أحد عندهم بخير، كانوا صُمًّا لا يسمعون. وإن ذكرني بسوء، استمعوا له وأصغوا إليه.

(٧) وإن تواريت لاستيقاء مودتهم، يَدَوُا وظهروا، وإن بدوتُ وظهرتُ لأواجه كيدهم ومكرهم، تواروا واستخفوا.

(٨) وذلك عن حذقٍ منهم بالخصومة وعلمٍ بأوجهها، ولو كان بهم تقوى أو مروءة ما حذقوها وما علموها.

(٩) ومع أني ألومهم وأعتب عليهم، لعلهم يستلُون هذا الضَّغْنَ من نفوسهم، فإنني أعلم أن حقدهم عليَّ وعداوتهم لي، لا يزالان يملآن صدورهم.

(١٠) كلُّ ينافق ويصانع صاحبه، على ما بنفوسهم من بغضاء وكراهية، وأنا لن أكاشفهم بالذي في نفسي إلا بمقدار ما يكاشفوني.

شَبُّهُ العَصَافِيرَ أَحْلَامًا وَمَقْدَرَةً لَوْ يوزَنُونَ بِزَفِّ الرِّيشِ، مَا وَزَنُوا^(١)
 جَهْلًا عَلَيْنَا، وَجُبْنًا عَنْ عَدُوِّكُمْ لَبُسْتُ الخَلَّتَانِ: الجَهْلُ والجُبْنُ^(٢)
 كغَارِزٍ رَأْسَهُ، لَمْ يُلْجِهْ أَحَدٌ إِلَى القَرِينِينَ، حَتَّى لَزَّهَ القَرْنُ^(٣)
 وقال آخر:

البَسَ قَرِينَكَ إِنْ أَخْلَقَهُ فَحُشْتُ فَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا يَلْبَسُ الخَلَقَا^(٤)
 وقال زياد الأعجم:

أَخُّ لَكَ لَا تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا عَلَى العَلَاتِ بَسَامًا جَوَادًا^(٥)
 أَخُّ لَكَ لَيْسَ خُلَّتُهُ بِمَذْقٍ إِذَا مَا عَادَ فَقُرُّ أَخِيهِ، عَادَا^(٦)
 وقال آخر:

وَمَا هَجَرْتُكَ النَفْسُ؛ أَنْكَ عِنْدَهَا قَلِيلٌ، وَلَكِنْ قَلَّ مِنْهَا نَصِيْبُهَا^(٧)
 وقال آخر:

احْذَرِ وِصَالَ اللَّئِيمِ؛ إِنَّ لَهُ عَضُهَا إِذَا حُبِلَ وَصَلِهِ انْقَطَعَا^(٨)

(١) لهم عقول صغيرة كعقول العصافير، ولهم قدرة ضعيفة كقدرتها، لو وازنأهم بصغير الريش ما وزنوها وما ساووها.

(٢) إنهم يجهلون ويتسافهون علينا، ولكنهم يجبنون ويضعفون أمام عدوهم، وبئست الصفتان اللتان يتصفان بهما: السفاهة والجبن.

(٣) غارز رأسه: أي جاهل.

إنهم جهلاء، كالبعير الذي يضع عنقه في الحبل مع بعير آخر يكون مربوطاً بذلك الحبل، فيشده الحبل ويوجعه دون أن يضطره أحد إلى ذلك!

(٤) اصبر على صاحبك ولو جاوز الحد معك، فإنه ليس للإنسان جديد إن لم يكن له قديم بال.

(٥) إن من الإخوان من لا تراه إلا باسمًا كريماً، مهما حلَّ به من مصائب، ومهما كان في فقر وخصاصة.

(٦) وإن من الإخوان من هو مخلص في مودته لا يغش ولا يخدع ولا يخلط مودته بما يعكرها، إن هجرها وأنت عنه غني، ثم عاد إليك فقرك، عاد هو إليك مُعِينًا لك وناصرًا.

(٧) إن نفسي لم تهجرك ولم تقطع وصالك لأن قدرك عندها صغير، ولكن لأن حظها منك قليل عما تطمع فيه، وتطمح إليه.

(٨) احترس من وصل اللئام؛ فإن لهم -عندما تنقطع صلتك بهم- نازًا تملأ صدورهم وقلوبهم.

وقال آخر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي، لمختلفٌ جدًّا^(١)
 إذا أكلوا لحمي، وفَرْتُ لحومهم وإن هَدَمُوا مجدي، بنيتُ لهم مجدًّا^(٢)
 وإن ضَيَّعوا عيني، حَفِظْتُ عيونهم وإن هُمُ هَوُوا عَيِّي، هويتُ لهم رُشدًا^(٣)
 وإن زَجَرُوا طيرًا بنحسٍ تمرُّ بي زَجَرْتُ لهم طيرًا تمرُّ بهم سَعْدًا^(٤)
 ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهم وليس رئيسُ القومِ مَنْ يحملُ الحقدًا^(٥)
 وإن أجمعوا صَرَمِي معًا وقطيعتي جمعتُ لهم مني - مع الصلة - الودًّا^(٦)
 أجودُ بمالي خشيةً أن يعمَّروا إذا ما هُمُ شَدُوا على الصررِ العقدًا^(٧)
 لهم جُلٌّ مالي إن تتابع لي غني وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رِفْدًا^(٨)
 وتقدم خصمان إلى «المغيرة بن شعبة»، فقال أحدهما: إن هذا يدلُّ عليَّ بمعرفة
 بك. قال: صدَقَ، وإنها لتنفعه. قال: كيف؟ أنضِّلُ^(٩) عليَّ في الحكم؟ قال: لا، ولكن
 أنظرُ، فإن توجَّهَ الحقُّ له، أخذته منك بعنف، وإن توجه الحقُّ لك عليه، قضيت عنه
 إليك. إن المعرفة لتتفع عند الكلب العقور^(١٠)، فكيف عند الرجل الحر؟

- (١) إن أخلاقي لمختلفة تمامًا عن أخلاق إخوتي وأخلاق أبناء عمي.
 (٢) فإن هم أكلوا لحمي ونهشوا عِرْضي، حَفِظْتُ لهم لحومهم وصُنْتُ لهم أعراضهم. وإن خفضوا قُدْرِي
 وهدموا مجدي، فإني أرفع أفدارهم، وأقيم بنيان مجدهم.
 (٣) وإن ضَيَّعوا بصري - وهو أعزُّ وأغلى شيء عندي - فإني أحفظ لهم أبصارهم وأصونها، وإن رغبوا في
 ضلالي، رغبت في رشادهم وهداهم.
 (٤) زَجَرُوا طيرًا: صاحوا بها فإن ولَّتْ ميامنةً تَفَاءَلُوا، وإن ولَّتْ مياسرةً تشاءموا، أي: إنهم إن أرادوا لي النحس
 والشقاء، أردت لهم السعادة والخير.
 (٥) وإني لا أحمل لهم عداوة قديمة، ولكنني أنساها؛ فإن رئيس القوم لا يجوز له أن يحمل عداوة لأحد.
 (٦) وإن اجتمع رأيهم على هَجْرِي وقطع مودتي، فإني أجمع لهم صلة كريمة ومحبة صادقة.
 (٧) وإني لجواد كريم بمالي، بآذِلٍ له، إذا بَخَلَ الناس وشَدُّوا على صُرر أموالهم العقود إخفاءً لها وحرصًا عليها.
 (٨) وإن غَنَيْتُ وزاد مالي، فلهم منه الجانب الأعظم والأكثر، أما إذا قلَّ مالي فإني لا أطلب منهم عطاءً أو معونة.
 (٩) أنضِّلُ عليَّ في الحُكْمِ؟: أنميل في الحُكْمِ وتجور؟
 (١٠) الكلب العقور: الجارح.

قال شاعر:

لي صاحب قد كنتُ أَمَلُ نَفْعُهُ سبقتُ صواعقه إليَّ صبيهُ^(١)
يا من بذلتُ له المودة مخلصاً في كل أحوالي، وكنتُ حبيبهُ^(٢)
أيامَ نسرُحٍ في مَرَادٍ واحدٍ للعلم، تنتجع القلوبُ عُربهُ^(٣)
ونظلاً نشرع في غديرٍ واحدٍ نصفُ الصفاءِ لوارديه وطيبهُ^(٤)
أيسوؤني من لم أكن لِأَسوَأه؟ ويريني من لم أكن لِأَرِيبهُ؟^(٥)
ما هكذا يَرعى الصديقُ صديقهُ وحبيبهُ، وقرينهُ، ونسيبهُ^(٦)

قال الفضل بن الربيع: احلف لأخيك أنك تحبه، واجتهد في تثبيت ذلك عنده؛ فإنه يستجد لك حباً، ويزداد لك وداً.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودُّدُ إلى الناس».

وقال شاعر:

زادني قُرْبُ صديقي فاقَةً أورثتُ من بعد فقري مسكنهُ^(٧)

وقال آخر:

وإن أخاك الكارهَ الودَّ وارداً وأنتَ بمرأى من أخيك ومَسْمَعٍ^(٨)

(١) قد كنت أرجو الخير من صاحبي، وأمل منه النفع، ولكن عذابه ومهالكه قد سبقت إلي قبل أن يصل إلي خيره ونفعه.

(٢) أيها الصاحب الذي أعطيتني ودي وإخلاصي طول حياتي، وكنت حبيباً له في كل أحوالي وظروفي.

(٣) وكنا نرعى معاً مَرعىً واحداً في صبانا، أيام كنا نطلب العلم ونهنا بمائه العذب الصافي.

(٤) وأيام كنا ننهل من نهر واحد، ونحدث إلى الذين يردونه عن صفاء مائه، وطيب حسنه.

(٥) فهل يُسيء إلي من لم أسيء إليه؟ ويكذب علي ويتشكك في من لم أكذب عليه ولم أتشكك فيه يوماً؟

(٦) وليس بهذا الأسلوب من المعاملة يحفظ الصديق عهد صديقه أو حبيبهِ أو صهره؛ فإنه أسلوب يقطع العلاقات

ويمحو الصداقات.

(٧) إن افتقار صديقي اقتضاني أن أنفق عليه، وقد ظللت أفعل ذلك معه حتى افتقرت أنا أيضاً، واستمر به الفقر حتى أفقده مسكنه.

(٨) سيرد عليك من الإخوان من هو كاره لك، مبغض لودادك، وسترى من أفعاله وتسمع من أقواله، ما يُظهر لك

هذه الكراهية وذلك البغض.

وقال آخر:

الله يعلم أنَّ فَرْقَةَ بَيْنَا -فيما أرى- خَطْبُ عَلِيٍّ يَهُونُ^(١)

وقال آخر:

إِلْفَانِ دَامَا عَلَى وَدَادِهِمَا قَدْ أَمَكْنَا الْحَبَّ مِنْ قِيَادِهِمَا^(٢)

تَحَالَفَا -إِنْ صَفَا الْهَوَى لِهَمَا- أَنْ يَحْفَظَاهُ إِلَى مَعَادِهِمَا^(٣)

مَا مِنْ مُحِبِّينَ جَاهِرًا بِهِوَى إِلَّا سَعَى النَّاسُ فِي فَسَادِهِمَا^(٤)

وقال آخر:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَرَى رَدِيْفًا لَوْصَلِي، أَوْ عَلِيٍّ رَدِيْفُ^(٥)

وَأَنْ أَرِدَ الْمَاءَ الْمُوْطَأَ وَرُدُّهُ وَأَتَّبِعَ وَدَّ الْمَرْءِ وَهُوَ ضَعِيفُ^(٦)

وقال بشار:

وَكَاشِحٍ مُعْرِضٍ عَنِّي هَمَمْتُ بِهِ ثُمَّ ارْعَوَيْتُ، وَقُلْتُ: النَّاسُ بِالنَّاسِ^(٧)

وقال آخر:

وَلَا خَيْرَ فِي قُرْبَى، لَغَيْرِكَ نَفْعُهَا وَلَا فِي صَدِيقٍ لَا تَزَالُ تُعَاتِبُهُ^(٨)

وقال آخر:

(١) يشهد الله أن قطيعتنا وافترقنا أمر هين يسير عندي.

(٢) صديقان استمرّا على مودتهما الصافية الخالصة، حتى جعلوا المحبة تتمكّن من قلوبهما، وتقودهما في كل ما يعملان.

(٣) تعاهدا على أن يصونا هذا الود الصافي بينهما إلى أن يقضيا نخبهما.

(٤) لن ترى رجلين متحابين قد أعلنّا إلى الناس حبهما وجَهْرًا به، إلا سعى الناس في إفساد هذا الحب، وتكدير تلك العلاقة.

(٥) إني لأخجل من الله أن أرى تابعا لوصلي، أو أن أرى من يتبعني في حبي ويشركني فيه.

(٦) كما أخجل من ورود الماء السهل اللين المباح للجميع، ومن أن أتبع المرء وأحاسبه على زلاته، وهو ضعيف لا حول له ولا قوة.

(٧) وربّ عدوّ لي معرض عني هممت بإيذائه، ثم كففت شرّي عنه، وقلت في نفسي إن الإنسان بأخيه.

(٨) لا نفع في قريب لا تبلغك منفعته ولا ينالها إلا غيرك، كما أنه لا خير في صديق يظل يتعبك، وتظل تعاتبه.

تَبَدَّلْ؛ فما لي من هواك بديلٌ ولا لك عندي في الأنام عديلٌ^(١)
وكن قاطعاً إن شئت لي، أو مواصلاً فأنت هوّى لي كيف شئت وسؤلٌ^(٢)
رجائي - وإن قصّرتُ فيك - طويل وصبري - وإن أعرضتُ عنك - قليلٌ^(٣)
وقال آخر:

إنني لأبغضُ من يكون مقصراً عن ألفه في الوصل والهجرِ^(٤)
وقال آخر:

فإن يك عن لقائك غابَ وجهي فلم تغبِ المودّة والإخاء^(٥)
ولم يغبِ الشناء عليك مني بظهر الغيب يتبعه الدُّعاء^(٦)
وما زالت تتوق إليك نفسي على الحالات، يحدوها الوفاء^(٧)
وقال آخر:

ومن أين لي في سائر الناس صاحبٌ إذا صدّ عني، ردّه النظم والنثر؟^(٨)
وقال آخر:

وإذا سمعتَ نَمِيمَةً فتعدّها وتحفظنّ من الذي أنباكها^(٩)

- (١) تَبَدَّلْ وتغيّرَ كما أردت، فليس عندي بديل لك، ولا يساويك عندي أحد من الناس.
(٢) واقطع مودتي، أو صلّها؛ فإنك هواي ومحلّ حبي في الحالين، وأنت سُؤلي ومطلبي دائماً.
(٣) وإن أُملي فيك - وإن كنت مقصراً في حقك - لكبير وطويل، وإن صبري على بعدك - وإن هجرتك أحياناً - لقليل.
(٤) إنني لأكره من يكون متهاوناً في حق صديقه، سواء أوصَلَهُ صديقه أم هَجَرَهُ.
(٥) فإن غاب شخصي ووجهي عن لقائك، فما غابت مودتك وإخاؤك ومحبتك.
(٦) فإن القُرْبَ بالروح وليس القُرْبَ بالجسم
(٧) وما سكت ثنائي عليك وإعلان محبتي لك مهما غبت عني، وما سكت لسانني عن الدعاء لك.
(٨) ولم تزل نفسي تحنّ وتشتاق إليك في جميع حالاتك، يدفعها إلى ذلك الوفاء لك.
(٩) أريد أن يكون بين الناس صديق واحد، إذا هجرني وقطع جبال ودي، أعاده إليّ حبه للشعر وللنثر وما يدعوان إليه من الوفاء والبر والإخاء.
(٩) إن جاءتك عني وشاية تهذّب إلى الإفساد والفتنة والوقية بيننا فدعها وأهمّلها ولا تلقِ إليها بالك، واحترس ممن جاءك بها، قال الشاعر:
فإن كنت قد بلّغت عني وشاية لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وذِرِ النَمِيْمَةَ، لَا تَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا وَتَجَنَّبَنْ مَنْ صَاغَهَا أَوْ حَاكَهَا^(١)
وكتب ابن ثَوَابَةَ إِلَى ابنِ فِرَاسِ الْكَاتِبِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَهْدِي بِكَ - يَا سَيِّدِي - يَتَطَوَّعُ بِنَافِلَةِ الْإِبْتِدَاءِ، فَكَيْفَ تُخَلِّ بِفَرِيضَةِ الْجَوَابِ^(٢)؟
وَهَلْ يَرْضَى الصَّدِيقُ مِنْكَ أَنْ تَبْرَهُ قَرِيبًا، وَتَجْفُوهُ بَعِيدًا؟ وَتَذِيقَهُ حَلَاوَةَ الْوَصْلِ دَانِيًا،
وَتُجَرِّعَهُ مَرَارَةَ الْقَطِيعَةِ نَائِيًا؟ وَمَا عَلَيْكَ لَوْ رَضِيتَ بِالْبَيْنِ فَاجِعًا، وَاكْتَفَيْتَ بِالْدهْرِ
قَاطِعًا^(٣)؟

وَالْدهْرِ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ يَجْزَعُ وَالْبَيْنُ بِالشَّمْلِ الْمُجْمَعِ مُوَلِّعٌ^(٤)
فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُجْرِي ذَوِي الْمَرْوَةِ مُجْرَى سَائِرٍ مِنْ يَرَى بَاطِنَهُ يَخَالِفُ ظَاهِرَهُ،
وَتَأْوِيلَهُ يَخَالِفُ تَنْزِيلَهُ^(٥)؟ وَهَذَا هَزْلٌ يَتَرَجَّمُ عَنْ جِدٍّ، وَالضَّدُّ يَبْرُزُ حَسَنُهُ الضَّدُّ^(٦)،
أَوْدَعْتَنِي إِذْ وَدَّعْتَنِي^(٧).

شَوْقًا إِلَيْكَ تَفِيضٌ مِنْهُ الْأَذْمُوعُ وَجَوَى عَلَيْكَ تَضْيِيقُ عَنْهُ الْأَضْلَعُ^(٨)

(١) وَاتْرَكَ الْوَشَايَةَ وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَفْعَلُونَهَا، وَاهْجُرْ مَنْ يَحْدِثُكَ بِهَا، أَوْ يَنْسَجِهَا لَكَ، وَلَا تَتَّخِذْهُ لَكَ صَدِيقًا.
(٢) لَقَدْ عَرَفْتُكَ تَتَطَوَّعُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِكَ بِالنَّافِلَةِ الَّتِي لَا إِجْبَارَ فِيهَا وَلَا إِلْزَامَ، وَلَا ضَيْرَ عَلَيْكَ إِنْ تَرَكْتَهَا، وَمَنْ كَانَ
هَذَا شَأْنَهُ فَكَيْفَ يَقْعُدُ عَنْ فَرِيضَةِ الرَّدِّ وَالْجَوَابِ وَهِيَ فَرِيضَةٌ مُلْزِمَةٌ. مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ أَخْلَّ بِالْوَاجِبِ، وَقَدْ أَهْمَلَ
فِيمَا لَا يَجُوزُ الْإِهْمَالُ فِيهِ؟
(٣) مَا الَّذِي يَضِيرُكَ إِنْ اكْتَفَيْتَ بِمَا يَفْعَلُ بَنَا الْدهْرِ مِنْ قَطِيعَةٍ وَفَرَقَةٍ فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهِ قَطِيعَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَلَا تُضِيفُ إِلَى
مَرَارَتِهِ مَرَارَةً مِنْ فَعْلِكَ؟

(٤) إِنْ الْدهْرِ لَا يُرْضَى مَنْ يَجْزَعُ عِنْدَ الْبَيْنِ وَيُهْلَعُ، وَهُوَ مَغْرَمٌ بِتَشْتِيتِ شَمْلِ الْجَمِيعِ وَتَفْرِيقِهِ.
(٥) أَيْ إِنَّهُ مَنَاقِفٌ يَخَالِفُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ، وَيَنَاقِضُ تَفْسِيرُهُ النَّصَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْكَلَامُ.
(٦) يُقَالُ: «وَبَضَّهَا تَمَيِّزَ الْأَشْيَاءِ» فَلَا أَبْيَضَ إِذَا وُضِعَ إِلَى جَانِبِ الْأَسْوَدِ زَادَ بَيَاضُهُ وَضَوْحًا.
(٧) جَعَلْتَنِي كَالشَّيْءِ الْمُوَدَّعِ عِنْدَ النَّاسِ، وَالْوَدِيعَةُ الْمَتْرُوكَةُ لَدَيْهِمْ، يَوْمَ فَارَقْتَنِي وَخَلَّفْتَنِي.
(٨) إِنِّي أَشْتَاقُ إِلَيْكَ شَوْقًا يُسِيلُ دُمُوعَ عَيْنِي، وَأَحْزَنَ لَغِيَابِكَ حَزْنًا لَا تَحْتَمِلُهُ ضُلُوعُ صَدْرِي.

فكم أتلَهَفُ^(١) على ما أنفدناه في حال الاجتماع من عيش رخيٍّ، ويوم فتِيٍّ،
وسرور امتدَّتْ ظلالُهُ، وليل غاب عُدَّالُهُ، فارغَبُ إلى الله في إعادة تلك العهود؛ إنه
فعَّال لما يريد.

قال شاعر:

يا ذا الذي أَلِفَ القطيعةَ -دَهْرُهُ- إن القطيعةَ موضعُ الرَّيبِ^(٢)
إن كان ودُّك كامناً في نِيَّةٍ فاطلب صديقاً عالماً بالغيبِ^(٣)
سمعت أبا سعيد السيرافي الإمام يقول: العرب تقول: أوْصَلُ الناس، أوْضَعُهُمْ
للصَّرْمِ في موضعه.

وقال شاعر:

وما كلَّ مَنْ يَظُنُّنِي، أنا مُعْتَبٍ ولا كل ما يرذِي عليَّ أقولُ^(٤)
وقال آخر:

رُبَّ ابن عمٍّ ليس بابن عمٍّ داني الأداةِ ضيقِ المَجَمِّ^(٥)
وإن أتى يومٌ شديدُ الغمِّ لم يكُ قرن المقطع المهمِّ^(٦)
وقال بشار:

أراك اليوم لي، وغداً لغيري وبعد غدٍ، لذي قُربٍ إلَيَّكا^(٧)

(١) أتلَهَفُ: أَحْزَنُ وَأُتَحَسَّرُ.

(٢) أيها الصاحب الذي اعتاد القطيعة طول عمره، اعلم أن هذه القطيعة تجعلني أشك فيك وأرتاب.

(٣) إن كانت مودتك خفية في نيتك وفي ضميرك، فاختر أصدقاءك ممن يعلمون الغيب، ويطلعون على ما في
القلوب والصدور!

(٤) يَظُنُّنِي: يَتَّهَمُنِي.

لست أَرْضَى عن كل من يتَّهَمُنِي بالسوء باطلاً، ولستُ قائلًا ما يُهْلِكُنِي ويُسْقِطُنِي من القول.

(٥) قد يكون من أبناء العمِّ من ليس فيه من صفات أبناء العمومة شيء، فهو قريب الأذى، يُضَيِّقُ المكيال إن هو
كال لي، ويُطَفِّفه، ولا يوفيه حقَّه.

(٦) وإن حَلَّتْ بي مصيبة تُغْمُنِي لم يكن كفؤًا أو نظيرًا للجليل العظيم من الأمور.

(٧) إنك حَوْلَ قُلُوبٍ، تكون اليوم صاحبًا لي، وتكون غداً صاحبًا لغيري، ثم أنت بعد غدٍ صاحب لذي قُربٍ إلَيَّك!

إذا آخَيْتَ ذَا، فَارَقْتَ هَذَا كَأَنَّ فِرَاقَهُ حَتْمٌ عَلَيْكَ^(١)
فَأَقْدُمُهُمْ أَخْسُهُمْ جَمِيعًا وَأَحْدِثُهُمْ أَحَبُّهُمْ لَدَيْكَ^(٢)
وَكُلُّهُمْ -وإن طَرُمَدَتْ فِيهِ- سَتَرَكَ -وَشِيكًا- مِنْ يَدِيكَ^(٣)

وقال أبو الأسود الدؤلي:

وما سَاسَ أَمَرَ النَّاسِ إِلَّا مُجَرَّبٌ حَلِيمٌ، وَلَا صَافِيَتَ مِثْلَ كَرِيمٍ^(٤)
فَمَا لِحَلِيمٍ وَاعِظٌ مِثْلُ نَفْسِهِ وَلَا لِسَفِيهِ وَاعِظٌ كَحَلِيمٍ^(٥)

وقال آخر:

وَأَعْرَضُ عَنْ ذِي الْمَالِ حَتَّى يُقَالَ لِي: أَلَا حَدَّثَ هَذَا جَفْوَةً وَتَعْظُمًا؟^(٦)
وَمَا بِي جَفَاءً عَنْ صَدِيقٍ، وَلَا أَخٍ وَلَكِنَّهُ فِغْلِي إِذَا كُنْتُ مُعْدِمًا^(٧)

وقال آخر:

وإِنَّ أَمَانَتِي لَا يَجْتَوِيهَا خَلِيلٌ فِي زِيَالٍ وَاجْتِمَاعٍ^(٨)
سَارِعَاهَا وَإِنْ هُوَ غَابَ عَنْهَا لِكُلِّ أَمَانَةٍ بِالْغَيْبِ رَاعٍ^(٩)

وقال آخر:

- (١) تَوَاحَى إِنْسَانًا بَعْدَ مَفَارِقَةِ إِنْسَانٍ آخَرَ، كَأَنَّمَا لَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ، وَكَأَنَّ فِرَاقَكَ الْأَوَّلَ -بَعْدَ اتِّصَالِكَ بِالثَّانِي- حَتْمٌ مَفْرُوضٌ عَلَيْكَ!
- (٢) فَأَقْدُمُ أَصْدِقَائِكَ أَقْلَهُمْ مَنَزْلَةً عِنْدَكَ، وَأَحْدِثُهُمْ أَقْرَبَهُمْ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَعْظَمَ مَنَزْلَةً لَدَيْكَ.
- (٣) وَكُلُّ أَخٍ مِنْ إِخْوَانِكَ -وإن افْتَحَزَتْ وَصَلُفَتْ بِهِ- سَتَهْجُرُهُ قَرِيبًا وَتَتْرَكَهُ مِنْ يَدِيكَ.
- (٤) إِنْ خَيْرٌ مِنْ يَقُومُ عَلَى أُمُورِ النَّاسِ وَيُسَوِّسُهَا هُوَ ذُو التَّجَرُّبَةِ الْحَلِيمِ الْقَلِيلِ الْغَضَبِ، وَإِنْ خَيْرٌ مِنْ تُصَافِيهِ مِنَ النَّاسِ الْكَرِيمِ الْأَخْلَاقِ الطَّيِّبِ النَّفْسِ.
- (٥) خَيْرٌ وَاعِظٌ لِلْحَلِيمِ الْحَكِيمِ هُوَ نَفْسُهُ، وَخَيْرٌ وَاعِظٌ لِلْسَفِيهِ الْأَحْمَقِ هُوَ الْحَلِيمُ الْحَكِيمُ.
- (٦) إِنِّي لِأُبَاعِدُ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِ الْمَالِ حَتَّى يَسْأَلَنِي النَّاسُ: أَتَفْعَلُ ذَلِكَ جَفَاءً مِنْكَ وَاسْتِكْبَارًا؟
- (٧) وَلَيْسَ هَذَا مِنْ عَنِّي جَفَاءً أَوْ اسْتِكْبَارًا، وَلَكِنَّهُ مَا أَفْعَلُهُ دَائِمًا إِذَا كُنْتُ فِي فَقْرٍ وَحَاجَةٍ.
- (٨) إِنِّي أَمِينٌ حَافِظٌ لِلْعَهْدِ، وَلَنْ يَجِدَ صَدِيقٌ مِنِّي مَا يَكْرَهُهُ سِوَاءَ كُنْتُ مُقِيمًا أَوْ مُفَارِقًا.
- (٩) سَأُرَاعِي الْأَمَانَةَ وَإِنْ فَارَقْتَنِي صَاحِبُهَا، وَإِنَّ لِكُلِّ أَمَانَةٍ -وإن غَابَ صَاحِبُهَا- لِرَاعِيًا وَحَفِيزًا.

وذي حَسَدٍ يَغْتَابُنِي حِينَ لَا يَرَى مَكَانِي، وَيُثْنِي صَالِحًا حِينَ أَسْمَعُ^(١)
تَوَرَّعْتُ أَنْ أَغْتَابَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَمَا هُوَ - إِذْ يَغْتَابُنِي - مُتَوَرَّعٌ^(٢)

وقال آخر:

وَسَوْءُ ظَنِّكَ بِالْأَذْنَيْنِ دَاعِيَةٌ لِأَنْ يَخُونَكَ مَنْ قَدْ كَانَ مُؤْتِمِنًا^(٣)

وقال آخر:

إِحْفَظْ نَصِيحَةً مِنْ بَدَا لَكَ نُصْحُهُ وَلِرَأْيِ أَهْلِ الْخَيْرِ - جَهْدَكَ - فَاقْبَلِ^(٤)

وقال القطامي:

لَعَلَّكَ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ نَصْحِي سَيُنْدِمُكَ الَّذِي عَمِلْتَ يَدَاكَ^(٥)

وقال أبو الأسود:

أَلَا رَبِّ نَصَحَ يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهُ وَغَشَّ إِلَى جَنْبِ السَّرِيرِ يُقَرِّبُ^(٦)

وقال عبد الرحمن بن حسان:

وَمُتَّخِذٍ وَدًّا لِمَنْ لَا يُوَدُّهُ كَمُعْتَذِرٍ عُذْرًا إِلَى غَيْرِ عَازِرٍ^(٧)

وَمُسْتَوْقِدٍ حَرْبًا عَلَى غَيْرِ ثَرَوَةٍ كَمُقْتَحِمٍ فِي الْيَمِّ، لَيْسَ بِمَاهِرٍ^(٨)

(١) إن الحسود يذمني ويذكرني بالسوء إذا غبت عنه، ويمدحني، ويثني عليّ إذا كنت معه.

(٢) لقد تحرّجت أن أذكره بالسوء عند غيابه عني، ولكنه لم يتورّع عن اغتيابي وذمي.

(٣) إن ساء ظنك بالأقربين منك، فإن هذا يدعو من يأتمنونك إلى خيانتك.

(٤) من أظهر لك النصيحة المخلصة فخذها عنه واعمل بها، وتمسك بأراء الخيّرين من الناس.

(٥) إن أنت لم تقبل نصيحتي؛ فإن ذلك سيجعلك - يومًا - تندم كثيرًا.

(٦) ربّ نصيحة خالصة يغلق الناس الباب دونها ولا يقبلونها، وربّ غشّ يتقبلونه في ساحات اللهو، وساعات التغرّل والفساد!

(٧) إن توددت إلى من لا يودّك، فإنك تكون كمن يُقدّم عذرًا إلى من لا يقبل الأعذار جميعها!

(٨) الثروة: كثرة العدد من الناس.

إن من يُشعل حربًا وليس معه من الجنود من يستعين بهم، فإنه يكون كمن ينزل إلى الماء وهو لا يعرف السباحة.

وعاش بعينه لمن لا يُباله كساع برجله لإدراك طائر! ^(١)
وقال أعرابي: بالمدارة تستخرج الحية من جحرها، وتستنزل الطائر من الهواء،
وتقتنص الوحش من البئداء.

وقال شاعر:

أخو البشر محمودٌ على حسنِ بشره ولن يعدم البغضاء من كان عابساً ^(٢)
وقال أسماء بن خارجة:

أردت مساتي فاعتمدت مسرتي وقد يحسن الإنسان يوماً ولا يدري! ^(٣)
وقيل لقُسن بن ساعدة: صف لنا صديقك؟ فقال:

رحيبٌ ذراعٍ بالذي لا يشينه وإن كانت الفحشاء، ضاق بها ذرعاً ^(٤)
وقال قيس بن الخطيم:

فإن ضيع الإخوان سرّاً، فإنني كتومٌ لأسرار العشير أمينٌ ^(٥)
وعندي له يوماً - إذا ما ائتمنته - مكانٌ بسوداء الفؤاد مكينٌ ^(٦)

وقيل للحراني: بينك وبين سهل بن هارون صداقة، فانعتنه لنا كي نعرف، فقال:
هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن حُودثَ لم يكذب، وإن مُوزِحَ لم يغضب،
كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أوفت أحيت ^(٧)، وكالأرض ما حملتها

(١) لا يُباله: لا يبالي به، حذفت الألف تخفيفاً.

إن من ينظر بعينه إلى من لا يهتم به ولا يبالي، كمن يمشي على أقدامه وهو يريد أن يدرك طائراً يسبح في الفضاء!

(٢) إن الإنسان المنطلق الوجه سيحمد له الناس هذا الانطلاق وهذا البشر البادئين على وجهه، أما العابس المتقبض الوجه فإنه سيجد المبغضين الكارهين له.

(٣) أردت أن تُسيء إليّ، فإذا بك تحسن إليّ دون أن تدري!

(٤) هو رُحْب سَمَح فيما لا يعيبه، ولكنه يضيق بالمنكر والقيح، ولا يطيقهما ولا يقوى عليهما.

(٥) إذا أفشى أصحابي أسراري، فإنني حافظ لأسرار من يعاشرني، أمين عليها.

(٦) وإن لمن يعاشرني لمكاناً - بحبة قلبي - قوياً متيناً، إذا وجدت فيه الأمانة والإخلاص.

(٧) أوفت: أشرفت، وَعَلَتْ المكان.

حَمَلْتُ، وكالماء طهورٌ لملتسمه، وناقع لُغْلَةٍ من احتَرَّ إليه^(١)، وكالهواء الذي تُقْطَف منه الحياة بالتَنَسُّم، كالنار التي يعيش بها المقرور^(٢)، وكالسماء التي قد حُسُنَتْ بأصناف النور.

قال شاعر:

غَمَسْتُ نَفْسَكَ فِي خَضِرَاءٍ مُغْدِقَةٍ وَغَيَّرْتُكَ عَلَى إِخْوَانِكَ النِّعَمِ^(٣)
وقال آخر:

لَقَدْ أَتَاكَ الْعِدَا عَنَا بِمَنْكَرَةٍ فَرَدَّدُوها بِإِسْرَافٍ وَتَكْثِيرِ^(٤)
لَا تَسْمَعَنَّ بَنَا إِفْكَاً وَلَا كَذِباً يَا ذَا الْفَوَاضِلِ وَالنِّعْمَاءِ وَالْخَيْرِ^(٥)
وقال آخر:

كَأَنِّي وَشِبْلًا لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعًا وَلَمْ نَصْطَحِبْ - خِدْنَيْنِ - قَبْلَ التَّفَرُّقِ^(٦)
وَلَمْ نَتَمَاحِضْ صَادِقَ الْوَدِّ بَيْنَنَا وَلَمْ نَتَّعُدْ يَوْمًا لَخَيْرٍ، فَنَلْتَقِي^(٧)
حَلِيمٌ إِذَا مَا الْجَهْلُ أَنْصَلَ نَبْلَهُ وَحَصَّ أَثِثَ الرِّيشِ عَنْ كُلِّ أَفْوَاقِ^(٨)
سَجِيَّةٌ حَلُمٌ صَاغَهَا اللَّهُ شِيْمَةً فَتَمَّتْ عَلَى مَا قَالَ، غَيْرَ التَّخَلُّقِ^(٩)

(١) ناقع لُغْلَةٍ من احتَرَّ إليه: قاطع ومسكن لحرارة عطش من طلب عطاءه وماءه.

(٢) كالنار التي يعيش بها المقرور: التي يحيا بها ذو البرد الذي يطلب الدَّفء.

(٣) لقد أغرقت نفسك في نعمة سابغة كالشجرة الخضراء التي تهب الكثير الوفير من الثمار، وقد بدلتك هذه النعمة وغَيَّرْتُكَ عَلَى رِفَاقِكَ، وقد قال الشاعر القديم في قريب من هذا الموقف:

إِن الْكَرَامَ إِذَا مَا أُيْسِرُوا، ذَكَّرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَوْطَنِ الْخَشَنِ

(٤) لقد أبلغك أعدائي عني مُنْكَرًا لَا يُرْضِي اللَّهَ، ورددوه، وأطالوا القول فيه كثيرًا.

(٥) وإياك أَن تصدق عني هذا البهتان والكذب، فأنت صاحب الفضل والنعمة والخير عليّ.

(٦) لقد تقطعت جبال المودة بيني وبين «شبل»، وصرنا كأننا لم نَبْتَ مَعًا لَيْلَةً وَاحِدَةً، ولم نكن صديقين مخلصين وَفِيَّينَ.

(٧) وكأننا لم يخلص أحدنا الآخر المودة، ولم تكن بيننا مواعيد نلتقي فيها على الخير والمحبة.

(٨) وإني لحليم إذا أخرجت السفاهة سهامها، وإذا أفنى عدوي الرِّيش الكثير العظيم الذي في سهامه وتركها كسيرة مشقوقة.

(٩) وتلك طبيعة الحليم الذي منحه الله الحلم والحكمة، وصارت فيه طبيعة لا تكلف فيها.

وقال آخر:

ومن يتخذ حَبْلِي إِيَّاكَ جُنَّةً وَمُمْتَنَعًا، لَا تُلْقَهُ - الدهر - مُعَوَّرًا^(١)

وقال آخر:

وقد كنت جَارًا للشباب وصاحبًا فكيف - ولم أغدر به - مَلَّ جانبي؟^(٢)
وإني على ما فات منه لقائل: عليك سلام من خليل وصاحب^(٣)

وقال آخر:

ذهب الرجالُ الْمُقْتَدَى بفعالهم والمنكرون لكل أمر مُنْكَرٍ^(٤)
وبقيتُ في خَلْفٍ يَزِينُ بعضهم بعضًا، ليدفع مُعَوَّر عن مُعَوَّرٍ^(٥)

وقال آخر:

ذهب الذين إذا رأوني مُقبلًا هُشُوا وقالوا: مرحبًا بالمُقبلِ^(٦)
وبقيت في خَلْفٍ كأن حديثهم وَلَعُ الكلاب تهاشَّت في مَنْهَلٍ^(٧)

وقال آخر:

ورُبَّمَا كان الشفيق مَضَرَّةً عليك من الإشفاق، وهو ودود^(٨)

(١) إن من يتخذك سُرَّةً له ووقاية، ويجعلك حصنًا منيعًا قويًا له، فلن يجد الناس به يومًا نقصًا أو خللاً أو حاجة.

(٢) لقد كنتُ مجاورًا طيبًا للشباب، وكنتُ صديقًا مخلصًا له، وما غدرتُ به يومًا. فكيف هجرني، وسئمني، ومَلَّ

صداقتي؟

(٣) وإني لأقول لهذا الشباب الذي وَلَّى عني: عليك سلام الله؛ فقد كنت خير خليل، وكنت خير صاحب.

(٤) لقد مضى الرجال الذين كنا نتأثرهم، ونسير على هداهم، وننهج نهجهم، أولئك الذين كانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن القبيح ويعيونه.

(٥) وبقيت أنا بعد هؤلاء الذين يُقْتَدَى بهم، في قوم جاءوا من بعدهم يُزِينُ بعضهم أعمال البعض وإن كانت سيئة لا تستحق ذلك؛ ليدفع ذو الخلل منهم عن ذي الخلل، وليتبادلوا التثويه والتضليل.

(٦) ولقد مضى من كانوا إذا أُقبلت عليهم رحبوا بي، وسُرُّوا لقدمي.

(٧) وعشتُ بعدهم في قوم يشبه حديثهم شرب الكلاب وتحريكها لألسنتها وتحرش بعضها ببعض عند مورد الماء.

(٨) قد يضررك إشفاق المشفق عليك بعض الأحيان، وهو محبٌ لك بارٌّ بك.

قالت عائشة: كنت أرى امرأة تدخل على النبي صلى الله عليه وآله، وكان يُقبل عليها بحفاوة برّ، فشقّ ذلك عليّ، فعلم ذلك مني، فقال: يا عائشة، هذه كانت تغشانا^(١) أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان.

وأرويها هنا ذُراوة^(٢) من كلام أرباب الحِذْق^(٣) والخَرْقِ^(٤)، فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضراب عنه^(٥)، ولا الإخلال به.

سمعت ابن السراج الصوفي يقول: قلت لأبي الحسن البوشنجي: مَنْ أَصْحَبُ؟ قال: مَنْ يصفو كدرك بصفائه، ولا يكدر صافيك بكدره.

قلت لغلام ابن بابويه القمي: مَنْ أَعَاشِرُ؟ فقال: مَنْ إذا أحسنت قال: الحمد لله الذي وَفَّقَ هذا لما أرى، وإذا أسأت قال: الحمد لله الذي لم يبلِّه بأشدّ مما أرى.

وقال أبو المتيّم الرقي: قلت لابن المولّه: مَنْ أَجْلَسُ إليه، وأشتمل بسريّ وعلايتي عليه^(٦)؟ قال: من إذا لم تكن لنفسك كان لك. وإذا كنت لنفسك كان معك، يجلو صدأ جهلك بعلمه، ويحسم مادة غيِّك برشده، وينفي غشّ صدرك بنصحه. اصحب من إن قُلْتَ صدّقك، وإن سَكَتَ عَدَرَكَ، وإن بَذَلْتَ شُكْرَكَ، وإن مَنَعْتَ سَلَمَ لَكَ^(٧).

قلت: يا سيدي، مَنْ لِي بِمَنْ هذا نَعْتُهُ؟

قال: كُنْ أَنْتَ ذَاكَ، تَجِدْكَ عَلَى ذَاكَ، وَيَجِدْكَ مِثْلَكَ عَلَى ذَاكَ، كَأَنَّكَ إِنَّمَا تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَكَ لَكَ، وَلَا تَحِبُّ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ لَغَيْرِكَ.

(١) تغشانا: تزورنا.

(٢) الذراوة: الساقط من الطعام عند التذرية، المتكسر البالي من الثبت الذي تطير به الريح.

(٣) الحذْق: المهارة، ومعرفة الغوامض والدقائق.

(٤) الخَرْقُ: الحُمُق، والكذب، ولعب الصبيان بالمخاريق.

(٥) الإضراب عنه: الإعراض عنه.

(٦) أَشْتَمَل: اشتمل بالشيء: تَلَفَّفَ به، وأداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده.

(٧) إن كَفَفْتَ عنه بَرَكَ وخيرك، اعتقد أن ذلك عن ضرورة وعدم قُدرة.

وقيل لبرهان الصوفي: مَنْ الصديق؟

قال: يا هذا، مَنْ بَضِعَ نصفه معدوم عليك^(١). أطلب من يَسْعُكَ بِخُلُقِهِ وَيُؤْنِسُكَ بنفسه، ويواسيك من قليله، إن رضي عنك لم يغلظك، وإن سَخِطَ عليك لم يَمُقُتْكَ. يبدي لك خيره؛ لتقتدي به، ويواري عنك شره؛ لئلا تستوحش منه. فأما من تكون مثال نفسه في كل حال تَلَوَّنَ به الدهر^(٢). وهم صدره في كل أمر، يَقلَّبُ به الليل والنهار^(٣)، يُقدِّمُ حظك على حظه، ولا يُسارقُ النظر بلحظه، ولا يُغلظُ القول بلفظه، ولا يتغيَّرُ لك في غيِّه، ولا يحولُ عما عهِدْتَهُ في شهادته، يُعانقُ مصلحتك بالاهتمام^(٤)، ويثبَّتُ قدمك عند الإقدام والإحجام. فذاك شيء قد سَدَّ الناسُ دونه كلَّ باب، وقصر الطمع فيه عن كل قاب^(٥)، فليس له شَبَحٌ إلا في الوهم^(٦)، ولا خيالٌ إلا في التمني^(٧)، والسلام.

وقلت لجعفر بن حنظلة: مَنْ أَصْحَبُ؟

قال: أخطأت، قُلْ لي: مَنْ لا أَصْحَبُ، فَإني إن حَصُرْتُ لك من لا تصحب، فقد أرشدتك إلى من تصحب.

قلت: فَمَنْ لا أَصْحَبُ؟

قال: لا تصحبني، ولا تصحب من كان مثلي.

(١) أي إن الصديق هو من كان جزءاً من نفسه فانياً لأجلك، مُضَحِّياً به لك.

(٢) أي: أَمَّا من تكون عنده كما تكون نفسه عنده في حالات الدهر المختلفة المتقلِّبة.

(٣) ومن تكون أنت الشغل الشاغل لنفسه، وموضع اهتمامه ليلاً ونهاراً.

(٤) يُعانقُ مصلحتك بالاهتمام: يَضُمُّ مصلحتك إلى نفسه ويلتزمها، ويهتَمُّ بها.

(٥) قَصُرَ الطمع فيه عن كل قاب: قَلَّ الطمع والأمل في وجوده عن كل مقدار.

(٦) أي: ليس له شبح -وهو سواد الإنسان الذي نراه من بعيد كأنه صورة هزيلة ضعيفة لصاحبه- ليس له هذا الشبح -على ضعفه- إلا في الوهم والخيال.

(٧) وليس له ظلُّ أو خيالٌ إلا في الأحلام والأمانِي التي يتمناها الإنسان ويحلم بها.

وما زادني على هذا، ولحقني من هذا الكلام كُرب... وَصُرِفَ الزمانُ^(١)، فرأيتُه بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين وهو متوجّه إلى الحج، فقلت له: أيها الشيخ، لقد جَرَحْتَ سري بكلامك في وقت كذا وكذا، ولعلك ذاكرٌ مما كان هناك.

قال: أردتُ بتنفيرك مني^(٢) إغراءك بي^(٣)، وهذا من خدع المشايخ للمريدين.

وحدثني ابن السراج الصوفي، قال: كنت بالشام عند الروذباري أبي عبد الله فكتب إلى المهلبى - وكان من مشايخ الشام - كتاباً فيه شوق وعُتب، يقول في فضل منه: أراحَكَ الله يا سيدي من شوق مَنْ لا يُشْتاقُ إليه، وعُتب من لا تغتابه^(٤)، فإنه إذا أجاب هذا الدعاء، حرس وقتك لك، وأفرغ بالك عليك، وكنت في زينة حالك ساعياً، ولحقائق سرِّك وعلانيتك داعياً.

ولكن لو رحمت أصدقاءك في شوقهم إليك، صنتهم وإياك عن عتبهم عليك، وليس بضائر^(٥) أن تجعل اهتمامك بهم وطلوعك عليهم، وتجديدك العهد بمناسمتهم^(٦)، في عرض ما تتقرب إلى الله به إن كان حسناً، أو في جملة ما تستغفر الله منه إن كان قبيحاً.

وبعد: فليس كل من أوتي الصبر، وأعين بالجلد، وكان له من نفسه داع إلى الجفاء، ومجيب إلى الهجر، أكمل ذلك كله في البعد عن خلّانه، والبراءة من خلّصانه. ووالله الذي هو مالك همسنا، والسابح في سرائرنا، لولا أنك أحلى من زلال الحياة إذا طابت^(٧)، وأطيب من العيشة إذا لذت، وأعذب من الزلال على الحرّ، وأدب في

(١) صُرِفَ الزمانُ: تَحَوَّلَ.

(٢) تنفيرك مني: أي أن أجعلك تُعرض وتصدّ عني، وتكرهني.

(٣) إغراءك بي: أي أن أجعلك تُولّع بي.

(٤) تغتابه: تعيبه وتذكره بما فيه السوء.

(٥) بضائر: بضارّ.

(٦) مناسمتهم: محادثتهم ومقاربتهم، ومُساوَرَتهم.

(٧) لولا أنك أحسن مَذاقاً من الماء البارد العذب الصافي السهل السلس، وقت اشتداد الحرّ والعطش إلى الماء.

الضمائر من الخواطر^(١)، وأعلّق بالعيون من النواظر، وما اهتزّزنا مشتاقين إليك، ولا انتهينا متهاكين عليك^(٢)، ولكنك الروح، والصبر عن الروح مُعَوِّز^(٣)، والحياة والبقاء مع فقد الحياة مُعْجَز. فإن فاء بك رأيي في الانكفاء إلى أحداق طامحة نحوك^(٤)، وهمم طائحة في الوجد بك^(٥)، ومجالس خضرة نضرة بأحاديثك، ومسامع صاغية إلى لذيق لفظك، وشهّي جدك وهزلك. فتصدّق علينا بنفسك؛ إن الله يجزي المتصدّقين.

وقال سالم بن وابصة:

ونيرب من موالي السوء ذي حسدٍ	يقتات لحمي، وما يشفيه من قرم ^(٦)
أذبت صدرًا طويلاً غمره حقدًا	منه، وقلّمت أظفارًا بلا جلم ^(٧)
كُفْنُذِ الرمل ما تخفي مدارجُه	خبّ، إذا نام عند النوم، لم ينم ^(٨)
ملازم لخداع ما يفارقه	ييدي لنا الغش والعوراء في الكلم ^(٩)
كأن سمعي إذا ما قال مُحْفِظَةً	أصم عنه، وما بالسّمع من صمم ^(١٠)
حتى أطبى ودّه رفقي به ولقد	نسيته الحقد حتى عاد كالحلّم ^(١١)
وإن من الحلّم ذلاً أنت عارفه	والحلّم عن قُدرة صنف من الكرم ^(١٢)

(١) أكثر عمقاً وخفاءً في النفوس من الخواطر والأحلام والهواجس التي لا تُرى.

(٢) متهاكين عليك: شديدي الحرص عليك.

(٣) مُعَوِّز: لا نقدر عليه مع احتياجنا له.

(٤) فإن رجّعك رأيي، وحوّلك إلى الرجوع لعيون وأبصار متعلّقة بك، ناظرة إليك.

(٥) وإلى همم وعزائم قويّة هالكة في محبتك.

(٦) صديق من أصدقاء السوء والشرّ والنميّة، حُسن، يأكل لحمي وينهش عرّضي، ثم لا يشفيه ذلك، ولا يُطفيئ شهوته الشديدة إلى أكل لحمي.

(٧) لقد أذبت ما يملأ صدره من الحقد، وقلّمت أظفاره بلا قطع.

(٨) إنه كُفْنُذِ الرمال، ماكر مخادع، يدّعي النوم وهو يقظان.

(٩) إنه مخادع لا يفارقه الخداع، يُظهر الخداع والخرق والعيب في ألفاظه وكلماته.

(١٠) إن سمعت منه كلاماً يملأ نفسي حفيظة وغضباً، فإنني أكون كالأصم الذي لا يسمع، وما بي شيء من الصمم!

(١١) لقد عاجلت مودته المعتلّة ودأويتها بالرفق واللين، وجعلته ينسى أحقادته حتى صار وديعاً حليماً.

(١٢) وإن من الحلّم ما يدخل في باب الذلّ والضعف، وإن منه لكرماً وسماحة.

وقال آخر:

فمن شاء رام الصَّرم، أو قال ظالمًا لذني ودّه ذنبًا، وليس له ذنبٌ^(١)

وقال آخر:

وهوّنَ وجدي أنه ليس واجدًا من الناس، إلا قد أُصيب بصاحبٍ^(٢)

وقال آخر:

وما زال يدعوني إلى الهجر ما أرى فأناى وتثنيى عليك الحفائظُ^(٣)

وأنتظر العُتْبَى، وأغضي على القُدَى وأصبرُ، حتى أوجعتني المغائظُ^(٤)

قال شاعر:

ولي صديق عَدِمْتُ عقلي إن قلتُ: إني له صديقٌ^(٥)

ما نلتقي في الزمان، حتى يجمع ما بيننا الطريقُ^(٦)

وقال آخر:

نشدتُك بالبيت الذي طافَ حوله رجالٌ بنوهُ من «لؤيّ بن غالب»^(٧)

فإنك قد جرّبتني، هل وجدتني أعينك في الجُلَى، وأحميك جانبي؟^(٨)

- (١) من أراد قطيعة إخوانه وهجرهم، فإنه يفتعل عليهم الذنوب ويدعيها؛ تمهيدًا لذلك.
- (٢) لقد خفف غضبي وحزني أنني لم أجد إنسانًا إلا وقد أُصيب في صاحب له بمثل الذي أُصبتُ به في أصحابي، وابتلاه الدهر بمثل ما ابتلاني، تقول «الخنساء» في رثاء أخيها «صخر»:
- ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم، لقتلت نفسي
- (٣) إن ما أراه منك ليدعوني إلى هجرك وبغضك، ولكن، يعطفني إليك حفاظي وتقيتي.
- (٤) إنني أنتظر الرضى، وأكفّ بصري عن العيوب والمتاعب وأصبر طويلاً حتى يُتعبني الغيظ.
- (٥) لي صديق، إن قلتُ عنه إنه صديق حقًا، فإني أكون قد فقدت عقلي.
- (٦) فإنه لا يسعي إلى لقائي يومًا، ولا نلتقي إلا مصادفةً في الطريق.
- (٧) حلقت عليك بالبيت العتيق، الذي طاف حوله -في الحجّ- رجال كرام قاموا على بنائه، من قوم «لؤيّ بن غالب».
- (٨) لقد اختبرتني وجرّبتني، فهل عرفت أنني أساعدك في عظام الأمور، وأنني أفيك سؤئي وشرّي؟ أم إنك لم تعرف ذلك عني؟

وإنَّ معشرٌ دبَّتْ إليك عداوةً عقاربُهُمْ، دبَّتْ إليهم عقاربي؟^(١)
وقال آخر:

من لم يُردِّك فلا تُردِّه لِتَكُنْ كمنْ لم تستفده^(٢)
وقال آخر:

إذا كنت تُحصي ذنوب الصديق، وتُنسى ذنوبك بالواحدة^(٣)
فإنك أنبل أهل الزمان طرّاً، على هذه القاعدة^(٤)
وكتب بعض آل ثوابة إلى صديق له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فأما ما أشرتَ به من معاتبة أبي فلان، واستقبحتَه من سيرته في بعض نقض
العهد، وتضييع الودّ، فالناس -يا أخي- أصدقاء الحال، يتصرفون بتصرفها،
ويحولون بحولها^(٥). والحزم أن يُؤخذَ صفوهم، ويُقبلَ عفوهم، ولا يُعابوا
على هفوتهم، والله يعلم أني -لكل من واددتُ- على حبِّ وافيٍّ وميلٍ صافيٍّ،
وإخلاصٍ شافيٍّ.

(١) وهل وجدت أنه إذا همّت عقارب بعض الناس إليك تريد بك الشرّ، وقفّت دونهم عقاربي تدفع شرهم وأذاهم
عنك؟

(٢) إذا كرهك إنسان فأكرهه، واعتبره بمنزلة من لم تر ومن لم تعرف من الناس.

(٣) إن كنت تعدّ ذنوب أصدقائك، وتنسى ذنوب نفسك جميعها.

(٤) فأنت بذلك أكثر أهل زمانك جميعهم على هذه الأرض بُنلاً..

(٥) إنهم أصدقاء اللحظة الحاضرة، يدورون معها حيث تدور، ويقفون منك حسب ما تقف الحياة منك، قال
شاعر:

تحالفَ الناسَ والزمانُ فحيث كان الزمانُ، كانوا

وكتب أيضًا هذا الكاتب إلى آخر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَدِدْنَا -أَعَزَّكَ اللَّهُ- فَأَحْسَنْتَ ظَاهِرَ التَّوَدُّدِ، وَلَا قَيْتَنَا فَعَمِرْتَ الْحَالَ بِالتَّفَقُّدِ^(١)،
ثُمَّ أَخَذْتَ بَوَثَائِقِ الصُّرْمَةِ وَالْجَفْوَةِ، وَخَلَّيْتَ عَنْ عِلَاقِ الصَّلَةِ وَالْمَبَرَّةِ، حَتَّى كَانَ مَا
أَسْلَفْتَهُ كَانَ حُلْمًا، وَمَا اسْتَأْنَفْتَهُ كَانَ غُنْمًا^(٢). فَإِنْ قُلْتَ إِنَّ الشَّغْلَ بِالسُّلْطَانِ، وَالتَّصَرُّفَ
مَعَ الزَّمَانِ، عَاقَاكَ عَنْ جَمِيلِ الْعَادَةِ، وَقَضَاءِ حَقِّ السَّلَامِ وَالْعِيَادَةِ، فَقَدْ كَانَ لَكَ فِي
الرَّسُولِ فَسْحَةٌ، وَبِالْكِتَابِ بِالْعَذْرِ حِجَّةٌ، وَكَانَ الْأَوَّلَى أَنْ تُدِيمَ ثِقَتَنَا بِكَ، وَتُطِيطَ سَيِّئُ
ظَنِّنا عَنْكَ^(٣)، وَتَجْعَلَنَا فِي حَيْزِ السَّكُونِ إِلَيْكَ. وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَسْتَقِيلَ الْإِعْتَابَ،
وَتُسْتَهْجَنَ الْإِغْبَابَ^(٤)، وَتَرَاوِجَ فِينَا مَا أَنْتَ أَوْلَى بِهِ مِنَ الصَّوَابِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.
وكتب أيضًا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقُوقَكَ مَفْتَرِضَةً، وَثِقَتِي بِكَ مُسْتَحْكِمَةً، وَرَبَّمَا كَانَتْ الصَّلَةُ فِي إِظْهَارِ ضِدْهَا،
وَكَانَ بَادِي الْجَفْوَةِ أَبْقَى لِلْحَالِ وَأَعَمَّرَ لَهَا. وَمَا أَحْسَبُنِي أَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةِ فِي عِلْمِكَ
بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ وَدِّكَ، زَادَ اللَّهُ فِي مَنِّهِ وَنِعَمِهِ عِنْدَكَ.

(١) إِنَّكَ مَلَأْتَ حَيَاتِنَا، وَعَمَّرْتَهَا بِتَفَقُّدِكَ إِيَّانَا وَتَعَهُدِكَ وَرِعَايَتِكَ لَنَا.

(٢) لَقَدْ تَرَكْتَ وَدَّنَا وَصَلَّتْنَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا أَحْلَامٌ، وَكَأَنَّكَ -عِنْدَمَا عُذْتُ تَسْتَأْنِفُهَا- تَمْنَحُنَا غَنِيمَةً جَدِيدَةً لَا عَهْدَ
لَنَا بِهَا!

(٣) تُطِيطُ: تُنَحِّي، وَتُتَبَعِدُ.

(٤) وَرَجَاؤُنَا مِنْكَ أَنْ تُرْضِيَنَا وَتَتْرَكَ مَا يَغْضِبُنَا، وَأَنْ تَسْتَقْبِحَ هَجْرَنَا وَقَطِيعَتَنَا، وَزِيَارَتَنَا فِي فُرَاتٍ مَتَبَاعِدَةٍ غَيْرِ
مُتَّصِلَةٍ.

وكتب أيضًا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا أجري مجرى أوليائك، ومن لبس الضافي^(١) من نعمائك. فإن زرتك لم أوجب عليك حقًا بمواصلة، وإن أغيبتك^(٢)، لم أخف منك حيفًا ولا لائمةً. فالحمد لله الذي جعلني بهذه المنزلة في المتحققين بك والثقة بفضلك^(٣).

قال شاعر:

أخشى القطيعة بيننا، وأظنّها ستكون، إن دُنا على الهجران^(٤)
وأرى اللجاجة - غير شك - ربما قطعت شوابك حرمة الخلان^(٥)
وكتب الكاتب الأول أيضًا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا واحدٌ منكم - أهل البيت - داخلٌ في جملتكم، وجارٍ مجرى لُحمتكم^(٦).
فإن شملتكم نعمة، شرّكتكم في التجلّل بها، وإن تجددت لكم دولة، جاريّتكم في الابتهاج بها، وإن وقفت بكم حال، تصرفت معكم فيها. ومن كان بهذه المنزلة في المُشابكة والممازجة لم يخش منكم - إذا غاب - تهمة، ولا - إذا حضر - جفوة، ولا - إذا قصّر - محاسبة. فالحمد لله الذي أخلصني لكم، وجعلني على ثقة بكم، لا

(١) الضافي: السابغ، الطويل، المتسع.

(٢) أغيبتك: زرتك زيارات غير متصلة، فأجبتك يومًا، وأتركك يومًا.

(٣) المتحققين بك: المتيقّنين منك.

(٤) إني أحاذر القطيعة، وأرجح أنها ستقع بيننا، إن نحن بقينا على ما نحن فيه من هجر.

(٥) اللجاجة: التمادي والعناد في الخصومة.

إني أرى أن العناد في الخصومة، والتمادي والاندفاع في طريقها، قد يؤديان إلى قطع ما تشابك واتّصل من صداقة الأصدقاء وما لها من حق وحرمة.

(٦) لُحمتكم: قرابتكم.

يضيق بي عندكم عُذر بما لا يجب لي عليكم شكر.

قال شاعر:

عدوك ذو العقل خيرٌ من الـ صديق لك الوامقِ الأحمق^(١)
فَمَا أَحْكَمَ الرَّأْيَ مِثْلُ امْرِئٍ يقيس - بما قد مضى - ما بقي^(٢)
وقال آخر:

لا أسمعُ - الدهرَ - جليسي الأذى إنَّ لساني عن جليسي كليل^(٣)
إنَّ خليلي واحدٌ وجهُهُ وليس ذو الوجهين لي بالخليل^(٤)
وقال شاعر:

أُبْنِي، إن سعادةً للمـ رءٍ طاعةً ذي التجارب^(٥)
خُذْ من صديقك ما صفا لك، لا تكن جَمَّ المعائب^(٦)
وإذا مُنيتَ بجاهلٍ فاحضر بحلمٍ غير عازب^(٧)
ما نال غُنىً ذو السِّفا ه، ولا أخو حِلْمٍ بخائب^(٨)
واشربْ على الأقداء مُدَّ تَمَسَّا بها صَفْوَ المِشارب^(٩)

(١) إن عدوك إن كان عاقلاً حكيماً، خيرٌ من صديقك المُحب لك إن كان أحمق لا عقل فيه ولا حكمة، وقد قيل: «عدو عاقل، خير من صديق جاهل».

(٢) ليس أكثر حكمةً وسداداً من امرئٍ يقيس الأمور المستقبلية بما مضى من الأمور.

(٣) إن جليسي لا يسمع مني يوماً ما يؤذيه ويُتعب نفسه؛ لأن لساني ضعيف عيٌّ عن جليسي.

(٤) إن خليلي الحق هو من كان ذا وجه واحد، ولن يكون خليلاً لي يوماً من كان ذا وجوه متعددة، يُنافق الناس ويُخادعهم.

(٥) اعلم - يا بني - أن طاعة الكبير المُجرب، تجلب لك السعادة والخير دائماً.

(٦) خُذْ من صاحبك ناحية الخير والبرِّ والبشر، ودع نواحيه الأخرى، ولا تكن كثير العتاب له والبحث عن عيوبه.

(٧) وإذا أثبتت بصديق جاهل سفيه، فليكن حضورك معه دائماً بعقل لا يغيب ولا يبعد عنك لحظة.

(٨) إن السفیه لن يحقق لنفسه منفعة أبداً، كما أن الحليم العاقل لن يخيب ولن يفشل أبداً. فالسفاهة تُنفر الناس من صاحبها، والحلم يُدنيه من ويربهم إليه.

(٩) لتقبل أصدقاءك على ما بهم من عيوب، ولتجعل قبولك هذا طريقاً إلى أن تنال ودهم وإخاءهم وما يقدمون إليك من نفع.

واشكر؛ فإن الشكر محتو م على الإنسان، واجب^(١)
ما خير من لا يشكر النعم م، وينصر في النوائب؟^(٢)

وقال آخر:

وإذا وصلت بعاقل أملا كانت نتيجة قوله فعلا^(٣)

وقال آخر:

وكيف يسود المرء من هو مثله بلا منه منه عليه، ولا يد؟^(٤)

وقال آخر:

أعاتب إخواني، وأبقي عليهم ولست بمستبق أخا لا أعاتبه^(٥)

وقال آخر:

ولست برائي عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه، إذا كنت راضيا^(٦)
فعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا^(٧)

وقال آخر:

أصافي خليلي ما استقام بوده وأمنحه ودي إذا يتجنب^(٨)

(١) كن شكورا للفضل من إخوانك؛ فإن الشكر على الفضل واجب محتوم.

(٢) أي خير في إنسان ناعم عليه، فلا يشكر لك؟ وأي نفع في صديق يتخلى عنك ولا يعينك على النوائب؟

(٣) إذا تعلقت آمالك بإنسان عاقل حكيم، فسيحقق لك آمالك، وستتحول أقواله إلى أفعال.

(٤) كيف تصير سيّدا على نذك بلا نعم تُسديها إليه، ولا خير تُقدمه له؟

(٥) إنني ألوم أصحابي على ما قد يسيئون به إليّ، وأبغى بذلك استبقاء مودّتهم، وقد قالوا: «ويبقى الود ما بقي العتاب».

(٦) إن كنت راضيا عن صاحبي، فلن أرى عيوبه ولا بعض عيوبه.

(٧) فإن عين الراضي تعمى عن العيوب، وعين الساخط تبرزها وتظهرها.

(٨) إن ودّني صاحبي واستقام إخاؤه لي، صافيته وأخلصت له الود، وإن تجنّبتني أبقيت على مودته، ولم أتحوّل عدوا له.

ولست ببادٍ صاحبي بقطيعتي ولا أنا مُفَشٍّ سرُّه حين أغضبُ^(١)

وقال آخر:

فانظر لنفسك من يحـ بُك بين أطراف الرماح^(٢)

من لا يسؤك لسانه بالعيب، إن يلحاك لاح^(٣)

وقال آخر:

أرضى عن المرء ما أصفى مودته وليس شيء - مع البغضاء - يرضيني^(٤)

ليس الصديق بمن تُخشى غوائله ولا العدو على - حال - بمأمون^(٥)

وقال آخر:

ولا ق بيشرٍ مَنْ لقيتَ تكنُ له صديقًا، وإن أمسى مُغبًا على حقدٍ^(٦)

وقال آخر:

ما لي صديقٌ مَنْ يواصلني في اليسر، ثم يصدُّ في العسر^(٧)

اغفرْ ذنوبَ أخيك ما قصرت دون الحوائج، فارضْ باليسر^(٨)

وقال آخر:

لا تُفشِ سرًّا إلى غير الصديق، ولا إلى المُشيع له يومًا إذا عتبًا^(٩)

(١) ولستُ أبداً صاحبي بالهجر، ولست مديعاً ما أتمنني عليه من سرٍّ إذا غضبتُ عليه، وأنبئتُ صلتني به، قال شاعر:

ولستُ إذا ما صاحب خانَ عهده - وعندي له سرٌّ - مديعاً له سرًّا

(٢) انظر واعرفْ صاحبك الذي يعرفك وقت الشدة، فذلك هو الصديق حقًّا.

(٣) واعرف وتمسكْ بصاحبك الذي إن عابك وذمك الناس جميعاً، فإن لسانه لا ينطق يوماً بكلمة ذمٍّ أو قدح فيك.

(٤) إذا أخلص صاحبي مودته لي فإنني راض عنه وعن كل ما يعمل، أما إذا أبغضني فلن يرضيني منه شيء.

(٥) ليس صديقاً لك من تكون على حذر دائم من أن يغتالك على غفلة منك، فلا تأمن عدوك يوماً.

(٦) إلّق الناس باليسر يكونوا لك أصدقاء، وإن كانوا حاقدين عليك، لا يبيتون إلا على حقدٍ لك.

(٧) لن يكون صديقاً لي من يودني في حال يسري، ويهجرنني في حال عُسري.

(٨) اغتفرْ لصاحبك ذنوبه الصغيرة التي لا تتعلق بحاجاتك الضرورية، وارضْ منه باليسر القليل.

(٩) لا تُفشِ سرّاً إلى غير صديقك، ولا تُفشه إلى من يُذيعه وينشره على الناس، واعلم بأن «السرَّ إذا تجاوز اثنين، ذاع».

قد يحقر المرء ما يهوى فيركبه حتى يكون إلى توريثه سبباً^(١)
 شرُّ الأخلَاء من كانت مودته مع الزمان، إذا ما خاف، أو رغبا^(٢)
 إذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عباً^(٣)
 وقال آخر:

ليس الصديق الذي يعطيك شاهده شهد الوداد، وصاب الغيب غائبه^(٤)
 وقال عبيد بن الأبرص:

قد يوصل النازح النائي، وقد يقطع ذو الشبهة القريب^(٥)
 وقال آخر:

تلوم على القطيعة من أتاها وأنت شببتها في الناس قبلي؟^(٦)
 وقال آخر:

قد فرق الله بين شيمتنا في كل أمر، فكيف نألف؟^(٧)
 قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: من أفرط من أجل أخ له، ثم لم يمتن عليه،
 عدل ذلك بصيام شهر.

وقال الحسن البصري: لا ينظر الله إلى من بذل الود لأخيه حتى ائتمنه، ثم انطوى
 له على غل.

(١) قد يزدرى الإنسان امرأ ويستصغره فيرتكبه اعتقاداً منه أن هذا الأمر صغير لا عواقب له، ولكن هذا الأمر الصغير قد يدفع به إلى أمور عظيمة.

(٢) إن شرّ أصدقائك من يدور مع الزمان ويتحول معه، فيخافك يوماً، ويطلب عطاءك ونوالك يوماً آخر.

(٣) إذا ظلمت إنساناً، أو نقضته حقّه، فاخش عداوته وانتقامه؛ فإن الذي يزرع الشوك لن يحصد إلا شوكة، ولن يحصد يوماً عباً!

(٤) ليس صديقاً لك من يعطيك - عند حضورك - حلو المودة ومعسول الكلام، فإذا غبت عنه انقلب حلوهُ علقماً مؤراً.

(٥) الشبهة: القرابة. قد يصلك صاحب بعيد الدار، نازح عنك، وقد يقطع ودادك قريب لك دان منك.

(٦) إنك تُعاتب الناس على الهجر والقطيعة، وأنت الذي أذاعها وأضرّ بها منذ زمن قديم!

(٧) إن الله خلق لكل منا طبيعة تختلف عن طبيعة صاحبه، فكيف نألف؟ وكيف نتفق على خلاف ما قضى الله وقدّر؟ والمثل العربي القديم يقول: «أنت تتق، وأنا متق، فمتى نتفق؟».

قال شاعر:

وأخ إن جاعني في حاجةٍ كان بالإلحاح مني واثقاً^(١)
وإذا ما جئتُه في حاجةٍ كان بالرد بصيراً حاذقاً^(٢)
يُعملُ الفكرة لي في الردِّ، من قبل أن أبدأ فيها ناطقاً!^(٣)

وقال آخر:

أراك مع الأعداء في كل موطنٍ وقلبك من ضغنٍ عليّ مريضٌ^(٤)
وما بي من فقرٍ إلى أن تحبّني وما ضرّني أني إليك بغيضٌ^(٥)
وقال ابن عباس: العاقل الحكيم صديق كل أحد إلا من ضرّه، والجاهل اللئيم عدوٌ لكل أحد إلا من نفعه.

وقال آخر:

لنا صديقٌ مُبغضٌ للأدبِ إخوانه من جهله في تعبٍ^(٦)
يغضبُ حيناً عند حدّ الرضا نوگًا، ويرضى عند حال الغضبِ^(٧)
كأنه -من سوء تأديبه- أسلم في كتاب سوء الأدبِ!^(٨)

وقال آخر:

الحمد لله عاملُ الصدقة كان صديقًا، فقد لوى عُقه
وقال آخر:

- (١) لي أخ إن أتى إليّ يبغي قضاء حاجة له، كان مُتيقناً أنه سينال خيري وبرّي.
(٢) أما إذا جئتُه أبغي قضاء حاجة لي منه، فإنه يردُّني ردّ حكيم عالم حاذق بأساليب الردّ!
(٣) وهو يُفكر كثيراً في الوسيلة التي يردُّني بها قبل أن أنطق بحاجتي منه!
(٤) إني -أيها الصديق- أراك مع أعدائي في كل مكان، وأعرف ما يمتلئ به قلبك من حقدٍ عليّ، وعداوةٍ لي.
(٥) ولستُ فقيراً إلى مجبتك، ولم يضرّني أنك تمقتني وتكرهني!
(٦) إن لنا صاحباً يكره أن يكون مهذباً طيّب القول، وإن إخوانه لفي تعب من سفاهته وجهله.
(٧) إنه أحمق لا عقل فيه ولا حكمة وراء ما يعمل، فتراه -لُحْمَقَه- يغضب عندما يكون الرضا واجباً! وتراه يرضى عندما يكون الغضب هو الواجب المحتوم!
(٨) كأنه -لما عُرف عنه من سوء الأدب- قد آمن وصدّق، لا بكتاب الله كما يؤمن ويصدّق المؤمنون الصالحون، ولكن بكتاب آخر يُعلّم سوء الخلق وقبح الفعال!

يا صديقي، ما كنتَ لي بصديقٍ إنما كنتَ للزمان صديقاً!
قال بعض السلف: أحقُّ الناس بأن يُتَّقَى: العدو القوي، والصديق المخادع،
والحاكم الغشوم.

وقال شاعر:

إذا عدوك لم يُظهرْ عداوتَهُ فما يضرك أن عاداك أشرارُ^(١)
وقال رجل لعمر بن الخطاب: والله إنني لأحبك في الله، قال: لو كنت كما تقول،
لأهديت إليَّ عبوبي.

وقال أعرابي: السؤال عن الصديق أحد اللقاءين^(٢).

وقال شاعر:

من لم يكن ذا صديقٍ يُفْضِي إليه بسرّه
ويستريح إليه في خير أمرٍ وشرّه
فليس يعرف طعمًا لحلو عيشٍ ومُرّه

وقال آخر:

وأبيض قد صادفته، فدعوته إلى بدوات الأمر حلو شمائله^(٣)
أخي ثقة إن أبغ الجدّ عنده أجده، ويلهيني - إذا شئت - باطله^(٤)

(١) إن أخفى عدوك عداوته عنك، ولم يلحق بك أثر لها، فليس بضائر أن يعاديك الأوغاد والأشرار من الناس جميعاً.
(٢) إنك - بالسؤال عن صديقك البعيد عنك - تعرف حاله، وما هو عليه من راحة أو تعب، ومن سعادة أو شقاء.
وإنك - ببقاء صديقك - تعرف هذا كله. وتُضيف إليه استمتاعك بمشاهدته ومطالعة وجهه. فكان السؤال نوع
من اللقاء وإن يكن أقل من اللقاء جدوى.

(٣) البدوات: جمع بداءة وهي ما بدا من الرأي، والحوائج التي تبدو.
قد صادفت هذا الصديق الصافي الوداد الأبيض الخلال الحلو الشمائل، فدعوته إلى ما يكلفه بذل أقصى
الطاقة، وأبعد الجهد.

(٤) إنه ممن أأتمنهم. وإنني لأجد عنده الجدّ إن أردته، وأجد عنده اللّهُو إن شئت.

وإني لمِعْرَاضٌ عن المرء بعدما يبين، وتبدو -لو أشاء- مَقَاتِلُهُ^(١)
وقال آخر:

أغيب عنكم بودّ لا يُغَيِّرُهُ طولُ البعاد، ولا ضَرْبُ من المَلَلِ
وقال آخر:

ولا يلبث الحبلُ الضعيف -إذا التوى وَجَادَبَهُ الأعداء- أن يَتَخَذَمَ^(٢)
قال الحسن البصري: ليس من المروءة أن يربح الرجل على أخيه.
وقال الحسن: كان أحدهم يشقُّ إزاره اثنتين، ولا يستأثر دون أخيه بَوَرَقٍ^(٣) ولا
عَيْنٍ^(٤).

وقال أيضًا: لأن أقضي لأخ من إخواني حاجة، أحبُّ إليَّ من أن أصلي ألف ركعة.
وقال أيضًا: ما تحابَّ اثنان ففرَّق بينهما إلا ذنب يُحْدِثُهُ أحدهما.
وقال أيضًا: لا تشتتر مودة ألفِ بَعْدَاوَةٍ واحدٍ^(٥).
وقال شاعر:

إذا ما امرؤ ولَّى عليّ بودِّهِ وأذبر، لم يُهدَر -بإدباره- ودِّي^(٦)
قيل لأعرابي: كيف ينبغي أن يكون الصديق؟

(١) وإني لكثير الإعراض عن صاحب الذي يهجرني، وليس إعراضي عنه ضعفًا مني عن النيل منه؛ فإني -لو أردت- لمرَّيته وكشفت من جسمه المواضع التي يُقتل منها.

(٢) يَتَخَذَم: يتقطع سريعًا.

إن الحبل الواهي الضعيف لا يبقى طويلًا، وكذلك الصداقة الواهية الضعيفة لا تلبث أن تزول.

(٣) الوَرَقُ: الدراهم المضروبة.

(٤) العين: الدينار والذهب المضروب خلاف الورق.

أي إنه لا يختص نفسه -دون أخيه- بشيء، وإن يكن دراهم أو دنانير من ذهب.

(٥) إن عداوة فرد واحد لا تساوي صداقة ألف من الناس، قال شاعر:

وما بكثير ألف خلٍّ وصاحب وإن عدوًّا واحدًا لكثير

(٦) إذا ولَّى عني صاحبي وأدبر، فإن مودتي له باقية لا تدبر بإدباره ولا تنقطع بقطيعته.

قال: مثل الروح لصاحبه يُخَيِّيه بالتنفس، ويُمَتِّعُهُ بالحياة، ويُريه من الدنيا نضارتها، ويُوصل إليه نعيمها ولذتها.

وأخبرنا ابن مقسم العطار النحوي، قال: أنشدنا ثعلب لأعرابي:

وذي رَحِمٍ، قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ، وهو ليس له حِلْمٌ^(١)
إِذَا سُمْتُهِ وَضَلَ الْقِرَابَةَ، سامني قَطِيعَتَهَا، تلك السفاهة والظلم^(٢)
ويسعى -إِذَا أَبْنِي- لِيَهْدِمَ صَالِحِي وليس الذي بيني كمن شأنه الهدم^(٣)
يَحَاوِلُ رَغْمِي، لا يَحَاوِلُ غَيْرُهُ وكالموت عندي أن يسوغ له الرِّغْمُ
فَإِنْ أَنْتَصِرَ مِنْهُ، أَكُنْ مِثْلَ رَائِشٍ سهامَ عدوٍّ يُسْتَهَاضُ بها العظم^(٤)
وَإِنْ أَغْفُ عَنْهُ، أَغْضِ عَيْنًا عَلَى قَدَى وليس له بالصفح عن ذنبه علم^(٥)
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْنٍ لَهُ، وَتَعْطُفٍ عليه، كما تحنو على الولد الأمُّ
لَأَسْتَلَّ ذَاكَ الضَّغْنَ، حَتَّى اسْتَلَّتْهُ وقد كان ذا حِقْدٍ يَضِيقُ له الحِزْمُ^(٦)
فَدَاوَيْتُ مِنْهُ الْحَقْدَ، وَالْمَرْءُ قَادِرٌ على سَهْمِهِ، ما دام في كَفِّهِ السَّهْمُ^(٧)

وقلت لابن برد الأبهري -وكان من غلمان ابن طاهر-: من الصديق؟

قال: من سَلَّمَ سِرَّهُ لَكَ، وَزَيَّنَ ظَاهِرَهُ بِكَ، وَبَدَّلَ ذَاتَ يَدِهِ عِنْدَ حَاجَتِكَ، وَعَفَّ

(١) لي قريب تربطني به أواصر القرابة، انتزعْتُ حَقْدَهُ وضغنه عليَّ بحلمي وصفحني عن سيئاته، وهو بعيد عن الحلم والصفح، وليس أحدهما من صفاته.

(٢) إِذَا أَدْفَنُتُهُ طَعْمَ قِرَابَتِي، وعاملته على أساسٍ منها، فإنه يذيقني طعم القطيعة والهجر، وتلك هي السفاهة والجهل والعدوان.

(٣) يَحَاوِلُ إِذْلالِي وقهري، ويجعل ذلك كُلَّ هَمٍّ، وهذا -عندي- يعدل الموت تمامًا.

(٤) فَإِنْ انْتَقَمْتُ مِنْهُ، كنت كمن يضع الرِّيشَ على سهام عدوِّه ليكسر بتلك السهام عظامه.

(٥) وَإِنْ أَغْضَيْتُ وَكَفَفْتُ النِّظَرَ عَنْهُ، فإنما أغضي على سيئات ومعائب، وهو لا يدري أنني بذلك أصفح عنه وأغفر له.

(٦) وَذَلِكَ لِكِي أَسْتَخْرِجَ ضِغْنَهُ وعداوته، وظللت على ذلك حتى انتزعتُهما من صدره، وقد كان ذا حقد يعيا به الحِزْمُ، وتعجز عن انتزاعه الحكمة والصبر.

(٧) وظللت على موقفٍ منه حتى عالجت نفسه وأبرأتها من الأحقاد، وإن المرء ليملك سَهْمَهُ ويقدر عليه ما دام السهم في جُعبته، ومُلْكُ يده.

عن ذات يدك عند حاجته، يراك مُنصِّفًا وإن كنتَ جائرًا، ومفضَّلًا وإن كنتَ مُمانعًا، رضاه مُنوطٌ برضاك، وهواه مَحوطٌ بهواك. إن ضَلَلْتَ هَذَا، وإن ظَمِئْتَ أَرْوَكَ، وإن عَجَزْتَ آدَاكَ^(١). يَبِينُ عنك بالجسم والرسم، ويشاركك في القَسْمِ^(٢) والوَسْمِ^(٣).

قلت: أما الوصف فحَسَن، وأما الموصوف فعزیز.

قال: إنما عَزَّ هذا في زمانك حين خَبِثَتِ الأعْراقُ^(٤)، وفسدت الأخلاق، واستُعمل النفاق في الوفاق، وخِيفَ الهلاك في الفراق. والله، لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء يَنْطَوون له على مودة أذكى من الورد والعنبر، إذا لَحَظَهُم بطَرْفه تَهَلَّلُوا، وإذا ناقلهم بلفظه تدللوا، وإذا تحكَّم عليهم تعجلوا، وإذا أمسك عنهم نَوَّلُوا وخَوَّلُوا، وكانوا يجدون به^(٥) ما لا يجدون بأهلهم وأولادهم، رحمةُ الله عليهم، فلقد كانوا زينة الأرض، في كل حال من الشدة والخفَض.

وإني لأذكرهم، فأجد في روعي روحًا من حديثهم.

قلت: كيف كان أنبساطهم في الاجتماع؟

قال: ما كانوا يتجاوزون الليلة الحلوة، والمزح الخفيف، واللفظ اللطيف، والرمز الرشيق، والتبسم المقبول. وإذا افترقوا فإنما هم في اهتمام بأن يعود نظام عيشهم، وتدوم لهم مَسَرَّة حياتهم. الكلمة واحدة، والطريقة واحدة، والإرادة واحدة، والعادة واحدة.

والوَحدة إذا ملكت الكثرة نَفَتِ الخِلاف^(٦)، وأورثت الائتلاف. ثم تكلم في

(١) آدَاكَ: أعانك.

(٢) القَسْمُ: الخُلُقُ، والعادة.

(٣) الوَسْمُ: العلامة في الجسم. أي إنه يشاكلك خُلُقًا وشَكْلًا.

(٤) خَبِثَتِ الأعْراقُ: فَسَدَتِ الأصول، وَغَثَّتْ، وَتَقَلَّتْ.

(٥) يجدون به: يَجِدُونَهُ.

(٦) إذا ساد الكثرة من الناس وَحدةٌ في التفكير، ووحدة في الأهداف، ووحدة في الوسائل، ووحدة في كل شيء، فإن هذه الوحدة تَنْفِي الخِلاف بينهم.

الوحدة، والواحد، والأحد، بكلام في غاية الرقة مع الإيضاح. ولولا أن هذا الموضع يجفوه عنه^(١) لَرَسَمْتُهُ فيه^(٢)، ولكن قد قيل: لكل مقام مقال، ولكل فعل أوان. وفي حفظ الحدود، استمرارُ الموجود، على ما هو به موجود.

وأنشد لعبد الله بن طاهر:

وما المرءُ إلا اثنان: هذا مُوَكَّلٌ بما يعجب الإخوان إن قال أو فَعَلَ^(٣)
فينزلُ محمودًا إذا حلَّ منزلاً ويرحلُ مفقودًا إذا قيل: قد رَحَلَ^(٤)
فأما الذي لا خير فيه، فإنه - وإن أُطِعِمَ السُّلُو^(٥)، وأُلْعِقَ^(٦) من عَسَلٍ -
يُذَبِّبُ عن لحم العدوِّ مخافةً ويأكل من لحم الصديق إذا أَكَلَ^(٧)
وما قلبه إلا وعاءٌ مُعَطَّلٌ من الودِّ مَحْشُوٌّ من الغلِّ والدَّغْلِ^(٨)
ومَنْ قَلَّ منه الودُّ للناس، لم يَنْلُ من الناس إلا مثلَ ذلك، أو أَقَلَّ
قيل لأبي السائب: ما آفةُ المَلالِ^(٩)؟

قال: كثرة الإذلال^(١٠).

وقيل لابن أبي عتيق: ما يدعو المُحِبَّ إلى الهجر؟

- (١) يجفوه عنه: يغلف ويثقل عنه، ولا يطمئن به.
(٢) لَرَسَمْتُهُ فيه: لكتبتُه وخططتُه فيه.
(٣) الناس صنفان: صنف هداة الله، ووقفه، وألهمه أن يعمل كل ما يُعجب إخوانه، وأن يقول كل ما يسرهم.
(٤) فإذا حلَّ بمكان، حلَّ محمودًا من الناس، مشكورًا ومُرضيًا عنه منهم، ويظل هكذا بينهم حتى يفارقهم بالموت، ولن يكون فراقه لهم لسبب آخر سوى الموت.
(٥) السُّلُو: العَسَل.
(٦) أُلْعِقَ: أُلْحِسَ بالملعة.
(٧) يُمْنَعُ ويُدْفَعُ عن أكل لحم العدوِّ خوفًا منه وحذرًا، وإذا أراد الأكل فإنه يأكل لحم صديقه.
(٨) له قلب فارغ خال من الودِّ، ولكنه مَحْشُوٌّ مَلَأَن من الغشِّ والحقد، ومن الفساد والدَّخَل.
(٩) المَلال: السَّامةُ والضَّجَر، وهو فتور يعرض للإنسان من كثرة مُزاولة شيء، فيوجب الكلال والإعراض عنه.
(١٠) الإذلال: أدلَّ عليه: وثق بمحبته، فأفرط عليه، ومنه المَثَل: «أدلَّ فأملَّ»، ومنه أيضًا «فلان يُدلَّ عليك بصحبته» أي يجترئ عليك.

قال: إدمانُ المحبوب للغدر.

لما انتقل ابن المنجم عن جيرة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى دار إسحق بن إبراهيم الموصلي، كتب عبيد الله إليه أبياتاً:

يا من تحوّل عنا وهو يألّفنا بعُدْتَ عنا، أبعد الآن تلقّانا؟
فاعلم بأنك مُدّ فارقت جِيرتنا بدّلْتَ جاراً، وما بدلت جيراناً
فكتب إليه ابن المنجم:

بعُدْتُ عنكم بداري دون خالصتي ومحضُ ودّي وعهدي كالذي كانا^(١)
وما تبدّلْتُ -مُدّ فارقتُ قُرْبَكُمْ- إلا هموماً أعانيها، وأحزاناً؟^(٢)
وهل يُسرُّ بسكنى داره أحدٌ وليس أحبابه للدار جيراناً؟^(٣)
وقال آخر:

كُنْ بالتحفُّظِ من كـ لِّ مَنْ عَرَفْتَ حَقِيقاً^(٤)
فقد يصير عدوّاً مَنْ كان -يومًا- صديقاً
وقال آخر:

يُخرج أسرارَ الفتى جليسه رُبَّ امرئٍ جاسوسه أنيسه
وقال الحرّاني: الجليس الصالح كالسراج اللّاح، والجلس الطالح للمرء فاضح،
مجالسة الأشكال تدعو إلى الوصال، ومجالسة الأضداد تُذيب الأكباد.

وقد ورد: مثل الجليس الصالح كمثل الداري^(٥) إن لا يُجِدَكَ من عطره، يعَبَقُ بك

(١) إنني بعُدْتُ عنكم بداري وحدها، أما مودتي الخالصة، وعهدي معكم، فإنهما -كما كانا- لا يبعدان عنكم، ولا يغيّرهما الافتراق.

(٢) والله يعلم أنني -منذُ فارقتكم- ما استبدلت بكم إلا الأحزان والهموم.

(٣) وهل تطيب للإنسان دار لا يكون بها أحبابه؟

(٤) كُنْ متمسكاً بالحذر والتحفُّظ من كل من تعرف من الناس.

(٥) الداريُّ: العطّار، منسوب إلى «دارين» وهي فُرْضة بالبحرين يُحمل إليها المسك من الهند.

من ربحه، ومثل الجليس السوء كمثل القَيْن^(١) إن لا يحرقك بشرره، يُؤذِك بدُّ خانِه.
وقال شاعر:

خليلي، للبغيضاء حال مُبينٌ ولحب آيات تُرى ومعارفُ
وقال آخر:

إذا كنت تغضبُ من غير جُرمٍ وتعتب من غير ذنب عليًا
عددتُك ممن حوَّته القبورُ وإن كنت ألقاك في الناس حيًا
وقال آخر:

إذا المرء أعراه الصديق، بدا له بأرض الأعداي بعض ألوانها الرُّيد^(٢)
وقال آخر:

وكم من حامل لي ضبِّ ضغنٍ سفية قلبه، حلوُ اللسان^(٣)
ولو أني أشاء نَقَمْتُ منه بشعْبٍ أو لسان تيجان^(٤)
وقال آخر:

وأنت امرؤ، إما ائتمنتك خاليًا فحُنت، وإما قلت قولًا بلا علمٍ
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم
وقال آخر:

لعمرك ما أدري -وإني لأؤجل- على أيّنا تعدو المنيّة أول^(٥)

(١) القَيْن: الحدّاد.

(٢) أعراه الصديق: تباعد عنه، ولم ينصره. الرُّيد: المُغبرة.

إذا المرء تباعد عنه أصدقاؤه ولم ينصره، ظهرت له أرض أعدايه غبراء كالحة رداء.

(٣) ضبُّ ضغن: غلٌّ وغيظٌ وحقدٌ خفيٌّ، كالضب الممغن في جُحره. كم من صديق يحمل لي الحقد والغيظ في أحشاء نفسه، ويخفيها كما يستخفي الضبُّ الممغن في جُحره، لسانه حلو مترطب، وقلبه سئ سفية.

(٤) ولو أردتُ لانتقمْتُ منه ببعْدٍ وإفسادٍ وصدع، أو بلسانٍ لا يسكتُ عن التعرّض فيما لا يعنيه.

(٥) وحقك إني لا أعلم من منا يختطفه الموت أولًا، وإني من ذلك لخائف وجِل.

- وإني أخوك الدائم العهد لم أخلُّ
أحارب من حاربت من ذي عداوةٍ
وإن سؤتني يوماً صفحتُ إلى غدٍ
كأنك تشفي منك داءَ مَسَاءَتِي
وإني على أشياء منك تريئني
ستقطعُ في الدنيا - إذا ما قطعَتني -
وفي الناس - إن رثتُ حبالك - واصلُّ^(١)
إذا أنت لم تُنصف أخاك، وجدتهُ
ويركب حدَّ السيف من أن تضيمه
وكنت إذا ما صاحبُ رام ظنَّتني
قلبتُ له ظهر المِجَنِّ، فلم يدُم
إن أندال خضمَّ أو تبا بك منزلٌ^(٢)
وأحبس مالي إن عزمت فأعقلُ^(٣)
ليُعقب يوماً منك آخرُ مُقبلُ^(٤)
وسُخطي، وما في ريتي ما تعجلُ^(٥)
قديمًا، لدو صفح على ذاك مُجملُ^(٦)
يمينك، فانظر أيَّ كفٍّ تبدَّلُ^(٧)
وفي الأرض عن دار القلَى مُتحوِّلُ^(٨)
على طَرف الهجران، إن كان يعقلُ^(٩)
إذا لم يكن عن شفرة السيف مَرَحْلُ^(١٠)
وبَدَلُ سوءًا بالذي كنتُ أفعلُ^(١١)
على ذاك، إلا ريشما يتحوِّلُ^(١٢)

(١) إني أنا أخوك الباقي على عهدك، الذي لم يتحوَّل يوماً عن مودتك إن تحوَّل عنها خصومك، أو إن بُعد منزلك فتغيَّرت مودة بعض أصحابك.

(٢) إني خصم لمن تخاصم، مُحارب لمن تحارب، أحبس أموالِي وأعقلها وأصونها عنهم.

(٣) وإن أنت أسأت إليَّ اليوم، فإنني أغفر لك إساءتك وأصفح عنك، ترقبًا وانتظارًا إلى غد، فقد يكون الغد خيرًا من اليوم، وقد تعمل فيه من الأعمال الطيبة ما يمحو الأعمال السيئة التي سلفت.

(٤) وربما تشفي ما بنفسِي من آثار سيئاتك، وما عجلتُ به إليَّ من شرِّ.

(٥) وإني - على بعض أعمالك التي تحيرني - لدو صفح وعفو وإجمال.

(٦) إن أنت قطعَتني، فإنك تكون قد قطعَت يدك اليمنى، فاعلم - قبل أن تُقدم على هذه الفعلة - أين هي اليد التي تستبدلها بيمينك التي قطعَت؟

(٧) في الناس من يواصلونك، إن وهتُ حبال مودتك ورثتُ وبلَّيتُ عند بعض أصحابك، وفي الأرض العريضة مُسَّعٌ ومُتحوِّلٌ عن ديار يُقيم بها مبغضوك وشانوك.

(٨) إن أنت لم تعامل أخاك بالعدل والإنصاف، فإنه يوشك أن يهجرَكَ ويقطع حبل مودتك، وما يُمسكه إليك إلا ما به من عقل وحكمة، أما إذا لم يتوفر له العقل والحكمة فإنه لا يتردد في قطيعتك وهجرَكَ، بل يسارع إليهما.

(٩) ونراه يتخذ سيفه حمايةً له من الضيم إن لم يكن له عن اتخاذ السيف موضع ومُتنَحٍّ يتباعد إليه.

(١٠) وإن أراد صاحبي اعتزالي، وقابل إحساني بالإساءة.

(١١) قلبتُ له ظهر المِجَنِّ: تغيَّرتُ عليه، وساء رأيي فيه.

أي إني أنغيَّر على هذا الصاحب، وأسيء رأيي فيه؛ فلم يلبث إلا قليلًا حتى يتحوَّل ويعود إلى ما كان عليه.

إذا انصرفْتُ نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه - آخر الدهر - تُقبلُ

وقال آخر:

فأكرم أخاك - الدهر - ما دمتما معاً كفى بالممات فُرقةً وتَنائياً

وقال آخر:

أفاطم، أعرضي قبل المنايا كفى بالموت هجراً واجتناباً^(١)

وقال آخر:

ولا تطلبين الودَّ من مُتباعِدٍ ولا تنأ من ذي بغضة إن تَقَرَّبَا^(٢)

فإن القريب من يُقَرَّبُ نفسه لَعَمْرُ أبيك الخير، لا مَن تَنَسَّبَا^(٣)

وقال آخر:

لعمرك، ما أبقى لي الدهرُ من أخٍ حفيٍّ، ولا ذي خِلَّةٍ لي أوأصله^(٤)

ولا من خليل ليس فيه غوائلٌ وشرُّ الأخلاءِ الكثير غوائله^(٥)

ولللنمر بن تُولب:

وأحبُّ حبيبك حبًّا رويدياً فقد لا يعولُك أن تُصرماً^(٦)

(١) أعرضي: أعرض الشيء: ظهر وبرز، تقول: «أعرضته فعرض» أي أظهرته فظهر وبرز، مثل «كبتته فأكب» وهما من النوادر، وكقوله: «وأعرضت اليمامة واشمخرت» أي ظهرت ولا ثالث لهما.

(٢) لا تطلب المودة ممن يتباعِد عنك، فإن من يتباعِد عنك ليس بذي مودة لك. وإن أراد مبعُضُك التقربُ إليك، فادْنُ منه ولا تتباعِد عنه.

(٣) فإن القريب حقاً هو الذي يدنو منك، ويُقَرَّب نفسه إليك، وليس القريب ذا النسب منك إن لم يكن لك صديقاً ومنك قريباً.

(٤) الحفيُّ: المبالغ في الإكرام والبرّ، والمُكثر السؤال عن حالك.

وحقك إن الأيام لم تُبق لي صديقاً يُكرمني ويبرّني، ويُكثر السؤال عن حالي، ولم تدع لي صاحباً أو صديقاً مُحباً أوأصله وأدنو منه وأتودّد إليه.

(٥) غوائل: جمع «غائلة»، وهي الداهية، والفساد، والشرّ، والمهلكة.

(٦) اجعلُ حُبَّك لحبيبك معتدلاً، ولا تشتط ولا تُسرف فيه، فقد تتصرّم العلاقة بينكما وتنقطع.

وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا رَوِيدًا إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا^(١)

وقال آخر:

أَتَيْتُ أَنادِي الدهر: جُدْ لِي بِصَاحِبٍ وَخَلَّ طِلَابَ الدهر ما أَنَا طَالِبُ^(٢)
فما جَادَ لِي مِنْهُ بِغَيْرِ مُجَانِبٍ وَآخِرَ خَيْرٍ مِنْهُ ذَاكَ الْمَجَانِبُ^(٣)
أَخْلَاءُ أَمْثَالِ الْكَوَاكِبِ كَثْرَةً وَمَا كُلُّ مَا يَرْمِي بِهِ الْأَفْقُ ثَاقِبُ^(٤)
بَلَى، كُلُّهُمْ مِثْلُ الزَّمَانِ تَلَوَّنَا إِذَا سَرَّ مِنْهُ جَانِبٌ سَاءَ جَانِبُ^(٥)

وقال آخر:

وَمِنْ الْبَلَاءِ أَخْ خِيَانَتُهُ غَلِقَ بِنَا، وَلَغِيرِنَا نَشَبُهُ^(٦)
وقال آخر:

تُكَاشِرُنِي كَرَهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِ^(٧)
لِسَانُكَ مَادِئِي، وَقَلْبُكَ عُلْقَمٌ وَشَرِّكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُلْتَوِ^(٨)
وقال آخر:

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَنَا أَيَّامَ دَوْلَتِنَا قَدْ كَانَ يَمْدُحُنَا، وَالْآنَ يَهْجُونَا
وقال آخر:

- (١) واجعل عداوتك لعدوك معتدلة أيضًا، فإنك بذلك تملك أمره وقد يعود صديقًا لك.
- (٢) ناديت دهري وطلبت إليه أن يجود عليَّ بصديق ويدع كل مطالبي الأخرى.
- (٣) فلم يجد عليَّ الدهر إلا بصديق متباعد عني، بل إن الصديق المتباعد خير منه!
- (٤) الأصحاب كثيرون كالكواكب عددًا وكثرة، وكما أنه ليس كل ما يرميه الأفق كواكب مضيئة متألثة، فكَذَلِكَ ليس بين هؤلاء الأصحاب إلا القليل النادر يخلص المودة ويحفظها.
- (٥) إنهم جميعًا مُتَقَلِّبُونَ مُتَحَوِّلُونَ مِثْلَ الزَّمَانِ، يَسْرُكُ فِي نَاحِيَةٍ، وَيَسُوِّكُ فِي أُخْرَى.
- (٦) غَلِقَ بِنَا: مُرْتَهَنَةٌ عَلَيْنَا. نَشَبُهُ: عَقَارُهُ وَمَالُهُ.
- (٧) مِنَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَكُونَ لَنَا صَدِيقٌ تَقْتَصِرُ خِيَانَتُهُ عَلَيْنَا، وَيُعْطِي غَيْرَنَا أَمْوَالَهُ وَعَقَارَهُ.
- (٨) تُضَاكِحُنِي تَكَلُّفًا وَتَصْنَعًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ مُخْلِصٌ لِي، وَفِي عَيْنِكَ مَا يُنْبِئُ عَنِ الضُّغْنِ الَّذِي يَمْلَأُ صَدْرَكَ.
- (٩) لِسَانُكَ حَادٌّ كَأَنَّهُ سِلَاحٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَقَلْبُكَ مُرٌّ كَالْعَلْقَمِ، وَشَرِّكَ عَامٌّ شَامِلٌ وَخَيْرُكَ مُتَعَثِّرُ الطَّرِيقِ لَا يَصِلُ إِلَيْنَا.

دُعْنِي أَوَاصِلَ مَنْ قَطَعْتُ، تَرَاهُ بِي، إِذْ لَا يَرَاكَ^(١)
 إِنِّي مَتَى أَحَقُّدُ لِحَقْدِ كَ، لَا أَضُرُّ بِهِ سِوَاكَ^(٢)
 وَإِذَا أَطْعَمْتُكَ فِي أَخِيكَ، أَطْعَمْتُ فِيهِ غَدًا أَخَاكَ^(٣)
 حَتَّى أُرَى مُتَقَسِّمًا يَوْمًا لَذَا، وَغَدًا لَذَاكَ^(٤)
 قَالَ آخِرُ:

يَا صَدِيقِي بِالْأَمْسِ، صِرْتُ عَدُوًّا سُوًّا^(٥)
 كَلِمَا أَزْدَدْتُ ذِلَّةً لَكَ فِي الْحَبِّ، تَزَيَّدْتَ نَبُوءَةً وَعُثُوًّا^(٦)
 وَقَالَ آخِرُ:

مَا لِي بِجَائِحَةٍ أَرَا دَنِيَ الزَّمَانَ بِهَا، يَدَانِ^(٧)
 لَمَّا بَلَغْتُ مَكَانَ فِيكَ بَلَغْتَ فِيَّ مَدَى الزَّمَانِ
 وَنَصَبْتَنِي غَرَضًا يُبِيحُ حِمْيَ وَلِحْمِي مَنْ رَمَانِي^(٨)
 هَذَا جِزَاءُ مُقَدِّمًا تِي إِذْ أَكُونُ وَلَيْسَ ثَانِي^(٩)
 وَعَدَا عَلَيَّ بِكَ الزَّمَا نُ، مُذَرَّبًا نَحْوِي لِسَانِي^(١٠)
 وَقَالَ آخِرُ:

- (١) اتركني ولا تلمني إن وصلْتُ من قطعتُه؛ فإنك إذ تراني، تكون كأنك رأيته من حيث لا يراك!
- (٢) فإني إن حقدتُ لحقدك، وعاديتُ من تعاديه؛ فإني بها لا أضُرُّ أحدًا غيرك.
- (٣) وإني إذا استجبتُ لك وعاديت أخاك اليوم، فسأستجيب له وأعادي أخاك غدًا.
- (٤) فأكون -بذلك- مُتَقَسِّمًا بين الناس، يومًا لهذا، ويومًا لذاك.
- (٥) أيها الصاحب الذي كنت لي صاحبًا بالأمس وصرت عدوًّا لي اليوم، إنك تُسيءُ إليَّ ظلمًا وعدوانًا، ولا ترى في ذلك سوءًا ولا جورًا.
- (٦) كلما زاد خضوعي لك في حبي، زدت أنت جفاءً وقطيعة واستكبارًا.
- (٧) الجائحة: الشدة، والنازلة العظيمة التي تجتاح المال وتُهْلِكُه.
- (٨) جعلتني هدفًا للناس، وأبحت دمي ولحمي لكل من أراد أن يرميني.
- (٩) تلك عاقبة ما قدَّمْتُ إليك من معروف أيام لم يكن لك صديق سِوَايَ، ولم يكن يُعينك أو يودك أحد غيري.
- (١٠) وصار الزمان يعتدي بك عليَّ، ويتخذك عدَّةً له في حربي والكيد لي والنيل مني، حتى أفسد لساني بدمك والقدح فيك.

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا زَعَمْتَ، فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأَخْوَةِ؟
فَإِذَا أَسَأْتَ كَمَا أَسَأْتُ، فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوءَةُ؟

أخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أحمد بن يزيد المهلب، حدثنا هبة الله ابن إبراهيم بن المهدي، قال:

كتب أبي إلى بعض من عتب إليه في شيء: لو عرفت الحسن لتجنبت القبيح، ولو استحلّيت الحِلْمَ لاستمررت الخَرْقَ^(١)، وأنا وأنت كما قال زهير:

وذي خطل بالقول يحسب أنه مصيب، فما يُلِمُّ به فهو قائلُهُ^(٢)
عَبَأْتُ لَهُ حِلْمِي، وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ أَعْرَضْتُ عَنْهُ، وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ^(٣)
وإن من إحسان الله إلينا وإساءتك إلى نفسك، أَنَّا أَمْسَكْنَا عما تعلم، وقلت ما لا تعلم، وتركت الممكن، وتناولت المُعْجَز. فالحمد لله الذي أوضح غدرك، وأبان أمرك، وقَبَّحَ عند الناس ذكرك.

وقال أعرابي: نُصَحَ الصديق تأديب، ونُصَحَ العدو تأنيب.

وقال الشاعر:

وتطرف الكفُّ عينَ صاحبها فلا يرى قطعها من الرِّشْدِ^(٤)

قال أبو سعيد السيرافي -فيما سمعته منه-: الصديق يكون واحداً وجمعاً، مذكراً أو مؤنثاً.

قال المرواني -وكان حاضراً-: هذا والله من شرف الصديق.

(١) لو كنت تجد مَذَاقَ الحِلْمِ والحكمة حُلُوءًا، لوجدت مَذَاقَ الجهل والحُمُقِ مُرًّا.

(٢) الخَطْلُ: المنطق الفاسد المضطرب، والكلام الكثير المُفْحَش.

إنه رجل سيئ القول فاحشه، ويظن أنه على صواب في كل ما يقول، فتراه لا يتحرى الصواب فيما يقول، ولكنه يسارع إلى القول دون روية فينطق بكل ما يَعرُنُّ له ويخطر بباله.

(٣) مَقَاتِلُهُ: جمع (مَقْتَل)، وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.

(٤) إن الكَفَّ قد نُصِيبَ عَيْنَ صاحبها فتجعلها ترسل الدموع، ومع ذلك فلا يكون قطع هذه اليد من الصواب أو من الحكمة في شيء.

قلت: ما نزيغ^(١) بهذا.

قال: أما ترى هذا المثل كيف عمّ الأشياء المختلفة حتى تكون صورة الصديق محفوظة فيها وملحوظة منها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١] فأخرجه مخرج الواحد وهو يريد الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

أخبرنا أبو السائب القاضي عتبة بن عبد الله، حدثنا الحسن بن عروة، حدثنا محمد ابن عبد الله القرشي، حدثنا محمد بن عبد الله الأشكري عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنهما، قال: أوصاني أبي قال: يا بُنَيَّ، لا تصحب فاسقاً^(٢)؛ فإنه بائعك بأكلة فما دونها.

قلت: وما هو دونها؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها!

ولا تصحب بخيلاً؛ فإنه يطمع بك في مالك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب كذاباً؛ فإنه بمنزلة السراب يُقَرَّبُ منك البعيد، ويُعَدُّ منك القريب، ولا تصحب أحمق؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك، ولا تصحب قاطع رَحِمٍ^(٣)؛ فإنه وجدته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب الله^(٤).

وقال ابن حازم:

وكن من الإخوان مُستوحِشاً وحشة إنسيّ بجَنانٍ^(٥)

أخبرنا الصواف أبو علي، حدثنا ابن المؤمل قال: سمعت موسى بن جعفر يقول:

(١) ما نزيغ بهذا: ما نشك فيه.

(٢) الفاسق: العصي، الجائر عن قُصد السبيل، التارك أمر الله، الفاجر الخارج عن طريق الحق.

(٣) قاطع الرَّحِم: قاطع الصلة والمودة بذوي قرابته.

(٤) في سورة البقرة آية ٢٧، وسورة الرعد آية ٢٥، وسورة محمد ٢٣ - ٢٤.

(٥) جَنان: الجنّ أبو الجن، والجمع جَنان كحائط وحيطان.

استوحش من إخوانك وانفر منهم، وحشة الإنس من الجنّ.

خير إخوانك المُعين لك على دهرك، وشرهم من سعى لك بسوق يومه^(١).
وقال بعض السلف الصالح: خير إخوانك من وعظك برؤيته، قبل أن يعظك بكلامه.

قلت لبرهان الصوفي: ما تفسير هذا؟

قال: لأنك إذا رأيته رأيته هيئته وشارته^(٢) وحركته ونظرته وقومته وقعدته. وهذه كلها نواطق ولكن بلا حروف، وشواهد ولكن بلا لفظ، وإشارات ولكن بلا أدوات. وأما إذا جاء الكلام فقد استوعب أقصى البيان، وأتى على آخر الإرادة. فأراد هذا القائل أنه إذا أراك نفسه، فقد حَصَّكَ على اتباع أمره، ودعاك إلى الاقتداء به، وأن تخرج من مُسكه^(٣)، وتبرز من بيانه^(٤)، فهذا كلام في غاية الإيضاح.
قال محمد بن علي رضي الله عنهما: كفى بالله ناصرًا أن ترى عدوك يعصي الله فيك وتُطيعه.

قال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تحابَّ رجلان إلا كان أحدهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه». هذا أخبرنا به المرزباني عن ابن السراج عن المبرد عن الرياشي عن أبي عاصم عن مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس.
قال رجل من العُباد لعابد آخر: إني لأحبُّك في الله.
قال: أعوذ بالله أن أكون ممن يُحبُّ في الله، والله عليّ ساخط.
وقالت امرأة لرابعة العدوية: إني لأحبُّك في الله.

(١) شرَّ الناس من سعى إليك يبغي كسب يومه، والنفع العاجل الذي تُحقِّقه له.

(٢) شارته: هيئته، ولباسه.

(٣) تَخَرَّج: تتأثَّم، ويضيق صدرك.

مُسْك: جمع (مَسَك) وهو الجلد، وقد سُمِّيَ به لأنه يمسك ما وراءه من اللحم والعظم.

أي أن تتخرج إذا رأيت شخصه أمامك بجلده ولحمه.

(٤) بيانه: البيان: ما يظهر به الشيء من الدلالة وغيرها.

قالت لها: فأطيعي من أحببتني فيه.

قالت: من طاعتي له، محبتي لمن أطاعه.

أخبرنا ابن مقسم النحوي قال: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمر بن شبة، حدثنا الأصمعي قال: وقف أعرابي يسأل، فقال: أخٌ في تِلَادِ الله^(١)، وجارٌ في بلاد الله، وطالبٌ خيرٍ من فضل الله.. فهل من أخ يواسي في ذات الله^(٢)؟

قال ابن السراج: التِّلَادُ المال الذي لم يكتسب، سمعته من علي بن عيسى رضي الله عنه.

قال أبو الدرداء: ما أنصَفْنَا إخواننا، يُحِبُّونَا في الله، ويُفَارِقُونَا في الدنيا، إِذَا لَقِيتَنِي قال: أحبك يا أبا الدرداء، وَإِذَا احتججتُ إليه في شيء امتنع مني.

قيل للأوزاعي: أبلغ من حب الرجل لأخيه أن يكون أحبَّ إليه من أخيه لأمه وأبيه؟ قال: نعم، والله، ومن أمه وأبيه.

قال شاعر:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى عدوًّا له، ما من صداقته بُدُّ^(٣)
سمعت العسجدي يقول -وقد أنشدَ هذا البيت-: فما الحيلة إذا كان المخلص
لا يُوجَد، والمرائي لا يُفْقَد، والحاجة قائمة إلى التعاون، والتعاون مُورِثٌ للتهاون،
والتهاون باعثٌ على الكلام، والكلام بين العتب والاستزادة، والتظلم والاستراحة؟
ثم قال: لا حيلة إلا الصبر؛ فإن فساد دخائل^(٤) الإخوان مضموم إلى جميع حوادث
الزمان، والله المستعان.

(١) أخ في تِلَادِ الله: أخ في مال الله القديم.

(٢) يواسي في ذات الله: يُعين ويُساعد، حبًّا في ثواب الله سبحانه وتعالى.

(٣) ومن هموم الدنيا ومتاعها على الرجل الحرِّ، أن تضطره الأيام إلى مصادقة أعدائه، وألا يجد لنفسه من ذلك مَفَرًّا.

(٤) دخائل الإخوان: باطنهم المُضْمَرُّ في نفوسهم.

وقال المهلب بن أبي صفرة:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا، مَهْلًا مَوَالِينَا امشوا رُويَدًا كما كُتِمَ تَمَشُونَا^(١)
الله يعلم أَنَا لَا نَحْبُكُم وَلَا نَلُومُكُم إِلَّا تَحِبُّونَا^(٢)

وحدثنا أبو السائب القاضي، قال: أنشدني محمد بن يزيد لنفسه:

بِنَفْسِي أَخَا بَرٍّ شَدَدَتْ بِهِ أَزْرِي فَأَلْفَيْتُهُ حَرًّا عَلَى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ^(٣)
أَغَيْبُ، فَلِي مِنْهُ ثَنَاءٌ وَمَدْحَةٌ وَأَحْضَرُ مِنْهُ أَحْسَنَ الْقَوْلِ وَالْبِشْرِ^(٤)
وكتب أبو النفيس إلى العباداني: سبحان من لم يُغْنِكَ عَنَا حَتَّى سَلَانَا عَنْكَ، وَلَا
شَغَلَكَ بَغِيرُنَا حَتَّى عَوَّضَنَا مِنْكَ، وَلَا خَارَ لَنَا^(٥) فِي بُعْدِكَ حَتَّى صَنَعَ لَنَا فِي فَقْدِكَ^(٦)،
وَلَا هَوَّنَ عَلَيْكَ الْوَجْدَ^(٧) بَنَا حَتَّى خَفَّفَ عَنَا الْمَوْجِدَةَ عَلَيْكَ^(٨)، وَلَا حَظَرَ عَلَيْكَ
وَضَلَّنَا حَتَّى أَبَاحَ لَنَا هَجْرَكَ، وَلَا سَهَّلَ عِنْدَكَ الرُّزْءَ بَنَا حَتَّى رَفَعَ عَنَا الْمَصِيبَةَ فَيْكَ.

وكتب أيضًا: الحمد لله الذي لم يُزَيِّنْ لَكَ الْكَفْرَ بِحُرْمَتِنَا حَتَّى حَسَّنَ عِنْدَنَا الشَّرْكَ
فِي صَحْبَتِكَ، وَلَا طَوَى عَنَا بِسَاطِ قُرْبِكَ حَتَّى أَسْبَلَ عَلَيْنَا سِجَافَ بُعْدِكَ^(٩)، وَلَا عَلَقَ
حَبْلَكَ بَغِيرِنَا حَتَّى كَفَانَا مَوْوَنَةً عَتَبَكَ، وَلَا خَوَّفَكَ بِالرَّغْبَةِ عَنَا حَتَّى أَمَّنَّا بِالزَّهْدِ فَيْكَ،
وَلَا دَنَسَ جَيْبُكَ^(١٠) بِالْأَسْفِ عَلَيْنَا حَتَّى طَهَّرَ قُلُوبَنَا مِنَ الشَّوْقِ إِلَيْكَ، وَلَا سَقَاكَ صَفْوُ

(١) أَنَاةً عَلَيْنَا وَمَهْلًا يَا أَبْنَاءَ عُمُومَتِنَا، وَيَا أَصْدِقَاءَنَا، وَسِيرُوا فِي أَنَاةٍ وَمَهْلٍ، كَمَا كُتِمَ تَطْلُبُونَ إِلَيْنَا ذَلِكَ دَائِمًا، وَلَا
تَتَغَيَّرُوا عَمَّا كُتِمَ تَطَالِبُونَا بِهِ.

(٢) يشهد الله على أَنَا لَا نَحْبُكُم، وَعَلَى أَنَا لَا نَعْتَبُ عَلَيْكُم، وَلَا نَلُومُكُم، إِذَا كُتِمَ أَنْتُمْ أَيْضًا لَا تَحِبُّونَا.

(٣) أَفْدَى بِنَفْسِي أَخَا بَارًّا صَالِحًا، أَضَفْتُ بِهِ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِي، وَوَجَدْتُهُ حَرًّا كَرِيمًا فِي حَالَتِي: الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ.

(٤) إِذَا غَبَتْ عَنْهُ فَلَا يَنْهَشُنِي - كَمَا يَفْعَلُ الْكَثِيرُ مِنَ الصَّحَابِ - وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ يَمْدَحُنِي وَيُثْنِي عَلَيَّ. وَإِذَا حَضَرَ فَلَنْ
أُجِدَ مِنْهُ إِلَّا أَطْيَبَ الْقَوْلِ وَأَحْسَنَهُ، وَلَنْ أَرَى مِنْهُ إِلَّا بَشْرًا وَسُرُورًا وَاحْتِفَاءً بِي.

(٥) خَارَ لَنَا فِي بُعْدِكَ: جَعَلَ لَنَا فِيهِ الْخَيْرَ.

(٦) صَنَعَ لَنَا فِي فَقْدِكَ: أَحْسَنَ إِلَيْنَا.

(٧) الْوَجْدَ بَنَا: حُبَّنَا.

(٨) الْمَوْجِدَةَ عَلَيْنَا: الْغَضَبَ عَلَيْنَا.

(٩) سِجَافٌ: سِتْرٌ.

(١٠) دَنَسَ جَيْبُكَ: الْجَيْبُ: الْقَلْبُ وَالصَّدْرُ، وَدَنَسَهُ: وَسَّخَهُ وَلَطَّخَهُ بِمَكْرُوهِ أَوْ قَبِيحٍ.

الهجر حتى أروانا بزال الصبر، ولا أوسع لك في الانحراف عنا حتى أوضح لنا العذر في الانصراف عنك، ولا أذكرك قبج الجفاء حتى أنسانا خالص الصفاء، ولا عراك يُمن الإجماع^(١) حتى ألبسنا حبرة^(٢) الإفراق.

فدُم على هجرنا فقد استبدلنا بك، واسلُ عنا فقد تعزينا عنك، والسلام.

وقال شاعر من بني أسد:

وأستنقذ المولى من الأمر، بعدما يزلُّ، كما زلَّ البعيرُ عن الدَّخْضِ^(٣)
وقال آخر:

وإنني لأنسى عند كل حفيظة - إذ قيل: مولاك - احتمال الضغائن
وإن كان مولى ليس فيما ينوبني من الأمر بالكافي، ولا بالمعاون^(٤)
وقال آخر:

ومولى خفت عنه الموالي كأنه - من البؤس - مطلي به القار أجرب^(٥)
رئمت إذا لم ترأم البازل ابنها ولم يكن فيها للمبسين محلب^(٦)
وقال آخر:

ثاقلت إلا عن يدٍ أستفيدها وخلة ذي ودٍّ أشدُّ به أزي^(٧)
وقال «ساعده الهذلي»: ولا أؤذي الصديق بما أقول.

(١) يُمن: جمع (يُمنة) وهي بُرد يمني.

(٢) حبرة: ضرب من برود اليمن، وملاءة سوداء تلبسها نساء مصر إذا خرجن من البيوت.

(٣) الدَّخْض: الزَّلَق، ودحضت رجله: زلقت.

أي إنني أنقذ صاحبي مما وقع فيه بعد أن يكون قد تعثر وزلَّ، كما يتعثر البعير ويزل إذا زلقت قدمه.

(٤) إنني أنسى الضغائن والحفاظ لأخي وإن كان هذا الأخ لا يكفيني شرًا، ولا يقيني ضرًا، ولا يُعاونني فيما ينوبني من شدائد ومصاعب.

(٥) صديق توارت عنه الأصدقاء لبؤسه وسوء حاله، كأنه أجرب مطلي بتلك المادة السوداء التي تُطلى بها السفن والإبل، وهي «الزفت».

(٦) أحببته وألفته كما لم يحب البعير ابنه، ولم يكن للذين يزجرون البعير للحلب إناءً يُحلب فيه.

(٧) أبطأت وسرت الهويني إلا لمعروف أفعله، أو لصداقة ذي ودٍّ أزداد بها قوة.

وقال «أبو زيد» في الأمثال: رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ.

وقال أيضًا: الصبي أعلم بمبضع جدّه.

وقال أيضًا: والنفس تعلم مَنْ أخوها النافع.

وقال:

القوم إخوانٌ وَشْتى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ بَيْتُ الْأَدَمِ^(١)
وقال بعض السلف: من علامات العاقل بَرُّهُ بِإِخْوَانِهِ، وَحَنِينُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَمَدَارَاتُهُ
لَأَهْلِ زَمَانِهِ.

وقال شاعر:

لعمرك، إني بالخليل الذي له عليّ دلالٌ واجبٌ، لَمْفَجَعُ^(٢)
وإني بالمولى الذي ليس نافعي ولا ضائري فُقدَانُهُ، لَمْمَنَعُ^(٣)
أولئك إخوان الصفاء رُزئتُهُمْ وما الكفُّ إلا إصْبَعٌ ثم إصْبَعٌ^(٤)
العرب تقول:

خَلَّ طَرِيقَ مَنْ وَهَى سَقَاؤُهُ وَمَنْ هُرِيقَ بِالْفَلَاةِ مَاؤُهُ^(٥)
وقال أعرابي: الصديق للظهر سناد، وللدهر عَتَاد، ولليوم جمال، وللغد مال.

وقال شاعر:

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ فِي الزَّمَانِ مَهْدَبًا فَزِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ فِي الطَّلِبَاتِ
خُذْ صَفْوَ أَخْلَاقِ الصَّدِيقِ، وَأَعْطِهِ صَفْوًا، وَدَعْ أَخْلَاقَهُ الْكَدِرَاتِ

(١) إن الناس جميعًا إخوان، ولكنهم مختلفون في الطباع والأخلاق، وهم -جميعًا- تحتويهم بَشَرَةٌ من الجلد.

(٢) وحقك إني مُفَجَّعٌ ومُصابٌ بالأصحاب الذين لهم عليّ أيادٍ تبيح لهم أن يدلّوا ويتيهوا عليّ.

(٣) وأما الأصدقاء الذين لا ينفعون ولا يضرّون فهم كثيرون من حولي.

(٤) هؤلاء هم الإخوان المخلصون في ودهم، قد فقدتهم واحدًا بعد واحد، كما تفقد الكف أصابعها إصبعًا بعد إصبع، فلا يبقى منها شيء يمكن أن يُسمّى كفًا!

(٥) اترك سبيل من خلا وعاءه، ومن أريق ماءه في الصحراء.

قال ابن المعتز: إذا صحَّت النيَّة، وتوكَّدت الثقة، سقطت مؤونة التحفُّظ^(١).

وقال ابن مقسم: قرأت على أحمد بن يحيى، أنشدنا ابن الأعرابي:

إذا أحسن ابن العمِّ بعد إساءةٍ فلستُ لشرِّي فعله بحمول^(٢)
أي إذا أحسن وأساء، لا أحمل عنه الشر، أي لم أؤاخذه، وأراد «بالضرِّ» فعليه،
فقلب.

وقال آخر: صحبة الأشرار تُورث سوء الظنِّ بالأخيار^(٣).

ولبني هذيل مثلاً، وهو: «هذا التصافي لا تصافي المحلب» أصله أن «هذيلًا»
أصاب دماً في بعض العرب، فأسر أصحاب الدم رجلين من «هذيل» متصادقين،
فقالوا لهما: أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا؟ فقال كل واحد منهما: أنا ابن فلان،
الحسيب النسيب، ذي الثأر المنيم، فاقتلوني دون صاحبي، فكلُّ بذل نفسه للقتل دون
صاحبه، فعَيُّوا بأمرهما لما رأوا من تأييدهما، فقالوا: هذا التصافي لا تصافي المحلب،
وصفحوا عنهما، أي: لا تصافي المنادمة على الشراب.

وروى يعقوب قول نابغة الجعدي:

أدوم على العهد ما دام لي إذا كذبت خلة المحلب^(٤)
وقال آخر:

أخ لي: أمَّا كل شيء سألتُه فيعطى، وأما كل ذنب فيغفرُ
وقال آخر:

(١) إذا حُسنت النوايا، وتحققت الثقة، أصبح التحرز والاحتراز لغواً لا طائل وراءه.

(٢) إن أحسن إليَّ ابن عمِّي بعد إساءة، فإني أنسى إساءته، وأحفظ له إحسانه.

(٣) إن الذي يصاحب الأشرار طويلاً، ويتلقَّى منهم الإساءة تلو الإساءة، فإنه -لكثرة ما يتلقى من إساءات أصحابه- لا يتصور أن في الناس خيراً، ويُسيء الظنَّ بالأخيار منهم.

(٤) إنني أبقى على العهد وأحافظ عليه ما أبقي صاحبي على عهدي وحافظ عليه، ولا أخون ولا أكون كأصدقاء المنادمة على الشراب الذين لا عهد لهم ولا ذمة.

كان لنا صاحبُ فَبَانَا وَحَادَ عَنْ وَضَلْنَا، وَخَانَا^(١)
تَاهَ عَلَيْنَا، وَتَاهَ مِنَّا فَمَا نَرَاهُ وَلَا يَرَانَا^(٢)
وقال أعرابي: المودة قرابة مُسْتَفَادَة.

وقال شاعر:

أخ لي لَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي وَلَا الْأَيَّامُ عَنْ خُلُقِي جَدِيدِ
وقال أعرابي: وَصُولُ مُعْدِمٍ، خَيْرٌ مِنْ جَافٍ مَكْنَزٍ^(٣).

وقال محمد بن سليمان لابن السماك: بلغني عنك شيء.

فقال: لست أبالي.

قال: وَلِمَ؟

قال: إِنْ كَانَ حَقًّا غَفَرْتَهُ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا رَدَدْتَهُ.

وقال أعرابي: اللهم إني أعوذ بك من حاكم جائر، ونديم فاجر، وصديق غادر،
وغريم^(٤) ماکر^(٥)، وقریب ناكر^(٦)، وشريك خائن، وحرّيف^(٧) مائن^(٨)، وولد جافٍ،
وخادم هافٍ^(٩)، وحاسد محافظ، وجار مُلاحظ، ورفیق كسلان، وجليس وسنان،
ووكيل ضعيف، ومركوب قُطوف^(١٠)، وزوجة مُبذرة، ودار ضيِّقة.

(١) كان لنا صديق، ولكنه فارقنا وهجرنا، ومال وانحرف عن ودنا، وخاننا.

(٢) وتكبر وتجبّر علينا، وضلّ عن سبيلنا، فلسنا نراه، وليس يرانا.

(٣) إن الفقير الذي يصلنا ويكثر من زيارتنا، خيرٌ عندنا من المتباعد المتناهي عنا وإن يكن موفور النعم واسع الثراء.

(٤) الغريم: الدائن، والمدين، والخصم.

(٥) الماكر: المخادع.

(٦) الناکر: الداهية الفُطْن.

(٧) حرّيف: لاذع اللسان.

(٨) مائن: كاذب.

(٩) خادمٌ هافٍ: جائع.

(١٠) مركوب قُطوف: قطفت الدابة: ضاق مشيها، وبطؤ، أو أساءت السير وأبطأت.

وقال شاعر:

فلا تعتقدُ خلاً يسُرُّكَ بعضُهُ وإن غاب يوماً عنكَ ساءَكَ كلُّهُ^(١)
إذا شئتَ أن تبلى امرأً كيف طُبِعُهُ فدعُهُ، وسلِّ من قبلها: كيف أضلُّهُ؟^(٢)

وقال آخر -ويقال إنه لعمارة بن عقيل -:

ألم ترني -والمرء يَقلِّي ابنَ أمه- إذا ما أتت عوجاء لا تقوِّمُ^(٣)
ضممتُ جناحي عن أبي النضر بعدما تلوِّمُهُ، ما كان لي مُتَلَوِّمُ^(٤)
وقلت له لما التقينا، وقال لي مقالة مُزِرِّ عاثٍ يتجرَّمُ^(٥)
أتعدِّلني في أن أبيعك مثلما به بعْتني، والبادئُ البيعِ أظلمُ؟^(٦)
وليس على ودٍّ امرئٍ ليس عندهُ وفاء ولا عهد -إذا غاب- مندُمُ^(٧)
وقال ابن المقفع: لا صديق لثلاثة: للميت، وللفقير، وللمحبوس.

سئل الجُنيد الصوفي: مَنْ تصحب؟

قال: من قدر أن ينسى ماله، ويقضي ما عليه.

وقال شاعر:

ليت شِعري ما كان الحال بعدي أعلى العهد، أم تكرَّهْتَ ودِّي؟^(٨)

- (١) لا تصادق صديقاً إن حضر سرَّكَ شيء منه، وإن غاب ساءَكَ كل شيء منه.
(٢) إن أردت أن تختبر صديقاً وتعرف طباعه وأخلاقه، فاتركه ولا تبدأ هذا الاختبار، واعرف أولاً أصله ومنبته؛ فإن طباع المرء كلها تنفرع من هذا الأصل.
(٣) ألم ترني -يوم حلَّت نكبة نكباء لا قبل لنا بها ولا قدرة لنا على ردِّها، يجفو المرء عندها أخاه ويهجره ولا ينصره-.
(٤) ألم ترني عند ذلك قد احتضنتُ «أبا النضر» بعد أن لُمتُهُ ما وسعني الجهد.
(٥) وقلت له عند لقائنا وقال هو لي أيضاً كلاماً فيه عتاب العابثين المُزِرِّين على إخوانهم إساءتهم إليهم.
(٦) قلت له: أتلومني في أنني هجرتك مثل ما هجرتني؟ أليس البادئُ بالشرِّ أظلم؟
(٧) إن المرء لا يندم على انقطاع مودة من لا وفاء ولا ذمام ولا عهد له.
(٨) ليتني أعلم ماذا ستكون عليه علاقتك بي بعد وفاتي، أستبقي على عهد المودة والإخاء؟ أم سكرهني وتقطع حبال ودي؟

أنا ذاك المُسيءُ، والذنبُ ذنبي فأغفُ عني يا أكرمَ الناسِ عندي^(١)
لا يكونُ الغُفرانُ إلا لمولَى وتكونُ الذُّنوبُ إلا لعبدٍ^(٢)
وقال محمود الوراق:

لا تحسُدَنَّ أخاك، وارْ عَ له - على الأيام - عَهْدَه^(٣)
حَسَدُ الصديقِ صديقُه وأخاه، من سُقمِ المودَّة^(٤)

قال شاعر:

وأول خيرٍ من صديقٍ أفدته رجوعي، وتسهيل الصديق حجابي^(٥)
وأعرف مالي عنده بَغْلَامِه وبالبشر منه، عند رَجْعِ جوابي^(٦)
وقال آخر:

زرعتُ في القلبِ مني من مودتكم زَرَعًا تَمَكَّنَ في الأحشاء والكبد
وقال آخر:

جزى الله عني صالحًا بوفائه وأضعف أضعافًا له في جزائه
أخًا لي، إذا ما جئتُ أبغِيهِ حاجةً رجعت بما أبغِي، ووجهي بمائه^(٧)

- (١) إنني معترف بذنبي وبإساءتي، فاصفح عني فإنك عندي أكرم الناس طرًا.
(٢) ولمَن يكون الصفح والعفو والمغفرة إلا للسيد الذي يملك الثواب والعقاب؟ ومِمَّن تقع الذنوب إلا من العبيد الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه السادة من النضج والإدراك؟
(٣) لا تحسد أخاك ولا تمنن زوال نعمته، واحفظ عهد مودته وارع ذمامه.
(٤) فإن حسد الأخ لأخيه، والصديق لصديقه، فساد في المودة وخلل.
(٥) إن أول فضل نلتَه من صديقي هو أنه أعادني إلى ديارِي، وحجبتني وأغنانِي عن الناس.
(٦) وقد ألزَمَ صديقي لي على نفسه حقوقًا أعرفها عندما يجيء بها غلامه إليّ، وأعرفها بشره وسروره عندما أكتب إليه سائلًا قضاء حاجة لي.
(٧) لي صديق إن جئتُه أطلب إليه أن يقضي لي حاجةً، فإنني أعود وقد قُضِيَتْ حاجتي دون أن يجشمني بذل ماء وجهي، أو يحتملني مذلة السؤال والطلب.
وقد قال أحد الشعراء:

مَنْ جَادَ مِنْ بَعْدِ السَّوَالِ، فَإِنَّهُ - وَهُوَ الْكَرِيمُ - يُعَدُّ فِي الْبُخَالِ

بلوت رجالاً بعده بإخائهم فما ازددت إلا رغبةً في إخائه^(١)
وقال آخر:

تاه على إخوانه «قاسم» فصار لا يَطرِف من كبره^(٢)
أعادهُ الله إلى حاله فإنه يَحسُن في فقره!^(٣)
وقال آخر:

لم يَبْقَ في الناس حرٌّ ولا صديق يَسِرُّ
وكل من ترَاضيه - عند المذاقة - مُرٌّ
وقال آخر:

أكل هذا الجفاء يا حَكَم؟ كذا يكونُ الإخاء والكرم؟^(٤)
الحمد لله، لا صديق لمن زلت به في زمانه القدم^(٥)
وقال آخر:

إذا كنت تأتي المرءَ توجب حقَّه ويجهل منك الودَّ، فالهجر أوسع^(٦)
وقال آخر:

تكثرُ الإخوان ما لم يُخبروا وعلى الخُبْرِ قليلٌ في العَدَدِ

(١) لقد اختبرتُ صداقة كثيرين غيره، فزادني ذلك تمسُّكاً به ورغبة فيه؛ لأنني لم أجد فيهم مثيلاً له في كرم أخلاقه. قال شاعر لصديق له:

ستعرفني إذا جربتَ غيري وتعرف أنني نعم الصديق

(٢) استكبر «قاسم» على رفاقه، فصار لا تتحرك له عين من فرط الكبرياء والتعظيم.

(٣) نسأل الله أن يعيده إلى حاله القديمة، وأن يزيل عنه النعمة التي أبطرته، فإنه ممن لا تحسن أخلاقهم إلا عندما يكونون فقراء ذوي حاجة.

(٤) لم هذا الجفاء والهجر كله يا «حكم»؟ أهكذا - عندك - يكون الإخاء والمودة والصداقة؟ ويكون الكرم وبر الإخوان؟

(٥) إننا نحمد الله على أنه لم يجعل صديقاً لمن يخطئ في حق إخوانه، وتزل به قدمه فيخفوهم أو يسيء إليهم.

(٦) إذا كنت توجب على نفسك حقاً لإخوانك، وتلتزمها وتنهض بها، ثم يقابلها إخوانك بالبحود والنكران، فإن هجر هؤلاء الإخوان هو الجزاء الحق لهم، وإن بابه لواسع فسيح.

لا تَوَدَّنْ امراً لم تَبْلُهُ وانْظُرْنَ - بعد ابتلاءٍ - مَنْ تَوَدَّ
خالقِ الناسِ على أحسابهم لا يَغُرَّنَكَ ثِيَابٌ وَجَسَدٌ^(١)
رُبَّ محمودٍ على الصورة، قد نال ذمًّا، ودميمٍ قد حُمِدَ^(٢)
فإذا الصورةُ والحمدُ معًا جُمِعَا يومًا لإنسانٍ، سَعِدَ^(٣)
قُلْ بعلمٍ أو دَعِ القولَ فللصَّ - مَتَّ خَيْرٌ من مقالٍ في فَنَدَ^(٤)
ودعِ المَزْحَ فيا رُبَّ امرئٍ قَادَهُ المَزْحُ إلى ما لم يُرِدْ
وقال آخر:

إذا كان إعراضُ الفتى مثل أكله فذاك ضعيفُ الرأي مستجهلُ العقلِ^(٥)
وليس بموثوقٍ به في مودة ولا حسن رأيٍ عند عقدٍ ولا حَلٍّ
فآخِ صديقَ الصدقِ إنك عينُهُ وإن لم تكنهُ بالتخَطُّطِ والشكلِ^(٦)
يقال: أمور ليس لها ثبات، منها ظل الغمام، وخلة الأشرار، وثناء الكاذبين، والمال
الكثير يرثه الأحمق، ومودة النساء.

وقال أكثم بن صيفي: العيش في سبعة أشياء: الولد البار، والزوجة الصالحة، والأخ
المساعد، والخادم العاقل، والعافية السابغة^(٧)، والقوت الكافي، والأمن الشامل.

- (١) انظر في اختيارك الأصدقاء إلى أصولهم، وإلى ما لهم من مجد مؤثِّل، وإلى أخلاقهم، وإياك أن تنخدع بشبابهم
البراقة وأجسادهم الناعمة.
- (٢) فرب جميل الصورة والسَّمْتُ يكون مذمومًا من الناس لسوء خلقه، ورب قبيح الصورة والوجه يكون ممدوحًا
من الناس لحسن خلقه وطيب نفسه وقلبه.
- (٣) فإذا جمع الله لإنسان جمال الصورة وجمال الخلق الحميد، فقد كتب الله له السعادة.
- (٤) إذا تكلمت فتكلّم عن علم ومعرفة، أو فاصمت ولا تتكلم؛ فإن الصمت خير من الكذب والادّعاء وقول
الزّور.
- (٥) إن كان هجر صديقك لك دائمًا مستمرًا كطعامه الذي يتناوله صباح مساء، فإن صديقك هذا لذو رأي ضعيف
فاسد، وإنه لجاهل أحمق.
- (٦) اتَّخَذَ الصادق الأمين أخًا لك، واجعله منك مثل نفسك تمامًا، وإن لم يكن نفسك باللحم والدّم والشكل
والقسَمَات.
- (٧) العافية السابغة: الكاملة، الوافية، المتسعة.

وقال شاعر:

إذا رأيت امرأً في حال عُسرته مُصافياً لك، ما في وده دَخْلٌ^(١)
فلا تَمَنَّ له أن يستفيد غنى فإنه -بانتقال الحال- ينتقل^(٢)
وقال آخر:

لا تحمدنَّ على الإخاء مؤاخياً حتى تَبَيَّنَ قَدْرُ غُورِ إِيَّائِهِ^(٣)
فتذم، أو تختصه، من بعدما تَبْلُو سريره وصِدْقَ وفائِهِ^(٤)
وقال آخر:

إذا أنت شاجرتَ الرفيقَ فلنْ له ومن خير مَنْ رافقتَ من لا تُشاجرُهُ
وقال كاتب: اشتريتكَ بالتَّصُل؛ إذْ بعَني بالتَّجَنِّي^(٥).
وقال فيلسوف: لا تَعُدَّنْ مَنْ آخَاكَ في أيامِ مقدرتكَ للمقدرة، واعلم أنه ينتقل
عليك في أحوال ثلاثة: يكون صديقاً يوم حاجته إليك، ومعرفةً يوم استغنائه عنك،
ومتجنِّياً ذنباً يوم حاجتك إليه.

قال شاعر:

وشرُّك من صديقك غيرُ نابٍ وشرُّك عند مُنْقَطعِ الترابِ
قال آخر:

- (١) إن رأيت صديقاً لك في حال عسرة وضيق وقلة في المال، ووجدته -وهو في تلك الحال- يُخلص لك المودة، ويحافظ على عهدك، ولا يُدخل مودته كدر أو فساد.
- (٢) فلا تطلب إلى الله أن يُغنيه، وأن يُبدله من العسر يسراً؛ فإنه -إن منَّ الله عليه بذلك- سيتغير من ودك إلى مجافاتك، ومن إخوانك وصلتك إلى هجرك وفراقك.
- وكلُّ إمارة لا بدَّ يوماً مُغَيَّرُ الصديق على الصديقِ
- (٣) لا تمدح صديقاً قبل أن تجربَه وتمتحن صداقته وتعرف أغوارها وأعماقها.
- لا تَمْدَحَنَّ امرأً حتى تجربَه ولا تَدْمَنَنَّ من غيرِ تجريبِ
- (٤) واجعلْ ذمَّكَ له أو اختصاصك إياه بحبك، بعد أن تختبره، وتمتحن صدق وفائه ونقاء سريره.
- (٥) إن موقف كلِّ منا مختلف عن موقف صاحبه، فإني قد اشتريت صداقتك بالتَّصُل لك من الأعذار واغفارها لك، وأنت قد بعَني بالتَّجَنِّي عليّ، وإلصاق ذنوب بي لم أرتكبها.

فانظر لنفسك من تصاحبُ منهم ليس الصحيحُ ودأدُهُ كالأجربِ
وقال آخر:

إذا غبْتَ لم تنفع صديقًا، وإن تَقُمَ فأنت على ما في يدكِ ضنينٌ^(١)
وقال آخر:

أبا هاشم: لا فَرَّقَ الله بيننا ففي قُربكم أنسي، وفي بُعدكم حتفي^(٢)
وقال آخر:

الأخلاءُ في الرخاء كثيرُ فإذا ما بلوتَ كانوا قليلًا^(٣)
وإذا ما أصبتَ خلًّا حفيظًا راعيًا للإخاء، برًّا، وُصولًا^(٤)
فتمسكْ بحبله أبدَ الدهرِ، وأكرمْ به أخًا وخليلا^(٥)
قال الراجز:

إني وإن عَيَّرْتَنِي نُحُولِي أو ازْدُرَيْتَ عَظَمِي وطُولِي^(٦)
لا أعجبُ النفسَ على خليلي أعرّض بالودِّ، وبالتنويل^(٧)
قال أبو زيد الأنصاري: يُقال عَجَفْتُ نفسي على المرض إذا صبرتُ عليه.
وقال آخر:

-
- (١) إنك إذا غبْتَ عن أصدقائك فلن تنفعهم بشيء، وإن أقمتَ فيهم فلا نفعَ لهم منك؛ لأنك ضنينٌ بخيلِ عليهم بما في يدك.
- (٢) حتفي: موتي وهلاكي.
- (٣) عندما تكون في رخاء وسعة من العيش فإن الإخوان يكثرُونَ من حولك، فإذا امتحنت أصدقاءك عند الشدائد فستجدهم قليلين.
- (٤) فإن ظفرتَ بخليل حافِظٍ للودِّ، مراعٍ للعهد، ذي برٍّ وصلة.
- (٥) فاستمسك بحبله، وحافظ على مودته طول حياتك؛ فإنه نعم الخليل ونعم الأخ والصديق.
- (٦) إني - وإن كنت تعيب عليَّ ضُموري أو تحتقر شكل جسمي وقصره -.
- (٧) إن كان هذا أو ذاك، فإنني لا أحبس نفسي على صاحب، وأصبرُها عليه. ولكني أقيم العلاقة به على أساس من المودة والعطاء والخير.

مُذْ بَدَأُ يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرَنِ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ الْحَيُّ رَتَعُ^(١)
وقال آخر:

ولا خير في ودِّ إذا لم يكن له -على طول مَرِّ الحادثات- بَقَاءُ
وقال آخر:

وَرُبَّ امْرِئٍ تَغْتَشُّهُ، لَكَ نَاصِحُ وَمُؤْتَمَنٍ بِالْغَيْبِ، غَيْرُ أَمِينِ^(٢)
قال أبو زيد العدوي:

وَابِلُ الرِّجَالِ إِذَا أُرِدَتْ إِخَاهُمُ وَتَوَسَّمَنَ أُمُورَهُمْ، وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفِرَتْ بِذِي اللَّيَانَةِ وَالتَّقَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ -قَرِيرَ عَيْنٍ- فَاشْدُدِ^(٣)
وَمَتَى يَزُلُّ -وَلَا مُحَالَةَ زَلَّةً- فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ حَلْمِكَ فَارْزُدِ^(٤)
وقال آخر:

أَحِينَ تَنَاهَتْ بِكَ الْمَكْرَمَاتُ رَمَيْتَ بِحَبْلِي عَلَى غَارِبِي؟^(٥)
فَمَا بِأَلْ عَيْنِكَ مَطْرُوفَةٌ إِذَا مَا رَمَيْتَ بِهَا جَانِبِي؟^(٦)
وقال آخر:

أَمَّا الْمُرْزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ، فَدَعُوهَا خُلُقَانٌ لَا أَرْضَاهُمَا لَصْدِيقِ
إِنِّي بِلَوْثُهُمَا، فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمَجَاوِرِ جَارًا، وَلَا لِرَفِيقِ

(١) إنه بدأ يخطر هنا وهناك، ويرفع يديه ويضعهما، وذلك في الأوقات التي لا يراني فيها، وإذا خلا له الحيُّ أكل وشرب ما شاء في خُصْبٍ وَسَعَةٍ.

(٢) ربَّ صديق لك تظنُّ أنه يغشك ويخدعك، والحقيقة أنه ينصح لك ويُرشدك، وربَّ صديق تأتمنه على أسرارك فيخونك ويفشي أسرارك.

(٣) وإذا ظفرت بصديق لئِن الأخلاق، سُمِحَ سهْلٌ، يتقي الله، فتمسك به، واشددْ يديك عليه، وأنت بذلك فرح سعيد قرير العين.

(٤) فإذا زلَّ صاحبك وأخطأ، فكن حليماً عليه، واصفح عنه، ولا تغضب؛ فإن الزَّلَلَ من شيمة البشر أجمعين.

(٥) أترميني وتلفظني حين تبلغ أعلى المراتب، وحين تنتهي بك مدارج العزِّ والرفعة؟

(٦) وما بال عينك لا تتحرك إن كانت بجانبك كأنها مطروفة؟

قال ابن عباس: ما من غِرَّة^(١)، إلا وإلى جانبها عَرَّة^(٢)، وما الذئب في فريسته بأسرع من ابن عمّ دنيء في عرض ابن عمّ سري.

قال الأصمعي: وقف أعرابي على قوم يعيبون رجلاً من إخوانه، فقال: أبطئوا عن عيب من لو كان حاضرًا لسارعتُم إلى مدحه.
قال شاعر:

إن شر الناس من يكشُر لي حين يلقاني، وإن غبتُ شَتَم^(٣)
وكلام سيئ قد وقررت عنه أذناي، وما بي من صَمَم^(٤)
لا تراني راتعًا - في مجلس - في لحوم الناس، كالسبع الضرم^(٥)
قال المدائني: يقال: من رمى أخاه بذئب قد تاب منه، ابتلاه الله به.

وقال عمر بن الخطاب: كفى بك عيبًا أن يبدو لك من أخيك ما يُعني عليك من نفسك أو تؤذي جليسك.
قال الأخطل:

إني تدوم لذي الصفاء مودتي وإذا تغَيَّر، كنتُ ذا ألوان^(٦)
وأصد عن عيب الصديق تَكْرُمًا عُمْدًا، وما دهري له بهوان^(٧)
وأفارق الخِلان من غير القلَى وأُميتُ بعض السرِّ بالكتمان^(٨)

(١) الغِرَّة: - بالكسر - الغفلة.

(٢) العَرَّة: - بالفتح - العيب، والخلة القبيحة.

(٣) شر الناس من يضحك ويتسم إذا لقيني، فإن غبتُ عنه سبني وشتمني.

(٤) وقال كلامًا سيئًا قد صممتُ عنه أذناي، وليس بهما صمم.

(٥) إنك لن تجدني أكلًا لحوم الناس كما يأكل السبع الجائع الغضبان، فلن أتحدث عن غائب بما يكره.

(٦) إن مودتي باقية لإخوان الصفاء والمودة الخالصة، أما الذين يتغيرون عليّ، فإنني أغيّر عليهم، وأتخذُ لهم ألوانًا عديدة.

(٧) وأصد وأغضي عن عيوب أصدقائي إغضاء مُتعمدًا مقصودًا، عن كرم مني وتسامح، لا عن هوان وضعف؛ فما كنت طول دهري ذا هوان أو ذا ضعف.

(٨) إني أفارق خلاني على ودٍّ ومحبة لا عن بغض وكرهية، وأميت أسرارهم بكتمانها وعدم إذاعتها وإفشاءها بين الناس.

قال كاتب: ولعمري إن في الحق أن يُقْبَلَ الاعتذار ما لم يكن معه الإصرار^(١)، وأن لا تَحْمَلَ المستر بالصداقة على المكاشفة بالعداوة ما صَلَحَ ظاهره، وتصنَّعتُ سرائره.

وقال آخر:

إخوان الشر كشجرة النار يحرق بعضها بعضاً.

وقال آخر: إنما سُمِّيَ الصديق صديقاً، بصدقه لك، وسُمِّيَ العدوُّ عدوًّا لعدوه^(٢) عليك لو ظفَرَ بك.

وقال أيضاً: من لم يُقدِّم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأُنس، أثمرت مودته ندماً. ليكن الأُنسُ أعلى وأغلى مودتك، وأبطأها عَرَضاً على صديقك.

وقال: علامة الصديق - إذا أراد القطيعة - أن يُؤَخِّرَ الجواب، ولا يبتدئ بكتاب. وقال: إخوان السوء يتفرَّقون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأُنس والثقة، ثم يוכלون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيراً ستروه، وإن رأوا شراً أو ظنُّوه أذاعوه ونشروه. وقال آخر:

إنما تطيب الدنيا بمساعفة^(٣) الإخوان ونفع بعضهم بعضاً في كل باب، وإلا، فعلى الصداقة الدِّمار^(٤). وما أرجو إذا كانت تنقطع في الآخرة، ولا تتصل بما أحب في الدنيا.

قال شاعر:

(١) إن لم يكن صاحبك المُسيء مُصرّاً على إساءته متمادياً فيها، فاقبل عذره إن جاء معتذراً.

(٢) عدوه عليك لو ظفر بك: تجاوزَه الحدَّ في ظلمك لو تمكَّن منك.

(٣) تطيب الدنيا بمساعفة الإخوان: تجمِّلُ الحياة وتحسِّنُ الدنيا بمُساعدة الإخوان ومُؤاناتهم.

(٤) الدِّمار: الهلاك.

أنت امرؤ قُصِرْتُ عنه خَلِيقَتُهُ إِلَّا مِنَ الْغَشِّ لِلأَدْنَيْنِ وَالْحَسَدِ^(١)
حدثنا «ابن مسرف»، قال: كان بين محمد بن السَّماك وبين رجل من قريش مؤاخاة،
فانقطع عنه القرشي، فكتب إليه ابن السماك:

أما بعد يا أخي، فإن لكل شيء ثمرة، وثمره المودة الزيارة، والسلام.
وكتب في آخره:

لقد ثَبَّتْ في القلب منك مودَّةٌ كما ثبتت في الراحَتَيْنِ الأصابعُ
فأجابه القرشي: أما بعد يا أخي، فقد زرعت في قلوبنا مودتك، فتعهَّد زرعك^(٢)
بسقي الماء، وإلا فلا تأمن، والسلام.

قال شاعر:

صديقك - حين تستغني - كثيرٌ وما لك - عند فقرك - من صديق^(٣)
فلا تغضبْ على أحدٍ إذا ما طوى عنك الزيارة عند ضيق^(٤)
وقال آخر:

إذا المرء لم يبذل لك الودَّ مُقبلاً مدى الدهر، لم يبذل لك الودَّ مُدبراً^(٥)
وقال آخر:

أقام معي من لا أحبُّ جوارهُ وجاري - جارا الصدقِ - مُرتحلان^(٦)

(١) خَلِيقَتُهُ: طبيعته.

إنك امرؤ قُصِرْتُ طبيعته وضعُفت، إلا من الخداع للأقارب، والحسد لهم، وتمني زوال نعمتهم، فتلك هي صفاتك دون غيرها.

(٢) تَعَهَّدُ زرعك: تَفَقَّده، وَتَرَدَّدَ عليه، وأصلحُه.

(٣) حين تستغني عن الناس يكثر أصدقاؤك ومُريدوك، وحين تفتقر إليهم فما لك صديق واحد، أو مرید واحد.

(٤) فلا تغضبْ عليه إن هو انقطع عن زيارتك ساعة الضيق والافتقار، فتلك هي سُنَّة الحياة وطبيعة الناس.

(٥) إن لم يبذل لك صاحبك الودَّ وهو مُقبِلٌ عليك مُقيمٌ معك طول حياته، فما هو يبذله لك عند إداره عنك وفراقه لديارك.

(٦) من نكد الدنيا عليَّ أن يُقيم معي من لا أرغب في قُرْبهِ مني، وأن يفارقني الجاران الصادقان المخلصان اللذان

ولا يستوي الجاران: جارٌّ مكارمٌ وجارٌّ طويلُ العمر دون مجاني^(١)
وقال آخر:

أُعَاتِبُ «لَيْلَى»، إِنَّمَا الصَّرْمُ أَنْ تَرَى خَلِيلَكَ يَأْتِي مَا أَتَى، لَا تُعَاتِبُهُ^(٢)
وما أهل ليلي من خليلٍ فينفعوا وما أهل ليلي من عدوٍّ نُجَانِبُهُ^(٣)
قيل للإسكندر: بما نلتَ هذا المُلْكَ على حداثة السن؟
قال: بِاسْتِمَالَةِ الْأَعْدَاءِ، وَتَعَهُدِ الْأَصْدِقَاءِ.

وقال آخر: العتابُ حدائقُ المتحابين، وثمارُ الأوداءِ، ودليلٌ على الضنِّ بالصفاء،
وحركاتُ الشوق، ومُستراحُ الوجد، ولسانُ الإشفاق.

وقال آخر:

التَجَنِّيُّ^(٤) رَسُولُ الْقَطِيعَةِ، وداعي القلي، وسبب السُّلُوِّ، وأول التجافي، ومنزل
التهاجر.

وقال آخر:

مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ بِالمَسَامَحَةِ، دَامَ اسْتِمْتَاعُهُ بِهِمْ.

وقال شاعر:

وَكُنْتُ إِذَا صَحَبْتُ رَجَالَ قَوْمٍ صَحْبُهُمْ، وَثَبَّتَنِي الْوَفَاءُ
فَأَحْسِنُ، حِينَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ وَأَجْتَنِبُ الْإِسَاءَةَ إِنْ أَسَاءُوا

= قال الشاعر القديم:

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيْتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

(١) لا يستوي جاران: جارٌّ نأخذ منه مكارم الأخلاق وثمار الصفات الكريمة النافعة، وجار آخر طال عمره بيننا دون أن نجني منه ثمرًا، أو ننال منه خيرًا.

(٢) إنني ألوم «ليلى» على ما تفعل بنا. وإن الصرم الحقيقي، وإن القطيعة الحقيقية هي أن ترى صديقك الذي يستوجب عتابك، ثم لا تعاتبه ولا تلوّمه.

(٣) وليس أهل «ليلى» بأصحاب لنا فننتفع من ورائهم، وما هم بأعداء لنا فنخشاهم ونتجنبهم.

(٤) التجنّي: تجنّي على فلان: ادّعى عليه ذنبًا لم يفعله.

وَأَبْصِرُ مَا يَعِيبُهُمْ بَعِينَ عَلَيْهَا مِنْ عَيُونِهِمْ غَطَاءٌ^(١)
وقال آخر:

إني رأيتك لي مُحِبًّا وإليَّ - حينَ أغيَّبُ - صَبًّا
فهجرتُ، لا لَمَلَالَةٍ حَدَّثْتُ، ولا اسْتَحَدَّثْتُ ذَنْبًا^(٢)
لكنْ لِقَوْلٍ قد مضى مَنْ زَارَ غِيبًا، زَادَ حُبًّا^(٣)
الله يعلمُ أنني لك أَخْلَصُ الثَّقَلَيْنِ قَلْبًا^(٤)

وقال «جَحْظَةُ» فيما حدثنا «ابن سيف»: كتب رجل إلى صديق له:

لله أنت على جَفَائِكُ ماذا أؤمِّلُ من وفائِكُ؟
فكَّرتُ، فيمَ هجرتُني؟ فوجدتُ ذاكَ لِسُوءِ رايكُ
ورأيتُ أن أسعى إليـ كـ، وأن أبادر في لقاءكُ
كيما أجددَ ما تغَيَّـ رَ لي، وأخْلَقَ^(٥)، من إخائكُ

لإسحق بن إبراهيم الموصلي في أبي دُلف العجلي:

اجْعَلْ «أبا دلف»، كمن لم تعرفِ واهجره معترفًا، وإن لم يُخْلِفِ
أخِ الكرامِ المنصفين بوصلهم واترك مودة كلِّ من لم يُنْصِفِ
لا خير في صدق الإخاء لِمُوَكَّلٍ بأذى الصديق ملولةٍ مُسْتَطَرِفٍ^(٦)

(١) إنني إذا صاحبت قومًا ووفيتُ لهم، فإني أحسنُ إلى من يُحسنون إليَّ منهم، ولكني لا أسيءُ إلى من يسيئون إليَّ، فأنا أنظر إليهم بعينٍ ليستُ كعيونهم، ولكنَّ عليها غطاءً من أعينهم؛ لأنهم يسيئون إلى المسيئين، وأنا أجنب الإساءة إلى هؤلاء المسيئين.

(٢) إنني هجرتكم، لا لملل وسأم منكم، ولا أنا بذلك أستجد ذنبًا وأستحده.

(٣) ولكنني هجرتكم عملاً مني بالقول المأثور، وهو أن الذي يُباعِد بين زيارته فيزور يوماً ويترك يوماً، فإن الناس يزددون حُبًّا له.

(٤) والله يشهد أنني أشدُّ الثَّقَلَيْنِ - الإنس والجِنَّ - حُبًّا وإخلاصًا لك.

(٥) أَخْلَقَ: بَلَّيَ.

(٦) لا خير في أن يصدقَ إخاؤك، وأن تصفو مودتك لرجل لا همَّ له إلا أن يؤذي أصدقاءه كأنه موكَّلٌ بإيذائهم، ملول لا يبقِي طويلاً على ودِّ صديق له حتى يهجره ويقطع حبلَ وده، يستجدُّ كل يوم صديقًا يستبدله بصديق قديم.

وقال آخر:

سأحبس نفسي إذ كرهت مودتي وأكسر قلبي منك باليأس والصبر^(١)
وأذكر ودًا كان مني تكررًا وإن حُلّت^(٢) عن وصلي، ومِلت إلى الهجرِ
فشكري لما أوليتني، لك دائمٌ وحيي جديد ليس ينقص في الدهرِ
فما زلت أبكيكم بعينٍ سخينة كما كانت «الخنساء» تبكي على «صخر»^(٣)

وقال آخر:

إذا نائبات الدهر يسرن للفتى ثلاث خصالٍ قلما تتيسر^(٤)
كفاف يصون الحر عن بذل وجهه فيضحى، ويُمسي، وهو حرٌّ موقر^(٥)
وكأس تُسلّيه إذا الهم ضاقه ومحسنة إحسانها ليس يُنكر^(٦)
ورابعة عزّت، وقلّ حصولها صديق على الأيام لا يتغيّر
فذاك الذي قد نال ملكًا بلا أدّى وأُسعد بالخيرات إن كان يفكر
أخبرنا المرزباني، أخبرنا القراطيسي، قال: أخبرنا أبو العيناء، قال: كتب رجل إلى
صديق له: أما بعد، فإني ما اتهمتُ حسن ظني بك حين توجّه إخائي نحوك، ولا تجدد

(١) ما دمت قد كرهت مودتي، فإني سألزم داري، وأحبس فيها نفسي، وأمنعها عن الأصحاب والأحباب، وأقهر قلبي على اليأس منك وفقدان الأمل من صحبتك، والصبر على هذه القطيعة وذلك الهجران.

(٢) حُلّت: تحولت، وتغيّرت.

(٣) سأظلّ أبكيكم بعين ساخنة الدموع، كما كانت «الخنساء» الشاعرة العربية تبكي أخاها «صخرًا» بكاءها الشهير الذي صارت الأمثال تُضرب به، والذي تقول منه:

بذكرني طلوع الشمس «صخرًا» وأذكره لكل غروب شمسٍ

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم، لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي، ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسّي

(٤) إن كانت نائبات الدهر وحوادثه الجلي، تيسر وتهي للإنسان ثلاثة أشياء قلما تيسر له.

(٥) الكفاف من الرزق: القوت، وهو ما كف عن الناس، أي أغنى عنهم. أول هذه الخصال الرزق الذي يغني المرء عن الناس ويصونه من السؤال فيعيش حياته حرًا كريمًا موقرًا محترمًا من الناس.

(٦) والثانية كأس من الصُّهباء تنسيه أحزانه، وتفرّج عنه ضيقه وهمّه، والثالثة يد محسنة لا يجحد إحسانها ولا ينكر.

أُملي باعتماددي عليك، ولا استدعُني رغبة فيك إلى من سواك، ولا أُراني اختياري غيرك عوضًا منك.

وحدثني أبو طائع الطلحي، قال: كتب الجراحي إليّ مرةً: الله يعلم أنك ما خطرَته ببالي في وقت من الأوقات إلّا مَثَلُ الذِّكْرِ منك لي محاسنَ تزيدني صباغةً إليك، وضنًا بك، واغبتابًا بإخائك^(١).

قال شاعر:

لئن جَدَّ أسبابُ العداوة بيننا لَتَرْتَحِلُنْ مني على ظهر شَيْهَمٍ^(٢)
والشيهم ذكر القناذ، وإنما يريد، لتصيبك مني داهية، هكذا حفظتُ عن ابن الأعرابي، وكان كبيرًا.

قال جميل بن نصير لابنه: يا بني، اصْحَبِ الْمَلِكَ بشدة التوقي^(٣)، كما تصحب السَّبْعَ الضاري، والفيل المغتلم^(٤)، والأفعى القاتلة. واصْحَبِ الصديق بلين الجانب والتواضع، واصْحَبِ العدوَّ بالإعذار إليه^(٥)، والحجة فيما بينك وبينه، واصْحَبِ العامة بالبرِّ والبشر واللفظ باللسان.

قال شاعر:

إن الكريم الذي تبقى مودته ويحفظ السرَّ إن صافى، وإن صرَمًا
ليس الكريم الذي إن زلَّ صاحبه بثَّ^(٦) الذي كان من أسرارهِ علِمًا

(١) يشهد الله أنني ما تذكرك يومًا إلّا صور لي هذا التذكُّر فضائلك فأزدد شوقًا إليك وحرصًا عليك وسرورًا بصحبتك وإخائك.

(٢) الشَّيْهَمُ: ذكر القناذ، وقيل ما عظم شوكة من ذكورها.

(٣) التوقي: الحذر.

(٤) المغتلم: الذي اشتدَّت شهوته وسورته.

(٥) الإعذار إليه: أن تعذره، وتجعله موضع العذر.

(٦) بثَّ: نَشَرَ، وأذاع.

قال فيلسوف: اعتزلْ عدوك، واحذرْ صديقك.

وقال عمرو بن العاص: الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لوطف^(١).

وقال خلف الأحمر: وصف لي رجل أخاه، فقال: كنت لا تراه - الدهر - إلا وكأنه لا غنى به عنك وإن كنت إليه أخوج، وإن أذنبت غفر ذنبك وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسنَ وكأنه المسيء.

قال شاعر:

إذا أنا لم أجزِ الصديق بنُصحه وأُقصِ الذي تسري إليّ عقابه^(٢)
فمن يتقي يومي؟ ومن يرتجي غدي لنائبة؟ والدهرُ جَمٌّ نوائبه^(٣)
لحا الله مولى السوء، لا أنت راغب إليه، ولا رام به من تحاربه^(٤)
وما قُربُ مولى السوء إلا لبُعدِهِ بل البُعدُ خيرٌ من عدوّ تقاربه^(٥)
من الناس مَنْ يُدعى صديقاً، ولوترى خبيثةً جَنَبِيهِ لساءك جانبُهُ^(٦)
يَمُنُّ ولا يُعطي، ويزعم أنه كريم، ويأبى لؤمُهُ وضرائبُهُ^(٧)
وإني وتأميلي «جذيمة» كالذي يُؤمِّلُ ما لا يُدرِك - الدهر - طالبُهُ

(١) لوطف: بارأه الناس، ورفقوا به.

(٢) إن كنت لا أكافى الصديق وأجزيه جزاءً حسناً على نصحه الخالص، وأبعد عني من تسري إليّ سموه.

(٣) فمن من الناس يخشى يومي؟ ومن يرجو ويأمل خيراً من غدي وعوناً ومساعدة مني إذا نزلت به النوازل؟ والأيام كثيرة النوازل متصلة النكبات؟

(٤) قبح الله صديق السوء ولعنه، إنه لا شيء فيه يُرغب، ولا عون منه في حرب أعداء.

(٥) لن تدوم مودة صديق السوء، فهو لا يلبث أن يهجرَكَ ويفارقَكَ، على أن بُعده - في الحق - خير من قُربه، فإنه عدو لا تُؤمِّنُ بوادره.

(٦) في الناس من يُسمَّى صديقاً، ولو اطلعت على دخيلة نفسه لرأيت السوء والفساد، ولعرفت أنه العدو المبين.

(٧) الضرائب: جمع ضريبة وهي الطبيعة والسجية.

أي إن هذا يَمُنُّ عليك، ويعدد أنعمه وأياديه، وهو لم يُنلِكَ شيئاً، ولم يمنحك يداً، ولكنه يدعي الكرم والسخاء، وهما خلتان ياباهما لؤمُهُ وطبيعته السيئة.

فأما إذا استغنيتم، فعدوكم وأدعى إذا ما غصَّ بالماء شاربهُ^(١)
وما تركت أحلامكم من صديقكم لكم صاحبًا، إلا قد ازورَّ جانبه^(٢)
وقال آخر:

إذا أنت لم تعرض عن الحق، لم تفرِّ بذكرٍ، ولم تسعد بتقريظ ماح
وقال آخر:

من نمَّ في الناس لم تؤمن عقاربهُ عن الصديق، ولم تؤمن أفاعيه
كالسَّيل بالليل، لا يدري به أحدٌ من أين جاء؟ ولا من أين يأتيه؟
وقال آخر:

عاملِ الناس بخُلُقٍ رقيقٍ والِقَ من تلقى بوجهٍ طليق
فإذا أنت قليل العدى وإذا أنت كثير الصديق

وقيل لفيلسوف: مَنْ تحب أن تصادق؟

فقال: أمَّا في الدهر الصالح فالحسيب اللبيب الأديب؛ فإنك تستفيد من حسبه
كرمًا، ومن أدبه علمًا ومن لبّه رأيًا^(٣). وأمَّا في الزمان السوء فارضَ بالمكاشر^(٤) الذي
يعطيك بعضه بالحياء، وبعضه بالنفاق، ويُمَتِّعك ظاهره وإن ساءك باطنه. ولكل زمان
حُكْم، ولكل ظَهْرٍ عِكم^(٥).

وقالت أعرابية:

(١) إذا استغنيتم عني عاملتموني بالقطيعة والهجر كما تعاملون أعداءكم، فإذا أصابكم شدة دعوتموني وفزعتم
إليّ، وقريب من ذلك قول الشاعر القديم:

أئذا تكون كريبهُ أدعى لها؟ وإذا يحاسُ الحيسُ يدعى «جُنْدُب»؟

(٢) لم تترك عقولكم صديقًا لكم إلا مال وأنحرف عنكم، لسوء ما تفعلون به وقبحه.

(٣) اللبُّ: العقل.

(٤) المكاشر: المضاحك.

(٥) العِكم: العِكام، وهو ما يُشد به من ثوب أو خيط.

يا دهر، لا عُرِّيتَ من آبدِه ما أنا في فِعْلِكَ بي حامدَه^(١)

صاحبتُ إخوانك طُرًّا، فما حمِدتُ منهم خلةً واحدة

وكنْتُ من كلِّهم حاضنًا - في كل يوم - بيضة فاسدَه^(٢)

وقيل للواسطي المتكلم: كيف ترى أبا عبد الله البصري؟ فأنشد:

حرجُ الخليفة بُغْضُه لعدوّه وصفاءُه لصديقه: سيّان^(٣)

وكتب ابن أكمَل إلى ابن سورين، وكان بينهما ودٌّ مُتَوَارَث: إن رأيتَ أن تُروِي ظمًا أخيك بغرتك، وتبرد غليله بطلعتك، وتؤنس وحشته بأنس قُربك، وتجلو غشاء ناظره بوجهك، وتزين مجلسه بجمال حضورك، وتجعل غداءك عنده في منزلك الذي هو فيه ساكن، وتهب له السرور بك باقي يومه، مُؤثِّرًا له على شغلك، فَعَلْتَ إن شاء الله.

فأجابه: كيف أروي ظمأك إليّ مني، وأنا أشدّ ظمًا إليك منك إليّ؟ وعلى حيلولة ذاك، فالتاقي أبردٌ لغليل النفس، وأجلبُ لما شَرَدَ من الأُنس^(٤).

وها أنا قد هيأتُ كلي لطاعتك وبشّرتُ رُوحِي بالاستمتاع بحديثك، وأخذتُ عيادَ الاستفادة منك^(٥)، وصُلْتُ على الدهر^(٦) وأبنائه بما ملكته من تشريفك، والسلام.

(١) الأبدية: الداهية الخالدة الذكر، والأمر العظيم تنفر منه وتستوحش.

إنك - أيها الدهر - لا تخلو من داهية تُصيب بها الناس، أو أمر عظيم تُفجعهم به، وإنني ما حمِدتُ لك يومًا فعلاً لأنني لم أجِد منك ما أحمدُه.

(٢) بل إنك تُقدِّم إليّ كل يوم إساءة جديدة، فكنتُ منك كمن يحتضن كل يوم بيضة فاسدة!

(٣) إذا أَبْغَضَ كان بُغْضُهُ شديداً جامعاً كأنه غَضِبَ الناس جميعاً، وإذا صفا وأخلص كان صفاءُه وإخلاصه قوَّيْن شديدين، فهو مُبالِغ في الأمرين معاً.

(٤) التاقي يُبرِد ويطفئ حرارة العطش والظمأ إلى طلعتك، ويُعيد ما مضى من الأُنس والبهجة.

(٥) واعتصمتُ من أن أنال نفعاً منك، فإن نفعي كلّه هو أن أستمتع بروحك.

(٦) صُلْتُ على الدهر: سَطَوْتُ عليه وَفَهَرْتُهُ حتى دَلَّ لي.

قال أعرابي لآخر: وَدَّكَ لَا يَنْضِي مَلْبُوسَهُ^(١)، وَلَا يَتَوَى مَحْرُوسَهُ^(٢)، وَلَا يَذْوِي مَغْرُوسَهُ^(٣).

وأخبرنا أبو سعيد السيرافي، قال: أنشدنا قدامة بن جعفر الكاتب لشاعر:
وفُتَيَانِ صَدَقَ ثَابِتِينَ صَحْبُهُمْ يَزِيدُهُمْ هَوْلَ الْجَنَابِ تَأْسِيًا^(٤)
فَإِنْ يَكُ خَيْرًا، يُحْسِنُوا أَمَلًا بِهِ وَإِنْ يَكُ شَرًّا، يَشْرِبُوهُ تَحَاسِيًا^(٥)
واعتذر رجل إلى أبي أيوب سليمان بن وهب الكاتب وأطال، فقال له: أَقْلَلْ؛ فَإِنْ
الْوَلِيَّ لَا يُحَاسِبُ، وَالْعَدُوَّ لَا يُحْتَسِبُ^(٦) له.

قال ابن السكيت: العرب تقول: أَنْتَ مِنْ حُبَّةِ نَفْسِي، أَيِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي.
وقال: يُقَالُ: هُوَ صَفِيٌّ وَسَجِيرِي^(٧)، وَهُمْ أَصْفِيَاءِي وَسُجَرَائِي.
وحكى أبو عمرو: اللّيف في معنى السجير، وهو خُلصاني وهم خُلصاني،
ويقال: أَخِيْتُ الرَّجُلَ، وَوَأَخَيْتُ. يَقلِبُونَ الهمزة واوًا. كما يُقال: آسَيْتُهُ، وَوَأَسَيْتُهُ، وَهُوَ
خِلْمِي^(٨) وَهُمْ أَخْلَامِي. فَأما الشجير بالشين فهو الغريب.
قال أعرابي لصاحب له: إِنِّي لِأَصْقُلُ بِلِقَائِكَ عَقْلِي، وَأَشْحَذُ بِمَحَادَثِكَ ذَهْنِي،
وَأَطْوِي بِذِكْرِ مُحَاسِنِكَ أَيَّامِي، وَأَرْجِعُ مِنْ طَوَيْتِكَ^(٩) إِلَى أَكْرَمِ مَوْثُوقٍ بِهِ لِرِعايَةِ عَهْدِي،
وَأَفْضَلِ مُتَكَلِّلٍ عَلَيْهِ لِمَحَافَظَةِ عَلَيَّ وَدِّي.

-
- (١) لَا يَنْضِي مَلْبُوسَهُ: نَضَى الثوبَ: أَخْلَقَهُ وَأَبْلَاهُ. وَالْمَعْنَى أَنَّ وَدَّكَ جَدِيدٌ دَائِمًا، لَا يَعْرِوهُ الْبَلَى وَالْقَدَمُ.
(٢) لَا يَتَوَى مَحْرُوسَهُ، لَا يَهْلِكُ.
(٣) لَا يَذْوِي مَغْرُوسَهُ، لَا يَذْبُلُ.
(٤) لَقَدْ صَحِبْتَ فُتَيَانًا ثَابِتِينَ فِي وَدَّهِمْ، بَاقِينَ عَلَى عَهْدِهِمْ، لَا يَزِيدُهُمْ طَوْلَ الْبَعَادِ إِلَّا تَعَزَّيَا وَتَصَبَّرَا عَلَى بَعَادِنَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِعَوْدَتِنَا إِلَيْهِمْ.
(٥) فَإِنْ كَانَ مَا عِنْدَنَا خَيْرًا أَمَلُوا بِهِ النِّفْعَ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا شَرِبُوهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.
(٦) إِنَّ الصَّدِيقَ لَا يَحَاسِبُهُ صَدِيقُهُ لَوْثُوقَهُ مِنْهُ، وَالْعَدُوَّ لَا يَعْتَدُّ بِهِ.
(٧) سَجِيرِي: خَلِيلِي وَصَفِيِّي.
(٨) الْخِلْمُ: الصَّدِيقُ وَالصَّاحِبُ.
(٩) طَوَيْتِكَ: ضَمِيرُكَ وَنَيْتِكَ.

وقال آخر لصاحب له: ما زلتُ أعلم أنك للسرّ ملء الصدر، وأنك في المساعدة أذكى من الجمر^(١)، وأرقّ من عتيق الخمر، ظريف المخاطبة، عذب المواصلّة، لذيد المجالسة، هنيء العشرة، مقبول الظاهر، سليم الباطن، منشور المطاوي^(٢)، عارٍ من المساوي.

قال أعرابي لرجل: إن فلاناً - وإن ضحك لك - فإنه يضحك منك، فإن لم تتخذهُ عدوّاً في علانيتك، فلا تجعلهُ صديقاً في سريرتك.

وكتب آخر إلى صديق له: إنما قلبي نجّي ذكرك، ولساني خادمُ شُكرك^(٣).
وكتب آخر في بعض العتاب: قد طالت علّتكَ أو تعالّلِكَ؛ واشتدّ شوقنا إليك، فعافاك الله مما بك من مرض في بدنك أو إختاك، ولا أعدّمناك^(٤).

قال إسحق: قلت للعباس بن الحسن: إني لأحبك.

فقال: رائد ذاك معي^(٥).

قال: وذكرت له رجلاً فقال: دَغني أذوق طعم فراقه، فهو -والله- الذي لا تشجي به النفس، ولا يكثر في أثره الالتفات.

سُئل أعرابي عن صديق له، فقال: صَفِرْتُ عِابُ الود بيني وبينه بعد امتلائها^(٦)، واكفهرتْ وُجوهُ كانت بمائها^(٧).

(١) أذكى من الجمر: أشدّ منه لهيباً وحرارةً.

(٢) منشور المطاوي: ظاهره كباطنه، ليس به خفاء، واضح معروف المعالم.

(٣) إن قلبي ليس به من السرّ إلا ذكرك دائماً، وهو خالٍ من كل شيء إلا منك. وإن لساني دائم الحديث بشكر أياديك، فكأنه خادم لهذا الشكر يبذل له نفسه وجهده.

(٤) قد طال مرضك أو ادعأوك المرض، فإن كان الأول فإننا ندعو الله أن يشفيك من مرض جسمك، وإن كان الثاني فإننا ندعو الله أن يشفيك من مرض أخوتك، فإنك لا تدّعي المرض إلا تجنّباً للقائنا، وفراغاً من صلتنا.

(٥) الرائد: الرسول.

(٦) لقد صَفِرْتُ، وَخَلَّتْ أَوْعِيَة المودّة التي بيني وبينه، بعد أن كانت مملوءة.

(٧) بمائها: برؤنقها ونضارتها. أي أظلمت وجوه كانت ذات رونق ونضارة.

وقال إبراهيم بن العباس الصولي:

يا أَخا لم أرَ في الناس خِلا مثله أسرع هجرًا ووضلا^(١)
كان لي في صَدْر يومي صديقًا فعلى عهدك أمسيّت أم لا؟^(٢)
روى المدائني عن عبد الله بن سلم الفهري، قال: غاب مولى الزبير بن العوام
عن المدينة حينًا، فلما آبَ، قال له رجل من قريش: أما والله لقد أتيت قومًا يُبغضون
طَلَعَتِكَ، وفارقتَ قومًا لا يحبون رجعتك، قال: فلا أنعم الله بمن قدمت عليه عينا^(٣)،
ولا خَلَفَ الله على من فارقتَه خيرًا^(٤).

وقرأت لعليّ بن جعفر الكاتب، كاتب الطابع، رقعة له إلى صالح بن مسعود الكاتب
النصراني، لم تكن بذاك قلة ما لم أروها، لكنني وجدت شِعْرًا نقلته إلى هذا الموضع، وهو:
بل عشتَ لي، وبقيتُ منك مُمتعًا في صالح الإخوان والأهلِ
حتى إذا نزل الحمامُ بواحدٍ منّا ليأخذه على مَهْلٍ
متنا جميعًا لا يُفرّق واحدٌ فيذوق فيه مرارة التُّكلِ
وقال بعض السلف: الانبساط إلى العامة مَكْسَبَة لقرين السوء، والانقباض مَجْلَبَة
للمَقْت^(٥). فإما افْتَدَيْتَ من قرناء السوء باعتقاد المَقْت، وإما ابْتَغَيْتَ أَسْرَ الإخوان
بالصبر على المكروه^(٦).

قال عبد الملك بن مروان لرجل: ما بَقِيَ مِنّ لَدَيْكَ؟

قال: جليس يقصّرُ معه طول الليل مع العَلّة، ودابة أشتهي معها طول السفر، وأنشد

لأعرابي:

- (١) أيها الصديق الذي لم أجد صديقًا مثله في سرعة هجره وسرعة وصاله!
- (٢) لقد كنت -أيها الصديق- في أول اليوم صديقًا مُواصلًا، فهل سبقي كذلك حتى المساء أم لا؟
- (٣) لا أقرّ الله عين من قَدِمَتْ عليهم، ولم يفرحوا بِمَقْدِمِهِم.
- (٤) ولا جعلك الله ترك خيرًا لمن فارقتهم. أي إن الخير منقطع في قدومك وفي ذهابك معًا.
- (٥) إن الاعتزال عن الناس والنفور منهم مدعاة للكراهية والمقت.
- (٦) ولن تستطيع أن تملك زمام إخوانك، وتخضعهم لك إلا إذا صبرت على ما تكره منهم، واحتملت الكثير من إساءاتهم.

مَنْ أَيْنَ أَلْقَى صَاحِبًا مِثْلَ عُمَرَ يَزْدَادُ طِيًّا كَلِمَا طَالَ السَّفَرُ؟^(١)
 قال بعض السلف: تَوَقَّ^(٢) من الرجال مَنْ إِنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ كَفَرَكَ، وَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ
 مَنْ عَلَيْكَ^(٣)، وَإِنْ حَدَّثْتَهُ كَذَبَكَ، وَإِنْ حَدَّثَكَ كَذَبَكَ^(٤)، وَإِنْ ائْتَمَمْتَهُ خَانَكَ، وَإِنْ
 ائْتَمَنَكَ أَتَّهَمَكَ.

ولأبي الأسود:

أَرَيْتُ امْرَأً كُنْتُ لَمْ أَبْلُهُ أَتَانِي، فَقَالَ: اتَّخِذْنِي خَلِيلًا^(٥)
 فَخَالَلتُهُ، ثُمَّ صَافَيْتُهُ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْ لَدُنْهُ فَتِيلًا^(٦)
 فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكَرَ اللَّهِ، إِلَّا قَلِيلًا^(٧)
 أَلَسْتُ حَقِيقًا بِتَوْدِيعِهِ وَأُتْبِعُ ذَلِكَ هَجْرًا جَمِيلًا؟^(٨)

قال عمر بن الخطاب: مِمَّا يُصْفِي لَكَ وَدَّ أَخِيكَ أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ، وَتَوَسَّعَ لَهُ فِي
 الْمَجْلِسِ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْكُنَى إِلَيْهِ^(٩).

قال محمد بن عبد الملك الزيات:

أَقُولُ: إِذَا مَا بَدَأَ طَالِعًا وَقَدْ كَادَ، أَوْ هَمَّ، أَوْ قَدْ وَلَجَ^(١٠)

(١) أَيْنَ أَجِدُ صَاحِبًا مِثْلَ «عُمَرَ»؟ كَلِمَا طَالَتِ الرَّحْلَةُ وَدَبَّ الضِّيقُ إِلَى نَفُوسِ الرِّفْقَاءِ فِيهَا، زَادَ هُوَ طِيًّا وَحُسْنًا وَدَمَانَةً.

(٢) تَوَقَّ: احْذَرُ.

(٣) مَنْ عَلَيْكَ: عَدَلْ لَكَ مَا فَعَلَ مِنَ الصَّنَائِعِ تَكْدِيرًا وَتَغْيِيرًا.

(٤) إِنْ كُنْتُ أَنْتَ الْمُتَحَدِّثُ، رَمَاكَ بِالْكَذْبِ فِي حَدِيثِكَ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُتَحَدِّثُ كَذَبَ فِيمَا يَحْدُثُكَ بِهِ.

(٥) رَأَيْتُ امْرَأً لَمْ أَكُنْ قَدْ اخْتَبَرْتَهُ مِنْ قَبْلِ جَاءَنِي طَالِبًا إِلَيَّ أَنْ أَتَّخِذَهُ صَدِيقًا لِي.

(٦) وَصَادَقْتُهُ، ثُمَّ أَصْفَيْتُ الْمُوَدَّةَ، فَمَا انْتَفَعْتُ مِنْهُ بِشَيْءٍ!

(٧) ثُمَّ وَجَدْتُهُ لَا يَرْضَى مِمَّا اسْتَرْضَيْتُهُ، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ.

(٨) فَهَلْ أَكُونُ -بَعْدَ ذَلِكَ جَمِيعًا- إِلَّا جَدِيرًا بِقَطْعِ الْعِلَاقَةِ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَوْدِيعِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنِّي، ثُمَّ يَهْجُرُهُ بَعْدَ هَذَا هَجْرًا لَا عِدَاوَةَ فِيهِ وَلَا خِصَامًا؟

(٩) الْكُنَى: جَمْعُ كُنْيَةٍ، وَهِيَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الشَّخْصِ لِلتَّعْظِيمِ نَحْوُ أَبِي حَفْصٍ وَأَبِي الْحَسَنِ، أَوْ عَلَامَةٍ عَلَيْهِ.

(١٠) أَقُولُ إِذَا مَا صَاحِبِي ظَهَرَ لِي، أَوْ كَادَ يَظْهَرُ، أَوْ هَمَّ بِالظُّهُورِ، أَوْ دَخَلَ فِعْلًا.

من الناس من ليس -حتى المما ت- منه، ولا من أذاهُ فَرَجَ
ولو كنت تأمنه ليلةً إلى الصبح، لم يرض أو يَدَلِّجُ^(١)
ولو كان ذا من أحب العبا د إليك، لكان بغيضاً سمج
فكيف إذا كان ممن يكا د صدرك من بُغْضِهِ ينفرج؟^(٢)
وقال آخر:

تريك أَعْيُنُهُمْ ما في صدورهمُ إن الصدور يؤدِّي غَشَّها البَصْرُ^(٣)
وقال آخر:

متى تَكُ في صديقٍ أو عدو تُخَبِّرُكَ العيون عن القلوب^(٤)
أنبأنا المبرِّد فيما حدثنا به أبو سعيد السيرافي عن ابن السراج عنه:

كيف العزاء لمن يعزُّ له شرب المدام ولذَّة الخمر^(٥)
وحديث فتیان غطارفة وفوارس كالأنجم الزُّهر^(٦)
إن جئتُهم سُروا، وإن نَزَحْتُ داري، فإن حديثهم ذكري
يا ليتني أحيا بقربهم فإذا فقدتُهم انقضى عمري
فتكونُ داري بين دورهم ويكونُ بين قبورهم قبري
قال حاتم الأصم: أربعة تُذهِبُ الحقد بين الإخوان: المعاونة بالبدن، واللطفُ
باللسان، والمواساة بالمال، والدعاء في الغيب.

(١) إن من الناس مَنْ لا يجوز أن تأمنه مدى الدهر، ولن تسلم من أذاه ما حييت، ولو أنك اتَّمتَّته ليلة واحدة حتى الصباح، فإنه سيخونك قبل أن يزول الليل ويبدأ الناس في السير صباحاً.
(٢) فكيف إذا جمع بين الخيانة وبين أنه ممن يضيق الصدر بهم ويكاد ينشق كراهية لهم؟
(٣) إن أعينهم لتُنَبِّئَكَ بما يعتلج في صدورهم، وإن الغش الذي تمتلئ به القلوب لتُخَبِّرَ عنه أعين أصحابه كأنها لسانٌ ينطق بما في تلك القلوب.
(٤) وإنك إن وُجِدْتَ في أصدقاء، أو وُجِدْتَ في أعداء، فإن أعين مجالسيك ستخبرك مَنْ منهم العدو، ومَنْ منهم الصديق.

(٥) كيف أصبر وأحتمل ذلك الجافي الغليظ الذي لا يُسبِغ الخمر، ولا يعرف لذتها؟

(٦) غطارفة: جمع (غَطْرِيف) وهو السيد. الزُّهر: المتألثة الصَّافية اللون.

كتب سهل بن هارون الكاتب إلى جعفر بن يحيى:

إذا ما أتى يوم يُفَرَّق بيننا نموتُ، فكنْ أنت الذي يتأخَّر
وقال الجمَّاز، فيما حدثنا ابن المرزباني، عن الصُّولي، عن ابن العيَّاء، عنه، يصف
صديقاً: لم أرَ في الناس وفيَّ بعد واحدٍ كان أَصْفَى لي مودته، وبَدَل لي مُهْجَتَه. كان
أطوع لي من كَفِّي، وكنتُ أَذَلَّ له من نَعْلِه. أَتكلَّم بكلامه فينطق بلساني، إن قلتُ خيراً
أَعَانِي، وإن ملتُ إلى سَيِّئٍ رَدَّعَنِي^(١). كان -والله- إذا قال فعل، وإذا حَدَّثَ صَدَقَ،
وإذا أَوْتَمَنَ لم يَخُنْ، ضاحك السِّنِّ، مُسْفِر الوجه^(٢). كان إذا غاب فكأنه شاهدي^(٣)،
وإذا غَبْتُ عنه فكأنه يراني، لا ينطق لسانه بخلاف ما يُضِمُّرُه جَنَانُه^(٤)، لا يدري أينا
أَسْرَ بصاحبه، ولا أينا أَصْدَق مودةً بخليطه^(٥)، أَنَسُ ما كنا إذا اجتمعنا، وأَوْحَشُ ما كنا
إذا افترقنا.

ما تفرَّقنا -طول صُحْبَتنا- إلا يوماً حَسْبُنَاهُ حَوْلًا^(٦)، أَغْبَطُ^(٧) ما كنا إذ رمى الدهر
فلم يُشَقْ إذ رمى^(٨)، من كان روحه رُوحِي، ونفسه أَعَزَّ عَلَيَّ من نفسي. فليته أَصابني
وأخطأه، وإذا لم يُخْطِئْهُ أَصابني معه؛ فيكون موتنا معاً، كما كان عِشْنَا معاً. مات فمات
الوفاء بعده، خاب الرجاء فما أَلَذُّ بَعْدَه^(٩) طعاماً، ولا أَسِيغُ شَرَاباً^(١٠)؛ غَمًّا له، واكتئاباً
عليه، وشوقاً إليه.

(١) رَدَّعَنِي: كَفَّنِي، وَرَدَّنِي.

(٢) مُسْفِر الوجه: مُضِيءُ الوجه، مُشْرِقُهُ.

(٣) شاهدي: حاضر معي.

(٤) جَنَانُه: قلبه.

(٥) الخليط: المُخَالِط، والشريك.

(٦) حَوْلًا: سَنَةً؛ لأنها تَحُولُ أَي تَمُضِي.

(٧) أَغْبَطُ ما كنا: أَكْثَرُ غَيْطَةٍ، والغَيْطَةُ هي أن تتمنى مثل نعمة المغبوط من غير أن تتمنى زوالها عنه.

(٨) أي لم تكن رَمِيَّتُهُ شاقَّةً شديدةً سَيِّئَةً العواقب.

(٩) ما أَلَذُّ بَعْدَه طعاماً: لا أَجْدُ الطعام بعده لَذِيذاً شَهِيًّا.

(١٠) ولا أَسِيغُ شَرَاباً: لا أَجْدُ الشراب بعده هَنِيئاً ولا سَهْلاً ولا سَلِسَ المدخل.

فلو كنتُ أقول الشعر لرثيته آخر الدهر، ولأتعبتُ بالقوافي الكاتبين. فبليتُ بعده بمن إذا أحببته أبغضني، وإن وددته عاداني، وإن أقبلتُ نحوه ولّى عني. فهو كالذئب والغراب: ما للذئب يناله الغراب، وما للغراب فالذئب لا يطمع فيه. حسبك به غادرًا أن تراه عن الوفاء مُبْطَأً، وإلى الخيانة مُهْمَلِجًا^(١).

قال «أرسطوطاليس» في رسالة أفادناها أبو سليمان: تعهّد الإخوان بإحياء الملاطفة^(٢)؛ فإن التارك متروك، ثم تعهّد إخوان الإخوان؛ فإن إخوان الإخوان من الإخوان، وهم بمنزلة العلم المستدلّ على الوفاء، ثم تعهّد أهل المكاشرة المتشبهين بالإخوان، بالصبر عليهم، إمّا طمعًا في تحويل ذلك منهم صدقًا^(٣)، وإما اتقاء كلمة فاجر وقعت في سمع مائق ذي دولة^(٤).

وذكر أعرابي مودة رجل، فقال: مودة رثة العقال^(٥)، وسَمَاءٌ قليلة البلال^(٦)، وأرض دائمة الإمحال^(٧).

هو اليد الحذاء^(٨)، والأزمة الحصداء^(٩)، أبعدُ مقاله قريب، وأقربُ فعالة بعيد، يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول^(١٠).

قال شاعر:

- (١) مُهْمَلِجًا: هَمَلَجَ الرجل: مشى مشيةً سهلةً في سرعة.
- (٢) أي أرع الإخوان واحفظ ودادهم بأن تلاحظهم حينًا بعد حين، وتبرّ بهم، وتكون رفيقًا في معاملتهم.
- (٣) إمّا لطمعك في تحويلهم وتغيير طباعهم تغييرًا قاطعًا صادقًا.
- (٤) وإمّا لأنك تخشى أن يتحدّث عنك فاجرٌ فاسقٌ كاذب، فيقع حديثه في أذن أحقّ غبيّ صاحب مُلكٍ وحُكْمٍ، فيضرك هذا الحديث.
- (٥) أي: صداقة بالية الجبال، والمقصود أنها صداقة واهية ضعيفة لا جدوى منها ولا نفع فيها.
- (٦) سماء قليلة البلال: سماءٌ لا تجود بالأمطار إلا قليلًا.
- (٧) أرض دائمة الإمحال: دائمة الإجداب.
- (٨) اليد الحذاء: المقطوعة.
- (٩) الأزمة الحصداء: التي تجفّ فيها الثمار وهي قائمة قبل أن تحصد.
- (١٠) أي إنه غير صادق في كل ما يقول.

أَتَنَاسَيْتَ؟ أَمْ نَسَيْتَ إِخَائِي؟ وَالتَّنَاسِي شَرٌّ مِنَ النِّسْيَانِ^(١)
وقال عبد الصمد بن المُعَدَّل:

هي النفس تَجْزِي الودَّ بالودِّ مثلهُ وإن سُمَّتْهَا الهَجْرَانُ، فالهَجْرُ دِينُهَا
إذا ما قَرِينٌ بَتَّ مِنْهَا حِبَالَهُ فَأَهْوُونُ مَفْقُودِ عَلَيْهَا، قَرِينُهَا
لبَسَ مُعَارَ الودِّ مَنْ لَا يُوَدُّهُ ومستودع الأسرار مَنْ لَا يَصُونُهَا^(٢)
لما تَبَاعَدَ بَيْنَ «يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ»، وَ «عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى بْنِ مَاهَانَ»، وَجَّهَ «عَلِيٌّ» «أَبَا نُوْحَ»؛ لِيَتَعَرَّفَ مَا فِي نَفْسِ «يَحْيَى»، فَكُتِبَ «يَحْيَى» عَلَى يَدِ «أَبِي نُوْحٍ»:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ، كُنْ عَلَى يَقِينٍ أَنِّي بَكَ ضَنِينٌ، وَعَلَى التَّمَسُّكِ بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ
حَرِيصٌ، أُرِيدُكَ مَا أُرَدَّتَنِي، وَأُرِيدُكَ أَنْ تَنُوبَ عَنِّي. مَا كَانَ ذَلِكَ بِي وَبِكَ جَمِيلًا. فَإِنْ
جَاءَتِ الْمَقَادِيرُ بِخِلَافِ مَا أَحَبُّ مِنْ ذَلِكَ لَمْ أَعُدْ مَا يُحَمَّدُ، وَلَمْ أَتَجَاوِزْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا
يُكْرَهُ^(٣)، هَاجَنِي عَلَى الْكِتَابِ إِلَيْكَ مَسْأَلَةُ «أَبِي نُوْحٍ» إِيَّايَ، وَإِعْلَامُكَ رَأْيِي وَهَوَايَ،
فَمَا تَبَدَّلْتُ وَلَا حُلْتُ، فَجَمَعَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْشُدُ:

لِكُلِّ أَدِيبٍ - تَرَى - هَيْئَةً وَهَذِي تَدُلُّ عَلَى هِمَّتِهِ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ فَتَى مَاجِدٍ يُدَارِي الْأُمُورَ عَلَى فِطْنَتِهِ
يُجَازِي الصَّدِيقَ بِإِحْسَانِهِ وَيُزْجِي الْعَدُوَّ إِلَى غَفْلَتِهِ^(٤)

(١) هل نَسَيْتَ مودتي حقاً؟ أم إنك تدعي ذلك؟ فإن كان ادعاءً فذلك شرٌّ عندي من أن يكون حقيقةً.

(٢) بئس رجلاً من تمنحه وذاك فلا يصونه ولا يحفظه، وبئس رجلاً من تستودعه أسراركَ ليحفظها ويصونها، فيبذلها للناس وينشرها بينهم.

(٣) إن جَرَّتِ الْأَقْدَارُ عَلَى الْعَكْسِ مِمَّا أَرُغِبُ، فَلَنْ يُؤَدِّيَ ذَلِكَ بِي إِلَى تَجَاوُزِ مَا تَقْضِي بِهِ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، وَإِلَى إِتْيَانِ أَعْمَالٍ كَرِيهَةٍ مَذْمُومَةٍ.

(٤) يجزي إحسان الصديق بإحسان مثله، أما العدو فإنه يُؤْخَرُهُ إِلَى غَفْلَةٍ فَيَأْخُذُهُ عَلَى غَرَّةٍ لِيَتِمَكَّنَ مِنْهُ.

ويلبس للدهر ثَبَّانَهُ ويخضع للقِرْد في دولته^(١)
بلوت الرجال وجربَّتْهم فكلُّ يدور على لذته

قال سفيان بن عيينة: صحبت الناس خمسين سنة، ما ستر لي أحد عورة، ولا ردّ عني عيبة، ولا عفا لي عن مظلمة، ولا قطعته فوصلني. وأخصّ إخواني لو خالفته في رمانة، فقلت: هي حامضة، وقال: هي حلوة، لسعى بي حتى يشيط بدمي^(٢).

وقال أعرابي في صاحب: فلان أفصح خلق الله كلامًا إذا حدّث، وأحسنهم استماعًا إذا حدّث، وأكفّهم عن الملاحاة إذا خولف^(٣)، يعطي صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة^(٤)، له نفس عن العوراء محصورة^(٥)، وعلى المعالي مقصورة^(٦)، كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان^(٧)، والشمس التي لا تخفى بكل مكان. هو النجم المضيء للجيران، والبارد العذب للعطشان.

كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي يدعوهُ إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن بُعدت الدار من الدار، فإن الروح مع الروح قريب. وطائر السماء على إلفه من الأرض يقع^(٨).

قال مَعْبَد بن مُسلم:

جزى الله الموالِي عن أخِيهم وكلُّ صحابةٍ لَهُمُ جزاءٌ

(١) الثَبَّانُ: سراويل صغيرة تكون للملاحين والمصارعين (فارسيّ معرّب).

(٢) حتى يَشِيْطَ دمي: حتى يحترق دمي.

(٣) أكفّهم عن الملاحاة: أكثرهم امتناعاً عن المشاتمة.

(٤) إنه رجل يمنح صديقه النافلة التي لا تجب عليه، ولا يطلب منه أن يؤدّي إليه الفريضة الواجبة.

(٥) له نفس لا تفعل القبيح من الأفعال، ولسان لا يتكلّم الساقط من الأقوال.

(٦) إن نفسه ولسانه مقصوران على الفضائل والمكارم ومعالي الأمور.

(٧) كأنه الذهب الخالص الذي يكون غالباً نفيساً عزيزاً في كل زمان.

(٨) إن الطائر السابح في السماء يقع على أليفه -دون غيره- إذا وقع على الأرض.

بما فعلوه، إِنَّ خَيْرًا فخيرًا وإن شَرًّا كما أمثل الحذاء^(١)
 فما أنصفتم، والنَّصْفُ يَرْضَى به الإسلام، والرحمُ البَوَاءُ^(٢)
 لزدنهم النصيحة من لدني فمَجُّوا النَّصَحَ، ثم ثنوا فَقَاؤًا^(٣)
 وقلت: فِدَى لكم عَمِّي وخالي فما قُبِلَ التَّوَدُّدَ والفداء
 فكيف بهم، وإن أحسنت، قالوا أَسأت، وإن غفرتُ لهم أَساؤًا؟
 قال المرزباني: حدثنا القراطيسي قال: أنبأنا أبو العيناء قال: أنشدنا السُّدري:

وإني لأهوى ثم لا أتبع الهوى وأكرمُ خلاني عليَّ صَدُودُ^(٤)
 وفي الناس عن بعض التضرعِ غِلْظَةٌ وفي العين عن بعض البكاء جُمُودُ^(٥)
 قال أبو العيناء: قلت لأعرابي: كيف أنت؟

قال: كما يسرك إن كنتَ صديقًا، وكما يسوؤك إن كنتَ عدوًّا.
 وكتب ابن ثوبة إلى صديق له: ما انفككتُ عن ودِّك، ولا انفركتُ عن عهدك^(٦).
 وقال شاعر:

إذا كثر التجني من خليلٍ بلا ذنب، فقد ملَّ الخليلُ^(٧)
 كتب الحسن بن وهب إلى صديق له يُعَلِّمُهُ صابته إليه، ووحشته لفراقه، فقال:

-
- (١) جزى الله الإخوان وكافأهم بمثل ما يفعلون، خيرًا كان أو شرًّا، كما يتمثل ويتشابه الحذاء.
 (٢) إنكم لم تنصفونا وتعدلوا معنا، والإنصاف والعدل يرضى بهما الله سبحانه وتعالى وترضى بهما صلة الأرحام، وهي صلة المساواة والأنداد والأكفاء.
 (٣) لقد جعلت لهم النصيحة مرعى يرتادونه، ولكنهم رموها وألقوها، ثم قاؤوها من أفواههم.
 (٤) إني أُحِبُّ، ثم لا أَتَّبِعُ حبي وهواي في كل ما يأمراني به، وإن أكرم أصدقائي وأقربهم إلى نفسي، صَدُودٌ عَنِّي، كثير الهجران لي.
 (٥) إن في بعض الناس - وأنا منهم - لَغِلْظَةٌ واستكبارًا وترفعًا عن الذلِّ والتضرع، وإن في بعض الأعين - ومنهم عيناوي - لجُمُودًا عن البكاء وضنًا بالدموع.
 (٦) إني ما تركت مودتك لحظة، وما انقرعت عن عهدك وعن الوفاء لك يومًا، كما ينقرع القشر عن اللب، بل إني ثابت على مودتك، باقٍ على عهدك.
 (٧) إذا كثر تجنيك على خليلك وأدعاؤك الذنوب عليه، فإنه - يومًا - سَيَمْلِكُ ويهجر.

وقد قَسَمَك الله بين طرفي وقلبي؛ ففي مشهدك أنس قلبي وفي عينيك لهو طرفي.

فأجابه الصديق: وقفتُ على الفضل الذي أخبرت فيه بما أخبرت، فسيان عليك رأيَتي أم لم تَرِنِي، إذا كان بعضك يُؤنس بعضًا فتسلو عني، ولكني أراك فيخشع قلبي، وأغيب عنك فتدمع عيني، فسيان بين من سَلَ^(١) أبده^(٢)، ومن حَزَنَ أَمده^(٣).

فكتب إليه الحسن: يا خانقًا عليَّ الجرة^(٤)، ثم تمثل:

أَعْلَمَه الرمايةَ كُلَّ يومٍ فلما اشتد ساعده رَمَانِي

هكذا أنشدنا «علي بن عيسى الرَّمَّانِي» بالشين، وردَّ السنين.

قال يونس النحوي: لا تعادِين أحدًا وإن ظننت أنه لا يضرُّك ولا تَزْهَدَنَّ في صداقة أحدٍ وإن ظننت أنه لا ينفعك، فإنك لا تدري متى تخاف عدوك وترجو صديقك. ولا يعتذر أحد إليك إلا قبلت عذره. وإن عَلِمْتَ أنه كاذب. وَلَيْقَلَّ عَثْبُ الناس على لسانك. وقال جعفر بن يحيى لصديق له: أنت من جوارحي يميني^(٥)، ومن سوانحي تقيني^(٦).

وذكر أعرابي قومًا فسد ما بينهم بعد صلاح ومودة: والله ما زالت عيون العداوة تنجم من صدورهم فتمجَّها أفواههم^(٧)، وأسباب المودة تخلق في قلوبهم وتخرس عنها ألسنتهم^(٨)، حتى لا تجد للشر مزيدًا، ولا للخير مُريدًا.

(١) سَلَ: سَلَ الشيءَ: نَسِيَهُ، وطابت نفسه عنه، وذهل عن ذكره وهجره.

(٢) أبده: أي طول دهره.

(٣) أَمده: غاية ومُنْتَهَى عمره.

(٤) الجرة: إناء من خزف له بطن كبير وعروتان وفم واسع.

يا مائلًا عليَّ الجرة، أي يا من أفضت واستوفيت القول، فلم تدع فيه ثغرة، أو ثلثة.

(٥) لو كنت عضوًا من أعضاء جسمي لكنت يدي اليمنى، وهي - كما تعلم - أهم أعضائي.

(٦) وأنت من شوارد آرائي وأفكاري تحفظني وتعصمني وتسدني.

(٧) إن العداوة تنشأ - أول ما تنشأ - في قلوبهم، ثم تلفظها ألسنتهم وتنطق بها.

(٨) أما أسباب المودة فإنها تنشأ وتخلق في قلوبهم، ثم تخرس وتسكت عنها ألسنتهم.

وقال أعرابي: خير الجلساء مَنْ إذا عَجَبْتُهُ عَجِبَ^(١)، وإذا فَكَّهْتُهُ طَرَبَ^(٢)، وإذا أَمْسَكْتَ تَحَدَّثَ، وإذا فَكَّرْتَ لَمْ يَلْمُكَ.

قال شاعر:

وَحِلَّ كُنْتُ عَيْنَ النَّصْحِ مِنْهُ إِذَا نَظَرُوا، وَمَسْتَمِعًا سَمِيْعًا
أَطَافَ بَعِيَّةٍ، فَهَيْتَ عَنْهَا وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْرًا شَنِيعًا^(٣)
أَرَدْتُ رَشَادَهُ جَهْدِي، فَلَمَّا أَبِي، وَعَصَى، أَبِينَاهُ جَمِيْعًا^(٤)

كتب بعض الهاشميين إلى يحيى بن خالد: علمي بمودتك يمنعني من استحاثك، ووصلة إخواني تشكو إليك تقصيري، وأملني فيك يُصبرني على تأنيك.

قال شاعر:

إِنِّي لِأَلْبَسَكُمْ عَلَى عِلَاتِكُمْ لُبَسَ الشَّفِيقِ عَلَى الْعَتِيقِ الْمُخْلَقِ^(٥)
وَلَقَدْ أَرَى مَا لَوْ أَشَاءَ عَبَّيْتُهُ وَأَصْدَدُّ عَنْهُ بَرْقَةً وَتَرْفُقَ
لِيرَى الْعَدُوَّ قَنَاتِنَا لَمْ تَنْصَدُغْ وَيَكُونُ ذَاكَ كَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقِ^(٦)
وَإِذَا تَبَعْتَ الذَّنُوبَ، فَلَمْ تَدْعُ ذَنْبًا، قَطَعْتَ قَوَى الْقَرِينِ الْمَشْفِقِ
وَسَمِعْتَ، أَوْ نُقِلْتَ إِلَيْكَ مَقَالَةً عَوْرَاءَ نُطَقَّتْهَا صَمُوتُ الْمُنْطَقِ^(٧)

(١) خير من تجالسه من أصدقائك الذي يوافقك في آرائك، فإذا التمتست إعجابه من شيء، عجب منه كما عجب.

(٢) وإذا أردت تفكهته من شيء تفكه وطرب منه.

(٣) مال ودار حول الضلال والانحراف، فزجرته ونهيته، وقلت له: إن ذلك أمر فظيع.

(٤) لقد أردت أن أرشده، وأن أهديه سواء السبيل. فلما وجدته قد رفض النصح وعصى الإرشاد والهداية، رفضناه كله، وقطعنا حبل مودتنا به.

(٥) إني لأصاحبكم على ما بكم من نقص ومن معاييب، كما يلبس الإنسان الشفيق الرحيم الثياب العتيقة القديمة البالية.

(٦) حتى يعلم أعداؤنا أن مودتنا باقية ثابتة، وكأنما لم يخلق الله فيهم شيئاً من العيوب.

(٧) وإذا أنت لم تغض عن العيوب، ولم تتجاهلها، أسمعك المغرضون ونقلوا إليك كلاماً سيئاً مفسداً للمودة.

وقال ابن عائشة: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلوب صدأ الذنوب^(١)، ومجالسة أهل المروءات تدلّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكي النفس^(٢).

وقال شاعر:

إن الكريم أخو الكريم، وإنما يصل اللئيم حباله بلئام
كتب إبراهيم بن العباس الصُّولي إلى صديق له: أنصف الله شوقي إليك من
جفائك، وأخذ لبري من تقصيرك، ولا سلّط الدهر عليّ حسن ظني بك، كما سلّطه
على لطيف محلي منك^(٣).

وقيل لديوجانس اليوناني: لِمَ لا يشتدُّ فرحك بأخيك في حياته كشدة حزنك عليه
بعد وفاته؟

قال:

لأنني كنت أعلم في حياته أنه يموت، والآن أعلم أنه لا يعيش.

قال شاعر:

أصافي المرء بالفني، فنجري جميعاً باختلافٍ واتفاق^(٤)
وعهد الود محفوظ إذا ما أُمنا في الوداد من النفاق^(٥)
وأقطع كلّ ذي برٍّ ووصولٍ إذا مزج الخليقة باختلاق^(٦)

(١) مجالسة الرجال الذين يتمسكون بدينهم تمحو الذنوب التي كأنها صدأ فوق القلوب.

(٢) ومجالسة العلماء تطهر النفوس من أدرانها.

(٣) محلي منك: موقعي ومنزلي عندك.

(٤) إنني أضفي مودتي وأخلصها لمن يالفني ويودني من الناس، فنجري ونمضي معاً في كل الأمور، سواء اتفقت آراؤنا أو اختلفت فيها.

(٥) إن لم تختلط المودة بالنفاق والرياء، فإنها تبقى وتدوم.

(٦) إنني أقطع مودة الصديق البار الدائم الصلة إذا عهدت فيها نفاقاً وادعاءً لأخلاقٍ ليست فيه، ومزجاً لطبيعته التي خلقه الله عليها بصنعة مقتعلة كاذبة.

وكم من مُعْقِبٍ حَسَنٍ اجْتَمَعَ لِتَنْوِيهِ بَسْرٍ الْاِفْتِرَاقِ^(١)
وقال شاعر جاهلي:

لي ابن عمّ لو أن المزن طاع له ما نالني منه ما يُروى به الشعر^(٢)
إذا رأيني أبدى لي مكالمةً وتحتها لهب الأحقاد يستعر^(٣)
فلو دُبِحنا على صراءٍ صردحةٍ تزايل الدّم منّا حين ينهمر^(٤)
إذا رأيني خالَ الشمس طالعةً من نحو وجهي إليه حين يتندر^(٥)
لا يحملني على حذاءٍ جائحةٍ مهلاً أبا الجهل، لا يطمح بك الأشر^(٦)
إني ومن وَخَدَتْ تَدَمَى مناسمها إليه ينكبها الحزان والطّر^(٧)
لولا وشائج أرحامٍ مؤكدةٍ لقد تبينّت ما آتي وما أذر^(٨)
وقال آخر:

ومكاشرٍ ما زال يَمْدُقُ لي ودّاً، وأمحضه الهوى محضاً^(٩)
يرضى، ويُسخطني، وأحسبه أني متى أرضيته، يرضى
جعل النيمة شيمةً خلُقاً فرفضته عن ساحتي رفضاً

(١) كم من صديق يخالطك مخالطة حسنة في ظاهرها، ثم إذا به يفترق عنك لغير سبب سوى نفاقه وخبث ضميره.

(٢) لي ابن عمّ لو أنه امتلك السحاب وما فيه من ماء، ووجدني ظمآن إلى قطرة منه ما أعطانيها.

(٣) إن لقيني أظهر لي السرور بلقائي، ولكنه يخفي وراء ما يبيده أحقاداً مُستعرة ملتته كالنيران.

(٤) لو أننا دُمجنا فوق أرض مستوية صماء صلبة ملساء، لتفرّق دُمنا هنا وهناك حين انهماره وتدفعه.

(٥) إذا رأيني حول بصره عني، كأن الشمس مشرقة وهاجة من ناحية وجهي تمنعه من توجيه بصره إليّ.

(٦) حذاء: نَعش. جائحة: مهلكة.

إنه يأمل أن يهلكني ويحملني في نعش إلى القبر، ولكني أقول له: مهلاً - يا أبا الجهل - فإنك لن يتحقّق لك ذلك، فخفّف من أشرّك وبطرك وخيلاتك.

(٧) إني وحقّ هذه الإبل التي أسرعَت حتى دَمِيت أخفافها في سيرها إليه، يسوقها ويطرحها هنا وهناك حَدٍ بُعْيٍ لها ويرقق صوته فيطربها، وسائق يدفعها إلى السير دفعاً شديداً.

(٨) لولا ما يربطني به من صلات قوية متينة، لكنتُ آتي معه من الأفعال ما أشاء، وأترك ما أريد دون مبالاة به.

(٩) ومُضاحك لي يخلط في ودّه ولا يجعله صافياً، وأبذل له ودّي خالصاً نقياً.

وتزايدت عندي مثالبُهُ حتى لأشبهَ بعضُهُ بعضًا^(١)
فهجرتُهُ، وتركتُ صُحبته إن النمائم تورث البغضا
وقال آخر:

هوّن عليك فما أرتضي قُطُّ الصديق على المباحث^(٢)
وقال كعب الأبحار لرجل أراد سفرًا: إن لكل رُفقة كلبًا، فلا تكن كلب أصحابك.
وقال علي بن عبيدة: لا حياءَ لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ولا إخاء
لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه حتى يحبوا ما يحب، ويكرهوا ما يكره، وحتى لا يرى
منهم خللاً ولا زللاً^(٣).

وقال يحيى بن معاذ: من لم يَزْرُكْ، ولم يؤاسِكَ، ولم يُتَحَفَكْ، فهو من إخوان
الطريق^(٤).

حدثنا «العسجدي» قال: جاء رجل إلى أبي إسحق الكسائي ليلاً، فقال:
ما جاء بك؟

قال: ركبني دين.

قال: كم هو؟

قال: أربعمائة درهم.

فأخرج كيساً فأعطاه، فلما رجع عنه بكى، فقال له أهله: ما يُكيك؟

(١) لقد تزايدت عيوبه، وكثرت نقائصه، حتى صارت جميع أعماله متشابهة لأنها -جميعاً- عيوب ونقائص.

(٢) خَفَّفَ عنك هذا العناء؛ فإني لا أرضى بالصديق الذي يظل يبحث ورائي ويتجسس عليّ.

(٣) لا يمكن أن يتم إخاء لإنسان يريد أن يكون إخوانه جميعاً على شاكلته تماماً في كل ما يأتون وما يدعون، فيحبّون ما يحب، ويكرهون ما يكره؛ فإن الناس -بفطرتهم التي فطرهم الله عليها- متباينون متغاIRON، ومن أرادهم على غير ذلك، فإنما يطلب مستحيلاً.

(٤) إن أخاك الذي لا يهتم بزيارتك، ولا يُعِينُكَ في النائبات، ولا يُهدي إليك هدية... إن هذا الأخ من إخوان الطريق الذين يؤاخونك مصادفة ولا تثبت لهم مودة.

قال: بُكاي أني لم أبحث عن حاله، وألجأته إلى الذل^(١).

قال ابن السماك الواعظ: الحسد أَلَمُّ الطباع، فمن ثمَّ^(٢) وُكِّلَ^(٣) بالأقرب فالأقرب. واعلم أن العدو يعود بالملاطفة صديقاً، والظالم بالإنصاف محسناً، والعاتب بالعتبي^(٤) حبيباً.

والحاسد بمنزلة البغل الشموس^(٥)، يُطيعك في تناول مراده، ويكلفك أرضاً بعيدة الطلب، ويؤذنيه منك سوء الطمع، ويُبعده عنك سوء الطبع.

وقال «أبو زافر» يعاتب أخاه «نوحاً»:

وجرَّبْتُ من «نوح» أموراً كثيرةً وطَيَّبْتُ من نفسي، وما كدت أفعلُ^(٦)
فلما أبى إلا اغوجاجاً، تركته وبعض انتهاء النفس أبقى وأوصلُ
فأيُّ أخ «يا نوح» يوماً علمتني إذا كان أمرُ يوبسُ الرقيق مُعْضِلُ^(٧)
وقال أيضاً:

إذا ما قلتُ «نوح» مستقيماً أبَت أخلاقه إلا اغوجاجاً
فأيُّ أخ علمت أخاك يوماً إذا ما اللدُّ أكثر الضجاجاً؟^(٨)

(١) قريب من ذلك قول الشاعر:

مَنْ جَادَ مِنْ بَعْدِ السَّوَالِ فَإِنَّهُ - وهو الكريم - يُعَدُّ فِي الْبُخَالِ

(٢) تَمَّ: اسمٌ يُشار به إلى المكان البعيد.

(٣) وُكِّلَ: سُلِّمَ، وَتُرِكَ.

(٤) الْعُتْبَى: الرَّضَى.

(٥) البغل الشموس: الذي يمتنع ويأبى، ولا يُمكنُ أحداً من ظهره، ولا من الإسراع والإلجام.

(٦) لقد جرَّبْتُ من «نوح» أخلاقاً وأعمالاً متباينة، وعالجْتُ نفسي لتُختمل ما يفعل، ولتكون معه طيبة كريمة سَمُحَةً.

(٧) فكيف رأيته يا «نوح»؟ وأيُّ أخ أكون يوم تقع الشدة؟ ويوم تُحلُّ المشكلة المُستغلقة التي لا يُهتدى لوجهها؟

(٨) وأيُّ أخ عَلِمْتَنِي وعَرَفْتَنِي يا «نوح» يوم تكثر الصيحات والفرع من خصومك وأعدائك اللدِّاء الذين يشتطون في خصومتك؟

فَأَنْتَ مُخِيلَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا فَلَمَّا أَمْطَرْتَ، كَانَتْ عَجَاجًا^(١)

وقال آخر:

رُبَّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَدْعُو لَهُ أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا تَمَامًا لِدَيْهِ^(٢)
حَتَّى إِذَا صَارَ إِلَى حَاجَتِي حَقًّا، وَصَارَتْ حَاجَتِي فِي يَدَيْهِ^(٣)
حَالَ عَنِ الْوَدِّ، وَعَنِ عَهْدِنَا وَأَظْهَرَ الشُّحَّ عَلَى دَرَاهِمِيهِ^(٤)
فَمَا مَضَى بَعْدَ دَعَائِي لَهُ يَوْمَانِ، حَتَّى صَرْتُ أَدْعُو عَلَيْهِ!^(٥)
وقال آخر:

خُذْ لِقَلْبِي مِنَ التَّجَنِّي أَمَانًا وَاكْفِنِي أَنْ أَذُمَّ فِيكَ الزَّمَانَا^(٦)
أَنْتَ صَيَّرْتَ فِي فُؤَادِي مَكَانًا لَكَ، فَاحْفَظْ بِالْوَدِّ ذَاكَ الْمَكَانَا
كُنْ لَوَدِّي عَلَى إِخَائِكَ عَوْنًا مِنْ زَمَانٍ يُغَيِّرُ الْإِخْوَانَا^(٧)
قيل ليحيى بن خالد: أي شيء أقل؟

قال: قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدُّون^(٨)، وصديق قليل الآفات، كثيرُ
الامتناع، يُضَبُّ مواضع المدح^(٩).

وقال أخو ثقيف: مودة الأخ التالد - وإن أخلق - خير من مودة الطارف - وإن

(١) إنك سحابة من تلك السحب التي نحسبها ماطرة، فإذا بها دخان أو غبار لا نفع فيه!

(٢) لي صديق دعوت الله أن يجمع خير الدنيا كلها في يديه.

(٣) فاستجاب الله لدعائي وجمع له الخير كله، وصارت لي حاجة عنده.

(٤) فلما أصبح في تلك الحال، تغير وتحول عن وده، وخان العهد، وبخل بالدرهمين!

(٥) فلم يمض يومان بعد دعائي له، وبعد أن عرفت خيائنه وتحول له، حتى صرت أدعو عليه!

(٦) أعط قلبى الأمان والضمان من ادعائك الذنوب عليّ ظلماً وعدواناً؛ فإنك بهذا تغنيني وترحيني من أن أذمك، وأن أذم الزمان من أجلك.

(٧) وكُنْ مُعِينًا لِمُودَتِي لَكَ عَلَى أُخْوَتِكَ؛ فَإِنَّ الْمُودَةَ تُدِيمُ الْإِخَاءَ وَتُبْقِيهِ، وَلَا تَكُنْ مِثْلَ هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي يُغَيِّرُ الْإِخْوَانَ وَيُحَوِّلُ صَدَاقَتَهُمْ.

(٨) العيش الدُّون: الخسيس.

(٩) يُضَبُّ مواضع المدح: يُسَكَّتْهَا.

ظهرت بشاشته، وراعتك جدته^(١).

وقال شاعر:

لعمرك، ما مأل الرجال ذخيرةً ولكن إخوان الثقات ذخائر^(٢)

وقال آخر:

وكنْتُ جليس «قَعْقَاعِ بْنِ شُورٍ» ولا يشقى بقعقاع جليس
ضحك السن، أمار بعزفٍ وعند النكر مطراق عبوس^(٣)

وقال بشار:

فدع التبث عن أخيك؛ فإنه كسبيكة الذهب الذي لا يكلف^(٤)

وقال آخر:

إن القوم عَطُونِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ وإن بحثوا عني، ففيهم مباحث^(٥)
وإن نبثوا بئري، نبث بئارهم وأخرجت ما تخفيه تلك النبائث^(٦)

قال أبو العتاهية:

يَدُلُّ عَلَى الْإِنْسَانِ ظَاهِرُ فِعْلِهِ ولا علم لي بالباطن المتغيَّب

وقال آخر:

بلغت من السنين مدى طويلاً ولم تعرف عدوك من صديقك

(١) راعتك جدته: أعجبتك حدائته ونضارته.

(٢) الثقات: جمع ثقة، وهو الذي يوثق به.

(٣) إنه ضاحك السن مبتسم دائماً، يأمر بالمعروف. أما عند الأمر الشديد القبيح فهو كالح الوجه، مُقَطَّبُ الجبين، كثير الإطراق والسكوت والتفكير.

(٤) أترك التجسس على أخيك والبحث عن معايبه، فهو كالذهب الذي لا يصدأ ولا يتغير أبداً.

(٥) إن سكت القوم عني وستروا عيوبي، سكت عنهم وسترت عيوبهم، وإن بحثوا عني وتجنسوا عليّ، فإن فيهم مجالاً للبحث والتجنس، وسأفعل بهم مثل ما يفعلون بي.

(٦) نبث البئر: نبشها وأخرج ترابها فهو نبث ومنبوث، ونبث عن الأمر والسر: بحث عنه وهو مستعار من نبث البئر. والنبيشة: تراب البئر والنهر أو ما حولها من التراب، والجمع نبائث.

فَسِرْتُ عَلَى الْغُرُورِ، وَلَسْتُ تَدْرِي شَرَابٌ أَمْ سَرَابٌ فِي طَرِيقِكَ^(١)
وَأُنْشِدُ ابْنَ حَبِيبٍ:

أَيُّهَا الْفَارِغُ الْمُرِيدُ لَغَيْبِ النَّاسِ، مَهْلًا عَنِ الْمَغِيَةِ، مَهْلًا^(٢)
إِنَّ فِي نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ — كَ عَنْ النَّاسِ — لَوْ تَفَكَّرْتَ — شُغْلًا^(٣)
عَجَبًا مِنْكَ، فِي ثَنَائِكَ لِحَمِي فَإِذَا مَا رَأَيْتَنِي قُلْتَ: أَهْلًا!^(٤)
إِنْ ذَا الْفَضْلَ وَالْمَرْوَةَ لَا يَقْدِرُ قَوْلًا يَخَالِفُ الْقَوْلَ فِعْلًا
قَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: مَنْ وَجَدَ دُونَ أَخِيهِ سِرًّا، فَلَا يَكْشِفُهُ.
وَقَالَ: اصْحَبِ النَّاسَ بِمَا شِئْتَ، يَصْحَبُوكَ بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ: الْإِخْوَانُ إِخْوَانُ الثِّقَةِ، وَإِخْوَانُ الْمَكَاشِرَةِ. فَإِخْوَانُ الثِّقَةِ أَهْلُ بَسْطِ الْكَفِّ^(٥)
وَلِينَ الْجَنَاحِ^(٦)، وَهُمْ أَقْلُ فِي النَّاسِ مِنَ الْكِبْرِيَةِ الْأَحْمَرِ^(٧). وَإِخْوَانُ الْمَكَاشِرَةِ ابْذِلْ
لَهُمْ حُلَاوَةَ الْمَنْطِقِ وَطَلَاقَةَ الْوَجْهِ. وَإِذَا كُنْتَ مِنْ أَخِيكَ عَلَى ثِقَةٍ فَابْذِلْ لَهُ نَفْسَكَ
وَمَالَكَ، وَصَافٍ مِنْ صَافَاهُ، وَعَادٍ مِنْ عَادَاهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ حَمَّادٍ: قَالَ الْحَسَنُ: مِثْلُ الصَّاحِبِ مِثْلُ الرِّقْعَةِ فِي الْقَمِيصِ، فَلْيَنْظُرْ

-
- (١) لَقَدْ سَرْتُ عَلَى غُرُورِكَ وَغَفَلْتُكَ حَتَّى غَابَ عَنْكَ الصَّوَابُ، وَصِرْتُ لَا تَدْرِي إِنْ كَانَ أَمَامَكَ سَرَابًا لَهُ حَقِيقَةٌ، أَمْ سَرَابًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ.
- (٢) أَيُّهَا الْفَارِغُ الْخَالِي مِنَ الْمَشَاغِلِ وَمِنَ الْأَعْمَالِ، الَّذِي لَا يَفْكُرُ إِلَّا فِي اغْتِيَابِ النَّاسِ وَتَتَبُعِ مَسَاوِيهِمْ، وَعَدَّ نِقَائِهِمْ... مَهْلًا فِي هَذَا الْاِغْتِيَابِ وَأَنَاةً فِيهِ.
- (٣) إِنْ فِي نَفْسِكَ، وَفِي أَحْوَالِكَ، وَفِي أَعْمَالِكَ.. إِنْ فِي هَذِهِ كُلِّهَا — لَوْ أَنَّكَ تَدَبَّرْتَ وَفَكَّرْتَ — لَمَشْغَلَةٌ عَنِ النَّاسِ وَعَنِ اغْتِيَابِهِمْ الَّذِي لَا نَفْعَ لَكَ مِنْ وَرَائِهِ.
- (٤) إِنِّي أَعْجِبُ لِمَوْفَقِكَ مِنِّي؛ أَنْكَ تَأْكُلُ لِحْمِي بِأَسْنَانِكَ، وَتَنْهَشُ عِرْضِي، وَتَتَّبِعُ عَوْرَاتِي وَعِثْرَاتِي عِنْدَمَا أَكُونُ غَائِبًا، فَإِذَا لَقِيتَنِي رَحَّبْتَ بِي، وَحَيَّيْتَنِي، وَقُلْتَ: أَهْلًا بِكَ.
- (٥) بَسْطُ الْكَفِّ: الْكَرَمُ.
- (٦) لَيْنُ الْجَنَاحِ: وَدِيعٌ، سَهْلُ الْأَخْلَاقِ، لَا يَعْرِفُ الْبَطْشَ.
- (٧) الْكِبْرِيَةُ الْأَحْمَرُ: الْكِبْرِيَةُ مَادَّةٌ بَسِيطَةٌ مَعْدَنِيَّةٌ صَفْرَاءُ اللَّوْنِ لَا تُحَلُّ بِالْمَاءِ، يُوقَدُ بِهَا، وَيُقَالُ: «أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيَةِ الْأَحْمَرِ»، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِمْ: «أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْثُوقِ».

المرء بأي شيء يرقعه.

وقال الحسن: إن المؤمن شعبة من المؤمن^(١)، يحزن لحزنه، ويفرح لفرحه. وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه قومه^(٢) وسدده^(٣) ووجَّهه، وحاطه في السر والعلانية. إن لك من خليطك نصيباً، وإن لك نصيباً من ذكر من آخيت^(٤)، فاختاروا الإخوان والأصحاب والمجالس.

وقيل لعدي بن حاتم، ما أثقل الأشياء عليك؟

قال: اختيار الصديق، وردّ السائل، ومسألة اللئيم^(٥).

ف قيل له: فما أضرب الأشياء للرجل؟

قال: كثرة الكلام، وإفشاء الأسرار، والثقة بكل أحد.

وقال يونس بن عبيد: ليس لملول صديق.

وقال الشاعر:

البس جديدك، إني لابسٌ خلقي ولا جديد لمن لا يلبسُ الخلقا
قال النمري: الجديد ها هنا، الصديق الحديث العهد كأنه استجدّه بالصدقة،
والخلقُ الصديق القديم الصداقة. يقول على وجه التوبيخ: عليك بالإخوان الجدد
فإني متمسك بإخواني القدماء.

ثم قال: لا جديد لمن لا يلبس الخلق، أي من لم يُقِم على مودة الصديق القديم، لم يُقِم على مودة الصديق الجديد.

(١) إن المؤمن شعبة من المؤمن: أي إن المؤمن غُصْن أو طَرْفٌ أو جزء من أخيه المؤمن.

(٢) قومه: أزال عوجه.

(٣) سدده: وقَّفه وأرشد.

(٤) إن الناس سيذكرونك بمثل ما يذكرون به صديقك، فإن كان رأي الناس فيه حسناً حَسَنَ رأيهم فيك، وإن كان رأيهم سيئاً فيه ساء رأيهم فيك.

(٥) مسألة اللئيم: أي أن تطلب إلى لئيمٍ دنيء الأصل شحيح النفس طلباً أو شيئاً.

قال: ومثله قول العَرَجِي:

سَمَّيْنِي خَلْقًا لِحُلَّةٍ قَدُمْتُ ولا جديد إذا لم يُلبَسِ الخَلْقُ^(١)
قال: والناس يظنون أن الجديد والخلق ها هنا ثوبان.

وقال العَرَجِي أيضًا:

لا يحول الفؤادُ عنكَ بوْدٍّ أبدًا، أو يحولَ لون الغرابِ^(٢)
وقال ربيعة الأسدي:

إن المودة والهودة بيننا خَلَقْتُ كسحقِ اليُمْنَةِ المنجابِ^(٣)
وقال آخر:

ما سمعنا باسم الصديق فطالب لنا بمعناه، فاستفدنا الصديقا
أتراه في الأرض يوجدُ، لكن نحن لا نهتدي إليه طريقًا؟
أم ترى قولهم «صديق» مَجَازٌ لا ترى تحت لفظهم تحقيقًا؟^(٤)
وقال آخر:

ذهب الذين أُحِبُّ قُرْبَهُمْ وبقيتُ كالمقمور في خَلْفِ^(٥)
من كل مطويٍّ على حَنَقٍ متصنِّعٍ يُكْفَى، ولا يكفي^(٦)
وقال المتلمّس:

(١) أنت سَمَّيْتَنِي خَلْقًا بَالِيًا لأنِّي أرتدي حُلَّةً قديمة بالية، وهل يكون للإنسان جديد إن لم يكن قد أبلى غير هذا الجديد وأفناه؟

(٢) هيهات، لن يتحوّل القلب عن محبتك إلا إذا تحوّل لون الغراب... والحرف «أو» في هذا البيت معناه «إلى أن» ولهذا كان الفعل بعدها منصوبًا بأن المضمره وجوبًا.

(٣) إن المودة التي بيننا، كالبرد «الثوب» البيني البالي القديم المنشقّ الذي انتهى إلى هذه الصورة نهائيًا ولن يتخذ صورة أخرى غيرها بعد اليوم.

(٤) ترى، هل كلمة «مجاز» التي يتداولها الناس فيما بينهم كلمة حقيقية، وعلى معناها الأصلي؟ أم هي كلمة تسامح الناس وتجاوزوا فنقلوها إلى معنى آخر؟ وإن كانت حقيقية فأين هو ذلك الصديق؟

(٥) ذهب الأخلاء الذين أُحِبُّ قُرْبَهُمْ مني، وبقيت كالمرهون في خَلْفٍ لا تربطني بهم مودة.

(٦) من كل مَنْ طوى نفسه وقصرها على الغضب والحقد والغيط الشديد، ومن اصطنع المودة وأدعاها وتكلفها.

على كلهم آسى، وللأصل زُلْفَةٌ فزحزح عن الأذنين أن يتصدعوا^(١)
وقد كان إخواني كريماً جوارهم ولكن أصل العود من حيث يُنزع^(٢)
وقال المُقنع الكندي:

وصاحبُ السوء كالداءِ العيَاءِ، إذا ما رَفَضَ في الجلد، يجري هاهنا وهنا^(٣)
يجري، ويخبر عن عورات صاحبه وما يرى عنده من صالح دَفَنَا
كُمُهرٍ سوءٍ إذا رَفَعَتْ سِيرَتُهُ رام الجِمَاحَ، وإن خَفَضَتْهُ حَرَنًا^(٤)
إن يَحْيِي ذاك، فَكُنْ منه بمعزلةٍ وإن يُمُتْ ذاك، لا تشهدْ له جَنَنًا^(٥)
وقال آخر:

رَأَيْتَ مَوَالِيَّ الْأَلَى يَخْذُلُونِي على حَدَثَانِ الدَّهْرِ إِذْ يَتَقَلَّبُ
فَهَلَّا أَعْدُونِي لِمَثَلِي تَفَاقَدُوا وفي الْأَرْضِ مَبْثُوثٌ شَجَاعٌ وَعَقْرُبُ^(٦)
وقال الحارث دعي الوليد:

فإن أنت أقررتِ العداة بنسبتي عُرفت، وإلا كنت فقْعًا بفدْفد^(٧)
ويشمتُ أعداءُ، ويُخذل كاشحُ عمرتُ لهم سَمًّا على نابِ أسود^(٨)
وقال آخر:

- (١) إنني آسى وأحزن عليهم جميعاً، فدع الأقرباء ولا تُسئِ إليهم حتى لا يبتفرقوا ويتشققوا.
(٢) ولقد كان إخواني كراماً أبراراً في جبرتهم لي، وإن أصل العود يرجع إلى المنبت الذي نزع منه.
(٣) إن صديق السوء كالداء العيَاء الذي لا دواء له إذا سال قيحُه وتفرَّق فإنه يجري في جميع أجزاء الجسم وفي كل ناحية منه.
(٤) إنه مثل ولد الفرس، إن أنت رفعت عنه السَّير جَمَحَ وشَرَدَ، وإن خفضت السَّير وأحكمته عليه، وقف ولم يَنقَد.
(٥) إن عاش صاحب السوء فاعتزلهُ، وإن مات فلا تر له قبرًا أو كَفَنًا.
(٦) فإن كانوا قد أعدوني لأمثالي فقد فقد بعضهم بعضاً؛ إذ لا طاقة لهم بي، وإن في الأرض لحيات كثيرة، وعقارب عديدة، منتشرة هنا وهناك.
(٧) أقررتِ العداة: سررتهم وأفرحتهم. فقْع: كَمَاة، نبات عديم الطعم لا ساق له ولا عرق. فدْفد: فلاة.
(٨) يُخْذَل: لا يُنصَر، ولا يُعان. كاشح: عدو باطن العداوة. الأسود: العظيم من الحيات.

ومعشر منقع لي في صدورهم سَمَّ الأسود تغلي في المواعيد^(١)
وَسَمَّتُهُم بالقوافي فوق أعينهم وَسَمَّ الْمُعِيدِيَّ أَعْنَاقَ الْمُقَاحِدِ^(٢)
وقال آخر:

وإني لتَرَّاكَ الضَّغِينَةَ قد بدا تُراها من المولى فما أَسْتِثِيرُهَا^(٣)
قال بعض السلف: خالطوا الناس ورأبِذوهم^(٤).

وقال أبو العيال الهذلي:

إياك -إِنْ آخَاكُم- وعتابه إِذْ جَاءَكُم بتعطِفٍ وسكون^(٥)
قال ثعلبة بن صَعِير:

وَإِذَا خَلِيلُكَ لَمْ يَدُمْ لَكَ وَضْلُهُ فَاصْرُمْ لِبَانَتِهِ بِحُرْفٍ عَاقِرٍ^(٦)
وقال ذو الإصبع العَدَوَانِي:

لِي ابْنُ عَمٍّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ مُخَالَفٌ لِي أَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي^(٧)
أَزْرَى بَنَا أَنَا شَالَتْ نَعَامَتُنَا^(٨) فَخَالَنِي دُونَهُ، بَلْ خِلْتُهُ دُونِي
وقال أسامة بن الحارث الهذلي:

(١) ومعشر نقعوا لي السَّمَّ في صدورهم، مثلما تنقع الحيات السَّمَّ.
(٢) جعلت لهم بشعري علامات فوق أعينهم يعرفهم الناس بها، مثل ما يفعله العالم الحاذق بأعالي أسنمة الإبل إِذْ يجعل لها علامةً ووسماً.
(٣) تُراها: باطلها.

(٤) رأبِذوهم: أقيموا معهم.
(٥) احذر عتاب صديقك إن هو آخاك وودَّك، أو جاء إليك في عطف ولين ورقة وسلام.
(٦) الحُرْف: حية مظلمة اللون، يضرب لونها إلى السواد، إِذَا أخذت الإنسان لم يَبْقَ فيه دُمٌ إِلَّا خَرَجَ.
(٧) لي ابن عم، تختلف أخلاقه عن أخلاقي، فأنا أَبْغِضُهُ، وهو أَيْضاً يُبْغِضُنِي.
(٨) شَالَتْ نَعَامَتُهُ: خَفَّ وَغَضِبَ، ومات.

تَذَكَّرْتُ إِخْوَانِي فَبِتُّ مُسَهَّدًا كما ذَكَرْتُ بَوًّا مِنَ اللَّيْلِ فَاقْدُ^(١)
وقال عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ:

وَاعْضُوا الَّذِي يَبْدِي النَّمِيمَةَ بَيْنَكُمْ مُتَنَصِّحًا، وَهُوَ السَّمَامُ الْمُتَنَقِّعُ^(٢)
يُزْجِي عَقَارِبَهُ؛ لَتَبْعَثَ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ^(٣)
حَرَّانَ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فَوَادِهِ عَسَلُ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعِشُ^(٤)
لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشَبُّ صَبِيهِمْ بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُبْشَعُ^(٥)
وقيل لعبد الله بن عروة - وكان خطيبًا -: تركت المدينة، ولو رجعت إليها لقيت
الناس؟

فقال: وأين الناس؟ إنما الناس رجلان: شامتٌ بنكبة، أو حاسدٌ لنعمة.
قال شاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ؛ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بَغِيرِ سِلَاحٍ^(٦)
وَأُنْشِدَ يُونُسَ بْنَ فَرُوءَةَ:

فَلَقَدْ رَضِيتَ بِعُصْبَةٍ آخِيَّتُهُمْ وَإِخَاؤُهُمْ لَكَ بِالْمَعْرَِّةِ لَازِمُ^(٧)
فَعَلِمْتَ حِينَ جَعَلْتَهُمْ لَكَ دُخْلَةً أَنِّي لِعَرَضِكَ فِي إِخَائِكَ ظَالِمُ^(٨)

(١) البو: جلد ولد الناقة الرضيع الذي لم يُفصل عن أمه، يُحشى ثَمَامًا (نَبَاتًا ضَعِيفًا لَهُ خَوْصٌ)، أَوْ تَبَاتًا أَوْ غَيْرَهُمَا، فَيُقَرَّبُ مِنْ أُمِّ الْفَصِيلِ، فَتَعَطِفُ عَلَيْهِ فَتُدْرِي مِنْهُ.

أي إنني أتذكر إخواني الراحلين فأقضي الليل مُسَهَّدًا لا أنام، كما تتذكر الناقة البو فتحزن ولا تنام.

(٢) لَا تُطِيعُوا هَذَا الَّذِي يَدْعِي أَنَّهُ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ، وَهُوَ السُّمُّ الْقَاتِلُ.

(٣) إنه يسوق نميمته التي تشبه العقارب، لتثير بينكم حربًا، كما يثيرها الجبار العاتي.

(٤) إنه حرَّانَ وظُمَّانَ، وَلَنْ يَشْفِي حَرَّهُ وَظُمَاءَهُ عَسَلٌ مِمزُوجٌ بِالْمَاءِ، وَإِنَّمَا تَشْفِيهَا الْحَرْبُ دُونَ سِوَاهَا.

(٥) احذروا أن تأمنوا إلى قوم ينشأ صغيرهم بين أيدي قوَابِلٍ يَتَلَقَّيْنَهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ، وَيُطْعِمْنَهُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لَكُمْ.

(٦) الرِّمُّ أَخَاكَ، وَحَافِظُ عَلَيْهِ، وَاسْتَبَقَ مَوَدَّتَهُ؛ فَإِنْ مِنْ يَعِيشُ بِلَا إِخْوَانٍ، كَمَنْ يَسْعَى إِلَى الْحَرْبِ وَلَا سِلَاحَ مَعَهُ!

(٧) لقد رضيتُ بجماعة من الناس اتخذتهم إخوانًا، وما كنت أعلم أن أخوتهم تجلب العار.

(٨) ولكنني علمت - حين جعلتهم لك خلصاء داخلتك، وأصفياءك - أني كنت لك ظالمًا، فلم أكن قد استكنهتُ حقيقتهم، وسبرت غورهم بعد.

وقال بعض الحكماء: إن الأخ - إذا لم يكن صديقاً - فهو نسيب الجسم، والصديق - إن لم يكن أخاً - فهو نسيب الرُّوح.

أخبرنا ابن مقسم، حدثنا ثعلب، حدثنا عبد الله بن شبيب، قال: سمعت العتّابي يقول: سمعت أعرابياً يقول لصاحب له: لا تنكرني لك فأعرف نفسي بك. ودُع سَرَح القلب محمياً^(١)، وثمر الفؤاد مجئياً^(٢)؛ فيوشك أن تبعد الطّية على غير أهبة ولا أوبة^(٣).

قال شاعر:

وكنا كغصنيّ بانهٍ، ليس واحدٌ يزول - على الحالات - عن رأيٍ واحدٍ^(٤)
تبدّل بي خلاً، فخاللْتُ غيره وخلّيته لما أراد تباعدي
ألا: قَبَحَ الرحمنُ كلَّ مُماذِقٍ يكون أخاً في الخَفْضِ لا في الشدائدِ
وكتب أحمد بن إسماعيل الكاتب إلى ميمون بن هارون: أعلمني رسولي أنك سألتَه عَمَّنْ آنَسُ به في ناحيتي، وَمَنْ في الناس اليوم يُؤانسُ أو يُجالس؟ نحن إلى الأنس منهم^(٥)، أحوج منا إلى الأنس بهم^(٦). وصورة الأمر في فسادهم، أنه لما كان الدين عمود المحاسن، ونظام الفضائل^(٧)، وعَصَمَ الأخلاق^(٨). وكان الناس قد خلوا - أو أكثرهم - منذ صاروا يتعاطونه مع المراء من الدين في معاملاتهم وموداتهم مدخولاً^(٩) من جوانبه، مختلاً من أوساطه وأطرافه، فلن ترى إلا ذاماً مذموماً، زارياً

(١) اترك فناء قلبي محمياً آمناً.

(٢) واطرك ثمار قلبي أجنبيها، وأحصل عليها، ولا تتخطفها.

(٣) كادت الدار التي أرحل إليها، والمُنتأى الذي أنأى إليه يبعدان على غير استعداد ودون رجوع.

(٤) كنت مع خليلي كغصنين في شجرة واحدة، لا يختلف رأي أحدهما في أمر من الأمور عن رأي أخيه.

(٥) الأنس منهم: الفرار منهم والبُعد عنهم.

(٦) الأنس بهم: السكون إليهم، وإلفهم.

(٧) نظام الفضائل: الخيط الذي تنظم به الفضائل، وملاكها وقوامها.

(٨) عصم الأخلاق: ما تَعَصَمَ به، وتَصان، وتحفظ.

(٩) مدخول: طرأ عليه عيب وفساد، فصار معيباً.

مزرئاً عليه^(١)، حالفًا بالقبيح محلوفاً به.

وحدث أن رجلاً قال لسفيان الثوري: أوصني.

فقال: أقلّ معرفة الناس، وأنكر مَنْ تعرفه منهم، وابدأ بي، وأغضب من شئت! ودس من يسأله. فوالله لو لاحت^(٢) رجلاً في زمانه، فغضب، لما أمّنت أن يترامى به غضبه إلى سفك دمي. وأفرط - أعزك الله - مفرد في هذا الزمان، فقال: لا أقول - كما قال «سفيان» - لنقصان دهرنا عن دهره - ولكني أقول: أرض من شئت، ودس من يسأله عنك^(٣). وما أنكر - لكثرة الشر في الناس - أن يكون جواب كثير ممن يرضى، مثل جواب من يغضب، إلا أنني أرجو ألا تكون هذه القضية عامة^(٤).

وأنشدني عبيد الله بن عبد الله لنفسه:

وَحُدَّةُ الْإِنْسَانِ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ الشُّوءِ عِنْدَهُ^(٥)

وَجَلِيسُ السُّوءِ خَيْرٌ مِنْ جُلُوسِ الْمَرْءِ وَحْدَهُ^(٦)

وهذا - لعمري - كما قال، ولكن كيف لنا بجليس الصدق، ولربما نفع قرب العدو، وضر قرب الصديق؟ وهذا كلام يُنكر ظاهره إلى أن يظهر تفسيره.

أما العدو الذي ينفع قربه فهو الذي مقدار ضرره أن يثلب ويعيب ويجد مطعناً ليذيع ويشيع. فإذا قرب هذا صورته ممن يعاديه وكله بحراسة نفسه، ومراعاة أموره، وتحصين تدبيره، وتحسين أفعاله، وكان برصده له رقيباً عليه^(٧). وإذا دام تحفظ

(١) زارياً: عائباً، عاتباً.

(٢) لاحت: نازعت.

(٣) ارتض من شئت من الصحاب، ولا يمنحك هذا أن تتحرى عن حقائقهم خفية.

(٤) ولست أنكر - لانتشار الشرور بين الناس - أن تكون إجابة الراضي مشابهة لإجابة الغاضب، فقد زالت الحدود الفاصلة بين الرضى والغضب، ونأمل ألا يكون ذلك قاعدة مستمرة عامة بين الناس.

(٥) إن انفراد الإنسان بنفسه خير من أن يجالسه رجل من رجال الشؤ.

(٦) وإن مجالسة جليس السوء لخير من انفراد الإنسان بنفسه.

(٧) يرصده: يقعد له على الطريق ليراقبه.

الإنسان بهذا الرصد، وترقيته هذه الرتبة، صلحت أموره، وكان سبب صلاحها قُرب هذا العدو منه.

وإنما صار للعرب مآثر تُنشر^(١)، ومفاخر تُذكر^(٢)، بتوقيهم المعايير والمعايير في المقاوم^(٣) والمجامع^(٤)، ولم يخل أحد قط من وليّ مؤدّب، أو عدوّ مؤنّب، أو تقيع بخطأ، أو تهجين^(٥) بنقص، إلا من أهمل نفسه. وفي عادة الإهمال الهلاك، وقلّ من تحفّظ فسَلِمَ من إضاعة، فكيف به إذا أضاع التحفظ من نفسه وأمنه من غيره؟

وقال بعض المتقدمين: لا صلاح للملك إلا بنفسه ووزرائه وأعداء يخرجون عليه فيصلح نفسه من أجلهم.

ومما دونوه من الكلام: إنه يجب على العاقل أن يتخذ أبويه أصدقاء، وإخوانه رفقاء، وأزواجه ألافًا، وبنيه ذكراء، وبناته خصماء، وأقاربه غرماء^(٦)، والعلماء أولياء، والجيران رُقباء، ويعدّ نفسه فردًا وحيدًا. فذكروا رقة الجيران، وحضوا على توقيها^(٧)، فكيف بالجار العدو؟

وأما الصديق الذي يضرب قُربه فهو الذي إذا قرب توصّل بصداقته إلى معرفة الأسرار، وعلم الأخبار، ثم تحفّظ الزلل^(٨)، والتقط الخلل^(٩)، وأحصى الفلتات^(١٠)، وعدّ الهفوات، وراعى عثرات الألسن، وبوادر^(١١) القول والعمل عند الغضب والرضى،

(١) مآثر: مكارم متوارثة.

(٢) مفاخر: مناقب ومكارم من حسب ونسب وغير ذلك.

(٣) المقاوم: المجالس والجماعات.

(٤) المجامع: جمع «مجمع» - وهو موضع الجمع والضم والتأليف.

(٥) تهجين: هجّنه - قَبّحه، وعابه.

(٦) غرماء: دائنين.

(٧) توقيها: الحذر منها.

(٨) تحفّظ الزلل: توقاه، واحترز منه.

(٩) الخلل: الوهن والفساد.

(١٠) الفلتات: الهفوات والزلات.

(١١) بوادر القول: ما يبدر من الإنسان عند حدّته من خطأ وسقطات.

وفي أوقات الاسترسال^(١) التي لا يخلو الإنسان فيها من إغفال، ثم جعل ذلك سلاحاً مُعَدّاً يحمله على صديقه وقت العداوة^(٢).

وقد قيل في ذلك:

يُحصي العيوب عليك أيَا مَ الصداقة للعداوة
ونحن لم نخالف فيما عَمَمنا به من الدم في باب الإخاء والأُنس قول النابغة:
ولست بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَكُفُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ؟^(٣)
وقول الآخر:

هُمُ النَّاسُ وَالدُّنْيَا، وَلَمْ يَزَلِ الْقَدَى يُلِمُّ بَعِينَ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبَا^(٤)
ومن قلة الإنصاف أن تطلب الأَخَ الْمُهَذَّبَ فِي الدُّنْيَا وَلَسْتَ مُهَذَّبَا
وقال آخر:

وكنْتُ إِذَا الصَّدِيقُ نَبَا بِأَمْرِي وَأَشْرَقَنِي - عَلَى حَنْقٍ - بِرِيقِي^(٥)
غفرتُ ذنوبه، وكظمتُ غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق^(٦)
هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة عمود الإخاء،

(١) الاسترسال: الاسترسال في الكلام: الانبساط فيه والانتساع.

(٢) الإغفال: أن تترك الشيء إهمالاً من غير نسيان. وفي مثل ذلك كله قال الشاعر:

احذر عُدُوكَ مرةً واحذر صديقك ألفَ مرةٍ
فلربما انقلب الصديق حَقًّا، فكان أعلمَ بالمضرة

(٣) لن تستبقي مودة أخيك إلا إذا لمته، وجمعت المتفرق منه، واحتملت هفواته وزلاته، وإنك لن تجد إنساناً واحداً مُبرِّأً من جميع المعاييب والنقائص.

(٤) القَدَى: ما يقع في العين وفي الشراب من تبنة أو غيرها.

إن الناس هم الناس على طول الأزمان، وإن الدنيا هي الدنيا، ولم يزل التَّبن وغيره يقع في العيون أو يكدر ويرتق ما يشربه الناس، ولن تخلو الحياة من المتاعب يوماً.

(٥) وكنْتُ إِذَا ما صديق لي تجافى، وتباعد عني، وجعلني أغصُّ وأشرق بريقي من شدة حَنْقِي وغيظي مما يفعل.

(٦) غفرت لهذا الصديق إساءته وكنمت غيظي في نفسي خَشْيَةً أَنْ أَعِيشَ مِنْ دُونِ صَدِيقٍ.

وإنما وقفوا^(١) بالصفح والعفو على ما لا يخلو الإنسان يأنس به من مثله.

ألا ترى النابغة يقول: أيُّ الرجال المهذبُ؟ والثاني يقول: مخافة أن أعيش بلا صديق؟ والثالث يقول: ومن قلة الإنصاف أن تطلب الأخَّ المهذبَ في الدنيا، ولست مُهذبًا؟

نقول كما قالوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يُسلم لنا جملة إخوانه، وإنما نشكو فقد عمود الإخاء الذي حصوله يغفر ما دونه.

وحيث بلغنا من هذه الشكوى، وهذا الذم، فلنسنا نجحد^(٢) النعمة في بقية جميلة في هذا الزمان من أحرار الإخوان، قد قدّمك الله فيهم فضلًا وبرًّا وهمّةً عليّةً وأخلاقيًا رضيّةً، ومع ذلك فإن على العاقل -في شريطة الإخاء- إذا وجد موضع الدين والوفاء أن يقتصد في المؤاخاة، ويقتصر من العدة^(٣) على من تفي طاقته بما يجب لهم، فإن حقوقهم -إذا زادت على وسع^(٤)- لحقته الإضاعة لبعضها، وجنت الإضاعة عليه العداوة ممن أضاع حقّه؛ ولذلك قيل: كثرة الأعداء من كثرة الأصدقاء، وانتظم في هذا المعنى:

إذا اتّسع الإخاء عرّت حقوقٌ مُراعيها مُقيمٌ في مضيقٍ^(٥)
فإن خصّت رعايته فريقًا أخلّ بما عليه في فريقٍ
وإن رام القيام لهم جميعًا بشرط الودّ، لم يك بالمُطيعِ

(١) وقفوا بالصفح والعفو على ما لا يزال الإنسان يأنس به، وقصروه عليه.

(٢) لسنا نجحد النعمة: لا ننكرها.

(٣) العدة: الجماعة.

(٤) وسع: طاقته.

أي إن الإنسان لن يستطيع أن يقوم للناس جميعًا بما يجب عليه نحوهم، فليقتصر على من تتسع طاقته لهم، وإلا فهو معرّضٌ للتقصير والعجز عن الوفاء لهم جميعًا بما يجب.
(٥) إذا اتّسعت الصداقة وكثر الأصدقاء، قامت لكل صديق حقوقٌ قبلك، إن راعيئها -وهذا ما ينبغي عليك- فإنك ستكون في متاعب متصلة، وضيق دائم.

وأوحش بعضهم، فأفيد منه عدوّاً، كان في عدَدِ الصديقِ^(١)
فَحُذِّمَ مما تَوَاحَى بِقَصْدٍ وقَدِّرْ فتح أبواب الحقوقِ^(٢)

وقال:

إذا كَثُرَ الإخوان للمرءِ وابْتَغَوْا معونتهُ في صَرْفِ دهرٍ، وغَدْرِهِ^(٣)
فَوَحَّدَتْهُ لا تستقلُّ بحقهم وكثرتهم لا تستقلُّ بضَرِّهِ^(٤)

وكنت أعلمتني أنك استحسنت مني البيتين في ذكرِ العدوِّ والصديقِ وهما:

إن كنتَ تطلبُ فضاً لا - إذا ذكرتَ - ومجداً
فكنْ لعبدك خلاً وكُنْ لخلِّك عبداً^(٥)

وكان سببهما أن صديقاً لي ضرب عبداً له، فحضره صديق له، فمنعه الصديق فلم يمتنع، فكتبْتُ إليه بهذين البيتين أذكرُهُ بحق الصديق في عبودية الطاعة، وأخوة العبد في حق الإيمان^(٦)، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] هذا مع ما في التسلُّط على المماليك من الدناءة.

ولأحمد بن إسماعيل أيضاً إلى إسحق بن سعد:

وكان الزمان يخصّ الإخوان وأهله من كدره ونكده بما لا يُعْمُ به غيرهم.

فما تشاء أن ترى ذوي صفاء قد فرقت بينهم نوى، فحَصَّلاً من التزاور على التكاثُب،

(١) ويجدني البعض مستوحشاً أنفر منهم، فلا أَعْتَمُ إلا أن يتحوَّل من أصدقائي مَنْ يتحوَّل، فإذا به عدوٌّ، وكان من قبل صديقاً!

(٢) فلنكن صداقتك لأصدقائك بقصد واعتدال، واعلم بما تجرُّه عليك الصداقة من حقوق عليك للأصدقاء، إن كثروا كثرت، وإن قلَّوا قلَّت.

(٣) إن كثر إخوان امرئ وطلبوا عونهُ ومساعدته في نوائب الزمان وفي حدثانه.

(٤) فإنَّ وَحْدَةَ هذا المرءِ وانفراده لا تنهض بحقوق أصدقائه جميعاً، وإنَّ كثرة هؤلاء الأصدقاء لا تنفرد بضَرِّه بل تضمُّ هذا وذاك منهم.

(٥) إن كنتَ تتنغي الفضل والمجد، فاجعل من نفسك خليلاً لعبدك، واجعل منها عبداً لخليلك.

(٦) أذكرُهُ بما للصديق من حق في الطاعة التي تصل إلى درجة العبودية، وبما للعبد من حق الأخوة في رأي الدين الذي يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن أنس الاجتماع على وحشة الافتراق، ومن بهجة اللقاء على لدغة الشوق وكثرة التَّوَقُّ، ومن راحة المباحة والمفاوضة على ضيق الصدور بالأسرار، وكَرْب النفوس بالكتمان، إلَّا وجدتهما^(١).

ولا تشاء أن تجد أمثالهما قد جمعتهما الديار، واعترضت بينهما الأحداث، فاجتماعهما في معنى التفرُّق، وقُربهما في صورة البُعد، إلَّا أن شوقهما أْبْرَحَ، ونزاعهما إلى اللقاء أشدَّ، وحسرتهما على ما يفوت منه أكثر، إلَّا رأيتهما^(٢).

فأما إخوان اللقاء وعبيد العيون الذين تجمعهم الرغبة والرغبة ويتزاورون في المواصل من العهد إذا ولَّتْ مُطْمعة وأخلفت مُخَيَّلة أو نابت نائبة، فأكثرائهم لأعراض الدهر بينهم تستر؛ لأن الحاضر منهم لا تُزعجه من أخيه الغيبة، والغائب لا تَقْرُّ عَيْنُهُ بالأوبة، فالفرقة لا تورثهم وحشة، والاجتماع لا يجدد لهم أنسة^(٣).

وربما وجدت تراضيه بمخالفة ظاهرهم باطنهم، قد أتيح لهم متعة بعشرتهم؛ لأن كلاً منهم قد قدَّم التحرُّز من صاحبه، واستشعر الاحتراس منه، فليس يستودعه ما يخاف ضياعه، ولا يأمنه على ما يحتاج إلى الاهتمام به^(٤).

وأعطاه مقداراً من ظاهره، وقفَّت عليه عادته، وأسقطت مؤونة التحصيل عنه،

(١) نَوَى: بَعُدَ. التَّوَقُّ: الاشتياقُ. المباحة: إظهار السرِّ.

المفاوضة: الاشتراك. كرب النفوس: الغم الذي يأخذ النفوس.

إن أردت أن تجد أصفياء فرَّقهم البعاد فلم ينال سوى التكتاب بديلاً من التزاور، واستبدلاً ببهجة الاجتماع وحشة الافتراق، وبسرور التلاقي لسعة الشوق، وبراحة الحديث الكتمان... إن أردت ذلك فإنك واجدتهما.

(٢) وإن أردت من جمعتهما الديار ولكن حوادث الدهر حالت بينهما، حتى كأن اجتماعهما فرقة، وقربهما بُعد، ولكن شوقهما أحرَّ، وحسرتهما على ما فات أقوى... فإنك واجدتهما.

(٣) أما إخوان اللقاء، وعبيد العيون -عندما تراهـ فقط، فأولئك لا تجمعهم بك إلا رغبة أو رهبة، فإن الحاضر منهم لا يهتم غيب أخيه، والغائب لا تُفرحه العودة، فافتراقهم لا يترك في نفوسهم وحشة، واجتماعهم لا يبعث في نفوسهم أنساً ولا بهجة..

(٤) وهؤلاء يحذر بعضهم بعضاً، فلا يستودع واحد منهم أخاه سرّاً يخاف أن يذيع، ولا يأمنه على نفيس عنده عزيز لديه، فيحجبه عنه.

ولبسته على علم به. فَإِنْ أظهر له جميلاً لم يغترّ بظاهره، وإن وقف على غلٍّ أو غشٍّ لم يجد له علماً بباطنه، فليس يبدو له من أفعاله ما يُنفّرهِ فيقطعه، ولا يغيب عنه منها ما يأمنه فيسكن إليه، ويخاف جنانه الاسترسال عليه، ولا يبقيه في مشهده ومغيبه منه ما لا يعرفه. فيجريان في مثل هذا الميدان مدة طويلة متمتعين بالمؤاكلة والمشاركة واللقاء والمحادثة.

وأخو الثقة يرُمُقُ الحركة^(١)، ويُراعي اللحظة^(٢)، ويتأَوَّلُ اللفظة^(٣).

وإن ظهرت منكرة وقف عندها، وتعرّف سببها، وتبين موقعها من العمْد والخطأ، ومقدارها في الصغر والكبر، وهل يقلّ صغيرها عن المعاتبة؟ أو يبلغ كبيرها تركّ المراجعة؟ وينزل الأمور بين هذين الطرفين منازلها، ويعمل في ما يستقرّ عليه بما هو أَصَوْنٌ لعهدته إن كانت نفيسة؛ لأن [أخا] الثقة من الإخوان يمنح الأنس، ويبثّ ذات النفس، ويظهر العُجَرَ^(٤) والبُجَرَ، ويكشف الأسرار، ويخص بخواص الأخبار، ويُذخِرُ للنوازل^(٥)، ويفزع إليه في النوائب^(٦)، فيعدّ للمشهد والمغيب، واليوم والغد، والمحيا والممات والنفس والعقب^(٧).

ويُسْتَظْهَرُ بإخائه على الزمان^(٨)، ويُعْتَصَدُّ به في الحدّثان^(٩).

وإنما يستحق ذلك كله ما نقيّ جَنِيَّهُ^(١٠)، وسَلِمَ عَيْبُهُ، وخلص قلبه، وصحّ لُبُّهُ.

(١) يرُمُقُ الحركة: ينظر إليها.

(٢) يُراعي اللحظة: يُراقب اللفظة من العین.

(٣) يتأَوَّلُ اللفظة: يتدبّرُها، ويُقدّرُها، ويُفسّرُها.

(٤) يُظهر العُجَرَ والبُجَرَ: يظهر العيوب والأحزان، والظاهر والخفيّ.

(٥) يذخِرُ للنوائب: ذخّر الشيء: خبأه لوقت الحاجة إليه.

(٦) يُفزع إليه في النوائب: يُستغاث به في المصائب والنوازل.

(٧) العقب: الولد، وولد الولد.

(٨) يُسْتَظْهَرُ بإخائه على الزمان: يحتاط به، ويُجعل خلف الظهر حمايةً ووقايةً.

(٩) يُعْتَصَدُّ به في الحدّثان: يستعان ويتفقّى به في النوائب.

(١٠) وهو يستحق ذلك ما كان قلبه وصدّره نقيّين طاهرين.

ولوقوفه على هذه الغاية من الاستحقاق، يراعيه مَنْ أودَّعَهُ أَجَلَ ودائعِهِ، وجعله أَفضل عُدَّةً.

والحمد لله الذي جعلك مُقَدِّمًا في إخوان الصفاء، يثق الصديق بك، وتخفّ المحنة عليه في مراعاة طويّتك بصحة عقدك، وكرم عهدك^(١)، وتمسكك في وِرْدك وصَدْرِكَ بِعَصَم الدين التي تشتمل على المناقب، وتنفي المقايح والمعائب، وتؤدي صاحبها إلى فوز الأبد، وتحوِّزُ له النعيم المقيم^(٢). فتممَّ الله لك نعمه، وأوزعَكَ شكره، وأمدك بمزيد^(٣).

تَنَازَعْنَا السُّودَادَ، وَكُنْتُ أَجْرِي -إِذَا بَلَغَ الْمَدَى- جَرِي السَّبْقِ^(٤)
فحاز السَّبْقَ «إِسْحَقُ بْنُ سَعْدٍ» وَخَلَّفَنِي بِقَارَعَةِ الطَّرِيقِ^(٥)
الاستزادة على حسب الحرية، ومن لم يجد أَلَمَ الجفوة، لم يعرف موقع المبرّة^(٦).
وأيامُ السلطان والقُدرة غنيمة ذي النُّبُل والهمة، تُعْتَقَدُ بها المنن، وتُراعى فيها الحُرْمُ، وتُبنى المكارم لليوم والغد، والنفس والعقب^(٧).

ولي ما شهدته من مودة صحيحة موروثة، وأسباب شابكة^(٨) متقدمة، ورغبة

(١) تخفّ المشقة على صديقك في معرفة ما ينطوي عليه ضميرك؛ لمعرفته بصحة إخائك وصدقته وثباته، وبكرم مودتك ووفائك وذمتك.

(٢) وبأنك متمسك في غُدُوك ورواحك بالدين الذي يحفظك ويصونك من المقايح والمعائب ويضمن لك الفوز الأبدِي الذي لا ينتهي، والنعيم الدائم المستمر.

(٣) أدعو أن يتممَّ الله نعمه عليك، وأن يهديك إلى شكره ويُغريك به، ويمنحك المزيد من أفضاله وآلائه.

(٤) كنتُ وإياه ننازع المودة ونسابق فيها، وكنتُ -إِذَا رَأَيْتُهُ أَشْرَفَ عَلَى غَايَةِ السَّبَاقِ وَنَهَايَتِهِ- أَجْرِي وَأُسْرِعُ جَرِي وإسراع الذي يريد السَّبْقَ والفوز.

(٥) ولكن «إِسْحَقُ بْنُ سَعْدٍ» نال الفوز والسَّبْقَ، وتركني في موضع قُرْع المارة من الطريق.

(٦) من لم يَدُقْ أَلَمَ الجفاء لم يعرف طعم البرِّ والوفاء.

(٧) إن أيام الجاه والسلطة والمقدرة التي تمرُّ على الإنسان، فرصة لصاحب الذكاء والتَّجَابَةِ والفضل، يَغْدُقُ فيها المودات، ويُراعي فيها الأقدار والحُرُمات، ويبني فيها المجد والمكارم ليومه وغده، ولشخصه ولأعقابه وذرائه.

(٨) أسباب شابكة: ناشبة مختلطة متداخل بعضها في بعض.

متجددة، وأمل متأكد. ولكل من ذلك حق وحُرمة، وأنا شريك في النعمة بالهوى والنية، مطلق اللسان بوصف فضائلك في محافل ذي الشرف والحرية، كبتاً لعدوك الذي ليس بينه وبين الله عصمة، ونصراً لوليّ الدين والمروءة^(١). ومعى معاودة الأخ، وخدمة العبد، وطاعة اليد^(٢)، والسلام.

وقال أيضاً في فصل آخر: وإذا سلمت لي الحال القديمة بيننا التي كان العهد فيها باللقاء يترأخى، فإذا التقينا وجدناه على جدّته، وأعطى المفضول منا -أعني نفسي- من آتى فاضلاً -أعنيك- من الإعظام والإجلال حقه، وسلك الفاضل بالإنصاف والتواضع سبيل فضله، لم أحفل بما يحدث بعد ذلك من إدراك أمل وفوته، ونيل طلبه وتعذرها.

وكتب «عبد الله بن المعتز» إلى «أحمد بن يحيى الشيباني» أبياتاً منها:
 إِنَّا عَلَى الْبَعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لَنَلْتَقِيَ بِالذِّكْرِ إِن لَّمْ نَلْتَقِ^(٣)
 فَأَجَابَهُ: لَمْ تَعُدْ مَا فِي النَّفْسِ، بَلَغَكَ اللَّهُ أَمْلَكَ، وَنَحْنُ -وإن لَمْ نَلْتَقِ- كَمَا قَالَ
 رُؤْبَةٌ:

إِنِّي -وإن لَمْ تَرَنِي- كَأَنِّي أَرَاكَ بِالْغَيْبِ، وَإِنْ لَمْ تَرَنِي
 أَخُوكَ، وَالرَّاعِي لَمَّا اسْتَرْعَيْتَنِي^(٤)

(١) ولساني حرّ منطلق في مجالس ومجمعات الشرفاء الأحرار؛ لأذّلّ بذلك عدوك الذي لا عهد ولا ذمة بينه وبين الله، ولأنصر به أخاك وناصرك الذي ينصر الدين والمروءة.

(٢) ومعى في هذا الذي أعمل مُؤازرة الأخ الصديق لك، وخدمة العبد الذي وهب نفسه لخدمتك، وطاعة يدي التي تعمل بمشورتك ورأيك لتحقيق ما تبتغي أنت وتريد.

(٣) إِنَّا -على ابتعاد منازلنا وافتراق ديارنا- لَمُلْتَقِيَانِ دَائِمًا بِالتَّذْكَرِ والحديث والتخيّل واستحضار الماضي، إن لَمْ نَلْتَقِ بِالْأَجْسَامِ.

(٤) وإني -وإن لَمْ تشاهد وجهي- كأني أراك في عالم الغيب والقلوب والصدور والأفكار، وإن لَمْ تَرَنِي أَنتَ رَأْيَ الْعَيْنِ. وإني دَائِمًا -في حضوري وفي غيابي- لأخوك المحبّ المخلص الوفيّ الأمين، الحافظ لعهدك، الصائن لما طلبت إليه أن يصونه وأن يحفظه ويرعاه.

ولكن أحذر عليك؛ فإنه لا تخفى محبتي إليك، ومن لم يحذر فقد ضيَّع الحزم، وأنا أسأل الله أن يجعل عليك واقيةً برحمته.

وكتب آخر: مَنْ عاقته العوائق عن المحاورة عَوَّلَ على المكاتبة، وأنا آنسُ بذكرك فضلاً عن مكاتبتك، وبمكاتبتك فضلاً عن رؤيتك^(١).

ولو تقاربت المنازل كتقارب القلوب، لأحيَتْ داعيَ الشوق إليك في الضياء والدُّجى^(٢).

وأنشدني منشد:

كنا نزوركُم والدار جامعةٌ في كل حال.. فلما شطَّتِ الدارُ^(٣)
صرنا نقدر وقتاً في زيارتكم وليس للشوق في الأحشاء مقدارُ^(٤)
ولربَّ منازلٍ متقاربة، لقلوبٍ متباعدة، يجمعهم النفاق وتفرقُ بينهم الأخلاق.

وكنت كتبت إلى صديق يمرح في بعض ما يستهدي:

لا تجعلْ بُعدَ داري مُخَسِّسًا لنصبي^(٥)
فربَّ شخصٍ بعيدٍ إلى الفؤاد قريب^(٦)
وربَّ شخصٍ قريبٍ إليك، غير حبيب^(٧)

(١) إن الذي تعوقه العوائق عن الحديث والمحاورة، يلجأ إلى الكتابة، وإنني آتسُّ بذكرك فضلاً عن الكتابة إليك، وبالكتابة إليك فضلاً عن رؤيتك ومطالعة وجهك.

(٢) لو كانت الديار قريباً بعضها من بعض مثل تقارب قلوبنا لأحيَتْ أسباب الشوق إليك نهاراً وليلاً، وفي الضوء والظلام.

(٣) لقد كنا نزورك والديار قريبة نجتمع بيننا كل حين، فلما تباعدت الديار.

(٤) صرنا نحدد ونقدر أوقاتاً لزيارتكم. فهل لشوقنا وحنيننا إليكم وقت محدد يوافينا فيه، ثم يزايِلنا كما ستكون عليه الحال في زيارتكم؟!

(٥) لا يدفعك بُعد داري إلى أن تنقص نصبي منك.

(٦) فلعل شخصاً بعيد الدار، قريب دانٍ إلى قلبك.

(٧) ولعل شخصاً قريب الدار، بعيد عن قلبك، غير حبيب إليه.

ما البُعْدُ والقُرْبُ إلا ما كان بين القلوب^(١)

ولابن ثوبة: فليثُتْ بَعْدَكَ بقلب يودّ لو كان عَيْنًا فيراك، وعينٌ تودّ لو كانت قلبًا فلا تخلو من ذكراك.

وَقَعَ أحمد بن صالح بن شيرزاد إلى رجل: أنت ضعيف الإخاء، قليل الوفاء، مُعَامِلُكَ معك في عَنَاءٍ، ومُعَاشِرُكَ منك في بَلَاءٍ.

وكتب إلى صديق له: وصل كتابك مُخْبِرًا بعافيتك، مُبَشِّرًا بسلامتك، مُذَكِّرًا بلذيد عشرتك وطيب أَلْفَتِكَ، ناطقًا بصحيح ودّك وكريم عهدك.

وإني لَأَنْسُ بذُكْرِكَ فضلًا عن مكاتبتك، وبمكاتبتك فضلًا عن رؤيتك، إلا أنني في ذلك كما قال إسحق بن إبراهيم الموصلي:

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِنَ الْحَبِيبِ قَلِيلٌ^(٢)

وقال «عيسى بن فرخان شاه»: اعتقدتُ ودّك، وأَوْجَبْتُ حقك، واعتدَدْتُ بشُكْرِكَ، ولَحِظْتُ حالَكَ عِنْدِي رَقِيبٌ مِنْ عِنَايَتِي لَا يَفْتَرُّ فَيْكَ لَفْظُهُ، وَلَا يُصَرِّفُ عَنْكَ لَحْظُهُ^(٣).

وذكر السيد استيحا شه لقصدي، وحينه إلى لقائي، والأنس آخر ما يُبْدَلُ من ذات النفس، وأجل ما تخصّ به السادة أولياءهم، والإخوان إخوانهم، وبه تُنال راحة المفاوضة والمُباتَّة، وعليه تُبنى الثقة والمشاورة، وإليه ينتهي إخاء المودة. فإذا بلغه أهلها قضوا حقوقها، واستوفوا شروطها.

والسيد ممن لا يخصُّ بأنسه إلا من تُرْتَضَى أخلاقه، وتُحْمَدُ مذهبُه، وكفى بذلك

(١) وما البُعْدُ، وما القُرْبُ، إلا بما في القلوب، وليس بالمسافات التي بين الدور.
قال شاعر عن مُتَحَابِّين:

بَعِيدَانِ، وَإِنْ لَمْ يَبْ— عُدِ الْعِظْمُ مِنَ الْعِظَمِ
فَإِنَّ الْقُرْبَ بِالرُّوحِ — وَلَيْسَ الْقُرْبُ بِالْجِسْمِ

(٢) إن القليل من العدو كثير، أما الحبيب فإن كثيره قليل.

(٣) لقد امتلأتُ بحبك، وصار لك -بذلك- عِنْدِي حقٌّ واجب. ولك رقيب عليّ من اهتمامي بك وعنايتي، لا يسكت لفظه عن ذكرك لحظة، ولا تنحرف عنك عينه إلى سواك برهة قصيرة.

فضلاً لمن ناله^(١)، فأين يبلغ شكري ما قضى به من ذلك لي؟

وكتب أيضاً: وأنا والله -أيها السيد- ما زلتُ كاتباً وممسكاً وفائزاً ومُثابراً، الوالي المخلص، والوَادُّ المصحح، وَمَنْ إذا شَدَّ عُرْوَةً أَوْثَقَهَا، وإذا عَقَدَ مَوَدَّةً صَدَقَهَا^(٢). ولا خير في المَذْق والشَّوْب، والمُمَازِق أخو المُنَافِق، والشَّائِب هَدَف العائب. والرجل بمواقع اختياره إذا مال ووالى، وإذا انحرف وعادى، وإذا اجْتَنَب واجْتَبَى. يدلُّ على خطره وقدره، ويُقَوِّم نفسه قيمة يرجع إليها مَنْ عامَلَهُ وعدل عليه^(٣).

ولمحمد بن بحر:

وصل كتابك فنابَ عن زهر الرياض حُسْنًا، وأخبر عن فتيق المسك عَرَفًا^(٤)؛ لما جمع من غريب المعنى، وبديع اللفظ. وتصرَّف كاتبه -لا عَدَمْتُهُ- في بر جَدَدِهِ، وتفضل وكَدَّهُ.

وللقاسم بن محمد الكرخي:

قد واصلت أياماً تباعاً، غُدُّوا إليك وَرَوَّاحًا، حتى ملَّني البُكُور، وسئمني التهجير^(٥) وشكاني الطريق، ولحاني الصديق، وفي كل ذلك أَعَاقُ عنك بالحجاب.

(١) وإنك لا تختصَّ بأنسك وإلْفك وسكون قلبك إلا من كانت أخلاقه مرضية، وسيرته حميدة، وكفى لمن ينال أنسك بذلك فضلاً وشرفاً له.

(٢) وإني ما أزال الكاتب الذي يُسَجِّل مفاخره، والمُمسك بزمام مودتك، والفائز بشرف محبتك وصداقتك، المثابر عليها المواظب على إبقائها، والمحب الأمين والودود الصافي الود، وإني ذلك الذي إذا عَقَدَ صداقةً أَكَدَّهَا وَتَبَّتْهَا، وإذا بَنَى مَوَدَّةً بَنَاهَا على الصدق والإخلاص.

(٣) إنه لا جدوى من أن تشوب صداقتك وتكدرها ولا تخلصها؛ فإن من يعمل هذا فهو أَخٌّ للمنافق، وإنه لَهَدَفٌ للعائين. وإن قيمة الإنسان في اختياره وفي حبه وصداقته، وفي عدوانه وخصومته، فهو بذلك كله يعطي نفسه قيمتها وقدرها، قال شاعر:

قد عرفناك فاخترارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

(٤) نَابَ كِتَابُكَ عن الرياض الزاهرة جمالاً وروْنًا، وعن رائحة المسك عبقاً ونشراً.

(٥) وقد واطَّئْتُ أياماً عديدة في الحضور إليك صباحاً ومساءً، وفي البُكُور حتى ملَّني البُكُور، وفي الهاجرة وشدة الحرِّ حتى سئمني الهاجرة، وشكا -من طول سيري- الطريق، ولعنتي الأخ والصديق.

ولا خير في ودّ امرئٍ مُتَكَارِهٍ عليك، ولا في صاحب لا تُوافِقُهُ^(١)
هذا طَرَفٌ من عتاب جَاشٍ به الصدر، وقَلٌّ عن كُثْمَانِهِ الصَّبْرُ؛ فَإِنْ عَطَفَكَ حِفَاطُ^(٢)،
فأهل البرِّ والفضل أنت، وإلَّا فَإِنِّي على العهد، ولا أقول:

فما ملّني الإنسانُ إِلَّا مَلَلْتُهٗ ولا فاتني شيءٌ ظَلَلْتُ له أبكي^(٣)

وقال كاتب:

أطال الله بقاءك، والمخاطبة بكل دعاء تخاطب به إخوان الصفاء، وإن ضَعُفَت
اليد عن استقصائه، وضاق ما يُكْتَبُ فيه عن استيفائه^(٤).

وقال الحسن بن مسلم:

زاد الله من عمري في عمرك، ورفعك إلى الدرجة الموازية لقدرك، وضاعف
الكرامة والنعمة والسعادة لك، وقَدَّمَك في المحبوب قبلي، وقَدَّمَنِي للمَحْذُور^(٥)
قبلك، وجعلني الله فداءك وإن كنت آنسُ بك في الحَوْلِ وقَتًا، وأَغْبُرُ في بقيته خُلُوءًا
مستوحشًا^(٦).

فإن موقع وقتك عندي منه كموقع ربيعِهِ من سائر شهوره؛ لما يَهْجُنِي من السرور
بك، ويُوْنِقُ بصري من بهيِّ منظرك، ويرتَعُ فيه لُبِّي من رياض علمك وأدبك، ويجدّد
لي من يوافع فوائذك وملذوذ ثمار ودّك، ما يروق به الربيعُ العيونَ من بهيج زينته،

(١) لا خير في مودة من يكرهك، ولا خير في صديق لا تتفق معه فيما يرى، وفيما يعمل.
(٢) إن أَمَلَكَ وَجَدَبَكَ إِلَيَّ ما بك من رعاية للودِّ، فَإِنَّكَ أَهْلُ الْوَدِّ والبرِّ، وإلَّا فَإِنِّي لَنْ أَتَحُولَ عَنْ وَدِّكَ وَسَأَبْقَى
عليه حياتي.

(٣) ما سَمِنِي إنسان إِلَّا سَمِمْتُهُ، وما فاتني في حياتي شيءٌ بكيتُ عليه.
(٤) وإن ضَعُفَت القدرة عن بلوغ الغاية في البحث عنه، ولم يَتَسَعِ ما أكتُبُهُ عَنْ أَخْذِهِ وافيًا تامًّا.
(٥) أدعو الله أن يُقَدِّمَنِي للمَكْرُوه المخوف قبلك.
(٦) جعلني الله فداءً لك، ولو أنني أَتَنَسُّ في كل سنة وقتًا، ثم أمكث وأبقى فيما بقي منها خاليًا تملأ الوحشة
نفسي.

ويجود به على الأرض من عُيُوثه، ويُلبسها من زخارفه، وينشر عليها من مَوْشِي حُلله، ويملاً جوانبها من خصبه وبركته^(١).

وأشبه مغيبك -جُعِلْتُ فِدَاكَ- بأضداد هذه الصفات، غير أنني أحيا بالتذكر والرخاء -مدة النأي- إلى اللقاء، وأجد عقلي -بما أفدتُ في ساعة منك- مُتَقَوِّناً طويلاً كقول «أنوشروان» الملك: قُوْتُ العقول الحِكم، وقوت الأجساد المَطْعَم^(٢).
فلا زلْتُ من نورك مُقْتَبِساً، ولإخوانك في القُرب والبُعد مُؤنساً، ولا زالت الأقدار تسعفنا فيك ببلوغ أمل، ودنو محل؛ حتى تطول العشرة، وتدوم الغبطة والمسرّة.

قال كاتب:

لئن بَعُدَ -أسعدك الله- مَزَارُنَا بعد قُرب، لَمَّا بَاعَدَ ذلك -بحمد الله- قلباً من قلب، ولا حلّ مما بيننا عقداً من ودّ، ولا منع من محافظة على غيب وعَهْد^(٣)، وإن انقطعت منا المكاتبه أحياناً لاعتناق علة أو شغل، فتواصل التشاكل لا ينقطع لانقطاع الكتب^(٤).
وقد جعل الله -وله المنُّ والطول^(٥)- نعمتنا عند بعض بنجوة^(٦) من التقصير، وفي حال غنيّة عن المعاذير، فجعل الله ما عَرَاكَ تَمْحِصاً، وعُقباه تَخْلِصاً، وأعادك إلى أحسن ما عَوَدَكَ، ولم تزل تجري به آلاؤه عندك^(٧).

- (١) إن أيام وصلك لنا تقع من السنة كموقع الربيع منها، لما يملأ نفسي من السرور بك، ويعجب بصري من رؤية وجهك الجميل، ومما يَنعَمُ به قلبي من حداثق علمك وأدبك، ومترعرع فوائدك ومزايك المتجددة دائماً.
- (٢) إنني أشبه غيابك بعكس ما قَدُمْتُ من أوصاف، إلا أنني أعيش بالتذكر -طوال مدة نأيك- وأراني طاعماً ممتلئاً من قُوَتِكَ وطعامك الذي أطعمتني به -قبل غيابك- من العلم والحكمة.
- (٣) ولئن بَعُدَتْ ديارنا بعد أن كانت قريبة، لَمَّا بَعُدَتْ قلوبنا، ولا أوهت أو حَلَّتْ عقدنا الوثيق من المودة، ولا منعتنا من أن نكون أوفياء محافظين على العهد والود.
- (٤) ولئن انقطعت الكتب فيما بيننا لمرض أو مشغلة، فإن مماثلة ومشابهة أحداً لصاحبه شيء لا ينقطع لأنه ثابت مستقر لا يحول ولا يتغيّر.
- (٥) الطُّول: الفضل، والعطاء، والقدرة، والغنى، والسَّعة.
- (٦) بنجوة: أي إنها بعيدة عن التقصير، بريئة سالمة منه.
- (٧) أدعو الله أن يجعل ما غَشِيكَ وَلَحِقَ بك، ابتلاءً واختباراً، وتطهيراً وتصفيةً، وأن يُعيدك إلى خير ما عَوَدَكَ أن يجعلك عليه، وأن يُجري عليك نِعَمَهُ وخَيْرُهُ وبرّه دائماً.

وكتب آخر:

إن لم يكن جَمَعَنَا -أسعدك الله- تلاقٍ يَأْنَسُ فيه بعضنا ببعض، وتتصل به أسباب البرِّ بيننا في القُرْب والبُعْد، فكفى بالمشاكلة مُؤانسةً، وبالمشاكهة^(١) مُواصلةً تثبت علائق الثقة، وتدفع عوارض الحشمة، وتزين استعمال الدّالة^(٢).

ولليزدي:

فأما ما عندي مما أبدله لك رغبةً، وأرضى بقبولك إياه مثوبةً^(٣) فمودّة أُقيم عليها بقية عمري، وأستوفي لك حقوقها على نفسي، وطاعةً أُصَحِّح فيها سرِّي وَعَلَنِي، وأتبع شروطها فيما وافقني وخافني، وشكرٌ أَشْغَلُ به خاطري وعقلي، وأُعْمَلُ فيه لساني، وثناءً حسنٌ أسعى فيه وأجتهد، وذكراً جميلاً أقوم به وأقعد، وأن أوالي بك وأعادي، وأصافي وأصادي^(٤)، ولو ملكْتُ غير ذلك لبذلته، ولو علمت وراء ما أنا عليه مكاناً لَبَلَّغْتُهُ.

وكتب آخر:

وما أعلمني أن في سَعَةِ صدرك، وفضل رأيك، وعلوّ قدرك، ويُمْنِ تدبيرك، وشدة تحصيلك^(٥)، وما مَكَّنَ الله لك من سلطانك^(٦) ما أغنى عن مسألتي عما أراه في أمري، فوالله ما حُلْتُ لك من عهد، ولا [من] موالاة إلى عداوة، ولا عن وفاء إلى غدر، ولا عن

(١) المُشاكهة: المُشابهة، والمُشاكلة، والمُقاربة.

(٢) الدّالة: تدلُّ به على صديقك، والجرأة، يقال: «له عليك دالة» أي جرأة بسبب وجهته عندك.

(٣) مثوبة: ثواب.

الشيء الذي أستطيع أن أعطيك إياه، ويكون قبولك له ثواباً وجزاءً حسناً لي، هو مودّة مُقيّمة دائمة مدى حياتي، وطاعةً لك في إسراري وإعلاني، وشكرٌ بقلبي ولساني، ومديحٌ أبذل فيه أقصى جهدي، وسيرة حسنة أذيعها عنك بين الناس.

(٤) أصادي: أداجي، وأداري، وأساتر.

(٥) تحصيلك: جمّعك، وتميزك، وتبينك، وإبرازك.

(٦) سلطانك: قدرتك وتسلطك.

شكر إلى كُفْر، ولا قصرت فيما ظننت أنه يقضي عني الحق، بما بلغتُه الطاقةُ والوُسْعُ،
فإن تكن الدنيا بَلَّغَتْني ما لا يُجدي معه سعي، فذلك على الزمان لا علي^(١).

ما كَلَّفَ الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدًا إلا بما تَجِدُ^(٢)
فوالله ما كنتُ بذيَمِ العهد لك في وقت شدة ولا رخاء، ولا في حال سراء ولا
ضراء، على قدر ما تبلغه طاقتي، وتناله يدي، وليس من قَصَرَ به القَدْرُ بمَلُومٍ على
تقصير، ولا من نصَحَ بالنِّية - إذا أعجزه الفعل - بمعدود في أهل الغش^(٣).
قال كاتب:

وإن الذي يعلم السرَّ وأخفى لَيَعْلَمُ أنني لم أحُلْ لك عن عهد، ولا رجعت لك
عن ودٍّ، ولا انطَوَيْتُ لك على غِلٍّ في وقت رخاء ولا شدة، ولا نعمة ولا محنة، ولا
خلفتك بقبیح في نفس ولا مال ولا عَرَضٍ من الأعراض، اللهم إلا أن تكون تعتدّ
عليّ بعتاب أجرئته بني وبينك في بعض ما يُعَاتَبُ الصديقُ صديقه^(٤). وما ظننت أن
ذلك يخرج عن طريق المودة، أو يُوجب العداوة والجفوة؛ لأنه أمر سَلَكَتُ فيه سبيل
نصيحة لم أَمَلْ فيها إلى غشٍّ لك ولا خيانة.

وربما احتِمَلْتُ للناصح الكلمة المُرَّة، ولم تُخْرِجْهُ عن حدِّ الأمانة والثقة، وإن كان

(١) والله إنني ما تَغَيَّرْتُ عن عهدك، ولا تَحَوَّلْتُ من مودة إلى عداوة، أو من وفاء إلى غدر وخيانة، أو من شكر
أباديك إلى جحودها والكفر بها، وإنني لم أتناهون يوماً أو أترأخ عن القيام بما أعلم أنه يُؤدِّي حَقَّ عليّ، وإنني
لم أدخرُ جَهْدًا أو طاقة في ذلك. فإن كانت الأيام قد وَضَعَتْني منك في وَضْعٍ لا ينفع معه سعي أو همة أو جَهْدُ،
فذلك فَعَلَّ الأيام لا فَعَلِّي، ولا حيلة لي فيما تفعل الأيام.
(٢) لم يُكَلِّفَ الله نفسًا إلا ما تستطيعه وتقدر عليه، ولم يكلف يدًا أن تبذل إلا ممَّا تملك، ولا يكلف الله نفسًا
إلا وسعها.

(٣) ووالله ما خُنْتُ عهدك أيام الضراء أو السراء بالقدر الذي أحتمله وأقدر عليه، وإذا أعجزني الدهر في شيء
فهو المَعلوم، وليس من الجائز أن يلومني اللائمون على تقصير الدهر، ومن كانت نِيَّتُهُ النصْحُ الخالص، فلا
يصح أن يُعَدَّ غاشًّا إذا حاربه الدهر فيما ينوي.

(٤) ولم أكن أظن أن ذلك يُخرجنِي -عندك- من الأوداء الأصفياء، أو يجعلك تقف مني موقف العداة والجفاء؛
لأنني كنتُ فيه ناصحًا أمينًا مخلصًا.

مخطئاً في المشورة؛ لأنه قد اجتهد عند نفسه ولم يُردَّ سوءاً ولا غائلة^(١).

وقال كاتب:

وقد هبَّ الله لك دولة لست تغبى فيها عن الإحسان إلى المُحسن جزاءً له، والتغمَّد للمسيء احتجاجاً عند الله، وطلباً للفضل الذي لا يُدَّمُّ الآخذ به؛ فإن مُدَدَ الأعمار -فضلاً عن الدول- قصيرة، وأيام العز -وإن طالت- يسيرة، وإن اعتقدت فيها المنن أتبعته أيام الشكر وهي أحسن منها عاقبةً وأحمدُ مَعَبَّةً.

وشراء الصديق صعب عسير، وبيعه سهل ممكن، وحيث وجَّهت المعروف فهو عائد بثناء جميل، أو ثواب جزيل، وقليل البرّ يستعبد لك الحر، ويستر الهوان بصرف وجوه الآمال^(٢).

ومن يسأل الأيام نأى صديقهٍ وصرفَ الليالي، يُعطَ ما كان يسأل^(٣)

وقال أحمد بن إسماعيل بن عباد:

فما كان أولاك أن تحميني من سوء الظن بك، وألا تجعل من مصائبي المصيبة بمودتك، وإنَّ أعجبَ عندي من إمساكك عن مكاتبي إمساكك عن ذكرى في كتبك إلى قوم قد علمت أنهم لا يخفون عن مكاتبتك إياهم، ولكني مع هذا أقول:

أترسل بالسلام، وصدُرُ «عيسى» يُشدُّ على عدوي بالحزام^(٤)

(١) إن الصديق الناصح يجب احتمال كلامه، وإن كان مريباً، ما دام أميناً موثقاً به.

(٢) إنه لمن الصعب العسير أن تتخذ صديقاً، ولكنَّ بُذ الصديق وبيعه سهل ميسور. وإن البرّ والمعروف مهما وضعتُهما فهما عائدان عليك بالحمد والثناء والجزاء الحسن، وإن البرّ -وإن يكن قليلاً- فإنه يجعل الأحرار عبيداً لك.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(٣) إن الذي يطلب فراق صاحبه وبعاده وحلول المصائب به، فإن الأيام ستهبُّ له هو ما يطلبه لصديقه.

(٤) أتبعث لي بالسلام، وصدُر رسول السلام «عيسى» مشدود على الأعداء، لا يحترمون له عهداً، ولا يعملون بوصية من وصاياه؟

فلولا أن يكون العهد منكم لما أرسلت نحوكم سلامي^(١)
ولكنّ الفتى ليست عليه تماءً - قد علمت - من الحمام^(٢)
ولا أقول فيك كما قال إبراهيم بن المهدي لعمر بن بانه - ودعاه يوماً فامتنع عن
المصير إليه لسخط السلطان عليه - فكتب إليه:

ليس يخلو أمير المؤمنين أن يكون ساخطاً عليّ، أو راضياً عني، فإن كان راضياً
فما يأبى أن يسرني، وإن كان ساخطاً فما يأبى أن يغرنني، وإنك لموقوف بينهما بحمد
الله^(٣).

فأما فلان فلو كان الصديق إذا نزلت به نائبة، أو نالته نكبة، أو نبأ به الدهر نبوة
استوى عدوّه وصديقه في الجفاء به، والاحتراس من خلطته وعشرته وترك معونته
على دهره، لكان اسم الصديق اسماً مُعلّقاً على غير معنى، ولكانت حُرمة مودته
واعتقاد إخائه في أيام الرخاء وزمانه ضياعاً لا حظ فيه^(٤).

كلا - والله - إن الرجل لينذل لأخيه في النكبة ماله، وقد أعفى الله مالك. وإنه
ليخطر نفسه في معونته، وقد صان الله نفسك. وإنه ليفارق الأوطان والأهلين في إثار
موافقته، ولقد أعفأك الله من أن ترد عليك مسألة في ذلك^(٥).

وما أردت إلا أن أعلم أن لي صديقاً قد أبقى لي الدهر منه مثل الذي أخذ وأنفس

(١) فلو لم يكن بيني وبينكم عهد وذمة وودّ سابق، ما أرسلت لكم تحية ولا سلاماً.

(٢) ولكن الإنسان لا يستطيع دفع منيته، وليس له - إذا حمّ القضاء - يد على ردها.

(٣) إما أن يكون أمير المؤمنين غاضباً عليّ، وإما أن يكون راضياً عني. فإن كان راضياً فإنه لا يرفض أن يبعث
السرور إلى قلبي، وإن كان غاضباً فإنه لا يرفض أن يطعمني. وأنت لا هذا ولا ذاك!

(٤) لو نزلت بإنسان نازلة، فجفاه أصدقاؤه وأعداؤه جميعاً، وهجره، وترك معونته من يودّونه ومن يكرهونه معاً،
فاستوى هؤلاء وهؤلاء... لو كان الأمر كذلك لكانت كلمة «الصديق» كلمة جوفاء لا معنى لها، ولكانت
صداقة الأصدقاء هباءً لا نفع فيه.

(٥) إن الصديق الحقّ ليهب ماله لأخيه عند النكبة وقد حمى الله مالك، وإنه ليحسب نفسه في عون صديقه
وقد وقاك الله ذلك، وإنه ليفارق الوطن والأهل في سبيل منفعة لصديقه وقد كتب لك الله ألا يرد عليك ما
يقتضيك ذلك.

منه، وأنَّ الأيام لم تبلغ من مَسْأَتي كلَّ ما أَخَذَرُهُ^(١).

ولله رَوْحٌ مُتَنَزِّلٌ، وفرج مأمول، وصُنْعٌ مُتَوَقَّعٌ، ولنا ذنوب ما نَتَّهِمُ غيرها، ورحمة الله أكثر منها^(٢).

كتب ابن أبي البغل إلى النعمان بن عبد الله أبي المنذر:

كتابي - أدام الله عزك - من أَصْفِهَانِ، وعادةُ الله عندي جميلة، والحمدُ لله رب العالمين. ولم تتأخَّرْ كُتُوبِي عنك - جعلني الله فداك - مع ما أُلْزِمُهُ نفسي من الحقوق المعترضة للمتقدمين في المنزلة المَرْعِيَّةَ بين المتخاصمين في المودة، لا إغْفَالًا للحق، ولا إضاعة للحظ، لكنْ عَرَضَتْ لي أحوال وأشغال وأسفار، ورجوت أن يُزِيلَ عني الاستزادة تمحُّلكَ لي عذرًا كعذرِكَ في تأخِرِ كُتُوبِكَ، فتقعُ متاركة أو مُسامحة^(٣).

ثم جرت خطوب تكشفَتْ عما ساءني منك، وخِفْتُ أن يغني العتاب من إعتابِكَ في سَوْرَتِكَ، فأَمْهَلْتُ تَوْقَعًا إلى الغاية، ومُؤَمَّلًا منك عند بلوغها حسن المراجعة، وأن تتأمل فتعلم أنني ما حُلْتُ عن عَهْدِكَ، ولا زُلْتُ عن وَدِّكَ، ولا جَنَيْتُ بيد ولا لسان عليك، فتتوكل لي على نفسك، وتتعطف بجميل أخلاقِكَ، وترعى مني ما يراه الحرُّ من صديقه، وتُتَبِّقِي عَلَيَّ مما أجريت إليه^(٤). فاستمرَّ بك اللجأُ، ووصلت ما أتيته في أمر فلان بإدامة النَّبْوةِ عني، والوضع مني، وجعلتَ ذكري - إذا ذَكَرْتَنِي - باللقب

(١) وكل الذي أحب أن أعرفه أنَّ لي صديقًا قد أبقت له الأيام مثل ما أخذت منه بل أعلى وأنفس مما أخذت، وأن أعرف أن الأيام لم تُسَيِّئْ إليه بالدرجة التي كنت أَخَذَرُها وأخشاها.

(٢) ولله - سبحانه وتعالى - رحمة نُنْتَظَرُها، وانفراج للغم نَأْمَلُهُ، وبر ومعروف نَتَوَقَّعُهُما، ولنا ذنوب وآثام كبيرة، ولكننا على ثقة من أن رحمة الله أكبر منها.

(٣) لم تتأخَّرْ رسائلي إليك إهمالًا لك أو إضاعةً لحَقِّكَ عندي، ولكن لأعمال وظروف وأسفار. وقد أَمَلْتُ أن تلتمس لي عذرًا كالذي تلتسمه لنفسك، فَيَمْحَى ذَنْبِي وَذَنْبُكَ مَعًا، ونَسَامِحْ - أنت وأنا - فيما بَدَرَ من كلِّ منا لصاحبه.

(٤) إعتابِكَ: إعطاؤكَ العُتْبَى، وإرضاءكَ، وترك ما يُغْضِبُكَ، والرجوع إلى ما يرضيك عني. ثم تَبَيَّنَتْ أمورًا عرفت منها ما ساءك مني، فتمهَّلْتُ وأَمَلْتُ أن تراجع نفسك، وتثق بآني ما تغيَّرت عن عودتك، وبآني ما قَدِمْتُ لك إساءة بيدٍ أو بلسانٍ، فترعى صداقتي وتبقي عليَّ.

دون الاسم، وبالاسم دون الكنية وبالكنية دون الدعاء. وما هكذا أفعل عند ذكرك، ولا أخللتُ بما يجب عليّ من تعظيمك ووصف فضلك ومحاسنك^(١)، ولولا الرغبة فيك والضنّ بك لوجدت عن هذا القول مذهباً ومُتَدَحّاً، لكنني مَلَكْتُكَ مني رِقَّ المودة، فَقَلَّ صبري على سوء الملكة^(٢).

وللقاسم بن محمد الكرخي:

لو كنتُ أعلم أنك تُعْتَبُ إذا عاتبتك، لَشَدَوْتُ من ذلك في مذهب لا أبلغ بك فيه القُصوى، ولا أقتصر منه على الأدنى، ولا أُخْلِكُ من الاستزادة في غير شكوى، والتعريف في غير تُعْنِيفٍ، والاحتجاج في غير تبكيت ولا توقيف.

ولكن شرّ القول ما لم يسمع، ولم يكن لقائله فيه مُنْتَفَعٌ^(٣). وأشبهُ البرّ بالعقوق ما اسْتُكْرِهَتْ عليه النفوس، ولم يكن له باعث من النية والضمير^(٤)، كما قيل:

وليس بِمُغْنٍ في المودة شافعٌ إذا لم يكن بين الضلوع شفيعٌ^(٥)
وما آمنُ أن أكون قد عزرت بمن كتبت له إليك، فإن كنت قد حلت عن كل جهة،
فهنيئاً لك سوء العهد.

وله:

الكتب تُحيي ما أمات الفراق، وتُجدّد من عهد المودة ما أخلقه الزمان، وقد انقطعت

(١) ولكنّ العناد استمرّ معك والبقاء دام، وجعلتَ تحطّ من قدري، ولا تذكر اسمي -إن كنت تذكرني يوماً- وإنما تذكر لقبني مرةً، وكنتي مرةً أخرى! على خلاف ما أفعل معك وأنا لم أترك يوماً تعظيمك وإجلالك وإذاعة محاسنك بين الناس.

(٢) ولولا رغبتي في مودتك، وحرصتي عليك، ما قلتُ هذا القول، ولا نصرفت عنه إلى غيره، ولكنني قد صبرتني مودتي عبداً لك مطيعاً.

(٣) لو علمت أنك ترضى إذا عاتبتك، لغنيت لك غناء لا أصل فيه إلى درجتك القصوى، ولا أكتفي فيه بالدرجة الدنيا، وإن شرّ القول ما كبّحه الإنسان في نفسه ولم يقله ولم ينتفع به.

(٤) وإن البرّ الذي يوشك أن يكون عقوقاً هو ما قهرت نفسك عليه، ولم ينبعث من قلبك أو ضميرك.

(٥) لن يفيد في الودّ شفيع أو مُعين، إن لم يكن ذلك الشفيع أو المعين هو قلبك الذي بين ضلوعك.

بيننا انقطاعاً كاد يعرضُ الشكُّ معه في اليقين المعتمد عليه، والصحيح الموثوق به من إخائك. على أنني لا أصرف شيئاً من العتاب إليك، إلّا عدتُ على نفسي بأمثاله لك، واستوفيتُ عليها استيفاءً، غير مُسامحٍ لها في المعذرة، ولا معذر في المعاتبه؛ فإن الحقوق بيننا تُوجب من التواصل ما نحن على ضده في ظاهر التعامل^(١).

فأما ما تنطوي عليه النِّيَّاتُ ودًّا وإخلاصًا فأرجو أن أكون فيه على منزلة تُعجزُ المجتهد؛ وأن تكون على مثلها.

وذلك هو الغرض المقصود، والمغزى المأمول؛ فإن الواصل بنيتِه - وإن انقطعتُ كتبُه - واصل، والواصل بنفسه - إذا مذقَ ودَّه - قاطع^(٢).

وقال كاتب:

أنت - أعزك الله - واجدٌ عندي مودةً غيرَ مدخولة، وعشرةً غيرَ ممْلولة، ودوامَ عهدٍ على طول المودة، وحسنَ احتمالٍ للصنعة، واستقلالاً بشكر العارفة، مع سعة العذر، ولين المطالبة، والتغمد بالصفح عند الزلة، والصبر على الجفوة في غير ذلة، والتغابي الذي يجلب الغفلة، واستفراغ المجهود في تحرِّي الموافقة^(٣).

ولست مسؤولاً إلا ما تتعاطاه ممكنًا، وتبذله عفواً، وتنهّد^(٤) له مسرعاً، وتأتيه مختاراً.

(١) إن الرسائل تحيي ما أماته البين والبعاد، وتجدد ما أبلاه الزمان. وقد انقطعت الرسائل بيننا انقطاعاً أوشك أن يبعث الشكُّ في أخوتك الصداقة الموثوق بها. ولست بهذا معاتباً لك وحدك، ولكنني مُعاتب لنفسي أيضاً؛ فإن حقَّ كلِّ منا على صاحبه يحتم علينا أن نتواصل، وأن يكون ظاهراً - من التواصل والتزاور - مثل ما عليه باطننا.

(٢) إن المخلص من ضميره وقلبه هو الصديق الوصول لنا حقاً، أما الغاشِّ المنافق فإنه - مهما اتَّصل بنا - قاطع هاجر.

(٣) وإنك لواجد عندي مودة خالصة من النفاق والغشِّ، ومعاشرة لا تملُّها ولا تسأمها، وعهداً باقياً لا يحول، وشكراً للنعم، وليناً، وصفحاً، وصبراً، وموافقةً ومشاكلة.

(٤) تنهّد له: تنهض له.

فإن تقبل ما بذلنا، وتوجب ما سألنا^(١)، فالفضل معك والرغبة إليك. وإلا فحطَّ ما أضعت، ويسرَّ ما منعت، على ظننا يتجاوز حد الظنون، تشبيهاً بالعيان، وقريباً من اليقين ألا نفنِّد رأيك^(٢) ولا نسوء اختيارك إن شاء الله.

ولسعيد بن عبد الملك في الحث على المواصله:

أكره أن أصف لك ولنفسى موضع العذر والقبول، فيكون أحدنا مُعتذراً مُقصرًا، والآخر مُتقبلاً متفضلاً. ولكني أذكرك ما في التلاقي من تجديد البر، وفي التخلف من قلة الصبر، والله أسأل أن يوفِّقك وإيانا لما تكون معه عُقبى شكر، لا عُقبى صبر^(٣).

وقال كاتب:

أخبرني -جعلني الله فداءك- أَحَصَلْنَا مِنْكَ عَلَى اعْتِلَالَاتٍ تَمَحِّلُهَا، وَمَعَاذِيرٍ نَتَخِيلُهَا، فِي هَجْرٍ تَظْهَرُهُ، وَتَدَّعِي أَنْكَ لَا تَسْتَشْعِرُهُ، وَجَفَاءٍ تُبْذِيهِ، وَتَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَنْوِيهِ^(٤)؟

لا كان مَنْ قَبَلَ هَذَا وَلَا أَفْلَحَ؛ لِأَنِّي إِنَّمَا أَحَبُّ اعْتِقَادِ الصَّدِيقِ لِي الْخَيْرَ لِتَوَلِيْنِيهِ وَأَكْرَهُ انْطَوَاءَ الْعَذْرِ لِي عَلَى الْقَبِيحِ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَبْلِيْنِيهِ. وَإِذَا كَانَ فَعْلَاهُمَا بِي سَيِّئًا، لَمْ أَعْرِفْ بِهِمَا فَاصِلًا؛ لِأَنَّ السَّرَائِرَ مُغَيَّبَةً عَنِ الْعَيَانِ، وَلَوْ اطَّلَعَ عَلَيْهَا لَمَا كَانَ فِي صَافِيهَا نَفْعٌ، وَلَا فِي دَخْلِ دَخِيلِهَا ضَرَرٌ، مَا لَمْ يَبْدُ مِنْ أَهْلِهَا السُّوءِ وَالشَّرِّ، بَلْ [لَكَانَ] الْعَدُوُّ

(١) تُوجب ما سألنا: تجعل ما طلبناه واجباً محتوماً.

(٢) نفنِّد رأيك: نكذِّبه.

(٣) العقبى: جزاء الأمر، وآخر كل شيء.

إنني لا أحب أن أذكر مواضع الأعداء التي تتقبَّل؛ فإنني بهذا أجعل أحدنا في موقف يوجب عليه الاعتذار، وأجعل الآخر في موقف يفضل فيه بقبول عذر صاحبه. ولكنني أذكرك بأن الاتصال والتلاقي يجددان الودَّ، وبأن التباعد والتجافي يجنيان من قلة الصبر والاحتمال.

(٤) هل حَصَلْنَا مِنْكَ عَلَى أسباب نتكلَّفُهَا، وأَعْذَارٍ نتوهمُهَا، وقُطِيعَةً تُبْذِيهَا وَتَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تحسها، وهَجْرَانٍ تَظْهَرُهُ لَنَا وَتَدَّعِي أَنَّهُ لَا تَنْتَوِي أَنْ تَفْعَلَهُ؟

الذي أحذره ويسرني، أحب إلي من صديق آمنه ويغرني، وأسكن إليه ويضرني^(١).

ولهذه العلة تراني أخالف أكثر الناس في هذا الباب، وأقول:

إن الواجب أن تردّ باطن الناس إلى ظاهرهم، وتستشهد أفعالهم على سرائرهم؛ إذ كانت الأفعال نتائج النيات وثمراتها، وأسلك مع إخواني هذه السبيل، وأسألهم أن يجروني على مثل هذه الوتيرة، ويعفوني من سريرة لا تعلم مصدوقتها، ولا تعرف حقيقتها، وأجريهم على ذلك، فليس من العدل أن يطالب المرء لنفسه بما لا يبذله منها^(٢).

وإذا عاملت الصديق الذي تُصافيه بالجفاء، فقد حملته على السيرة في الأعداء، وهذا فاحش الخطأ، أو أفحش منه أن تمنح العدو من الصلة تصنعاً، ما تمنعه الصديق تطوعاً، والله المستعان والمستودع لما لديك، والمستزاد في الإحسان إليك.

وقال كاتب:

وليس يضيق بيننا أمر من جهة الحجة، إلا اتسع من قبل المودة والحُرمة والأسباب المتصلة^(٣).

وقال آخر:

وأنت -أيها الأخ- في حال الجفوة إذا اعتمدتها، أبرّ من غيرك في حال الصلة إذا

(١) لا عاش من يقبل هذه الأوضاع المَعْوَجَة، فإنما أنا أحب من الصديق أن يريد لي الخير وأن يُوصِله إليّ، وأكره أن تَسْتَرّ الأعداءُ قبيحاً، وأخشى أن تبتليني به.

وإن كان فعل الشر وفعل الخير متساويين، فلست أعرف فاصلاً يفصل بينهما؛ لأن سرائر الناس خفية عن العيون. ولو أننا اطلّعنا عليها لما كان وراء ذلك جدوى ما لم يظهر السوء والشرّ واضحين محسوسين، فإن عدواً أخافه ويُرْضيني، أقرب إلى نفسي من صديق آمنه ويخدعني.

(٢) وإني أخالف الكثيرين في أنني أرى أن ترجع الباطن من الناس إلى الظاهر منهم، ونستدلّ بأعمالهم على ضمائرهم؛ لأن الأعمال هي نتائج وثمار النوايا.

(٣) إذا ضاقت الأمور التي بيننا من ناحية الحجة والبرهان، فإنها تتسع من جهة الودّ، والحُرمة المُرعية منا، والصلوات الدائمة القويّة التي بيننا.

توَّخَّاهَا وَقَصَّدهَا^(١).

وقال آخر:

ولولا أنك قلتَ فقلت، وكتبت فأجبت، لكان ما عندك من المعرفة بموقعي منك في هذا وغيره، مُغْنِيًا عن الإفصاح، ونائبًا عن الإيضاح.

وليس ينبغي لنا أن نتنازع فضلًا متى تَفَرَّدَ به أحدنا فهو شائع بيننا؛ إذ كان ما خَصَّكَ فقد خَصَّنِي، وما شَمِلَكَ فقد شَمِلَنِي وأنا أسأل الله -إذا مَنَّ بالنعمة- أن يجعلك المُقَدَّم فيها، وإذا امتحن بمحنة أن يجعلني وقايةً لك منها^(٢).

وقال آخر:

أنت تُعرض عني إعراض المتجرِّم، وترجع -إذا رجعت- رجوع المتدَّمِّم. فأما ما سبق إلى قلبك من التهمة، فكيف أُطْنَب في مَسَاءَتِكَ، وعلى قلبي من هواك رقيب يَحْجُرُهُ أن يتصرف إلا في إرادتك؟

ولسعيد بن عبد الملك:

أول أسباب المودة ما أنت به عارف، وله آلف، وإن كنت لا أَعْتَدُّ به برًّا، بل أرى لك فيه مِنَّةً وحقًّا؛ إذ صدقت المخيلة وخلصت على المحنة، ولست أستريب بما تُوجِبُهُ على حال من الأحوال بل أشكرُك على النية دون الفعل^(٣)، وتلك إرادة مثلي ومثلك. وعندي مزيد لكل ما تحب، وإسراعٌ إلى كل ما تهوى وتريد.

وقال آخر:

(١) وإنك -في جفائك وهجرِك- لأكثر برًّا ومعروفًا من سواك في صلته وقُرْبِهِ.
(٢) لا يجوز أن تتخاصم وتختلف في فضل إذا كان واحدٌ منا متفردًا به؛ لأنه متى كان لواحد منا فإنه لنا جميعًا.
وإني لأطلب إلى الله تعالى أن يجعلك المُقَدَّم في كل نعمة، ويجعلني الوقاية لك من كل محنة ونازلة.
(٣) إن أول أسباب الودِّ هو ما تعرفه وتألّفه مني من حُسن صلة، ومن برٍّ ومعروف، وإن كنت لا أعد هذا برًّا ومعروفًا، بل أراه حقًّا لك، وأراك المُمْتَنِّ عليّ دائمًا؛ فإن نواياك الطيبة نحوي -وحدها- لتكفيني، وتستوجب شكري، وإن لم يصحبها فعل.

والله لا قَابَلَ إِحْسَانَكَ مِنِّي كُفْرًا، وَلَا تَبَعَ إِحْسَانِي إِلَيْكَ مَنْ، وَلَكَ عِنْدِي يَدٌ لَا أَقْبِضُهَا عَنْ نَفْعِكَ، وَأُخْرَى لَا أَبْسُطُهَا إِلَى ظُلْمِكَ. فَتَجَنَّبَ مَا يُسَخِّطُنِي؛ فَإِنِّي أَصُونُ وَجْهَكَ عَنْ ذَلِّ الْعِذَارِ^(١).

ولحمد بن مهران:

لي -أَعَزَّكَ اللهُ- سَابِقُ حُرْمَةِ يَحْفَظُهَا مِثْلَكَ وَلَوْ اجْتَرَمْتُ، وَمَتَقَدَّمُ حَقِّ يَرْعَاهُ كَرَمِكَ وَلَوْ اقْتَرَفْتُ، وَسَالِفٌ لَا يَنْقُضُهُ وَفَاؤُكَ وَلَوْ اجْتَرَحْتُ، وَخَالِصٌ مُودَةٍ لَا يُضَيِّعُهُ حَيَاؤُكَ وَلَوْ زَلَلْتُ.

ولجعفر بن يحيى:

عِنْدَنَا الْإِغْتِفَارُ لَمَّا اقْتَرَفْتُ، وَتَصَدِيقُ كُلِّ مَا قُلْتُ، وَاحْتِجَجْتَ بِذِكْرِهِ، وَاعْتَذَرْتَ بِوَصْفِهِ، وَالْإِسْقَاطُ لَمَّا جَحَدْتَهُ، وَالْإِكْذَابُ لِلْجَوْرِ الَّذِي اقْتَرَفْتَهُ، وَالرَّجُوعُ عَمَّا أَنْكَرْتَهُ، وَالزِّيَادَةُ فِيمَا اخْتَرْتَهُ^(٢)؛ اسْتِدْعَاءٌ لَكَ وَإِنْ انْصَرَفْتُ، وَحَيَاظَةٌ لَمَّا قَدَّمْتُ وَإِنْ ذَمَّمْتُ، وَإِثَارًا لِلْإِغْضَاءِ وَالْإِحْتِمَالِ؛ فَإِنَّهُمَا أَبْلَغُ فِي الْإِصْلَاحِ، وَأَنْجَعُ فِي الْاسْتِنْبَاحِ، وَأَبْلَغُ فِي التَّعْلِيمِ، وَأَكْبَرُ فِي التَّقْوِيمِ إِنْ احْتِجَّ إِلَيْهِ فِي مِثْلِكَ مِمَّنْ تُؤَمِّنُ عَلَيْهِ قَرِيحَتَهُ، وَتَرُدُّهُ إِلَى الْاسْتِقَامَةِ تَجَرِبَتَهُ^(٣).

ولسليمان بن وهب:

مَنْ انْصَرَفَ عَنِ الْحِجَّةِ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمَا يُلْزِمُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَازِمًا، فَقَدْ لَطَفَ

(١) إِنْ أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ فَلَنْ أَقَابَلَ إِحْسَانَكَ بِالْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ، وَإِنْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ فَلَنْ أُتْبِعَ إِحْسَانِي إِلَيْكَ مَنًّا وَذِكْرًا وَأَحَادِيثَ عَمَّا أَحْسَنْتُ بِهِ إِلَيْكَ. وَلَنْ أَقْبِضَ يَدِي وَأُمْسِكُهَا عَنْ نَفْعِكَ، وَلَنْ أُمَدِّ يَدِي الْآخَرَى إِلَى ظُلْمِكَ. فَابْتَعِدْ عَمَّا يَجْعَلُنِي سَاحِطًا نَاقِمًا عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَا أَرْضَى مَذَلَّةَ الْعِذَارِ.

(٢) وَإِنْ عِنْدَنَا الْغَفْرَانُ لَمَّا تَرْتَكِبُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَصَدِيقُكَ فِي كُلِّ مَا تَقُولُ، وَتَكْذِيبُ كُلِّ مَا ارْتَكَبْتَ مِنْ ظُلْمٍ، وَالْإِنْتِهَاءَ عَمَّا تَسْتَقْبِحُ، وَالْإِسْتِزَادَةَ فِيمَا تَحِبُّ وَتَهْوَى.

(٣) وَمَا ذَلِكَ إِلَّا دَعْوَةٌ لَكَ إِلَى الْعُودَةِ إِلَيْنَا وَإِنْ كُنْتَ قَدْ انْصَرَفْتَ عَنَّا، وَصَوْنٌ لَمَّا أَسْلَفْتَ إِلَيْنَا، وَتَفْضِيلٌ لِلتَّغَاضِيِ وَلِلصَّبْرِ وَلِلْإِحْتِمَالِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْدَى فِي الْإِصْلَاحِ وَالتَّقْوِيمِ.

للاستعفاف، واستوجبَ المُسامحة والإِنصاف^(١).

ولابن ثوابة:

وصل إليَّ كتابٌ مُخالفٌ لما كنتُ أعرفُكَ به من الصَّفح والفضل والأخذ بمحاسن الأمور، فإن كنتَ شفيتَ به غيظًا، وبرَدتَ به غليلاً، فما أسهله. وإن كنتَ لم تندم عليه ندم الممتنزه عن سوء المجازاة، ولم تُراجع الجميل بعده، فما أشده^(٢).

وأني ذلكَ كان، فأرجو ألا يجتمع على عبدك الخطأ والإصرار على الذنب، ولا أفارق استصلاح رأيك واسترجاع ودك ما حييت^(٣).

وإن لم أصل إلى حيازة ما كان لي منه، فإني قانع ببعضه، ما أُستقلَّ شيئاً من أقسامه، ولا أياُسُ فيكَ من عُقبى الأيام، وحُسن مراجعة الدهر، حتى يكون هذا الذي حدث بيننا من ظلم وعُتب منك نافيًا لكل وحشة، ومؤكِّدًا لكل ثقة. فلستُ فيما أنكرتُه بواجد، ولا الفضلُ في أخلاقك وشيَمِكَ بِمُسْتَعَرَب^(٤).

وله:

فإن رأيتَ أن أتصفح مُستأنفًا كما صفحتَ مُتقدِّمًا، وتتفضل عائداً، كما كان الفضل منك بادئًا، فإني قاطع كل سبب إلا ما وصلني بك، وتاركُ مكاتبة الناس جميعًا إلا من أجرى لي ذِكْرًا عندك، واستدعى إحسانًا ورَفْدًا منك^(٥).

(١) إن الذي لا يُكثر اللجاج والمُحاجة، ويتَّجه نحو الإقرار بما يُعزى إليه وإن لم يكن حقًا. إن الذي يفعل ذلك فإنه قد صار لطيفًا سمحًا سهلًا صالحًا للاستعفاف مستحقًا للتسامح والعدل معه.

(٢) الغليل: العطش، وقيل شدته، وقيل حرارته، والحقد، والضغن.

جاء في كتابك على غير ما أعلم منك من العفو والكرم. فإن كنت قد شفيتَ به ضيغًا وحقًا فما أيسره، وإن كنتَ لم تندم عليه بعد كتابته ولم تُراجع فيه نفسك، فإنه لَصَعْبٌ شديد.

(٣) وسواء كان هذا أو ذاك، فإني أرجو ألا يجتمع في الخطأ والتمسُّك بالذنب، ولستُ -يومًا- بمُخالفٍ رأيك وإعادة مودتك وحبك.

(٤) وإن لم أبلغ إلى نيل ما يحق لي أن أناله، فإني راضٍ ببعضه، غير يائس من حُسن العاقبة.

(٥) فإن رأيتَ أن نصفح عما مضى، وأن تعود إلى سابقِ ودك، فإني أتركُ الناس جميعًا إلا أنتَ وما يصلني بك، وأمتنع عن الكتابة إليهم إلا من ذكرني عندك بالحسن، عطاءً وإحسانًا منك.

ولمحمد بن مُكرم:

وخاتمة الأعدار بيني وبينك صدقي إياك عما عندي أنك لا تُحدث نبوة إلا أحدثت لي عنك سلوة، ولا يزداد أُملي في إثباتك ضعفًا، إلا ازدادت مُتتي في قطيعتك قوة؛ حتى لا أقبل العُتبي، ولا أختار المراجعة، وحتى يُسلمني اليأس منك إلى العزاء عنك^(١).
فإن ترع فتصنع، فلا تثريب فيه. وإن تماديت فتهجر فلا وصل بعده، والسلام.

وله:

ما زالت نيتي وسريري الحِفاظ الحرّ، والوفاء المرّ لإخواني عند النكبات، كما قال حماد بن عَجْرَد:

أنا عَبْدُ الوفاءِ، لا أَطْلُبُ الدهـ رَ من الرِّقِّ - ما حييْتُ - فِكَاكَ^(٢)
وصل الله بالصُّنْعِ صُنْـ عًا، وبالمَزِيدِ مزيدًا
وللبصير:

من ذممت عهده، واستقصرت فعله، أو لبسته على التجاوز له عما أنكر، فأنت الأخ المرضي إخاؤه، المحمودُ عندي بلاؤه، المخالطُ أمري بأمره في عُسرهِ ويُسْرهِ، الباذلُ ما لا أسأله، والحاملُ لي على نفسه فوق ما أحمله، ومن لا يُخلفني عِدّة المَثابرة عليه، ولا يُخلِّ بموضعي عنده إغبايي إياه^(٣).

(١) مُتِّي: بضم الميم: قُوتِي. العُتبي: الرضى.

وعذري الأخير هو أنك كلما أسرفت في الجفاء زدت أنا سلوة لك وانصرافاً عنك، وكلما حاولت إضعافي زدت قوة في هجرك والنفور منك، حتى لا أقبل الرضى، وأنتهي إلى السلو عنك سُلوًا تامًا.

(٢) إني عبدٌ للوفاء والحفاظ ورعاية العهد، ولستُ طالبًا - يومًا - الخلاص والفكاك من هذا الأسر، ومن تلك العبودية.

(٣) إن كنت قد ذكرتُ إنسانًا بالسوء لنفضه العهد، أو كنتُ وجدته مُفَصَّرًا، أو كنتُ قد صادفته على ما به من معائب.. إن كان ذلك فأنت الأخ الذي يُرضى إخاؤه، ويُحمد اختبارَه، الذي خالط أمري بأمره في الشدة وفي الرخاء، والذي يعطيني ما لا أطلب، والذي يحمل من متاعبي فوق ما أحمل، والذي لا يخلف وعده لي بالثبات على الوَدِّ، والذي لا يفسد مودته انقطاعي عنه.

وله:

فأما من احتجّ في إساءته، وأغضبه على أخيه أن يستعبته، فقد جعل العقل خصمه،
وظلّم الإخاء حقّه^(١).

وما ساهلناك فيه، أو حادثناك إياه، فلفرط الضنّ بك، والمحاماة عن ذلك. والله
يقيني فيك، ويدفع لي عنك^(٢).

وقال شاعر:

وإذا يُنوبك -والحوادث جمّة- حَدَثٌ، حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ^(٣)

كتب عُمارة بن حمزة إلى محمد بن زياد الحارثي يطلب إخاءه:

أما بعد: فإن أهل الفضل في اللبّ، والوفاء في الودّ، والكرم في الحق، لهم من
الثناء الحسن في الناس لسانٌ صدق يُشيد بفضلهم، ويُخبر عن صحة ودهم، وثقة
مؤاخاتهم، فتجوز لهم بذلك رعية الإخوان، وتُصطفى لهم سلامة الدور، وتُجتنى لهم
ثمرة القلوب^(٤).

ولقد لزمّت من الوفاء والكرم -فيما بينك وبين الناس- طريقة محمودة نسبت إلى
مرتبها في الفضل، وجُمِلَ بها ثناؤك في الذكر، وشهد لك بها لسان الصدق، فعُرفت
بمناقبها، ووُسِّمت بمحاسنها، وأسرع إليك الإخوان، بمحبتهم مُستَبِقِينَ، وبرغبتهم

(١) أما الذي يُقيم الحجج والأدلة على حقّه في الإساءة إلى أخيه، ويُغضبه أن يطلب إليه أخوه الرضى وقبول
العذر.. فإنه قد عادى العقل وجعله خصماً له، ولم يعط المودة حقّها.

(٢) وما رأيت منا من تساهل وتسامح، فإنما هو لأننا حريصون على مودتك، مُدافعون عن إخائك. وإنّي أسأل الله
أن يحفظك لي من كل سوء، ويدفع عنك كل شرّ.

(٣) إن حلّ بك خطب، أو نزلت بك نازلة -وما أكثر الخطوب والنوازل- فإن الخطب والنازلة سيدفعانك إلى
أخيك الوثيق العهد، وإن المرء ليلجأ -كما يقولون- إلى الصديق، ساعة الضيق.

(٤) رعية الإخوان: رعايتهم.

إن ذوي الفضل والوفاء والكرم، لهم من مديح الناس وشكرهم لسان صادق يُذيع فضلهم بين الناس، فيحقّ
لهم أن يرعاهم الإخوان وأن يُختار لمودتهم ذوو الصدور السليمة، وأن تُجتنى لهم ثمار الأئفدة والقلوب.

فيك مُتقاطرين؛ يبتدرون ودَّك، ويصلون حبَّك^(١).

فمن أثبت الله عندك ودًّا فقد وضع خِلته عندك موضع الحرز والثقة، ومَلَأ به يديه من أخي وفاء وصله، واستنم بك إلى شُعْب مأمون، وعهد محفوظ، وصار مغمورًا بفضلك عليه في الودِّ، يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع، ويتطلَّب منه ما لا يلحق^(٢). ولو كنت لا تُؤاخي إلا من كان في وزنك، وبلغ من الخلال مبلغ حدِّك، ما آخيت أحدًا، ولكنت من الإخوان صَفْرًا.

وقد رأيت أن آخذ بنصيب من ودك، وأصل وثيقة حبلي بحبك، وعلمت أن تركي ذلك غبن، وإضاعتي إياه جهل^(٣).

وله:

غير أنني إن كنتُ مقصِّر القوة، فلست بمقصِّر النية، وإن كنت مقصِّر الرأي فلست بمقصِّر الرغبة.

وله أيضًا: أما بعد، فإن خير الإخوان من عَظُم حلمه، وحسُن لفظه. وشرهم من عَجِلت بادرتة، وساءت مَقالته. وقد عرفنا فضلك وعُدنا إلى موافقتك. فَصِلِ الأول من طَوْلِكَ، بالآخر من مراجعتك^(٤).
وله:

لا [تكن] كمن يرى الحَسَنَ من نفسه، ويتغابى عن الجميل من غيره، وإني المأمونُ

(١) ولقد اتَّبعَت سبيل الوفاء، وجعلتُه طريقَةً لك، فأحسَنَ الناس الثناء عليك، وجعلوا تلك الطريقة سِمَةً وعلامةً عليك، وأسرع الإخوان إليك، يخطبون ودَّك.

(٢) فَمَنْ أَخَاكَ فقد وضع صداقته في حصن مكين، واطمأنَّ إلى سلامة الطريق الذي يسلكه، وأصبح فضلك غامرًا عنده.

(٣) وقد اعترمتُ أن أنال حظي من ودك؛ اعتقادًا مني بأن تركي لك ظلم لنفسي وخديعة لها، وأن تضيع هذا الحظَّ جهالة وسوء رأي.

(٤) إن أفضل الإخوان من كان عظيم الحلم، حَسَنَ القول. وشرُّ الإخوان من كانت حِدَّتُه عاجلة، وأخطاؤه وسَقَطَاتُه سريعة. وقد عرفنا فضلك وبرِّك، ورَجَعْنَا إلى ما يُوافِقك وما ترضاه، فَصِلِ قَوْلَكَ بحلمك ومراجعتك.

اليوم في إخوانه، المداوم لمن عاهد بوفائه. والغالب على الأكثر ملقُ النطق، والتلافي بالظنون^(١).

ولابن المقفع:

أما بعد، أصلحنا الله وإياك صلاحًا دائمًا يجمع لنا ولك به الفضيلة في العاجلة، والكرامة في الآجلة. فإني لا أعرف أمرًا أعظم عند أهل منفعة من أمر تُرك ذكره لفضله، ولا أعلم أمرًا أحق بأن يستغني أهله بفضله عندهم عن ذكره فيما بينهم من أمر أرسخ الله بيننا وبينك في الدنيا أسبابه، وثبت حقوقه وعظم حُرْمته. فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا وبينك في الدنيا؛ حتى نكون إخوانًا في الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها إلا خلة المتقين^(٢).

قال كاتب:

لا تجمعنّ دعوى السُّراة، وتكبرِ الولاية، وتحكّم القضاة^(٣).

وقال آخر:

لا تدعُ قوة ملكك لفضلك في صلة إخوانك إلى استصغار ما يتخلصون إليه من صلتك؛ فإنك إن قايسَهم بتفضلك عليهم، قلّ كثيرهم في جنب ما يأتيه إليهم.

وقال آخر:

إنّا -حَفِظَكَ اللهُ- لو كنا قطعناك، ثم كافأنا بقطيعتك إيانا، ما كان لك أن تُفردنا

(١) ولا تكن كذلك الذي يرى الشيء الحسن إن كان صادرًا منه، ويتجاهل ويتعامى عن الحسن إن كان صادرًا من غيره. وأنا الذي تأمنه اليوم في مودته، الدائم على عهد الوفاء والمحبة. وإن الأغلب الأعمّ في الناس هو النفاق بالألفاظ وتدارك الأشياء بالأوهام دون مروءة أو عمل.

(٢) إن أعظم الأمور عند أصحاب المنفعة هو أمرٌ تركوا ذكره والحديث عنه لفضله المعروف وشأنه المعلوم عندهم الذي لا يحتاج معه إلى ذكر وتنويه، وأعظم الأمور جدارة بهذا، هو الود الثابت بيننا، ندعو الله أن يديمه حتى يوم البعث الذي يكون الأخلاء فيه بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

(٣) لا تجمع في شخصك ادعاء السادة وترفعهم وتعظم الحاكمين وكبرياءهم، وتسلب القضاة الذين لا يقف أمام كلامهم شيء، ولا يستطيع أحد له ردًا.

بالذنب دون نفسك؛ إذ صرّت فيه نظيراً؛ لأنك أنكرت علينا ما ركبتّه، وطلبت منا ما تركتّه^(١).

وقد علمت أن المكافئ لم يدع وراء ما فعل ولا يستوجب تقاضي ما جهل، فاحكم لنا عليك، بمثل ما تحكم به علينا لك.

ولجبرير بن يزيد:

أما بعد، فإنه لولا ما خلق الله له الناس من تقلّب قلوبهم، وتصرف حالاتهم ونيّاتهم، واختلافهم، لما تشعبوا من أصلهم، ولا ائتلف منهم اثنان بعد تشعبهما، ولا بد -فيما يحدث بين الناس- من علل الوحشة وأسباب العداوة والفرقة، وأن يجري بينهم من المودة، ودواعي الصلة من سابق ومسبوق، وداع ومجيب^(٢).

فسابق إلى قطيعة يجتني بها من صاحبه الوحشة، ومبتدئ بصلة يجتلب بها من صاحبه الثقة، ويزرع بها في قلبه المِقة^(٣).

وقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ما حرّكني لودّك، ورغّبني في خلتك ودعاني إلى طلب فضلك، فأجبتُ دعاءك إلى الصلة والملاطفة بما أحسستُ لك من الثقة، وحدث لي فيك من الرغبة. فاقبل ما بدا لك من ودّنا، وأحسن الإجابة إلى ما دعوناك إليه من إخواننا، واتبعنا بإحسان إذ كان الابتداء منا. فإن المُجيب إلى الجميل شريك

(١) لو كنّا هجرناك، ثم جازيتنا على هجرنا بهجر مثله، فإنه لا يصحّ لك أن تُحملنا الذنب وحدنا دون نفسك، فقد صار موقفك من هذا الذنب هو نفس موقفنا منه، وأنت بهذا تستقبح منا ما فعلته أنت، وتطلب إلينا أن نفعل ما تركتّه!

(٢) تشعبوا: تفرّقوا.

لولا ما فطر الله الناس عليه من تحوّل القلوب وتغيّرها، وتبدّل الأحوال والنوايا، لولا ذلك ما تفرّقوا من أصلهم، ولا اتّفق اثنان منهم بعد تفرّقهما.. ولهذا أسباب وعلل، منها الوحشة والعداوة والفرقة والمودة والصلة، ولا بدّ في هذه الأمور جميعها من سابق ولاحق، ومن داع ومستجيب.

(٣) فهناك من يسبق إلى الهجر والقطيعة ويَجْني منها الوحشة والانفراد وانعدام الأُنس والبهجة، وهناك من يبتدئ بالودّ ينال به الثقة والاطمئنان، ويزرع في قلب صاحبه المحبة.

الراغب فيه، وإن المكافئ به شكل لمُسديهِ^(١).

ولا تَكْرَهَنَّ أن يكون لنا إذ دعوناك مُجيبًا، وإذ سبّقناك بالفضيلة تابِعًا؛ فإننا قد أحسنّا إجابة فضلك.

واعلم أنك لو كنت سبقتنا إلى الصَّلّة، وتقدّمنا إلى الرغبة، وطلبتَ فضلنا عليك بالمودّة، كنتَ بذلك للطول أهلاً، وبه جديرًا؛ لأنّ مثلك في فضلك عطف نفسه على نفسه، ومثلنا رغب في صلته^(٢).

وللحسن بن وهب إلى أبي صالح:

لولا اتّكالي عليك لكثرت كتبي إليك، وإذا استحكمت الثقة نقص البرّ؛ لما يدخل النفوس من الكسل عن العمل، والاسترسال إلى الاتكال.

فكتب إليه أبو صالح، وكتب في آخره:

يا مُشفقًا حَذِرًا على ودي له كن كيف شئت، فإنني بك واثق^(٣)
ولكاتب:

صمتت مخاصمة نفسي لك بلسان عُذرك، فأنا وكيلك على ما أصلح من قلبي لك، وأمينك على القيام على نفسي بحجتك^(٤).

(١) ولقد سمعتُ عن وفائك وكريم خُلقك ما دفعني إلى مودّتك وإخائك. فاقبل مودتنا، وأجِبنا إلى ما دعوناك إليه، فإنه وإن كان الابتداء منا بهذه الدّعوة، إلا أن المجيب إلى صُنْع الجميل شريك لمن رغب فيه أولاً، والمُجَازِي عليه شبيه للمُنعم به.

(٢) ولو أنك سبقتنا إلى وصلنا، وسرّتَ قبلنا إلى الرغبة، وجعلت الفضل سبيلًا إلى مودتنا، لكنتَ بذلك أجدر بالفضل، لأنك جذبتَ نفسك إلى نفسك، ونحن رغبنا في الاتصال بك.

(٣) أيها الخائف على ودي له أن يتبدّل أو يتغيّر، افعل ما تريد فإنني واثق من إخلاصك ومن مودتك على كل الحالات.

(٤) إن اعتذارك أسكت خصامي لك، وأشهدك على ما أقوم به نفسي وقلبي من أجلك، وأطمئنك على أنني أحمل على نفسي، وأكلفها القيام بما أوردت من حججك وأدلتك في اعتذارك إليّ.

ولسعيد بن حميد:

أنا -جُعِلْتُ فِدَاكَ- أعتذر إليك بالشغل، وأعذرُك به، وأرى أن من سلمت نيته، وصحت علانيته ومودته، لم يقدح في الثقة به، ولم يكن في تأخير كتبه ورساله ما يُزيل إخاءه عن عهد. والله يديم نِعَمَهُ لك، ويُقدِّمُني قبلك^(١).

ولحمد بن مهران:

وأما فلان، فهو -والله- النفيس^(٢) ودًّا، والوفي عهدًا، والبعيد من الأذى، الصافي من القذى، المتواطئ سرًّا وإعلانًا في إعظامك، وشكر إنعامك، والابتهاج بأيامك. وأكره حثك على زيادته فيكون قدحًا في رعايتك الذِّمام لأهله، وسوء ظنٍّ بما توجهه لمثله.

وكتابتك -إذا ورد- آنسَ وسرَّ، إلى أن تستغني بالنظر عن الخبر، وعن التكاثر بالتزاور^(٣).

ولكاتب:

تفضلك -يا أخي- أدام الله عزك- في وقت يتظاهر عليّ، وبرُّك يتوالى ويتضاعف لديّ. وإن كان شكري دون ما تستحقه، فقد جَلَّ ما أولَّيتني عن الشكر^(٤).

وأنت الذي بلَّغتنني ما أردته، وأوطأتني خد الزمان على قسر، وما زلت -يعلم الله- قبل المشاهدة أعد نفسي منك بجميل المساعدة، وعظيم المعاوضة. ثم وقع الالتقاء

(١) إن من تكون نيته سليمة طاهرة، وعلانيته صحيحة، ومودته خالصة لا يداخلها شك أو ريب... فإنه لا يجوز أن تُدَمَّ مودته، أو يُنْتَقَص من الثقة به، ولا يكون في تأخير رسائله ما يضعف من إخائه. أسأل الله أن يُثَبِّتني أنعمه عليك دائمة، وأن يجعل منيَّتي قبل منيَّتك.

(٢) النفيس: الذي يُتَنَافَسُ، ويُرَغَب فيه.

(٣) إن وافاني كتاب منك فإنه يُؤَسِّسني ويسرُّني، إلى أن تستبدل بالخبر الرؤية واللقاء، وبالمكاتبة الزيارة.

(٤) وقد تفضلت عليّ في وقت يُولِّي أذبارهُ عني، وعطاؤك يزداد عليّ. وإن يكن شكري أقل مما ينبغي لك، فإن ما تَهَبُّ لي أجل وأعظم من كل شكر.

فصدق مخايل الفِرَاسة^(١)، وبَيَّن آثار النفاسة.

وقد -والله- اسْتَخْلَصْتَنِي أَخَا صَادَقَ الإِخاءِ، خَالِصًا مِنَ الْأَقْدَاءِ، يَتَّصِلُ شُكْرُهُ واعتداده، وتدوم محبته ووداده.

فإن كان سيدنا عظيم الرَّعاية، كثير الإيجاب والعناية، فالمنة فيما أَلْفَيْتُهُ عليه من ذلك لك؛ لأنك جددت ما دَرَسَ ذُكْرُهُ، وأَحْيَيْتَ ما تَقَادَمَ عَهْدُهُ، ووَكَّدْتَ اليَدَ عند من تنمي عنده^(٢).

وأنا أسأل الله أن يُعَلِّي يَدَكَ بِالْمَكَارِمِ وَالْفَضَائِلِ، وَيَسْطِهَا بِالْعُرْفِ وَالنَائِلِ، وَلَا يُخْلِكَ مِنْ جَمِيلِ أَقْسَامِهِ، وَجَزِيلِ مَوَاهِبِهِ وَإِنْعَامِهِ^(٣).

ومهما شَكَّتُ فِي شَيْءٍ، أَوْ ارْتَبْتُ بِهِ، فَمَا يَتَخَالَجُنِي شَكٌّ وَلَا ارْتِيَابٌ فِي أَنَّهُ لَا مَزِيدَ فِي نَيْتِكَ، وَلَا عَنَاءَ فَوْقَ عَنَائِكَ، وَإِلَى هَذَا الْيَقِينِ قَدْ سَكَنْتَ نَفْسِي، وَبَقُوَةُ الْأَمَلِ فِيكَ قَوِيَّتْ مُتَمَّتِي، وَبِحِمَايَتِكَ إِيَّايَ اسْتَدْرَكْنِي، وَبِإِزَالَتِكَ مَا أَحْذَرُ زَالَتِ الْفِكْرَةُ عَنِي. فلا أَعْدَمُنِيكَ اللَّهُ، وَبَلِّغْكَ أَمَانِيكَ، وَبَلِّغْنِي غَايَةَ الْمَحَبِّ فِيكَ^(٤).

قال شاعر:

أَجِيرَانَنَا، مَا أَوْحَشَ الدَّارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غِبْتُمْ عَنْهَا، وَنَحْنُ حُضُورٌ^(٥)

(١) وَأَنْتَ الَّذِي أَوْصَلَنِي إِلَى مَا أُرِيدُ، وَرَفَعَنِي فَوْقَ ظَهْرِ الزَّمَانِ عَلَى كُرْهِهِ مِنْهُ. وَكُنْتُ -قَبْلَ أَنْ أَلْقَاكَ- أَبْشَرُ نَفْسِي بِجَلِيلِ الْعَوْنِ، وَالْمُسَاعَدَةِ مِنْكَ، ثُمَّ تَحَقَّقَ التَّلَاقِي فَحَقَّقَ مَا كُنْتُ أَنْخِيلُهُ مِنْكَ وَمَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ.

(٢) فَإِنْ كَانَ صَاحِبُكَ شَدِيدَ الْعَنَاءِ وَالرَّعَايَةِ، فَالْفَضْلُ فِيهِمَا وَجَدْتُهُ عَلَيْهِ يَرْجِعُ إِلَيْكَ لَا إِلَهَ؛ لِأَنَّكَ جَدَّدْتَ مَا بَلَّيَ مِنْ سِيرَتِهِ، وَأَعَدْتَ الْحَيَاةَ إِلَى مَا طَالَ عَلَيْهِ الْقَدَمُ، وَوَقَّعْتَ الْمَعْرُوفَ الَّذِي يَزِيدُ وَيَكْثُرُ عِنْدَهُ.

(٣) أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ يَدَكَ عَالِيَةً بِالْفَضْلِ وَالْمَكَارِمِ وَالنَّعَمِ، وَأَنْ يَسْطِهَا وَيَمُدَّهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْعَطَايَا، وَلَا يُخْلِكَ مِنْ خَيْرِهِ وَأَنْعَمِهِ وَعَظِيمِ آلَاتِهِ.

(٤) وَلَوْ أَنَّنِي دَاخَلَنِي الشَّكُّ فِي أَيِّ شَيْءٍ، فَلَنْ يُدَاخِلَنِي شَكٌّ أَوْ رَيْبٌ فِي حَسَنِ نَيْتِكَ، وَلِهَذَا فَقَدْ اطمَأَنَّتْ نَفْسِي إِلَيْكَ وَتَقَوَّيْتُ بِكَ. فَلَا عَدَمَتَكَ وَلَا فَقْدَتَكَ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبْلِّغَكَ مَا تَمَنَّى، وَأَنْ يَبْلِّغَنِي أَقْصَى مَا يَرْغَبُ لَكَ مَحَبُّوكَ.

(٥) أَيُّهَا الْجِيرَانُ الْأَعْرَاءُ، إِنَّ الدَّارَ بَعْدَكُمْ مَوْحِشَةٌ مَظْلَمَةٌ. وَكَذَلِكَ تَكُونُ دَائِمًا إِنْ فَارَقْتُمُوهَا وَلَوْ كُنَّا بِهَا حَاضِرِينَ.

ولكاتب:

أنا أخوك المشارك لك في نعمتك، الذي يعلم الله أنك تضعه بحيث يريد لنفسه من قلبك ونظرك، وأنت الذي لا أستزيد ولا أحتاج إلى كده لاكتفائي بعفوه وحسن ظني به لمن ليس مثلي من أهله.

ولكاتب:

قد فتحت عليّ باب المعنبة، وأحوجتني إلى أن أغلقه عني بالمعذرة والحجة، وكلفتني من ذلك ما لم يكن لي خلقاً ولا عادة. ورأيتك عجلت فقبلت صيغة لسان كاذب، واستعملت مقالة بائر فاجر. فاستمع، وأنصف، ولا يذهبن بك هوى مُسرف، ولا يغلبن عليك شيء سبق إلى أذن أو قلب.

فليس لك أن تغفل، ولا تتغافل، ولا تجعل توهماً كحق، ولا يقيناً كشك^(١).

ولآخر:

أنا من الشوق إليك على ما يستوي في العجز عن وصفه الخطيب المصقع، والعِي المُفحم. وحق لمن فقدك ألا يقنع بغيرك، ولا يسكن قلبه دونك؛ لأن الله جعلك صَفْوَ لا كَدَرَ فيه، ووفاء لا غدر معه^(٢).

فأما ما ذكرت مما توجه لي وتحرّاه فيّ، فتفضّل الذي سبق استيجابي، وبرّك الذي تقدّم استحقاقي.

(١) إنك قد فتحت عليّ باب العتاب، وجعلتني في حاجة إلى إغلاقه بالاعتذار مرة، وبالبرهان مرة أخرى، وهذا ما لم يكن خلقاً لي ولا عادة، ولكنني وجدتك قد استجبت مُسرّعاً إلى كلام فاسق كاسد. ولا بأس بأن تستمع، على أن تكون عادلاً، غير ذاهب مع الهوى البعيد، وغير مستمع إلى كلام معاد مكرور بال ليس وراءه شيء.

(٢) الخطيب المصقع: البليغ، العالي الصوت، الذي لا يرتج عليه في كلامه.

وإني لفي شوق إليك يستوي في العجز عن وصفه الخطيب البليغ، والعِي والمحمصور في القول، الذي لا يستطيع الاسترسال في القول فيسكت عجزاً وأنهاراً. ومن يفتقد فإنه جدير ألا يقنع بأحد سواك؛ لأنك الصفاء الخالص الذي لا يلحق به كدر، والوفاء الوثيق الذي لا يُدْخله غدر أو خيانة.

وحقيق مَنْ جمع الله له من خصال الفضل ما جمع لك، بِرَبِّ معروف أسداه، وإتمام جميل ابتداه^(١).

ولآخر:

ولو اعتصم شوقي بمثل سُلُوك عن صلتني، لم أبتذل لك وجه الرغبة فيك، ولا تحسَّيْتُ مرارة تماديك، ولكن استخفَّني صباية إليك فاحتملت صعب قسوتك لعظيم قدر مودتك^(٢).

وأنت أحق من انتصر لصلتي من جفائه، ولشوقي من إبطائه.

ولإبراهيم بن المدير:

ذكرت -جعلني الله فداءك- خوفك إملائي، والزيادة في إشغالي بكثرة كتبك، فأقول: أخي، قدمت قبلك، لم أرزق فيما قلته عدلك، هل يملّ الروح جسده؟ والجسد جوارحه؟ والجوارح سلامتها؟ والسلامة دوامها^(٣)؟

ظلمتني -عفا الله عنك- فأما الشغل فيك ولك فإنه غير منقطع بذكرك، والفكر فيك، والشوق والنزاع إليك، والخوض والإفاضة في محاسنك^(٤).

والله وليّ جمعنا سريعاً بما هو أهله وقد كان -والله- قلبي شديد التطلع إلى ورود خبرك، وعلم وصول كتابي إليك؛ لما كان يُتَصَوَّر لي من ابتهاجك به، وأنسك بقراءته

(١) وإن مَنْ جَمَعَ الله له من خلال الفضل والبر والخير مثل الذي جَمَعَ لك، جدير بزيادة ما يصنع من معروف، وإتمام ما بدأ من جميل ومكرمة.

(٢) لو كان مقدار شوقي إليك هو نفس مقدار نسيانك لصلتي وسُلُوك لي، ما تركت التصوُّن والترفع، وما شربْتُ مرارة استرسالك وتماديك في هجرك، ولكن ملكني الشوق إليك فاحتملتُ قسوتك وشدتك.

(٣) ذكرت يا أخي لي أنك تخاف أن أسأم أو أمل، أو أن تزيد في عملي بالرد على كتبك، ولكنك يجب أن تعلم أنك لم تكن في هذا الكلام عادلاً، وإلا فياني أسألك: هل يسأم الروح جسده؟ أو يسأم الجسد أعضائه التي يحتويها؟ أو تسأم الأعضاء سلامتها؟ أو تسأم السلامة الدوام والاستمرار؟

(٤) لو كنت ظالمًا لي؛ لأن الشغل فيك، والشغل لك، دائم لا ينقطع بالحديث عنك، والتفكير فيك، والحنين والشوق إليك، والاسترسال والإطناب في ذكر محاسنك.

قياسًا غير فاسد على موقع كتابك مني، وجلالته في نفسي، واغترابي به، وسكوني إليه، وسروري به^(١).

فالحمد لله الذي تفضل من ذلك بما هو أهله ووليّه.

وله:

إني - لا أفقدي الله فائدة ودك - لما فقدت ما كنت تطالعني به من كتبك التي كانت مُتزهات بصري، ومَرَاتع لُبِّي، ومَسَارَّ قلبي. وكنت لا تُخليني منها مُبتدئًا أو مُجيبًا. ولا تُخوِّجني إلى التحريك فيها مُسْتَطَبًا أو مُسْتَزِيدًا^(٢) أعملتُ الفكر في ذلك. فقلت: أَجْفَوْ؟ فكيف يجفو مَنْ ليس الجفاء من طبعه؟ أم نَبَوَ؟ فكيف ينبو الشكل عن شكله؟ أم شغل؟ فهلا جعلني من شغله؟ أم علة؟ فكانت أخرى للنادرة بخبره. أم فرط ثقة منه بي؟ فذلك - لعمرى - أشبه به^(٣)؟

فلما كانت هذه الخلّة أثبت في الوهم، وأغلب في الظن، سكنت نفسي إليها، وأت مع سكونها إلا ما عودتها من النعمة بالمكاتبة، والإيناس بخبر السلامة. ولسعيد بن حميد:

ولكنك - والله يتولى عونك - لا تضعف عن حق وإن عَرَضَتْ دونه العلل، ولا يتسهل لك سبيل إلى التقصير وإن سهلها العُذر^(٤).

(١) ولقد كنت شديد الشوق لمعرفة وصول كتابي إليك لِمَا أَتَخَيَّلُهُ من سرورك به كما آتس بكتبك وأغبط بها وأسكنُ إليها.

(٢) لما فقدت رسائلك التي كانت جمالاً لبصري، ومراتع يرتع ويمرح فيها عقلي ولُبِّي، وكنت أجُددُ لا تحرمنيها سواء كنت مبتدئاً بها إليّ، أو مُجيباً بها عليّ.

(٣) فأخذت أسأل نفسي: أذلك منه هجر؟ فكيف يهجر من ليس الهجر من طبعه؟ أم صدود؟ فكيف يصدُّ النظر عن نظيره؟ أم عَمَلٌ يَزَحُّهُ؟ فلم لا يجعلني من هذا العمل؟ أم اعتلال؟ فإنه يكون جديراً بأن يوافيني خبره؟ أم ثقة بعيدة بي؟ وهذا أشبه الأشياء به.

(٤) إنك لا تعجز عن حق، وإن قامت الأسباب دونه، ولا ترى أيّ سبيلٍ سهلاً إلى التقصير والإهمال وإن ساعده العذر وأيّده.

وله إلى محمد بن عيسى:

فأما الوحشة لفراقك، فعلى حسب الأنس بقربك والسرور بمكانك وما وهب الله منك لإخوانك؛ فإنك بحمد الله ممّن لا يدحر عنهم بوده، ولا ينفرد عنهم بنعمه، ويؤثر نفسه عليهم في فائدة، ولا يسلمهم عند ثلّمة، ولا يخليهم من محافظة ورعاية^(١).

ولا أدري، أأدعو لك بدوام الحال التي أنت فيها، فأعق نفسي، وأوثر برّك؟

إلا أنني أسأل الله أن يحسن لك الاختيار، حيث استقرت بك الدار. وتصرّفت بك الحال، وأن يقينا فيك نوائب الأقدار، وحوادث الأيام، بمنّته وطوّله.

ولسعيد بن حنيف:

يا سيد أخيه، ومولى عبده، ونسيج وحده، وقريع زمانه، ومالك قلوب إخوانه -أطال الله بقاءك- وقفت من رقتك- أعزك الله- على ما أذكرني الفراق قبل وقته، وعجل لي الاستيحاش ولم يحن حينه، وهيج -والله- عليّ أحزاناً قد كان مُتقادماً دفيناً يُرجى زواله، فعاد مكيناً يُحذر استفحاله^(٢)،

وأخطر ببالي ذكر أبيات ودّعت بها أخاً فارقنا مُرتحلاً من «طرسوس» إلى «الرملة» وكان كثير الإخوان، فودّعه كل من شيعه من المنادمين بكلام منثور، وشعر مأثور، ونحن -إذ ذاك- أحداث وأتراب، فكتبْتُ إليه:

أبا بكر، لئن صرّفتك عنا تصاريّف الحوادث والدهور^(٣)

(١) لا يدحر عنهم بوده: لا يتعد عنهم به. الثلّمة: الخلل والفرجة.

أما الوحشة والشوق إليك في بعدك، فتساوي الائتناس والسرور في قربك، وأنت من الذين لا يبتعد الإنسان عنهم بمودته أو ينفرد عنهم بنعمة أنعم الله بها عليه، أو يفضل نفسه عليهم في نفع، أو يخلد لهم عند ثغرة أو شدة، أو يتركهم بدون مراعاة وتعهد لهم.

(٢) نسيج وحده: لا نظير له ولا ضرب. مُتقادماً: قديمها. مكيناً: قوياً. استفحاله: تفاقمه.

(٣) لئن صرفتك عنا -يا أبا بكر- حوادث الزمان، وعوارض الدهر.

- لَقَبْلِكَ نحن للشام ارتحلنا وإن كنا أقمنا بالثغور^(١)
 فلم نرحل بأنفسنا، ولكن بمحض الشوق عن مُهَجِ الصُّدُورِ^(٢)
 فَقَدْتُ بِفَقْدِكَ الْوَدَّ الْمُصَفَّى وأخلاقًا تكشف عن بُدُورِ^(٣)
 أَشْيَعُهُ إِلَى سَفَرٍ، كأني أَشْيَعُ وَالِدِي إِلَى الْقُبُورِ^(٤)
 وما وَدَّعْتُهُ إِلَّا وَنَفْسِي تَوَدَّعَنِي بِتَوْدِيعِ السُّرُورِ^(٥)
 ولا أَتْبَعْتُهُ بِاللَّحْظِ إِلَّا رَدَدْتُ اللَّحْظَ عَنْ طَرْفِ حَسِيرِ^(٦)
 أَدْفَعُ عَنْ مُفَارَقَتِهِ جَهْدِي وكيف دفاع مقدور الأمور؟^(٧)
 وكان الشرُّ - قبل اليوم - يومًا فصار اليوم - بَعْدَكَ - كالشهورِ^(٨)
 إذا ما الليل أخلصني محبًّا وأسلمني إلى طَرْفِ سَهْوَورِ^(٩)
 أناجِي فِكْرَةً، أَدْنُو وَتَنَأَى وتنطق - حين أسكتُ - عن ضميري^(١٠)
 تسافرُ، وهي لو صَدَقْتُ مُنَاهَا تَمَنَّتْ صَدَفَ هَذَاكَ الْمَسِيرِ^(١١)

- (١) فَإِنَّا قَدْ ارْتَحَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَإِنْ كُنَّا أَقْمُنَا هُنَاكَ بِالثُّغُورِ، إِلَّا أَنَّهُ ارْتَحَالَ وَابْتَعَادَ عَلَى كُلِّ حَالٍ.
 (٢) فَلَمْ نَرْتَحِلْ بِأَنْفُسِنَا خَالِيَةً خَاوِيَةً مِنَ اللَّوَاعِجِ، وَلَكِنَّا ارْتَحَلْنَا وَمَعَنَا الشُّوْقُ الَّذِي يَمْلَأُ صُدُورَنَا وَمُهَجَنَا وَأَرْوَاحَنَا.
 (٣) وَلَقَدْ حُرْمْتُ - بِحَرَمَانِي إِيَّاكَ - الْوَدَادَ الْخَالِصَ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ، وَمِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، وَفَقَدْتُ أَخْلَاقًا كَأَنَّهَا الْبُدُورُ وَالْأَقْمَارُ صَفَاءً وَضِيَاءً.
 (٤) وَلَقَدْ أَشْيَعُهُ وَأَوْدَعُهُ إِلَى سَفَرٍ عِنْدَمَا يَزْجُلُ عَنِّي، وَكَأَنِّي أَمْضِي بِأَبْوَيَّ إِلَى قَبْرِيهِمَا.
 (٥) وَمَا شَيْعَتُهُ يَوْمًا إِلَّا أَحْسَسْتُ كَأَن نَفْسِي تُودَّعَنِي، أَوْ كَأَن السُّرُورَ يُوَدَّعَنِي وَيَفَارِقُنِي وَيَخْلُفُنِي فِي حَزْنٍ مُتَصِلٍ مُقِيمٍ.
 (٦) حَسِيرٌ: كَلِيلٌ ضَعِيفٌ.
 (٧) وَلَا جَعَلْتُ عَيْنِي تَتَّبَعُهُ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنْهَا، إِلَّا عَادَتْ إِلَيَّ كَلِيلَةً ضَعِيفَةً مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لِفِرَاقِهِ.
 (٨) أَجَاهِدُ لَأَدْفَعُ فِرَاقِي لَهُ؛ لَعَلِّي أَمْنَعُ هَذَا الْفِرَاقَ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْنَعُ الْقَدَرُ الْمَقْدُورُ؟
 (٩) وَلَقَدْ كَانَ الشَّهْرُ - وَأَنْتَ مَعِي - كَأَنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ لَشِدَّةٍ وَجُدِي بِكَ وَرَغْبَتِي فِي مُقَامِكَ مَعِي، فَصَارَ الْيَوْمُ - بَعْدَ فِرَاقِكَ لِي - كَأَنَّهُ شَهْرٌ لَمَّا أَعَانِي مِنْ بُعْدِكَ وَفِرَاقِكَ.
 (١٠) إِذَا وَافَانِي اللَّيْلُ بِمُحِبِّ مَخْلَصٍ، وَسَلَّمَنِي إِلَى عَيْنٍ لَا تَنَامُ.
 (١١) أَخَذْتُ الْأَفْكَارَ تَتَوَارَدُ عَلَيَّ، أَدْنُو مِنْهَا فَتَبْعُدُ عَنِّي، وَأَسْكُتُ فَتَنْطِقُ هِيَ مُعْبِرَةً عَمَّا فِي نَفْسِي وَضَمِيرِي.
 (١٢) تَسَافَرُ إِلَى حَيْثُ أَنْتَ، وَتَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَرَاخَهَا مِنْ هَذَا السَّفَرِ إِلَيْكَ بِعَوْدَتِكَ إِلَيْهَا وَقُرْبِكَ مِنْهَا.

إذا لم أستطع بالدمع حزناً على يوم الفراق، فَمَنْ مُجِيرِي؟^(١)
أَمَّا حَكْمُ قَضَى حَكَمِ افْتِرَاقٍ على جَمْعِ الأَحَبَّةِ، بالقدير؟^(٢)
ولأحمد بن سعد:

ومهما أَنْكَرْتُ على نفسي ثباتاً على عَهْدِكَ، ومُقَاماً على طاعتِكَ، تُحَسِّنُ لي القبيح
من فعلِكَ، وتَتَخَطَّى بي في مقابلة العَتَبِ إلى العَتَبِ، والسُّخْطِ إلى الرِّضَا، وتُقَرِّبُ
عندي من أسباب عُذْرِكَ ما بَعُدَ، وتُوضِّحُ من غامضه ما أَشْكَلَ^(٣).

حتى إذا أَغْنَانِي الإنصافُ مِنْكَ، لم تُبِّ عَنْكَ منزلة الاعتراف التي تقتضيك الصّفح
عن الذنب، فكيف البراءة والعذر؟
فإن كنت مُحِقّاً فالحجة معي، وإن كنت جانيّاً فهذا عذري.

وله:

فكيف صرْتَ تَعَذِّرُ نفسك وَتَعْدِلُنِي؟ وتعفيها وتطالبني؟ وكان الحق عليك في
تعهُدِي، أَوْجَبَ مِنْهُ عَلَيَّ؛ لِفِرَاغِكَ وشغلي، وتمهُّلِكَ وعجلتي، واستقرارِكَ ووقاري.
وأنت تعلم أنني لم أقرأ لك كتاباً إلا هذا الكتاب المشحون بالعتاب، فإن شئت الآن
أن تستعمل المسامحة، فإنما تخص بذلك نفسك، وإن شئت أن تستقصي المحاسبة،
فما أراك تتعدّاهما بالحجة إلى غيرك.

(١) وأبكي فيُساعدني الدمع، فإذا جَمَدَ الدمع، فَمَنْ يساعدي على فراقك؟ وَمَنْ يُعِينِي على بعادك؟

(٢) ألا يُوجد من حكم قاهر يقهرُ حُكْمَ الفراق القاسي الذي شَتَّتَ الأَحَبَّةَ، وَفَرَّقَ الشُّمْلَ؟

(٣) ومهما لُمْتُ نفسي ونهرْتُها لثباتها على ودِّكَ وقد هَجَرْتُها، وإقامتها على طاعتِكَ وقد فَارَقْتُها؟ فإنها تُزَيِّنُ لي
القبيح السيئ من فعلِكَ، وتَتَخَطَّى بي موقف اللوم إلى موقف الرِّضَى، وتُذِنِي أسباب عُذْرِكَ لتكون واضحة
لدي فأنتنع وأؤمن بها، فأنتصف لك، وعندئذ يصير من واجبك أن تصفح وتعفو، ولا أن تغفر الذنب فحسب،
بل أن تعترف بذنبك.

وجملة الأمر عندي بذل العتبي، ووقف نفسي على طاعتك^(١).

ولكاتب:

ووجدتُ استصغارك لعظيم ذنبي أعظم لقدّر تجاوزك عني. ولعمري ما جَلَّ ذنب يُقاسُ إلى فضلك، ولا عَظَمَ جُرْمٌ يضاف إلى صفحك، ويُعوَّل فيه على كرم عفوك وإن كان قد وسَّعه حلمك فأصبح جليله عندك محتقراً، وعظيمه لديك مستصغراً، إنه عندي لفي أقبح صور الذنوب، وأعلى رتب العيوب، غير أنه لولا بوادر السفهاء لم تُعرَف فضائل الحكماء، ولولا ظهور نقص بعض الأتباع لم يَبين جمال الرؤساء، ولولا إمام الملمِّين بالذنب، لبَطَلَ تطوُّل المتطوِّلين بالصفح^(٢).

وإني لأرجو أن يمنحك الله السلامة بطلبك لها، ويُقِيلَكَ العَثَرَاتِ^(٣) بإقالتك أهلها. وما علمت أني وقفت منك على نعمة أتدبرها، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل تتبعها عائدة عقل.

ولآخر:

وفضل ملك الأنعام ألزم من ملك الرِّقِّ، ورق الحرِّ أفخر من رِقِّ العبد، والعبد يُعطيك طاعته طوعاً. وقد حُزَّتْ مني طاعة العبد بنعمتك، وشكر المُعْتَقِ بممتك^(٤).

(١) تعهّدي: رعايتي، وتنفّذ أحوالي. وقاري: تقول: «وَقَرَنْتِي الأسفار» أي صَلَّبْتَنِي وَمَرَنْتَنِي عليها.

إنني أسألك: بأي حقِّ تُقيم المعاذير لنفسك، وتُلقي اللوم عليّ؟ وكيف تخلي نفسك من كل ذنب، وتنسب الذنوب كلّها إليّ؟ وكان الأجدر بك أن ترعاني وتنفّذ أحوالي؛ لأنك تملك فراغاً من الوقت لا أملك أنا شيئاً منه لأشغالي الكثيرة، ولأنك مستقر وأنا على سفر دائم. وإن أردت التسامح فهذا شأنك وخاص بك، وإن شئت المحاسبة حتى نهايتها فهذا حقك وحدك، وخلاصة موقفني منك أن أعمل ما يرضيك، وأقف نفسي على خدمتك. (٢) لولا أخطاء الجهلاء وسقطاتهم ما عرف الناس فضل الحكماء الكرماء، ولولا نقص الأتباع ما عرفوا كمال الرؤساء، ولولا ذنوب المُذنبين ما تطوّل المتطولون وتزيّد القائلون المعلنون لصفحهم وعفوهم.

(٣) يقيلك العثرات: يصفح عنك.

(٤) وفُضِّل تملك الأنعام واحتوائها مع القدرة على الاستبداد بها أَوْجَبُ وألْزَمُ من ملك استرقاق الإنسان لعبوديته، والعبد لا يتمنع عليك ولا يتأبى، وإنما يعطيك طاعته وخضوعه طائعاً مُخْتَاراً. وقد حُزَّتْ مني طاعة العبد بفضلك، وشكر من أعتقه ماله بالأنك وعطاياك.

ولا تزال دواعي الحفاظ تقتضيني الكتاب إليك بما أنطوي عليه لك، فأكتب إليك -إذا كتبت- مُتَعَهِّدًا بالخدمة، وأترك -إذا تركت- إجلالاً ومَهَابَةً.

فإن أنزلت ذلك مني منزلته عندي، جَرِئْتُ على سبيلي فيه، فإن مثلت لي غيره صرْتُ إليه إن شاء الله^(١).

ولسعيد بن حميد:

ولو قُلْتُ: إن الحق مُسْقِطٌ عني عيادتكَ؛ لأنني عليل بعَلَّتِكَ، لصدقني الشاهد العدلُ من ضميرك، والأبْرُّ البادي من حالي لعينك. وأصح الخبر ما حَقَّقَهُ الأثر، وأفضل القول ما كان عليه دليل من الفعل^(٢).

ولكاتب:

وحضرته في مواطن العفو والعقوبة، فرأيتُه لا يتوَحَّى لعفوه إلا من يرجو نُزُوعَهُ عن الذنب، ولا يتجاوز بعقوبته -إذا عاقب- قَدْرَ مبلغ الجُرم، ولا يُؤَاخِذُ بالإساءة من لم يتعمَّدَها، ولا يحرم العائدة من استحقَّها^(٣).

قد شاورته في أمور، فجمع لي العلم والنصيحة، واستعنته على دهري، فجمع لي لُطْفَ المكيدة وبسالة النجدة، واستودعته سرِّي فَوَلَّيَهُ بالحفاظ والأمانة، ووقفته على

(١) الكتاب: الكتابة (مصدر كَتَبَ). مَثَّلْتُ لي غيره: بَيَّنْتُ.

أي إن أسباب الرعاية وتعهد المودة تُوجب عليَّ أن أكتب إليك مُتَعَهِّدًا ومُلتزمًا بخدمتك، أو أن أترك الكتابة إعظامًا لك، واحترامًا وهيبَةً.

(٢) ولو أنني قلت إن العدل يُعفيني من زيارتك وأنت مريض؛ لأنني مريض بذات مرضك، لكان هذا قولاً صادقاً، ولو أَفَقَّ عليه ضميرك، ولا يَدُّ ما ظهر من حالي أمام عينك. وإن أعظم الأخبار صِحَّةً وصدقاً ما حَقَّقَهُ الفعل، وأفضل الكلام ما قام عليه دليل من العمل.

(٣) العائدة: المعروف والصلة.

ولقد شهدته في مواقف العفو وفي مواقف القصاص والعقاب، فوجدته لا يعفو إلا عَمَّنْ يأمل أن يتوب عن الذنوب، ولا تتعدى عقوبته مقدار ما ينبغي للجريمة من عقاب، ولا يعاقب إلا المتعمَّد، ولا يحرم المعروف والخير من كان مستحقاً لهما.

ما أهوى فحط إليه الاجتهاد والمسارة، وعرفته ما أكره فأدبر عنه بالتوقي والهيبة^(١)، ورأيته مضطجاً بالنوائب، صبوراً على الحق الواجب، محافظاً على الحقائق، لازماً لعرى الوثائق. يقف عند الشبهة، ولا يخشى إقدامه قبل التثبت. وأحزم عند المعرفة فلا يخاف بصنعه المتقدم بالحزم، يتغابى عن كثير مما يكره من رأي الإخوان والخلطاء؛ إما إغضاءً من كريم يكره التوقيف على التقصير، وإما مُحاجةً من أريب يكره المكاشفة فلا يعجل إلى العتاب حتى ينظر في مواقع العذر، ولا يلوم اللائمة حتى يبلغ غاية الفحص^(٢).

ورأيت أحب الأمور إليه أوساطها، وأخف الحالات عليه أقصدها، من غير أن يدع الاستكثار من الإحسان بجهد، والتحفظ من الإساءة بمبلغ رأيه، لا غاية لحرصه على اعتقاد الفضل، ولا نهاية لرغبته في مجانية التقصير، لا يستخفه السرور، ولا يُضعفه المكروه، ولا تزدهيه الحاجة، ولا تُمهله الضرورة^(٣)، قد قدر أموره على الصدق، ونزه نفسه عن الكذب، مُعظماً لكل ما يُسدى إليه من الجميل، مجتهداً لنفسه في أداء ما يجب عليه من الشكر، لا يقتصر من المكافأة على السواء دون أن يتجاوزها إلى الإفضال^(٤)، لا يُتبع صنيعته مناً، ولا يلتبس منها عوضاً، ولا يلزم أهلها بها مكافأة

(١) لطف المكيدة: غموضها وخفاؤها، والمكيدة: الخداع، والمكر، والخبث.

لقد استشرته في بعض أمري، فكانت مشورته جميعاً بين العلم والنصح، وطلبت عونه على الدهر، فجمع بين غموض الخداع وبين الشجاعة والتجدة، وأودعته أسراري فكان عليها حفيظاً أميناً، وأطلعته على ما أحب فاجتهد في تحقيقه لي وأسرع في ذلك، وأوضح لي ما أكره فأعرض عنه وخشيه وتهيبه.

(٢) ووجدته ناهضاً أمام المصائب لا ينحني لها، صابراً على أداء الواجب، مُلتزماً بعهده الذي أوثقه بينه وبين أصحابه، إذا وجد شبهة في أمر من الأمور توقف ولم ينفذه، يتظاهر بالغباء والغفلة عما لا يُحب من رأي إخوانه ومخالطيه، شأن الذي لا يود إبراز التقصير والجهر به، حتى لا يعاتب ولا يناقش الأعداء، ولا يلوم حتى يبلغ غاية الغايات في الفحص والبحث.

(٣) أقرب الأمور إلى نفسه الاعتدال والتوسط، وأخفها على قلبه عدم المبالغة إلا في الإحسان والخير، والبعد عن الإساءة. ليس للفضل عنده نهاية، ولا للابتعاد عن التهاون غاية، لا تضعفه المكاره، ولا تقتضيه الضرورات مهلاً أو إبطاءً.

(٤) أقام أموره جميعها على الصدق، يُعظم المعروف، ويجتهد في شكره، لا يقف ثوابه على المعروف بقدر ما يساويه، بل يتعداه إلى الإفضال والزيادة.

ولا شكراً، إنما غايته في الإحسان احتراز الفضل^(١)، واكتساب الحمد، واحتساب الأجر^(٢). قد حطّ التدبير عن التبذير، ورَدَّعَهُ الجور عن التقدير. فهو الذي لا تُجاوزه همّتك في فضل ولا يقصر عنه رأيك في اختبار، بل أعظم الحاجة إليه من إخوانك، وعندهم به أعظم الغنى عنك في نوائب دهرك، وتنقّل الحالات بك^(٣).

قد كفيّناك خبرته، واعتقدنا لك إخاءه وثقته، فالقّه بالطف بشرك، وأحسن قبولك، واخفض له كنفك، وأخلص بينه وبينك مودتك، واسترسل إليه بذات نفسك، واسكن إليه بمكنون سرّك، وأدخله معك في مهمّ أمرك؛ فإنك تبلغ -بيسير خلطته- من معرفة فضله، وكرم إخوانه، وصحة وفائه، ونبل رأيه، ما يُكتفى به دليلاً على كل ما تحب علمه من أمره^(٤).

ولكلثوم بن عمر العتّابي، كتب إلى ريطة عن حفصة ابنته:

إن أول حاجتي إليك أن تتدبّر كتابي إليك تدبّر إنصاف، ثم تجيبيني عنه جواب مُتَبَيَّن؛ فإن أخفى الجور جور الاستماع، وأنفع العدل عدل الجواب، وليس فيما بين هاتين موضع قدم لواحد من الأمرين. وأصل اختلاف العباد في جميع الأمور من علّتين: إمّا جهل بما يدعون، وإما جحد لما يعرفون^(٥). والجاهل بما يدعي أرجى

(١) احتراز الفضل: حيازته.

(٢) احتساب الأجر: ادّخاره عند الله.

(٣) تنقّل الحالات بك: تغيّر ظروف الزمان وأحواله عليك.

(٤) اخفض له كنفك: جانبك، وجناحك.

لقد اختبرناه فأغنيّاك عن اختباره، وضَمَمْنَا لك أُخُوَّتَهُ واطمئنانه. فإذا لقيته فالقّه بأعظم بشرك وابتهاجك، وكن له متواضعاً، وأطلعه على دخيلة نفسك، واطمئن إن أظهرت له خفيّ سرّك وأشركه معك فيما يهَمُّك من الأمور؛ فإنك تستطيع -بالسير القليل من مخالطته- أن تعرف -مما هو عليه من فضل وكرم وإخاء ووفاء وذكاء ونجابة- ما تستطيع الاكتفاء به دليلاً على كل ما تريد علمه عنه.

(٥) أول ما أطلبه إليك أن تفهمني كتابي إليك تفهّم عدل وإنصاف، ثم تجيبيني عنه جواب المتحقّق مما يقول، واعلمي أن أشدّ أنواع الظلم خفاءً ومواربةً هو ظلم الاستماع إلى ما يقال، وخير العدالة عدالة الجواب والردّ. وإن الأصل الأكبر لكل ما نرى من اختلاف بين الناس يرجع لواحد من سببين: الأول أن يجهل الناس ما يدعون، والآخر أن ينكروا ما يعرفون.

رجعةً من الجاحد لما يعرف. وإن كان لا عذر له في ترك علم ما يجهل، كما لا عذر لأحد في جَحْد ما يعلم. وأنا راضية منك بأبعد العلتين من العذر. بعد أن لا تجحدني أقربهما من اللائمة^(١)؛ فإن الأول يقول:

هبني عذرت أخي في جهل مشكلة فكيف أعذرهُ في جحد معروف؟
ولست أدري - إذا ناضحتُ حجته^(٢) - ما أيُّ حاله أولى بالتعانيف^(٣)؟
أجهلُهُ من جميل كنت أفعله؟ أم جهلُهُ بعد تعريف وتوقيف^(٤)؟
وما اقتصرت^(٥) بك على أدنى حال الإنصاف ألا أكون راجية أن أجذك في أفضلها،
ولكني نهضت إلى الانتصاح من لا يميل - بواضح يُغنيني - عن شبه المعاذير، ولم
أَمَن - مع ذلك - أن تظني أنني إلى مشكلات الأمور مضطرة. ولم أكن لأقدم الوهن،
وأخلف القوة. ومع ذلك فإن من الحق ما يخبي نار اللجاجة، ومنه ما يُذكيها، فأتيتك
من أقرب مأتاك، فلا يكوننَّ ما أفدت به رضاك علةً لمنعه؛ فإن هذه التي انتصَلت^(٦)
علتها قبل اللجاجة والأرا^(٧)، حين ابتدأت في مقارعة^(٨) القطيعة والصلة، ووقفت
بينهما موقف المراهنة^(٩).

ولك - أصلحك الله - طول^(١٠) على العتب وعلى ذل الاعتذار، فلا يطمس ذلك

(١) اللائمة: اللؤم.

(٢) ناضحتُ حجته: دَفَعْتُهَا.

(٣) التعانيف: عَنَفَ فلاناً: لامه بعنف وشدة، وَعَتَبَ عليه.

(٤) توقيف: تَبَيَّنَ.

(٥) على أنني لم أكتفِ بكِ على أقل حالات الإنصاف، لأنني لا آمل أن تكوني في أفضلها، ولكني أنصح لمن لا يسكت عن الاعتذار. وإن بعض الحق ليطفى نار الخصومة وإن بعضه ليزيدها اشتعالاً وتوهجاً.

(٦) انتصَلتُ علتها: خَرَجْتُ.

(٧) الأرا: أَرَى صدره (بالكسر): وَغَرَ، وثبت فيه شيء من الضيق والغيط كأنه تمكن فيه.

(٨) المقارعة: الْمُغَالِبَةُ.

(٩) المراهنة: الْمُخَاطَرَةُ.

(١٠) الطول: القدرة.

نور ما يرد عليك؛ فإنني أعتدُّ عليك خصالاً في كلِّها قد ضربت الأمثال، منها قول «أكثم بن صيفي»: «الجود بالمجهود، منتهى الجود»، وأنت تعلمين أن مجهودي كله كان لك، ومنه قول «النابغة»:

إذا كان مجبولاً على النصيح صاحبي عفا النصيح عما زلَّ من حيث لا يدري^(١)
وما استزدتني نصيحة قط، ولا اتهمتني على غش.
ومنه قول «طرفة»:

ما لي إليك شفيعٌ أستعينُ به إلا رجائي، وإفراديك بالأمل^(٢)
وما استبطأتك في أمر قط، ولا أشرتُ بألمي إلى سواك، فأني مدخل للتهمة مع هذه
الحال؟ وإن أجمع لصفة ما بيننا كقول «الأعشى»:

وما تَفَيَّأتُ في سرور فتَمَّ -إلا بكم- سروري^(٣)
هذه أعيان وسائلي التي نافرتُ إليها عتبك^(٤)، واستعفيت من جحدها علمك^(٥).
فأما ما يأخذه التخلُّق، ويكون مثله على بعض الإخوان من بعض الشبهة من إثارة
الهوى، وتحريّ الموافقة، والصبر على الجفوة، فذاك الذي إن ضرب لي سهم في
إنصافك، فقد ينال ذلك بأقل مما كنت تدعيه.
وأما الغيبة فيما بيني وبينك، فقد أمكنك من ذلك الاعتداد به، ومحاکمتك إلى ما
هو أرجى منه.

(١) إن كان صاحبي مطبوعاً على الإخلاص في نصيحته، فإنني أعفو عما يبدر منه من زلات غير مقصودة ولا متعمدة، فإن إخلاصه يشفع له في ذلك.
(٢) ليس لي من أستعين به على كسب رضاك، إلا الأمل الذي أعلقه عليك، وإلا أنني أفردتك بالأمل والرجاء والأخوة.
(٣) وما أظلني من فرح أو سرور، فتَمَّ لي ذلك الفرح أو السرور إلا بك.
(٤) نافرتُ إليها عتبك: غالبتُ إليها لؤمك فغلبت، سُميت (منافرة)؛ لأنهم كانوا يقولون: «أينا أعز نفراً؟».
(٥) واستعفيت من جحدها علمك: طلبت إلى علمك ألا يُنكرها.

ولكاتب:

واعلم أن الشجر يتفاضل في الثمر، فربَّ شجرة طيبة الحُمل قليلة، وأخرى خبيثة الحُمل كثيرة^(١).

وكذلك العلماء، فلا يمنعك من عالمٍ قلةُ علمه إذا كان نافعاً، ولا يدعُوك إلى عالمٍ كثرةُ علمه إذا كان ضاراً^(٢).

وعليك بحسن الاقتباس، والصبر على الناس، فإنك إن كنت لا تصحب إلا المهذَّبين من أهل العقول، ولم تصبر من الناس على الفضول، عَدِمْتَ الحِلْمَ، ونسيتَ العلم.

واعلم أن في الناس حكمة، ومجالستهم تجلو بعض الظلمة، فاحتملهم على المخالفة وتمويه المصادقة، واقتبس منهم المحاسن، وتَجَافَ عن المساوي^(٣).

واعلم أن الأخلاء ثلاثة أصناف: فرع بائن من أصله، وأصل متّصل بفرعه، وفرع ليس له أصل.

فأما الفرع البائن من أصله: فإخاءٌ بُنيَ على مودة ثم انقضت، فحافظ على ذمام الصحبة.

(١) إن الأشجار يفضل بعضها بعضاً بالثمر والجنى، لا بالحجم والضخامة، وقد تكون الشجرة قليلة الثمر ولكنها طيبة، وقد تكون الأخرى كثيرة الثمر ولكنها رديئة خبيثة.

(٢) ومثل الأشجار العلماء، فقد تجد عالماً قليل العلم، ولكنه ينفع الناس بعلمه، وقد تجد آخر كثير العلم ولكنه يضر الناس بعلمه.

وقد قيل: «ومن العلم ما قتل». وقال شاعر قريباً من هذا:

ترى الفتيانَ كالنخل وما يُدريك بالدخل!

(٣) الاقتباس: الاستفادة من العلم، واقتباس الشاعر أو الناثر هو أن يُضمَّن كلامه آية من القرآن، أو عبارة من الحديث، أو قاعدة من بعض العلوم.

تَجَافَ: تجافى الشيء: لم يلزم مكانه، ومال من جانب إلى جانب.

أَحْسِنُ الاقتباس والأخذ من الآثار أو من العلماء، واصبر على الناس واحتمل مكارههم؛ فإنك إن كنت لا تصادق إلا ذوي العقول الراجحة، ولم تعرف الصبر على من سواهم، فإنك لا تتعلم الحِلْمَ والصبر، بل إنك ستنسى العلم. فخذ الناس على ما هم عليه واحتمل سيئاتهم.

خَلَّ اهتمامك ناحيته وخُذ الحياة كما هيّه

وأما الأصل المتصل بفرعه: فإخاءُ أصله الكرم، وأغصانه الهوى.

وأما الفرع الذي ليس له أصل: فالممّوّه الظاهر الذي ليس له باطن.

ولهذه الصنوف علامات تدلّ عليها هذه الحالات^(١).

ومن الإخوان كالجوهر، منه مُمّوّه مصنوع، وبعضه خالص مطبوع.

فاعرف الرجال بالخبر، كما تَسْبُرُ الجوهر بالبصر^(٢).

واعلم أن ثقات الإخوان بقدر ما يستوجبون من الائتمان؛ فإن ميزان الكرام عادل،

وصاعهم كامل، يُوفيان الحالات فروضها، ويبخسانها حقوقها، فلو بَلَغَت الرجلَ

فوق قِسْطه في الإخاء حُفَّت على ذي الفضل، ولو قَصَّرت بآخر عن الوفاء، أزرَيْتَ

بأهل العدل^(٣).

واعلم أن لأهل الفضل حظوظًا مقسومة، ومنازلَ معلومة، بعضها أشرف من

بعض، ولكل منزلة حَمَاحا لهم الفِعال، فليست تصلح إلا لهم^(٤).

واعلم أن أبناء الكرام بمنزلة سيل الغمام يُنْسَبُونَ إلى الكرم ما لم يَبْلُغْ الخبرُ كما

يُنْسَبُ الغيث إلى المنفعة ما لم يُبدله ضرر، فإذا بُلُوا، حُمِدَ المحمود، وذُمَّ المنكود^(٥).

(١) الأصحاب ثلاثة: فرع منفصل عن أصله وهو الذي قام على ودّ انقضى فحافظ عليه، وأصل متصل بفرعه وهو ما كان أصله الكرم وفروعه المحبة، وفرع ليس له أصل وهو الخداع الظاهر الذي ليس حقيقة تسنده من الداخل.

(٢) إن الإخوان يشبهون الجوهر، منه المغشوش المصنوع، ومنه الطبيعيّ السليم من الغش. فاعرف أصحابك بالاختبار والتجربة، كما تعرف الجوهر بتفحصه والنظر إليه.

(٣) لو أنك وضعت صديقًا في مكان أعلى مما ينبغي له، ظلمت ذوي الفضل، ولو أنزلت آخر عن مكانه الذي يستحقّه، قعدت بآخر عن مكانه المناسب له، وكنت له ظالمًا.

(٤) وإن لدوي الفضل أماكن معروفة يعلو بعضها البعض الآخر، ولكل واحدٍ منهم منزلة ومكانة حفظتها له أعماله وسيرته.

(٥) وإن أبناء الكرام لَيُنْسَبُونَ إلى الكرم ما لم تخبرهم بالتجربة، كما يُنسَبُ السحاب إلى النفع ما لم تُثبت التجربة أنه ضار! فإذا امتحنت أبناء الكرام، فلن تجدهم جميعًا كرامًا، وإنما ستجد فيهم الكريم الطيب فتحمده، والقليل الخير فتذمه.

ولأبي الربيع:

ما إن بَلَوْتُ أَحَدًا إِلَّا رَدَّنِي إِلَيْكَ ابْتِلَاؤُهُ، وَلَا قَفَوْتُ أَثَرًا إِلَّا عَطَفَنِي عَلَيْكَ اقْتِفَاؤُهُ.
ولئن امتحنت سريرة قلبي بالشكر على إحسانك، كما امتحنت عزيمة رأيي بالصبر
على حرمانك، لتَهْجَمَنَّ بك شهود من ظاهر فعال على عيون تبصر بها باطن وفاء.
وإن تحمّلني حفاظك وتلبسني ذمامك، ويشتمل عليّ وفاؤك، وينفعني اليوم ما
أسلفت فيك بالأمس^(١)، أَكُنْ وَكِيلاً لِسَمْعِكَ فِي قَلْبِي، وَأَمِينًا لِعَيْنِكَ عَلَيَّ؛ فَإِنِّي
خفيف المؤونة، لطيف المعونة، لَا قَابِلٌ غُنْمًا^(٢)، وَلَا سَائِلٌ أَكْلًا^(٣)، وَلَا سَاخِطٌ مِنْكَ
منزلة فُوتِيق العامة، ودُوَيْن الخاصة، ما لم تُرْفَعَنِي فَوْقَهَا، وتُوجِبَ لِي ضَعْفَهَا.

ولكاتب:

ما إن يكلفني على معرفته من الثمن إلا الإقرار له بِالْمِنَّ، وله عَلَيَّ الْمِنَّةُ وَالنِّعْمَةُ
وَالطُّوْلُ وَالْحِجَّةُ فِيمَا تَرَكَ وَصَنَعَ وَأَعْطَى وَمَنَعَ.
والله لَقَدْ بَدَّلَ، فَكَانَ بَذْلُهُ طَوِيلًا يُرْبِي عَلَى حَقِّي^(٤)، وَمَنَعَ، فَكَانَ مَنَعُهُ أَدْبًا يَعْطِفُنِي
عَلَى حَظِّي، وَعَاتَبَ، فَكَانَ عِتَابُهُ تَجْدِيدًا لِنَعْمِهِ عِنْدِي، وَتَحْضِيضًا عَلَى تَقْوِيَةِ نَيْتِهِ فِي
نَفْعِي^(٥).

وليوسف بن القاسم بن صبيح إلى محمد بن زياد:

حَفِظَكَ اللَّهُ وَحَاطَكَ، رَأَيْتَكَ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - فِي خَرْجَتِكَ هَذِهِ رَغَبْتَ عَنْ مَوَاصِلَتِنَا
بِكِتَابِكَ، وَإِبْلَاغِنَا طَيْبَ خَبْرِكَ، وَقَطَعْتَنَا قِطْعَ ذِي السَّلْوَةِ أَوْ أَخِي الْمَلَّةِ^(٦)، حَتَّى كَأَنَّكَ

(١) أَسْلَفْتُ فِيكَ بِالْأَمْسِ: قَدَّمْتُ مِنْ خَيْرٍ سَابِقٍ.

(٢) لَا قَابِلٌ غُنْمًا: لَا أَقْبِلُ غَنِيمَةً أَوْ جِزَاءً بِلَا مَشَقَّةٍ أَوْ بَدَلٍ.

(٣) وَلَا سَائِلٌ أَكْلًا: وَلَا أَطْلُبُ ثَمَرًا، أَوْ رِزْقًا وَاسِعًا.

(٤) لَقَدْ أَعْطَى، فَكَانَ عَطَاؤُهُ يَزِيدُ عَلَيَّ مَا أَسْتَحِقُّ.

(٥) وَلَقَدْ مَنَعَ عَنِّي عَطَاءَهُ، فَكَانَ مَنَعُهُ جَذْبًا لِي إِلَى حَظِّي الصَّحِيحِ وَنَصِيبِي الْحَقِّ، وَلَقَدْ عَنَبَ وَلَامَ، فَكَانَ هَذَا
تَجْدِيدًا لِنَعْمَاتِهِ، وَحَثًّا عَلَى زِيَادَةِ عَزْمِهِ فِي نَفْعِي.

(٦) وَهَجَرْتَنَا هَجْرَ الَّذِي سَلَّاتْنَا وَنَسِينَا، أَوِ الَّذِي مَلَّنَا وَسِئِمَ صُحْبَتَنَا.

كنتَ إلى مُفارتنا مشتاقًا، وإلى البُعد عنا تَوَّاقًا، فوقع بُعْدُك بحيث توخَّيتَ من جهتين: إحداهما حلاوة الولاية، والأخرى لذة الراحة.

فإن يكنْ ذلك كما رَجَمْنَاهُ^(١)؛ قاطعناك مُجملين، أو لبسناك على يقين.

وإن يكنْ إِدْلالًا بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك، فليس قدر الهدايا - وإن كثرت - ولا الفوائد - وإن جَلَّتْ - احتمالَ لؤم الإخوان إذا كانت الهدايا إنما تُزَادُ لهم، والفوائد إنما تُنَالُ بهم، والمباهاة بأعراض الدنيا تُؤَثِّرُ بخلطائهم^(٢).

وما أدري ما أقول في اختيارك تَرْكَ المكاتبة المحدثَّة عن الغيب بالأسرار المكتوبة، والرسائل المعلومة، والأمور المفهومة، حتى كأنها محادثة، والحضور - على تنائي الدور، والقلوب بها مشاهدة، وإن كانت الأبدان متباعدة.

ولئن كذب فيك الرجاء، فلقد نَمَّ عن الوفاء، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا يقيم بعده على قطيعة ولا جفاء.

فلا تتوهمَنَّ أنني أردتَ إعتابك لعتابي، ولا إزراءَكَ بكتابي، فإن وصلتَ فمشكور، وإن قطعتَ فمعذور.

وقال الأحوص:

فإنني للمودة ذو حفاظ أواصلُ من يَهْشُ إلى وصالِي
وقال الفضل بن عبد الرحمن الهاشمي:

لستُ أَصْنِي الودَّ مني، فاعلمي مَنْ إذا رَاجَعَهُ حتى اعترض^(٣)
كم سقيم الودَّ قد أبرأته وعرفتُ الداءَ من عِرْقٍ نَبَضَ^(٤)

(١) رَجَمْنَاهُ: ظَنَّنَاهُ.

(٢) وإن تَدَلَّلُوا وَتَبَيَّهُوا علينا بهدياكم، فليستْ قيمة الهدايا وجزاؤها أن يتحمَّلَ من تُهْدَى إليه لؤم الإخوان وكبرياءهم عليه، وهي لم توجد إلا للإخوان والصَّحاب المخالطين.

(٣) لستُ أَصْنِي مودتي وأخلصها لمن إذا تقاطعنا، وأردتُ استرجاع وده تَمَنَّعَ واعترض.

(٤) كم من فاسد الودَّ قد أبرأته وَمَنَعْتُ أن يُنسَبَ الفساد إليه، وعرفت داءه من مشاهدته ورؤية عروقه التي تَبْضُ في جسمه، فإنها عليه شاهدٌ عدل.

وقال آخر:

عجبت لصون الودِّ في مُضَمِّرِ الحَشَا لمن هو - فيما قد بدا لي - واترُ^(١)
ومن طلبي بالود تبلي، ولم يكن ليدرك تبلاً بالمودة ثائرُ^(٢)
ولا بن الدُّمَيْنَةِ:

ولقد منحتك - لو جَزَيْتَ - مودةً وخلائقاً، ليست بذات غوائلِ^(٣)
ولعبد الله بن معاوية:

أُكافِي خليلي ما استقام بوَدِّهِ وأمنحه ودِّي إذا يتجنَّبُ^(٤)
فما الحبُّ إلا من صَفَا لك ودُّهُ ومَنْ هو ذو نُصْحٍ، وأنت مُغَيَّبُ^(٥)
وقال «كثير»:

وقد حفظتُ «سعدى» طريف مودَّتِي ودام على العهدِ الكريمِ تليدُها^(٦)
وقال آخر:

لعمرك ما ودُّ اللسانِ بنافعٍ إذا لم يكن أصلُ المودة في الصدرِ^(٧)
وقال «الأحوص»:

(١) إني لأعجبُ من هذا الذي يدَّعي أنه يحفظ لي الودَّ في حنايا قلبه، وهو - على ما يظهر منه - يترني، ويُعادي، ويترك الثأرَ في نفسي.

(٢) التبلُّ: التَّرة، والعداوة، والحقْد.

(٣) ولقد أعطيتك - لو أنك كنت تجزي على العطاء والإحسان - مودة صافية خالصة من كل شائبة، وأخلاقاً لا تجر وراءها متاعب أو نكبات، أو مصائب.

(٤) إنني أكافئُ صاحبي وأجزيه جزاء حسناً إذا أصفى لي الود وأخلص في إخائه. أما إذا تجنَّبني وهجرني، فإني أهجرُه هَجْراً جميلاً، ولكني - مع هذا - أمنحه مودتي وأُخَوِّتي.

(٥) ليس المُحبُّ إلا من أخلص لك وداده، ومن إذا غيبت حافظ على مودتك، وكان لك - في غيابك - ناصحاً أميناً.

(٦) لقد صانت «سعدى» جديد ودادي، ورعت العهد في قديمه.

(٧) وحقك إن مودة الكلام والألفاظ لا نفع فيها إن لم يكن لها أصلٌ ثابت في القلوب والصدور.

قال شاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ!

وقد ثَبَّتَتْ في الصدر منا مودةً كما ثَبَّتَتْ في الراحتين الأصابع^(١)
وقال آخر:

لا خير في ودٍّ مَنْ تُواصلُهُ وأنت من ودِّهِ على وَجَلٍ^(٢)
وقال آخر:

أيجزُون بالودِّ المضاعفِ مثله؟ فإن الكريم من جزى الودَّ بالودِّ^(٣)
وقال «جميل»:

إن المودة مني غيرُ زائلةٍ عن حالها، فقفي - إن شئتَ - أو سيري^(٤)
وقال «الفضل بن عبد الرحمن الهاشمي»:

فإلَّا تُجازيني بمثل مودتي فما أنا - من حُبِّ - بأول هالكٍ!^(٥)
وقال آخر:

أَنَّى تَوَدُّكُمْ نفسي، وأمنحكم ودِّي، ورُبَّ مُحَبٍّ غير محبوبٍ^(٦)
وقال «الفضل»:

لقد أعطيتكم ممنوعَ ودٍّ وصفوا، لم أكذُرُهُ بِمَنْ^(٧)
وأنشد «ثعلب»:

(١) لقد ثَبَّتَتْ وتوَكَّدَتْ مودتنا، كما ثَبَّتَتْ الأصابع في الكفِّ.

(٢) لا جدوى من صداقة الصديق الذي تكون منه على حذر وعلى خوف دائمين.

(٣) إنهم يقابلون مودتك القوية بمودة قوية مثلها، وإن الرجل الكريم هو من يبادلك مودة بمودة، وإخاءً بإخاءٍ.

(٤) سواء أَقَمَّتْ أم رَحَلَتْ، فإن مودتي ثابتة - كما هي - لا تتحوَّل ولا تزول.

(٥) إن لم تبادليني حُبًّا بحب، ولم تكافئني على إخلاصي بإخلاص مثله، فأني - لا محالة هالك، ولستُ بأول من أهلكه الحب!

(٦) كيف أُحِبُّكم، وأعطيتكم ودادي، وأنتم لا تُعطونني ودًّا مثله، ولا عجب فقد يكون الإنسان محبًّا، ولكنه - في ذات الوقت - لا يكون محبوبًا.

قال شاعر قريبًا من هذا:

ومن المصائب أن تُحِبَّ ومن تُحِبُّ يُحِبُّ غيرك!

(٧) لقد وهبت لكم ودًّا منَعْتُهُ النَّاسَ أَجْمَعِينَ، وأعطيتكم صفاءً لم أفسده بتعبير أو مَنْ.

ولقد بلوَّتْ الناس ثم جبرَّتْهُمْ
وعلمتْ ما فيهم من الأسباب^(١)
فإذا القربة لا تقرب قاطعاً
وإذا المودة أشبك الأنساب^(٢)

وقال آخر:

كم صديق عرفته بصديق
كان أحظى من الصديق العتيق^(٣)
ورفيق صحبته في طريق
صار - بعد الطريق - خير رفيق^(٤)
وقال ابن دريد - فيما روى لنا «المرزباني» عنه -:

قال حكيم: المودة تعاطف القلوب، وائتلاف الأرواح، وحنين النفوس إلى مباتة
السرائر، والاسترواح للمستكنات في الغرائز من وحشة الأشخاص عن تبائن الالتقاء،
وظاهر السرور يكثر التزاور.

قال «بكر بن النطاح»:

بَعَثْتُ إِلَيْكَ نَصَائِحِي وَمُودَتِي - قَبْلَ اللِّقَاءِ - مَشَاهِدَ الْأَرْوَاحِ^(٥)
وقال «الحارث بن خالد»:

ووجدني بالأحبة يوم بأنوا
كوجد الصاد بالماء النقاخ^(٦)
ووجدني دائماً لهم، وعهدي
متين، ما يعود إلى انفساخ^(٧)
وقال آخر:

-
- (١) لقد اختبرتُ الناس وَجَرَّبْتُهُمْ، وعرفت ظاهريهم وباطنهم.
(٢) فوجدت أن القربة لا تجعل قريبك مواصلاً لك مخلصاً لودك، ولكن المودة هي خير الصلات، وأوثق العلاقات.
(٣) كثير من الأصدقاء قد تعرَّفْتُ إليهم عن طريق أصدقاء آخرين، فإذا بهؤلاء الجُدُّ يحتلون من قلبي مكاناً لم يحتله الأقدمون.
(٤) كم من رفقاء صحبتهم في رحلة سفر، فإذا هم - بعد أن كانوا رفقاء طريق - صاروا خير رفقاء وخير أصدقاء لي في الحياة.
(٥) إن روحي قد أرسلتُ إليك - قبل أن ألقاك - النصيح والمودة والإخاء والإخلاص.
(٦) إن شوقي إلى الأحبة يوم ارتحلوا عني، كشوق الظمآن إلى الماء البارد العذب الصافي.
(٧) وإن شوقي إليهم لدائم، وحيي لهم لمقيم، وودادي لهم ثابت لا يعتريه الفساد أبداً.

ثُرى، حُرِّمْتُ كُتُبُ الْأَخْلَاءِ بَيْنَهُمْ أِبْنُ لِي، أُمُ الْقِرطَاسِ أَصْبَحَ غَالِيًّا؟^(١)
فَمَا كَانَ -لَوْ رَاعَيْتَنَا- كَيْفَ حَالُنَا وَقَدْ دَهَمْتَنَا نَكْبَةٌ هِيَ مَا هِيََا^(٢)
فَهَبْكَ عَدُوِي -لَا صَدِيقِي- فَرُبَّمَا رَأَيْتَ الْأَعَادِي يَرْحَمُونَ الْأَعَادِيَا^(٣)
وَقَالَ آخِرُ:

وَتَرْكِي مُوَاسَاةَ الْأَخْلَاءِ بِالَّذِي تَنَالُ يَدِي، ظَلَمْتُ لَهُمْ وَعَقُوقُ^(٤)
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُرَى بِحَالِ اتِّسَاعٍ، وَالصَّدِيقُ مُضِيقُ^(٥)
وَقَالَ أَعْرَابِي فِي وَصْفِ آخِرِ:
لِسَانَهُ سَلِمَ مُوَادِعَ، وَقَلْبُهُ حَرْبُ مَنَازِعِ^(٦).

كُتِبَ «سُوَيْدُ بْنُ مَنَجُوفٍ» إِلَى «مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ»:
فَأَبْلَغُ «مُصْعَبًا» عَنِي رَسُولًا وَهَلْ يُلْفَى النَّصِيحَ بِكُلِّ وَادٍ؟^(٧)
تَعْلَمُ أَنْ أَكْثَرَ مِنْ تَنَاجِي -وَإِنْ ضَحَكُوا إِلَيْكَ- هُمُ الْأَعَادِي^(٨)
وَقَالَ «العَنْبَرِي»:

مَا أَبَالِي إِذَا حَمَلْتُ عَنْ الْإِخْوَانِ نِ ثِقَلِي، وَدِنْتُ بِالْتَّخْفِيفِ^(٩)

-
- (١) لا أدري هل صارت رسائل الإخوان حرامًا عليهم؟ أم غلا ثمن الورق حتى لا يمكن شراؤه؟
(٢) فماذا يقع لو أنك كتبت إلينا، وسألت عن أحوالنا، ولقد أصابتنا -بعدك- مصيبة نكراء عظيمة لا توصف بوصف.
(٣) ولو افترضنا أنك عدو ولا صديق، أفلا ترى أن الأعداء قد يرحم بعضهم بعضًا؟
(٤) إنني لو تركت معاونة الأصحاب بما تملكه يدي وبما أقدر عليه، كنت منكراً لحقوقهم عليّ، ظالمًا لمودتهم، عاقًا لإخائهم.
(٥) وإنني لأخجل من الله تعالى، أن يراني الناس في نعمة وسعة من العيش وصديقي في ضيق وبؤس وإقلال.
(٦) لسانه رطب ناعم جميل، وقلبه حرب مستعرة، ونار مشتعلة.
(٧) رسولًا: رسالة.
(٨) أخبر «مُصْعَبًا» رسالة عني، وإنك لن تجد الناصح الأمين في كل مكان.
(٩) وقل له: إن الأغلب الأعم ممن تخاطبهم، ومن تصاحبهم هم أعداء لك الداء، وإن أكثروا لك الضحك، وأظهروا لك البشر والترحاب.
(٩) لست أبالي إذا أنا قد خففت عن الإخوان أثقالهم ومتاعبي، ولم أشركهم معي في حملها، وأخذت نفسي بمبدأ التخفيف عليهم.

ورفضتُ الكثير من كل شيء وتقنعتُ بالقليل الطفيف^(١)
ورآني الأنام - طُرًّا - بعيني زاهدٍ في وضعهم، والشريف^(٢)
كيف كانت حالي إذا كان لا يع رف ميلي الرجال من تثقيفي؟^(٣)
أنا عبدُ الصديق، ما صدَقَ الو د، وبعضُ الأقسام عبدُ الرغيف^(٤)
قال «أبو العيناء»:

مودة الكريم غراس، وشكر الشريف أحسن لباس^(٥).

وقال شاعر:

تُدلي بودي - إذا لاقيتني - كذبًا وإن أغيب، فأنت الهامزُ اللَّمَزُ^(٦)
وقال آخر:

أعاذلتني، كم من أخ لي أودُّه كريم عليّ، لم يلدني والدُّه^(٧)
إذا ما التقينا لم يُربني وُكده ولكنني مُثْنٍ عليه، وزائدُه^(٨)
وآخر، أصلي في التناسب أصله يياعدني في رأيه، وأباعدُه^(٩)
يودّ لو أنّي فُقدتُ أول فاقِدٍ وأيضا أودّ الودّ أنّي فاقده^(١٠)

(١) ورفضت أن أنال الكثير من أي مطلب أو حاجة، وقنعتُ بالقليل اليسير من كل شيء.

(٢) ورآني الناس جميعًا بعيني زاهدٍ في حقيرهم، وشريفهم، ولا مَطَمَعٍ لي في هذا أو ذاك.

(٣) كيف تكون حالي إذا جهلني الناس ولم يعرفوني، ولم يعرفوا تهذيبي؟

(٤) إنني عبدٌ للصديق وتابع له، وبعض الناس عبدٌ للرغيف.

(٥) مودة الكريم غُرس ينمو ويزكو ويترعّرع، وشكر الرجل الشريف خير لباس يلبسه المرء.

(٦) إذا قابلتني أظهرت لي الودّ والإخاء، وإذا غُبْتُ عنك فإنك تهمزني وتلمزني كثيرًا، وإنك تَغْتَابني وتعييني دائماً.

(٧) لي كثير من الإخوان ذوي المودة، أحباء على قلبي وكرماء، وهم ليسوا إخوة لي من أبي وأمي. والمثل العربي يقول: «رُبَّ أخ لم تلده أم».

(٨) وُكده: - بالضم - فعله، وسعيه.

إذا تقابلنا فما أشك في شيء مما يأتي ويفعل، ولهذا فإنني كثير الثناء عليه والحمد لله.

(٩) وآخر تربطني به صلاتٌ من النَّسب، ولكنه يهجرني ويبعد عني، وأنا كذلك أبعد عنه وأهجره.

(١٠) يودّ لو أنه فُقدني أول ما يفقد من الناس، وأنا كذلك أودّ أعظم الودّ أنني أفقده!

وقال آخر:

إذا كان في صدر ابن عمك إحنةٌ فلا تستثرها، سوف يبدو دفينها^(١)
وقال «طرفة»:

وصاحبٌ قد كنتُ صاحِبُهُ لا تركَ الله له واضحة^(٢)
فكلهم أروغٌ من ثعلبٍ ما أشبهَ الليلة بالبارحة!^(٣)
وقال آخر:

خير الصديق من الصدوق مقالهُ وكذاك شرهم المنون الأكذب^(٤)
فإذا غدوت له تريد نجاهه بالوعد، راغ كما يروغ الثعلب^(٥)
وقال آخر:

احذر مغايظ أقوام ذوي أنفٍ إن المغيظ جهولٌ السيفِ مجنون^(٦)
وقال آخر:

اصحبِ الأخيارَ، وارغب فيهم ربَّ من صاحِبته مثل الجرب^(٧)
وقال «الحسن بن وهب»:

ما أحسنَ العفوَ من القادر لا سيما عن غير ذي ناصر^(٨)

(١) إن كنت تعلم أن في صدر ابن عمك حقدًا وعداوةً، فلا تعمل على إثارة هذا الحقد وتلك العداوة، فإن خفيهما سيبدو يومًا من الأيام.

(٢) الواضحة: الأسنان التي تبدو عند الضحك.

(٣) كلُّ الأصحاب أمكُر من الثعلب، وليس فيهم من خلا من المكر والخداع والمثل يقول: «ما أشبه الليلة بالبارحة» أي إن الليلة الماضية تشبه الليلة الماضية الغابرة.

(٤) خير الأصدقاء الدائم الصدق، القائل الحق، وشرهم المَنان الكذوب.

(٥) هذا الكذوب الذي إن ذهب إليه تستنجزه وعده، راغ منك وفَرَّ وهرَب كما يفعل الثعلب تمامًا.

(٦) احذر غيظ الناس ذوي الحدة والشدة؛ فإن المغيظ يفقد عقله ويكون سيفه مجنونًا لا يعرف متى يُعَمَد، أو متى يُشَهَر؟

(٧) اصحب ذوي الغيرة والمحبة، وارغب دائماً في مودتهم، فقد يكون الكثير من أصحابك من هم مثل داء الجرب الذي يترك في الإنسان بثورًا صغيرًا تبتدى حمراء ومعها حكة شديدة وربما تقيحت.

(٨) ما أجمل أن يعفو القادر وأن يغفر ويصفح، وخصوصًا عمن لا ناصر له ولا معين.

إن كان لي ذَنْبٌ -ولا ذَنْبَ لي- فما له -غيركَ- من غَافِرٍ^(١)
أَعُوذُ بِالوَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا أَنْ يَفْسُدَ الْأَوَّلُ بِالْآخِرِ^(٢)
قال «ابن عباس»:

إن الذباب ليقع على صديقي فيشق عليّ.

وقال «ابن سيرين»: لا تلقَ أخاك بما يكره.

وقال «حبيب بن أبي ثابت»:

ليس من الأخوة أن يُسرَّ الرجل عن أخيه الحديث.

وقال أعرابي:

آخ منيعاً، يكنُ عدوك صريعاً^(٣).

وقال أعرابي آخر:

الصاحب كالرُقعة في الثوب، فليَنظر الرجل بِمَ يُرَقِّعه^(٤)؟

وقال بعض السلف:

شرّ الإخوان من تتكلف له^(٥).

وقال شاعر:

وإن ابن عم المرء -فاعلم- جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح؟^(٦)

- (١) هَبْ أن لي ذنباً -والحقيقة أنه لا ذنب لي- فهل لذني من يُغفره سواك؟ وهل له من يصفح عنه غيرك؟
(٢) إنني أستجيرُ وأستعيذُ بالموَدَّة القائمة بيننا، أن يَفْسُدَ أولُ الصداقة بآخرها، وأن تكون خاتمتها سيئة لا تَرْتَضَى.
(٣) منيعاً: قوياً شديداً عزيزاً. أي: صَاحِب الرجل القويّ الشديد؛ فإن ذلك سَيَصْرَعُ عدوك ويُهْلِكُه.
(٤) إن الصديق يُشبه الرقعة في الثوب، والرقعة تكون أوضح شيء فيه، فليَتَأَمَّل كل إنسان بماذا يُرَقِّع ثوبه، وليعرف كل صديق كيف يختار صديقه.
(٥) شرّ الأصحاب مَنْ لا تستطيع أن تُرْسِلَ نفسك معه على سجيّتها وطبيعتها، ومَنْ يضطرك إلى المصانعة والخداع والتكلف.
(٦) إن ابن عم الإنسان بمثابة الجناح له، وهل يستطيع الصقْر أن ينهض بغير جناح؟ فاحرص على مودته حرص الطائر على جناحه.

وقال بعض السلف:

رَوْحُ العاقل في لقاء الإخوان^(١).

وقال أعرابي:

اعتبر الناس بإخوانهم.

وقال «معن بن أوس»:

ألا مَنْ لِمَوْلَى لا يزال كأنه صَفًا، فيه صَدْعٌ لا يُدَانِيهِ شاغِبٌ^(٢)
يدبُ دِبابُ الغش تحت ضلوعه لأهل الندى من قومه، والعقارب^(٣)
أنشد «ابن الأعرابي»:

يا رَبِّ مَوْلَى حاسِدٍ مِباغِضٍ عليّ ذي ضِغْنٍ، وضِبِّ قارضٍ
له قروء كقروء الحائضِ^(٤)

وقال «أبو دَهْبل الجُمحي»:

واعلمْ بأنِّي لمن عاديتْ مضطغنٌ ضِبًّا، وأنِّي عليك اليومَ محسودٌ^(٥)
وقال كاتب:

عرَّفني وقتك أوافقك فيه خاليًا، لا تزاحمني الألسُنُ فيه على محادثتك، ولا الأعينُ
عن النظر إليك: لأقضي حق المودة، وأخذَ بثأر الشوق^(٦).

(١) الرَّوْحُ: الراحة.

(٢) الصَّفَا: الصخر. صَدْعٌ: شقٌّ. شاغِبٌ: مُهيج للشرِّ: مُكثِر للجلبة واللَّغَطِ المؤدِّين إلى الشرِّ.

مَنْ لصديق لم يزل كأنه صخر به صدع. يخشى القُربَ منه الناسُ جميعًا حتى من كان منهم عَصِيًّا صاحب شرِّ.

(٣) يدبُ ويسري الغش في حنايا ضلوعه للأبرار الكرام من الناس، وتسري نمائمه وأذاه بينهم.

(٤) رَبِّ صديق يكرهني، ويضغن عليّ، فيه غيظ وحقد يقطعان كالأسنان القارضة له عِدَّة كعدة المرأة الحامل التي تحبس للاستبراء حتى تنقضي عدتها فتطهر.

(٥) اعلم بأنني عدوٌّ للذين تعاديتهم، وبأنني أحمل لهم حقدًا وغيظًا، وبأنني محسود على مودتك وإخائك.

(٦) حدد لي وقتًا بعينه أوافيك فيه وحدي، فلا تزاحمني ألسن الناس في حديثك، ولا أعينهم في النظر إليك...
افعل ذلك؛ لأقوم بحق الصداقة، ولأنَّارَ لنفسي من الشوق الذي برَّح بي.

وقال «الأخطل»:

بني أميَّة، إني ناصحٌ لكمُ فلا يَبيتنَ فيكم - آمناً - زُفرٌ^(١)
فلتأخذوه عدوًّا، إن ظاهره وما يُغيَّب من أخلاقه دَعَرٌ^(٢)

وقال «مسكين الدارمي»:

إذا ما خليلٌ خاني وائتمنته فذاك وداعيه، وذاك وداعها^(٣)
رددت عليه ودّه، وتركته مُطلقةً لا يُستطاع رجاءها!^(٤)
وإني امرؤٌ مني الحياء الذي ترى أعيش بأخلاقٍ قليلٍ خداعها^(٥)
وقال «قيس بن الخطيم»:

إذا ضيع الإخوان سرًّا فإنني كَتومٌ لأسرار العشير، أمينٌ^(٦)
يكون له عندي - إذا ما ائتمنته - مكان بسواد الفؤاد مَكِينٌ^(٧)
وقال آخر:

أرى قومًا وجوههم حسانٌ إذا كانت حوائجهم إلينا^(٨)
فإن كانت حوائجنا إليهم تَغَيَّرَ حَسَنُ أوجههم علينا^(٩)
ومنهم مَنْ سيمنع ما لديه ويغضب، حين نمنع ما لدينا^(١٠)

(١) يا بني أميَّة، إني أنصح لكم، فلا يَبِثْ بينكم أسد حتى لا يفترسكم.
(٢) اجعلوه عدوًّا لكم؛ فإن ما ظَهَرَ وما بَطَنَ من أخلاقه، خُبْتُ وشرُّ وفسقٌ وسوءُ خُلُقٍ.
(٣) إن خاني خليل كنتُ ائتمنته، فذلك هو وداعي الأخير له، وقطعٌ للصلة التي بيني وبينه.
(٤) وقد رددتُ على هذا الخائن ودّه، وهجرته وتركته هَجَرَ المَطلقةِ البائنة التي لا رجعة لها.
(٥) وأنا امرؤٌ من طَبِعي الحياء الذي تُشاهدُه عليّ، وإني أحيأ بين الناس بأخلاق لا تعرف الخداع أو المواربة أو النفاق.

(٦) إن ضيع إخواني سري وأذاعوه، فإنني كتومٌ لأسرارهم لا أفشيها ولا أذيعها.
(٧) وإن صديقي له عندي - إن كان أمينًا حافظًا للعهد - مكانٌ بِجَبَّةِ قلبي قويٌّ مَكِينٌ ثابتٌ لا يتزعزع.
(٨) إني أرى أصحابًا تَحَسَّنَ وجوههم إن كانوا في حاجة إلينا.
(٩) وتَغَيَّرَ وجوههم وتَغَيَّرَ إن كنا في حاجة إليهم.
(١٠) ويمنعون ما لديهم وما يملكون، ويغضبون، إذا نحن منعنا عنهم ما لدينا وما نملك.

فإن يك فعلهم سِمَجًا، وفعلِي قبيحًا مثله، فقد استَوَيْنَا! (١)
 قيل لأعرابي: كيف أصبحت؟

قال: أصبحتُ بين حاذق وقاذف، وبين ستوق وزائف (٢).

قال شاعر قديم:

أناجي أخي في كل حق وباطلٍ وأزغمه، حتى يَمَلِّ ملائلي (٣)
 فإن رَامَهُ بالظلم غيري، وجدتني له باذلاً من ذاك نفس مقاتلي (٤)
 فأظلمه جَهدي، وأمنع ظلمه بجهدٍ، ولا أخليه شحمة أكل (٥)
 فإن سيمَ خسفاً أو هواناً، تربدتُ قسائم وجهي، واعترتني أفاكلي (٦)
 وخُضْتُ غمار الموت دون مناله حفاظاً، ولم أَسْلَمْ أخي للمناضل (٧)
 وهذه أبيات تصلح للحفظ لما فيها من شرف اللفظ وحسن الرُوق، وصحة
 المعنى.

وطراز العرب غير طراز المتشبهين بهم، ولعمري، إن حسبية الطبع أكثر ماءً، وأبهى
 نضارةً من مثقف التكلف، والجواهر تشرف بمعادنها، والفروع تزدهي بأصولها،
 والنجوم بأفلاكها، ومن الغي أن يقال: الأفلاك بنجومها (٨).

- (١) فإن تك أعمال هؤلاء الأصدقاء سمجة سيئة، وكانت أعمالي كذلك، فقد صرنا سواءً وأنداداً.
 (٢) أي إنني صرت الآن أحيا بين ضارب بالعصا، ورام بالحجارة، وبين زيف بهرج، وردي مغشوش.
 (٣) إنني أخاطب أخي في كل شيء، حقاً كان ذلك الشيء أم كان باطلاً، وأظل أخاطبه، حتى يتكرهني ويمل
 حديثي.
 (٤) فإن أراد أحدٌ بسوء أو بظلم بذلت له نفسي وكل مَقْتل في جسمي.
 (٥) إنني أظلمه ما وسعني الجهد، ولكنني أَمْنَعُ عنه الظلم ما وسعني الجهد أيضاً، ولا أرضى أن يغتصب أحد منه
 تلك القطعة اللينة التي يعلّق بها القُرط من أذنه.
 (٦) فإن أولاه أحد هواناً أو إذلالاً، فإن وجهي يتغير، وإن فرائصي ترتعد.
 (٧) وإني لأخوض الأحوال، وميادين الموت من أجله ومن أجل تحقيق آماله ولا أَسْلَمُ لعدوه الذي يناضله أبداً.
 (٨) وللعرب طراز وتَمَطَّ خاصٌ بهم، لا يشبههم فيه أحد. والحق أن الطبع لخير من التطنع وإن الفروع لتفخر
 بأصولها، وإن النجوم بمداراتها التي نشأت بها وعاشت فيها.

قال «عبد الله بن طاهر»:

طلبت أخاً معضاً صحيحاً مسلماً نقيّاً من الآفات في كل موسم^(١)
لأمنحه ودي، فلم أجد الذي طلبتُ، ومن لي بالصحيح المسلم؟^(٢)
فلما بدا لي أنني غير مُبتلى من الناس، إلا بالمريض المسقم^(٣)
صبرتُ، ومن يصبر يجد غبَّ ضره ألدَّ وأشهى من جنَى النحل في الفم^(٤)
ومن لم يطب نفساً ويستبقِ صاحباً ويغفر لأهل الودِّ، يضرِّم ويضرِّم^(٥)

تفقد هذا النحت، لهذا المحدث من ذلك الأعرابي المحت^(٦)، فإنك تجد بين الديباختين -بالحسن الصحيح- فرقاً يشهد لك بتقدم الدعوي^(٧) على الصريح^(٨).

قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة، وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة، يسهل انتساخها وقراءتها، فمأجت بشجون الحديث وروادف من الطيب والخبيث.

فاقبل -حاطك الله- هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويته. على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها، يكثر في نفسك، وما يصغر منها بنقدك، يكبر بعقلك.

(١) لقد طلبت صديقاً خالصاً من العيوب سليماً من النقائص، بريئاً من العلل والآفات.
(٢) لكي أعطيه مودتي وصداقتي، فلم أجده، فمن لي به؟ ومن يدلني عليه؟
(٣) قلما بينت أنني غير ممتحن إلا بالمرضى ذوي السقام والأدواء من الناس.
(٤) صبرت، والصابر سيجد عاقبة صبره لذيذة شهية أحلى من الشهد.
(٥) من لم ترض نفسه عن الناس كما هم، وعن الحياة كما هي، فإنه سيقطع كل صلة بالناس وسيقطع الناس كل صلة به.

(٦) الأعرابي المحت: الخالص.

(٧) الدعوي: المتهم في نسبه.

(٨) الصريح: الخالص النسب.

والله أسال خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مُفضيةً إلى كرامة؛ فقد بلغت شمسي رأس الحائط.

والله أستعين على كل ما همّ النفس، ووَزَعَ الفكر، وأدنى من الوسواس، إنه نعم المعين على أمور الدنيا والدين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلواته على نبيه المصطفى «محمد» وآله الطيبين الطاهرين أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

